محمد شريف الشيباني



في الدراسات الإستشراقية المنصفة

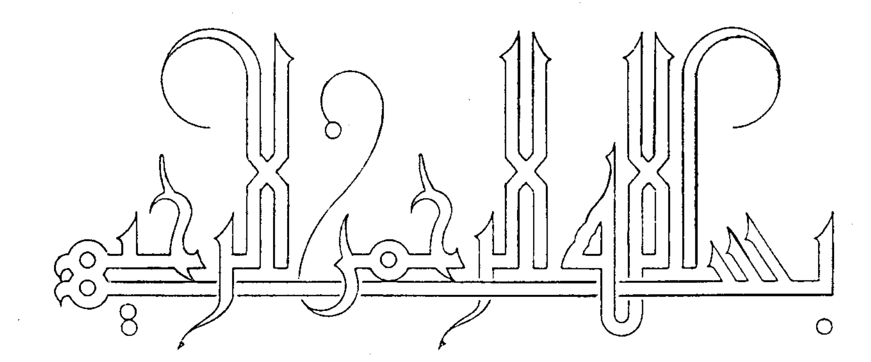


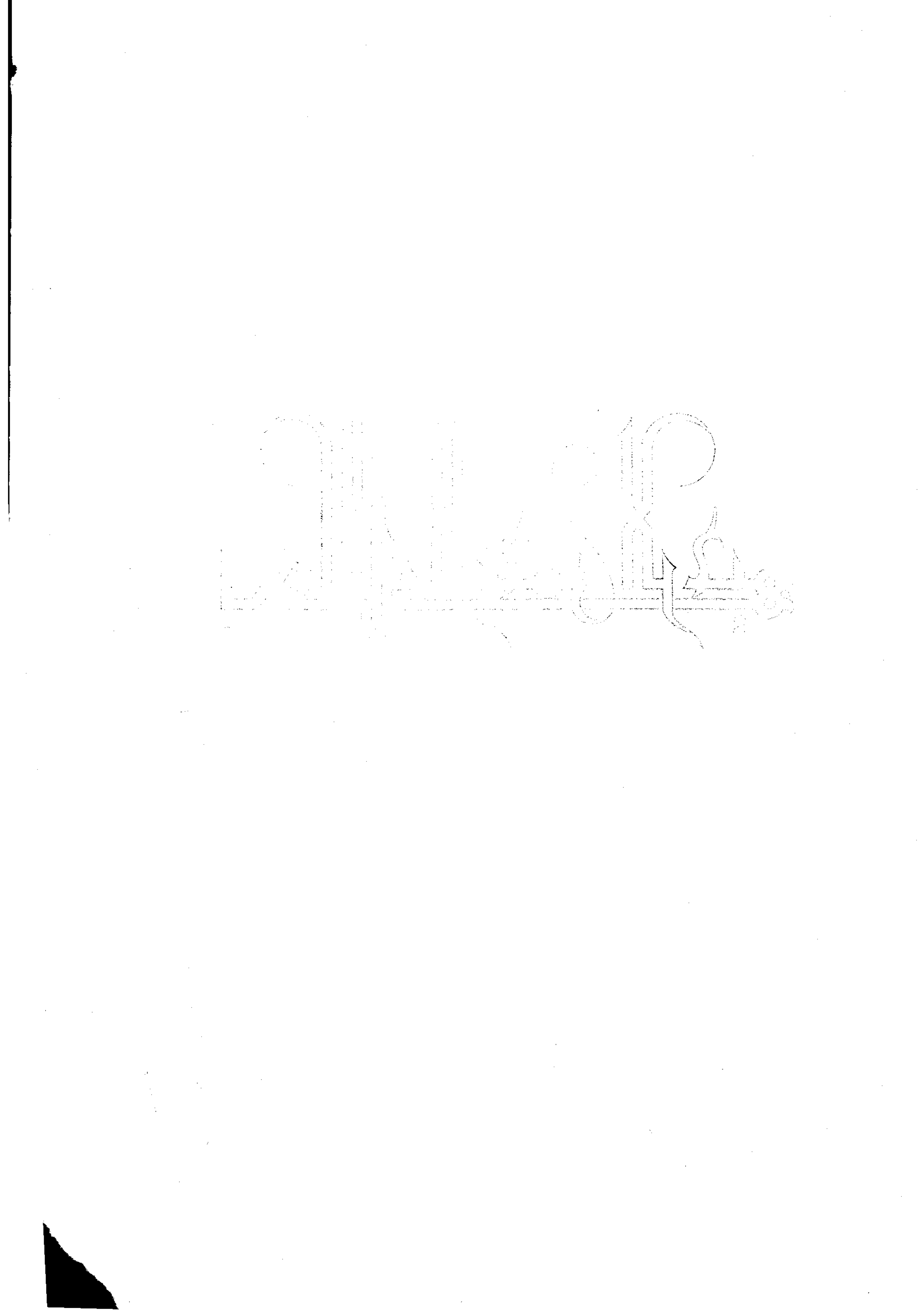


في الدراسات الإستشراقيّة المنصفة

دار الحضارة العربية - بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م






بسم الله الرحمن الرحيم
وما ارسلناك الا رحمة للعالمين
صدق الله العظيم



الاستشراق والإسلام

إن العلاقة ما بين الاستشراق ـ كحركة فكرية ـ والإسلام كعقيدة وشريعة وتاريخ وحضارة وعالم إسلامي، وثيقة الصلة باحتكاك الغرب بالشرق، وأوروبة بالعالم الإسلامي...

وإذا كنا قد اخترنا مبحث الاستشراق والإسلام كمدخل لدراستنا الدائرة حول الرسول والرسالة في الاستشراق الغربي وبالتحديد المنصف منه، نرى لزاماً علينا أن نحدد النشأة التاريخية لحركة الاستشراق عموماً، وموقفه من قضايا العروبة والإسلام خصوصاً.

يقول رودي بارت في كتابه: الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية:

«الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي»[١].

وانطلاقاً من هذا التعريف، فإن كلمة «مستشرق» بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله «أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه»[٢].

---

(١) رودي بارت: الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية ص ١١. ترجمة د. مصطفى ماهر.

(٢) د. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ص١٨.

ولكن إن كان المعنى العام لمصطلحي «الاستشراق» «ومستشرق» يرتبط جغرافياً بكل ما هو شرقي انطلاقاً من الشرق الأقصى فالأوسط فالأدنى فشمالي افريقية، فغالباً ما ارتبط هذا المفهوم بالشرق العربي الإسلامي، وبمعنى آخر بالعالم الإسلامي...

بداية الاستشراق

ليس ثمة تحديد دقيق لبدء تاريخ الاستشراق، فهناك أكثر من اجتهاد ورأي، ولكن من الثابت أن هذا العلم ترعرع في أحضان الكنيسة إبان سيطرة الطبقة الأكليركية الكهنوتية وهيمنتها على الحياة الفكرية والدينية في أوروبة القروسطية..

يقول الباحث إدوارد سعيد في كتابه البارز «الاستشراق» متحدثاً عن بداية الحركة الاستشراقية ما يلي:

«الاستشراق، بتحديد دقيق، ميدان من ميادين الدراسة المتفقهة. وفي الغرب المسيحي يؤرخ لبدء وجود الاستشراق الرسمي بصدور قرار مجمع فينا الكنسي عام ١٣١٢ بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في «العربية، واليونانية، والعبرية، والسريانية في جامعات باريس، وأكسفورد، وبولونية، وأفينيون، وسلامانكة». غير أن أي مسرد للاستشراق ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار لا المستشرق المحترف وعمله فحسب، بل كذلك المفهوم ذاته لوجود ميدان من ميادين الدراسة قائم على وحدة جغرافية، وثقافية، ولغوية، وعرقية اسمها الشرق»[٣].

---

(٣) إدوارد سعيد: الاستشراق: المعرفة، السلطة، الانشاء. ص ٨٠. (ترجمة: كمال أبو ديب).

ولم تلبث الدراسات الاستشراقية الكنسية المنشأ أن غدت بعد حين أكاديمية تدرس في الغرب كفرع من فروع الدراسات الجامعية، ويتابع الباحث إدوارد سعيد تطور الحركة الاستشراقية بقوله:

«وقد كان المستشرقون، بشكل عام، حتى منتصف القرن الثامن عشر باحثين في التوراة، أو دارسين للغات السامية، أو مختصين بالإسلام، أو مختصين بالصين ــ إذ أن الآباء اليسوعيين (الجزويت) كانوا قد فتحوا أبواب الدراسة الجديدة للصين. ولم يكن مدى آسيا المركزي الفسيح قد فتح، جامعياً أمام الاستشراق إلى أن استطاع انكتيل ــ دوبّرون وسير وليم جونز، في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، أن يجلو للفهم الثراء العجيب للأفيسية ــ والسنسكريتية. ومع منتصف القرن التاسع عشر، كان الاستشراق قد أصبح مكتنزاً علمياً من الاتساع بقدر ما يستطيع المرء أن يتخيّل. وعلى هذه الانتقائية الجديدة الظافرة، ثمة مؤشران ممتازان: أولهما، هو الوصف الموسوعي للاستشراق من حوالي ١٧٦٥ إلى ١٨٥٠ الذي قدمه ريمون شفاب في كتابه النهضة الشرقية. وبغض النظر تماماً عن الاكتشاف العلمي للأشياء الشرقية على أيدي المحترفين المتفقهين أثناء هذه المرحلة في أوروبة، كان ثمة الجائحة الشرقية التي تركت أثرها على كل شاعر، وكاتب مقالة، وفيلسوف كبير في هذه المرحلة. وكان مفهوم شفاب أن كلمة «شرقي» تحدّد هوية حماسة هاوية أو محترفة لكل ما هو آسيوي، وكان الآسيوي مرادفاً رائعاً للغريب المدهش، والمجهول السرّي، والعميق والإخصابي، وذلك نقل باتجاه الشرق، متأخر، لحماسة مشابهة

في أوروبة خلال عصر النهضة الرفيع للغابر اليوناني واللاتيني. وقد عبر فيكتور هوغو عام ١٨٥٩ عن هذا التغير في الاتجاه كما يلي: «في عهد لويس الرابع عشر كان المرء هيليني التعرف، أما الآن فإن المرء استشراقيّة». ولذلك كان مستشرق القرن التاسع عشر إما باحثاً مختصاً (بالصين، أو بالإسلام، أو بالدراسات الهند ـ أوروبية)، أو متحمساً موهوباً (مثل هوغو في «الشرقيون»، وغوته في الديوان الغربي الشرقي) أو كلا هذين (مثل ريتشارد بيرتُن، إدوارد لين، فردرك شليغل»[٤].

وإذا ما انتقلنا من المعنى العام للاستشراق إلى المعنى الخاص، أي فيما يتعلق بدراسة علاقة الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي، ـ كقطبي صراع ـ يربط عدد من الباحثين الغربيين نشأة الاستشراق بالعلاقة الصراعية الضدية، التي حثت الباحثين اللاهوتيين الغربيين إلى الاهتمام بالإسلام بسبب انبثاقه وانطلاقته الجبارة وظهوره كدولة عظمى وحضارة كبرى، أخذت تهدد الغرب المسيحي الغارق في غياهب الجهل والتخلف والانحطاط، وظلمات القرون الوسطى...

ويتناول الباحث المصري الدكتور محمود حمدي زقزوق في كتابه «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري»، بدايات الحركة الاستشراقية، بقوله:

«ليس هناك اتفاق على فترة زمنية معينة لبداية الاستشراق. فبعض الباحثين يذهب إلى القول بأن البدايات الأولى للاستشراق ترجع إلى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي،

---

(٤) المصدر السابق، ص ٨١.

بينما يرى (رودي بارت Rudi Paret) أن بدايات الدراسات الإسلامية والعربية في أوروبة تعود إلى القرن الثاني عشر الذي تمت فيه لأول مرة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، كما ظهر أيضاً في القرن نفسه أول قاموس لاتيني عربي. وما ذهب إليه بارت في هذا الصدد سبق أن عبر عنه كتاب المستشرق جوستاف دوجا: «تاريخ المستشرقين في أوروبة من القرن الثاني عشر حتى القرن التاسع عشر» الذي صدر في باريس في نهاية الستينات من القرن الماضي».

وهناك من الباحثين من يجعل بداية الاستشراق قبل ذلك بقرنين، أي في القرن العاشر الميلادي. ولعل هذا هو السبب الذي أدى بـ (نجيب العقيقي) إلى أن يجعل كتابه عن المستشرقين ــ في أجزائه الثلاثة سجلاً للاستشراق على مدى ألف عام، بدءاً من الراهب الفرنسي جربر دي أورالياك (٩٤٠ ــ ١٠٠٣م) الذي قصد الأندلس، وتتلمذ على أساتذتها في إشبيلية وقرطبة حتى أصبح أوسع علماء عصره في أوروبة ثقافة بالعربية والرياضيات والفلك، ثم تقلد فيما بعد منصب البابوية في روما باسم سلفستر الثاني (٩٩٩ ــ ١٠٠٣)»(٥).

ومن ثم يخلص الباحث إلى دراسة تاريخ ظهور مصطلح «مستشرق»، وإدراجه في المعجمات الأوروبية، بقوله:

---

(٥) د. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص ١٩ ــ ٢٠.

«وعلى الرغم من أن الاستشراق ــ بناء على ذلك ــ يمتد بجذوره إلى ما يقرب من ألف عام مضت فإن مفهوم «مستشرق» Orientalist لم يظهر في أوروبة إلا في نهاية القرن الثامن عشر. فقد ظهر أولاً في إنجلترة عام ١٧٧٩ وفي فرنسة عام ١٧٩٩م، وأدرج مفهوم «الاستشراق» Orientalism في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨م»(٦).

أوروبة المسيحية والشرق الإسلامي

إن دراسة التطور اللاحق للحركة الاستشراقية لا يمكن البتة أن تفصم عن طبيعة المشاعر السائدة في أوروبة المسيحية ومواقفها من الشرق الإسلامي، الذي شرع يشكل تهديداً واقعياً لها.. فكان طبيعياً أن تتشكل الاتجاهات المعادية للإسلام، وأن تصطبغ الحركة الاستشراقية بطابع العداء، ويطبع موقفها من الشرق الإسلامي بالانفعالية المفرطة بالكراهية والحقد..

ذلك لأن مولد النور الإسلامي لم يحدث انقلاباً جذرياً في الجزيرة العربية فحسب، بل كان منعطفاً تاريخياً في المسيرة الحضارية لتلك المنطقة، ولم يلبث أن أخذ سبيله على الصعيد العالمي كمرحلة هامة في تاريخ الفكر والحضارة الإنسانية تأكيداً لعالمية الرسالة. فكان بدهياً أن تشكل اندفاعة الإسلام وانتشاره العظيم خطراً جديداً على أوروبة المسيحية الغارقة في قرونها الوسطى...

فالفتوحات الإسلامية حررت الأقاليم العربية لبلاد الشام من

---

(٦) المصدر السابق، ص ٢٠ ــ ٢١.

الهيمنة البيزنطية ، وأنهت إلى الأبد الحكم الروماني لشمالي إفريقية ، وبلغت موجات الفتح إسبانية وجنوب إيطالية ، يقول الباحث هشام جعيط في مؤلفه « أوروبة والإسلام » :

« إن الغرب المسيحي قد أصيب بجسده ونفسه خلال القرنين الثامن والعاشر بآخر امتدادات الفتح العربي . هذا العالم المهدّد الذي لم يعرف الراحة منذ قرون ، لم تطله الموجة الإسلامية إلا على هوامشه : إسبانية ، جنوب إيطالية ، والغال الجنوبي . طبعاً في الفترة الأولى لم يكن بإمكانه أن يقارن هذه البعثات المتواصلة لدولة منظمة وملكية إلا بتلك الغزوات البربرية والفوضوية التي كان هدفاً لها . وحتى اليوم مازال الالتباس قائماً في الأذهان ، وهذا يفسر لماذا يتحدث « مارك بلوش » عن « جحور العرب » ويصنفه فرينيه Freinet « بأنه أشد خطورة من أوكار قطاع الطرق » .

من هذه التجربة الأصلية للعدوان العربي سيستمد الوعي الغربي القروسطي الأسس الانفعالية لتمثّله للإسلام ، ذلك التمثّل المجبول أساساً بالعداوة . ولكن خلال العصور الوسطى العليا لم يستطع الغرب المحصور في آفاق ضيقة ، أن يفرز رؤية متجانسة ومتحققة كفاية عن الإسلام . وحدها إسبانية في القرن التاسع ظنت أنها اكتشفت في محمد شخص المسيح الدجال ، وتركت هذا النمط من التفكير لتعود إليه مع نهاية الوجود الإسلامي في إسبانية »[٧] .

(٧) هشام جعيط : أوروبة والإسلام ص١٨ (ترجمة طلاس عتريسي) .

لقد كان موقف أوروبة المسيحية من الشرق الإسلامي يرتبط بمشاعر الخوف بله الخُواف (الخوف المرضي غير الطبيعي)، ومن هنا جاءت الأحكام جائرة معادية، يقول إدوارد سعيد:

«وإيحائيته للسيطرة بحيث تؤسس تمييزات ظلية الفروق نسبياً لم يكن ليمكن أن تؤسس لو أن جدة الإسلام الخام كانت قد تركت دون أن تعالج. ولذلك فإن الشرق كله يتناوس بين ازدراء الغرب لما هو مألوف، ورعدة المتعة ـــ أو الخوف ـــ التي تتملكه أمام جدة الطارىء.

بيد أنه، فيما يخص الإسلام، كان الشعور بالخوف ـــ إن لم يكن دائماً بالاحترام ـــ الذي أحسته أوروبة، طبيعياً ومسوّغاً. فبعد وفاة محمد عام ٦٣٢م تنامت سيطرة الإسلام العسكرية في البدء، ثم الثقافية والدينية تنامياً هائلاً. وسقطت فارس، وسورية ومصر أولاً، ثم تركية، ثم شمال إفريقية، في أيدي الجيوش الإسلامية. وفي القرنين الثامن والتاسع فُتحت إسبانية، وصقلية، وأجزاء من فرنسة، وبمجيء القرنين الثالث عشر والرابع عشر كان حكم الإسلام قد توغل شرقاً حتى الهند، وأندونيسية، والصين. وفي مواجهة هذا الاجتياح الفائق لم يكن بوسع أوروبة أن تقدم استجابة سوى الخوف والشعور بالرهبة. ولم يكن لدى المؤلفين المسيحيين الذين شهدوا الفتوحات الإسلامية، غير اهتمام ضئيل بعلم المسلمين، وثقافتهم العالية، وجلالهم في كثير من الأحيان، هؤلاء المسلمين الذين كانوا، كما وصفهم غيبون «معاصرين لأكثر الأحداث الأوروبية ظلاماً وخمولاً» إلا أن غيبون أضاف، بشيء من الرضى «منذ ارتقت

خلاصة العلم في الغرب، يبدو أن الدراسات الشرقية ضعفت وانحطت» وكان الشعور النمطي لدى المسيحيين حول الجيوش الشرقية هو أنهم «كان مظهرهم كسرب من النحل، إنما بيد ثقيلة.... فقد خربوا كل شيء» هكذا كتب «أرخمبرت»، الذي كان رجل دين في «مونت كاسينو» في القرن الحادي عشر.

لم يصبح الإسلام رمزاً للرعب، والدمار، والشيطاني وأفواج من البرابرة الممقوتين، بصورة اعتباطية، فبالنسبة لأوروبة، كان الإسلام رجة مأساوية دائمة»[٨].

وعلى ذلك نشأت رؤيتان غربيتان عن الشرق الإسلامي، أولاهما على المستوى الشعبي، والثانية على المستوى الأكاديمي، يقول هشام الجعيِّط:

«هنا يجب الفصل بين رؤيتين: رؤية العالم الشعبي، ورؤية العالم المدرسي Scolestique فالأولى تغذت من الحروب الصليبية، والثانية من المواجهة الإسلامية ــ المسيحية في إسبانية. واحدة انتشرت على المستوى الخيالي، والأخرى على المستوى العقلاني. في الأدب الشعبي كان المسلمون وثنيين، وكان محمد ساحراً وشخصاً فاسداً وزعيم شعبٍ فاسدٍ. وأغنية رولان Roland بدورها تقدم العرب على أنهم وثنيون يخلطون الحماسي بالشاذ. بالمقابل في الرؤية المنقبة هناك معرفة سابقة. يمكننا أن نقول إنه بفضل وثائق كليني Cluny (١١٤٣) وترجمة كيتون Ketton

(٨) إدوارد سعيد: ص ٨٩.

للقرآن تغذى الخلاف المدرسي من النبع. إن بطرس المبجل Pierre le Vénerable. ومارك دي توليد Mare de Tolède، وريكولدو Ricoldo وريمون مارتان Raymund Martin وجاك فيتري Jacques de Vitry ومؤخراً ريمون لول Raymond Lulle ونيكولا دي كوي Nicolas de Cues كانوا على علم تام بالجسم العقائدي للإسلام. ودون شك يجب التمييز بين الخلاف الموجه ضد الإسلام وتأثير الفلسفة الإسلامية على المدرسيين الكبار، لكن بأي مقدار لا يشكل الخلاف دفاعاً، والمثقفون المجادلون أشخاص مفتوحون على العالم الخارجي، يتحملون بشكل سيىء إقليميتهم؟.. إن القديس برنار كان أكثر انغلاقاً من بطرس المبجل Pierre Le Venerable. إن الغطرسة، والنوايا السيئة لا تنفي الفائدة حتى ولا الاندهاش»[٩].

ومن خلال هاتين الرؤيتين عن الشرق، تبلورت رؤية الاستشراق، يتابع الباحث قوله:

«هناك إذن رؤية فكرية قد تهيأت في القرن الثاني عشر، ثم توسعت وتدفقت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر لتمتد حتى القرن الثامن عشر، وحتى العصر الاستعماري. هذه الرؤية تنطلق من عداء واسع للنبي الذي بـ «نبوته الكاذبة» قد أوقف تطور الإنسانية باتجاه المسيحية.

وإذا كان النبي كاذباً ومنافقاً فلا يعود الشك مسموحاً لرجال عديدين أمثال ريمون مارتن، وريكولدو، ومارك دي

(٩) هشام جعيط: أوروبة والإسلام، ص ١٩.

تولاد، ورروجيه باكون وتصبح رسالته رسالة إنسانية نصت عليها مشاريع المصالح السوداء الدنيوية والشخصية، والقرآن ليس سوى مجموعة من الخرافات مستعارة من التوراة وبشكل مشوه.

إن جريمة النبي لا تكمن فقط في استغلاله سذاجة الجماعات، بل لأنه قدّم إيضاً خلال حياته المثل على الحسوية (مبدأ قائل بأن جميع الأفكار ناشئة عن الإحساسات)، وعلى العنف والخلود، تلك الصفات التي طَبَعَ بها كل الشعوب التي اتبعته.

ومهما يكن من مغالاة في هذه الأحكام فإن مصدرها الممكن، غير المنفي في البداية، وهو القبول بالإسلام كجزء من الحقيقة المسيحية. ينبغي فقط البرهان على خطئه من خلال مدافع الكنيسة، وتجريد محمد من ادعائه بالنبوة الحقيقية، وإن كلام الله كان فعلاً كلام الله. كذلك أن يكون الله هو الله — وليس الله البربري والعربي بالنسبة للعلم الحديث تحديداً — وهو لم يتحدث مع محمد»[١٠].

الاستشراق الكنسي والحروب الصليبية

وانطلاقاً من نشأة الاستشراق، تحدد موقفه من الإسلام في تقديم صورة مشوهة عنه، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية المركز الإديولوجي الموجه ضد الإسلام..

ولقد اعترف المستشرق الفرنسي موريس بوكاي الذي بحث في

---

(١٠) المصدر السابق، ص ٢٠ — ٢١.

تاريخ العلاقة مابين الديانتين المسيحية والإسلام، وكان داعية إلى الانفتاح على الإسلام، فقد اعترف بالأثر السيىء الذي تركته الكنيسة الكاثوليكية قديماً إزاء المسلمين، لأن الكثير من الأوروبيين تربوا في ظل روح عدائية صريحة ضد المسلمين، «وهم مبدئياً أعداء لكل تأمل في الإسلام، ولذلك يظلون في جهالة لحقيقة الإسلام، وبالتالي فإن مفاهيمهم عن الإسلام مفاهيم مغلوطة»(١١).

هذا، وأشار الباحث إلى نقطة البدء التي كانت بمثابة مقدمات خاطئة انطلق منها الأوروبيون وصدرت عنها نتائج غير منطقية، بل مغلوطة تماماً وذلك تحت المؤثرات اليهودية والمسيحية التي ترفض أن تعطي القرآن صفة الكتاب المنزل أسوة بالتوراة (العهد القديم) والإنجيل (العهد الجديد).. وفوق هذا فإن الكنيسة الكاثوليكية ترفض أي وحي جاء بعد المسيح وحوارييه، ولذلك استبعدت القرآن ككتاب سماوي منزل، مما ترتب على ذلك أن نظرت إلى الرسول ﷺ ــ في أحسن الحالات ــ كمصلح اجتماعي، وللإسلام كحركة سياسية اجتماعية. وقد كشف موريس بوكاي الأساليب التي اتبعت لفرض الجهل على الأوروبيين فيما يتعلق بحقائق الإسلام بقوله:

«والواقع أننا ملزمون بملاحظة أن المعطيات الخاصة بالإسلام التي ذكرناها مجهولة عموماً في بلادنا الغربية، ولا يدهشنا ذلك إذا تذكرنا الطريقة التي اتبعت في تثقيف الأجيال الكثيرة فيما يتعلق بالقضايا الدينية لدى الإنسان، وكيف فرض عليهم الجهل في كل ما يمس الإسلام، وهكذا فإن

---

(١١) موريس بوكاي: دراسة في الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص٨.

الاستعمال السائد حتى اليوم في التسميات مثل «الدين المحمدي» و «المحمديون» ليدل على الرغبة في أن تظل النفوس مقتنعة بذلك الرأي الخاطىء والقائل بأن تلك معتقدات انتشرت بفضل جهاد رجل، وأنه ليس لله (بالمعنى الذي يدركه المسيحيون) مكان في تلك المعتقدات..؟ ولنضف أن كثيراً من معاصرينا المثقفين يهتمون بالجوانب الفلسفية والاجتماعية والسياسية في الإسلام دون أن يتساءلوا عن التنزيل الإسلامي بصورة خاصة، كما كان يجب عليهم أن يفعلوه. ويرون من البديهيات أن محمداً ﷺ قد اعتمد على ما سبقه وذلك بقصد استبعاد قضية الوحي منذ البدء»[١٢].

لقد تركز العداء على الإسلام ورسول الإسلام، انطلاقاً من اعتباره ــ عليه السلام ــ مهرطقاً، وأن الإسلام هرطقةٌ مخربةٌ، فكان الرفض قاطعاً، يقول الباحث هشام جعيِّط:

«إن الإسلام في الديانة المسيحية التقليدية يعتبر مخرباً وقادماً يدعو العاطفة تحديداً، لأنه يدعي الوقوف على نفس الأرضية مع المسيحية. إن نجاحاته مهما تكن كبيرة فهو ليس سوى قادم جديد. سيىء التسلح، بدائي، ودون إعداد عقائدي، ومع كل الاعتبارات فإنه تبسيطي. إن نجاحاته في العالم ليست دليلاً على صحته، لكنها تحدٍّ للحقيقة وفضيحة إلهية مستمرة، ذلك أن الله في حد ذاته وفي مشاريعه التي لا تخرق، يسلح ويربي وينجح السوء والكذب.

هنا تتدخل رؤية للنفس المسلمة نابعة من نفس شروط

---

(١٢) المصدر السابق، ص ٦.

تطور النبوة الكاذبة . إن سلوك النبي المسلم هو نقيض السلوك السوي القائم على قمع الغرائز . إن الإسلام شهواني ومادي في فكره وفي مفهومه للجنة . إن قوانينه ومؤسساته لم تفعل سوى تطوير هذه الجرثومة القاتلة التي تعيبه من أساسه . إذا كان مفهوم الجنة يبين أننا أمام دين خالٍ من الروحية ، محصور في صورة اللذات المستقبلية وتفوح منه رائحة الوثنية فإن حياة محمد بدورها تبرهن بطلان ذلك . حقيقة يمكننا أن نتساءل إذا لم يكن هوس الجنس الذي شغل كل هذا العالم المثقف الصغير ، قد أثر على ظهور هذا الرعب المندهش أمام الإسلام ، المعتبر كدين للجنس والفسق والهمجية الغريزية »[١٣] .

كان العداء في أوروبة القروسطية عنيفاً ضد رسول الإسلام ، إذ ألصقت به كل صفات الوضاعة الإنسانية من كذب وانتحال وشهوانية ، وصاحب الهرطقة « المحمدية » . هذا وحين يبحث ديربيلو في « المكتبة الشرقية » الجانب العقيدي من الرسول ، يقول :

« هذا هو المنتحل المشهور « ماهومت » ، المؤلّف والمؤسّس لهرطقة اتخذت لها اسم الدين ، نسميها نحن « الماهومتية » . راجع المدخل (الإسلام) وقد نسب مفسرو القرآن وفقهاء الشريعة الإسلامية ، أو الماهومتية إلى هذا النبي المزيف كل المدائح التي نسبها الآريون ، والبولسيون ، أو البوالسة ، والهراطقة الآخرون إلى يسوع المسيح ، مجردين إياه في الوقت نفسه ، من ألوهيته ... »[١٤] .

---

(١٣) هشام جعيط : أوروبة والإسلام ، ص ٢١ .

(١٤) ديربيلو : المكتبة الشرقية ، ج ٢ ، ص ٦٤٨ (نقلاً عن كتاب إدوارد سعيد : الاستشراق ، ص ٩٤) .

نحو الإسلام خاصة . وهنا ، فقط (نعني فيما يتعلق بالإسلام) لا تجد موقف الأوروبي موقف كره في غير مبالاة فحسب ، كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات ، بل هو كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على صدود من التعصب العنيد . وهذا الكره ليس عقلياً فحسب ، ولكنه يصطبغ أيضاً بصبغةٍ عاطفية قوية . قد لا تتقبل أوروبة تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ومبني على التفكير . إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب . حتى أن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام . ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحت في البحث العلمي ، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته ، إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام الذي يحاول إثبات الجريمة ، وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع ، فهو مع اقتناعه شخصياً بإجرام موكله لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شيء من الفتور « اعتبار الأسباب المخففة » . وعلى الجملة فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج التي يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش ، تلك الدواوين التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطى ، أي أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبداً أن نظرت في القرائن التاريخية بتجرد ، ولكنها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل ، قد أملاه عليها تعصبها لرأيها . ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذي يقصدون أن يصلوا إليه مبدئياً . وإذا تعذر

وبلغت روح العداء للرسول والإسلام أن أنزله دانتي في مؤلفه « الكوميدية الإلهية » في الدائرة الثامنة من دوائر الجحيم التسع ، ممن تضم الهراطقة والشهوانيين وأصحاب المطامع الدنيوية ...

إن الفكرة المتسلطة على الغرب والذاهبة إلى أن الأوروبيين هم وحدهم حملة مشاعل الحضارة ورسل التمدن ، وأن الحضارة الإنسانية وليدة أوروبة وحدها ، وكل ما هو خارجها بعيد عنها ، وهو أقرب إلى البربرية ، مما جعلهم ينظرون إلى الشعوب الأخرى نظرة استعلاء أساسها التفوق القومي العنصري ...

إن هذه النزعة العنصرية الموروثة عن الحضارتين اليونانية والرومانية التي كانت ترى أن كل ما هو خارج حدودها موصوم بالبربرية ، ولا سيما بعد أن استطاعت أوروبة الاستعمارية أن تسيطر على أكثر شعوب المعمورة . وليس هذا فحسب بل تميزت نظرة الأوروبيين إلى الإسلام بالاستعلاء مقروناً بالتعصب الأعمى والكراهية المقيتة نتيجة للإرث الفكري الناجم عن شبح الحروب الصليبية المهيمن على عقول مفكري أوروبة وقادتها السياسيين ، والتي لم ينج منها المعنيون بقضايا الشرق ...

فحين يبحث المستشرقون قضايا الأديان يفقدون عفوياً روح الموضوعية والاتزان العقلي ، ويقعون في شراك التعصب ... يقول المستشرق النمسوي « ليوبولد فايس » الذي اعتنق الإسلام ، وتسمى باسم (محمد أسد) . والذي درس آثار الحروب الصليبية وشبحها المهيمن على الأوروبيين عامة والمستشرقين خاصة ، يقول في كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » :

« على أن هذا وحده لا يكفي لإظهار ما يكنه الأوروبيون

عليهم الاختيار العرفي للشهود، عمدوا إلى اقتطاع أقسام من الحقيقة التي شهد بها الشهود الحاضرون ثم فصلوها من المتن. أو تأولوا الشهادات بروح غير علمي من سوء القصد من غير أن ينسبوا قيمة ما إلى عرض القضية من وجهة نظر الجانب الآخر، أي من قبل المسلمين أنفسهم»(١٥).

وفي ظل شبح الحروب الصليبية، والصراع الدائر بين العالمين الإسلامي والمسيحي ظهر النشاط اللاهوتي في الاستشراق، الذي لم يكن له من هدف إلاّ الحرب العدائية ضد الإسلام ونشر الافتراءات والأكاذيب عنه وعن نبي الإسلام. حتى أن بعض الكتاب الغربيين وصفوا هذه المرحلة بـ «عصر الجهالة» لابتعاده عن الروح العلمية الموضوعية، يقول ساذرن:

«على أن الشيء الوحيد الذي يجب أن لا نتوقع وجوده في تلك العصور هو الروح المتحررة الأكاديمية أو البحث الإنساني الذي تميز به الكثير من البحوث التي تناولت الإسلام في المائة السنة الأخيرة»(١٦).

ويرى الباحث ليوبولد فايس أن احتقار الإسلام غدا جزءاً أساسياً من التفكير الأوروبي نتيجة النزعة اللاهوتية التبشيرية المهيمنة عليه، ويخلص إلى القول:

«والواقع أن المستشرقين الأولين في العصور الحديثة كانوا مبشرين

(١٥) ليوبولد فايس (محمد أسد): الإسلام على مفترق الطرق، ص ٤٩ ــ ٥٠.
(١٦) ساذرن: نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى (نقلاً عن كتاب الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص ٢٣).

نصارى يعملون في البلاد الإسلامية، وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها عن تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير في موقف الأوروبيين من «الوثنيين». غير أن هذا الالتواء العقلي قد استمر، مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذا عذر من حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها. أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة، وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلَّفتها الحروب الصليبية، بكل ما لها من ذيول، في عقول الأوروبيين الأولين»[١٧].

هذا، وقد شككت الدراسات التي ظهرت عهد ذاك في صدق الرسول وصحة الرسالة (انظر الفصل اللاحق «صحة الرسالة وصدق الرسول ﷺ»)، وشرعت أقلامها الحاقدة لتشويهها والطعن بها.

وأخذت الحركة الاستشراقية توسع في إطار معرفتها بالشرق فترجم الغربيون إلى لغاتهم العديد من الأعمال، وخاصة الدراسات العلمية والفكرية العربية، اقتناعاً منها بأن العرب يملكون أعظم ثروة فكرية من التراث العالمي القديم، ولكن رغم المثاقفة الفكرية بين الشرق والغرب، ظلت العقلية الغربية متحجرة بعيدة عن الروح العلمية إذ يقول رودي بارت:

«حقيقة أن العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الإسلام، وكانوا يتصلون

---

(١٧) ليوبولد فايس: الإسلام على مفترق الطرق، ص ٥٦ ــ ٥٧.

بها على نطاق واسع، ولكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعاً ما، كانت تصطدم بحكم مسبق يتمثل في أن هذا الدين المعادي للنصرانية لا يمكن أن يكون فيه خير، وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلا لتلك المعلومات التي تتفق مع هذا الرأي المتخذ من قبل، وكانوا يتلقفون بِنَهم كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي وإلى دين الإسلام »[١٨] .

ورغم ما استفاده الغرب من اطلاعه على التراث العربي الإسلامي، نتيجة احتكاكه بالشرق في ظل النزاع الدائر بين الطرفين، ونقله خلاصة التجربة الحضارية الإسلامية إلى لغته ناهيك بالتراث الإنساني (المترجم سابقاً إلى العربية)، لم تقلل أوروبة من كراهيتها للإسلام، يقول ليوبولد فايس (محمد أسد):

« بل كان الأمر على العكس فإن تلك البغضاء قد نمت مع تقدم الزمن ثم استحالت عادة. ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبي كلما ذكرت كلمة « مسلم » ولقد دخلت في الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت في قلب كل أوروبي أرجلاً كان أم امرأة. وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافي. ثم جاء عهد الإصلاح الديني حينما انقسمت أوروبة شيعاً، ووقفت كل شيعة مدججة بسلاحها في وجه كل شيعة أخرى، ولكن العداء للإسلام كان عاماً فيها

(١٨) رودي بارت، ص ٩، ١٠.

كلها . بعدئذ جاء زمن أخذ الشعور الديني فيه يخبو ، ولكن العداء للإسلام استمر »[١٩] .

ولا يخفى أن ارتباط حركة الاستشراق بوسائل التبشير والتنصير قد طبعت العقلية الأوروبية بميسمها حتى غدت الحركة أسيرة ضيق الأفق والتعصب ، وغدا تحامل المستشرقين على الإسلام غريزة موروثة ...

محاولات استشراقية جادة لدراسة الإسلام وفهمه

ومع نهاية القرن التاسع عشر ظهرت داخل الحركة الاستشراقية محاولات جادة لفهم الإسلام اتسمت بالروح الموضوعية المتعاطفة مع رسالته وتعاليمه ، ومنها دراسات نقدية ناقشت التهم التي وجهت سابقاً إلى الرسول محمد ﷺ وإلى الرسالة الإسلامية .. يقول رودونسون :

« ففي عصر التنوير أصبح المسلمون يعتبرون أناساً مثل غيرهم وكثير منهم كانوا يفضلون على الأوروبيين »[٢٠] .

وتقريراً للواقع ، يعتبر القرنان الأخيران التاسع عشر والعشرون عصر ازدهار الحركة الاستشراقية ، وشيئاً فشيئاً أخذ الاستشراق ينفصل عن اللاهوت في عدد من البلدان الأوروبية ، وخاصة منها فرنسة وانكلترة ، وشرع يظهر كعلم مستقل ترافقه نزعة عقلانية متحررة من كل مظاهر التعصب الديني ، مما تمخَّض عن دراسات علمية عميقة ، وبروز رجالات

---

(١٩) ليوبولد فايس : الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٥٦ .
(٢٠) رودونسون : تراث الإسلام ، ج ١ ، ص ٦٨ .

عظام أنصفوا الشرق والإسلام والرسول، لكن القضية البارزة هي أن الإسلام كسب عدداً من المستشرقين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي.

ومن هنا تبلور اتجاهان أساسيان في حركة الاستشراق حافظ أولهما على أصوله العدائية للإسلام، ولرسول الإسلام، انطلاقاً من العداء الديني الأديولوجي والتعصب المتسم بالتشويه والتزوير... وأخذ ثانيهما يتلمس طريق المعرفة الصحيحة، وتفهم روح الدين الإسلامي بشريعته السمحة ورسالته الإنسانية، وبأبعاده الفكرية والاجتماعية الخيرة، ووقف أعلامه موقف الدفاع المشرف عن الرسالة والرسول، مشكلين بذلك التيار المنصف داخل حركة الاستشراق، وليس هذا فحسب، بل وقفوا موقفاً نقدياً من الاتجاه المعادي للإسلام، والمنزلقات الخطيرة التي سلكها الحاقدون عن سابق إصرار وتصميم...

ولم يكن الأمر غريباً أن تظل روح العداء للرسول ولرسالة الإسلام هي الاتجاه السائد للاستشراق، فمع دخول أوروبة عصر الاستعمار والإمبريالية، لعب الاستشراق دوره الاستعماري، كوريث شرعي لفكر الحروب الصليبية التي تركت بصماتها في وجدان الأوروبيين الذين لم يستطيعوا التحرر من أحقاد الماضي، وكان للمصالح الأنانية الاستعمارية الضيقة الأفق، دور في بروز فكرة المركزية الأوروبية، وما عنته من اعتقاد قائم على مقولة التفوق السياسي والحضاري للغرب، وحقه في استعباد الشعوب الأخرى والسيطرة على خيراتها..

ومرة أخرى أخذت العلاقة ما بين الشرق والغرب ترتفع إلى مرحلة الصراع، وكان لهجمة الغرب مع مدافع نابليون أن أيقظت الشرق من كبوته.. فغدا الغرب الذي كان يحتكر الحضارة في الشرق الخصم والمثل

ـــ بينما كان الشرق الإسلامي من وجهة نظر الغرب ـــ يمثل المجال الحيوي للتوسع والهيمنة، وغدا الإسلام بهذا المفهوم عدواً للتحرر ومعادلاً للتخلف والتعصب والانحطاط، بينما رسالة الغرب تقدمية تحريرية نهضوية إنسانية...

بيد أن عصر انتصار أوروبة ـــ وما حفل به من اتجاهات توسعية تجلت آثارها سياسياً وثقافياً ـــ لازمته في الوقت نفسه اتجاهات جادة لدراسة الإسلام وتفهمه بنظرة موضوعية قادت إلى ازدهار الاستشراق وتقدمه، ونجمت طائفة من المستشرقين المنصفين في دراساتهم التي دارت حول الرسول ورسالة الإسلام فقدموا صورة مشرفة للتسامح الإسلامي، كما أنصفوا الحضارة الإسلامية، وأبرزوا دورها التاريخي الكبير في الحضارة الإنسانية، وكان حصاد تلك المرحلة دراسات نقدية تبحث المواقف الاستشراقية المغرضة.. وتعرف كيف تضعها تحت المجهر، معرية تلك الاتجاهات الخطيرة المضللة التي سادت قروناً في الغرب المسيحي، يغذيها شبح الحروب الصليبية التي ما برحت تؤثر في الرأي العام الأوروبي، وخاصة ما تعلق منها بالجانب الديني العقائدي للإسلام، وبيان زيف أهدافها غير النبيلة والدعوة إلى وضع دراسات مكثفة جادة تشرح حقائق الإسلام، وتقدمها لأبناء الغرب على حقيقتها الناصعة دونما تحريف أو تزوير، شأن اللورد هدلي، الذي أوجز فقال:

«لا يزال ثمة حاجة ظاهرة إلى عرض موجز للإسلام، فعلى الرغم من تقدم التفكير العاقل فيما يتعلق بالموضوعات الدينية فإن هناك قدراً محزناً من الجهل لايزال يسود هذه البلاد فيما يتعلق بالدين الإسلامي.

وهذا ناشيء إلى حد كبير من التشويه الذي يقوم به

أولئك الذين يعرفون الإسلام حق المعرفة، ولكنهم يضللون العقل الغربي قصداً»(٢١).

ظاهرة إيمان عدد من المستشرقين بالإسلام

ومع تحول أوروبة من المادية القاتلة إلى الروحانية، شهد القرنان التاسع عشر والعشرون إسلام عدد من المستشرقين ورجال الفكر المسيحيين. يقول المستشرق الفرنسي إتيين دينيه الذي اعتنق الإسلام وعرف باسم ناصر الدين:

«إن نفراً من النصارى في مختلف الأقطار الأوروبية دانوا بالإسلام في الأعوام الأخيرة. ويكثر عددهم على مر الأيام. وفي لندن وليفربول جماعات إسلامية ذات شأن حقيقي، منهم فريق من أعيان الإنجليز»(٢٢).

ورأى «أن الذين يعتنقون الإسلام في وقتنا هذا من المسيحيين وغيرهم، إنما هم من الخاصة، سواء كانوا في الهيئات الاجتماعية الأوروبية، أو الأمريكية. كما أن إخلاصهم في ذلك لا شك فيه، لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية»(٢٣).

وتبين له «أنه يوجد في جميع أنحاء أوروبة وأمريكا من اعتنقوا الإسلام. وإذا كان هذا الأمر لايزال قليل الأهمية إذا نظرنا إلى قلة عدد المعتنقين ــ وإن كان عددهم لا بأس به ــ فإنه ذو

---

(٢١) نقلاً عن مجلة الذكرى العدد السابع الدورة الأولى، ص٣٣.

(٢٢) ناصر الدين، الشرق في نظرة الغرب.

(٢٣) أشعة خاصة بنور الإسلام.

أهمية كبرى، نظراً لمركز هؤلاء المعتنقين الذين ينتمون إلى الطبقات الراقية المتعلمة، ونذكر منهم على سبيل المثال (اللورد هيدلي) الإنجليزي، وصديقنا المأسوف عليه المرحوم (كرستيان شرفيس) أحد تلاميذ (أغست كومت)، وأديباً من أدباء فرنسا المعدودين، وفيلسوفاً من فلاسفتها المشهورين»[(٢٤)].

وكان لإسلام دينيه ارتباط بإيمانه بالعقيدة التي تصلح لكل زمان ومكان ولجميع الشعوب والأجناس، يقول في كتابه «أشعة خاصة بنور الإسلام»:

«إن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة في سبيل التفكير، فقد يكون المرء صحيح الإسلام، وفي الوقت نفسه حر التفكير.

«وكما أن الإسلام قد صلح ـ منذ نشأته ـ لجميع الشعوب والأجناس، فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات، وإن تعاليم المعتزلة، ذات القرابة المستترة والصلة الخفية بتعاليم الصوفية، تجد مكاناً رحباً وقبولاً حسناً ورضاءً سهلاً سواء عند العالم الأوروبي، أو عند الزنجي الإفريقي، وهو الذي يصعب على المرء تخليصه من معتقداته الخرافية ومن معبوداته وأصنامه.

«وبينما تجد الإسلام يهيج من نفس الرجل العملي في أسواق لندن، حيث مبدأ القوم (الوقت من ذهب) إذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الروماني.

«وكما يتقبله ـ عن رضا ـ ذلك الشرقي ذو التأملات

---

(٢٤) الحج إلى بيت الله الحرام، لناصر الدين، ترجمة م. توفيق أحمد.

ورب الخيال، إذ يهواه ذلك الغربي الذي أفناه الفن وتملكه الشعر»[٢٥].

ولم يكن إتيين دينيه هو المثال البارز الوحيد بين رجالات الاستشراق، بل هناك الكثير من كبارهم الذين اعتنقوا الإسلام ـــ وقد مرّ ذكرهم في دراستنا هذه ـــ نذكر على سبيل المثال لا الحصر.. الكونت هنري دي كاستري صاحب كتاب «الإسلام خواطر وسوانح» واللورد هيدلي صاحب كتاب «الإسلام» والباحث العالم والفيلسوف الحكيم «رينيه جينو» (الذي عرف باسم الشيخ عبد الواحد يحيى بعد إسلامه) صاحب كتابي «الشرق والغرب» و «أزمة العالم الحديث» و «الدكتور جرينييه»، الذي آمن بالإسلام حين اكتشف التطابق التام ما بين معلومات الآيات القرآنية والعلوم الطبية والصحية والطبيعية في المعارف الحديثة، وكذلك القس دافيد بنجامين كلداني (الذي عرف باسم عبد الأحد داود بعد اعتناقه الإسلام) صاحب كتاب «محمد في الكتاب المقدس»، وليوبولد فايس (الذي شهر باسم محمد أسد) صاحب كتاب «الإسلام على مفترق الطرق»، وأخيراً وليس آخراً الفيلسوف الفرنسي الكبير روجيه غارودي (والذي عرف بعد إسلامه باسم رجاء جارودي) صاحب كتابي «ما يعد به الإسلام» و «حوار الحضارات»..

وإننا إذ نذكر هذه الأسماء من كبار رجالات الفكر الأوروبيين لنجد في المقابل نزعة في أوروبة في توجهها نحو الروحانية والإيمان.. أو حسب قول المستشرق الإنكليزي اللورد هيدلي الذي يعطي الجواب عن

---

(٢٥) أشعة خاصة بنور الإسلام: (نقلاً عن مقدمة محمد رسول الله: إتيين دينيه، ص ١٣).

إيمان بعض الإنكليز وغيرهم من الأوربيين، في مقالة نشرها في مجلته «المجلة الإسلامية» يقول:

«ذلك لأنهم كانوا يلتمسون عقيدة سهلة معقولة عملية في جوهرها، لأننا نتبجح نحن معاشر الإنجليز، بأننا أكثر أهل الأرض تشبثاً بالعمل. عقيدة تكون ملائمة لأحوال الشعوب جميعاً وأعمالهم وعاداتهم. عقيدة دينية صحيحة يقف المخلوق أمام الخالق بدون أن يكون بينهما وسيط»[٢٦].

ولا مشاحة، فإن إيمان المسيحيين الأوروبيين والمستشرقين بالإسلام قديماً وحديثاً برهان عملي على صحة ما ذهبنا إليه من صلاحية الرسالة لكل زمان ومكان لمختلف الشعوب والأجناس، وأنه دين المستقبل الذي تتمخض به الإنسانية جمعاء.

وبكل الأحوال فحركة الاستشراق إذا كسبت إلى صفها عدداً من العلماء البارزين الذين أعلنوا إسلامهم، حين وجدوا في الرسالة ما يحقق حلاً للمعضلة الإنسانية ــ في إطار الأخوة الإسلامية التي تتميز بروح العدالة والمساواة بين الشعوب ــ فيجب ألا يحجب هذا الكسب الكبير عن رؤيتنا الواقع السائد في أوروبة، التي مابرحت حتى اليوم تنوء بإرث الحروب الصليبية، وترى أن الشرق شرق والغرب غرب، كما يجب ألا نضلل فنرى أن الإسلام غدا قاب قوسين أو أدنى لينتشر في أوروبة، وقد حذر الباحث ليوبولد فايس من هذا الوهم، فقال:

«نحن نسمع في المجالس الإسلامية أحياناً تأكيداً مفاده أن عداوة أوروبة للإسلام ــ تلك العداوة التي نشأت من

---

(٢٦) اللورد هيدلي (نقلاً عن كتاب إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص ٣٦١ ــ ٣٦٢).

المنازعات العنيفة في الماضي ـــ قد أخذت تزول شيئاً فشيئاً في أيامنا. حتى إنهم ليزعمون أن أوروبة تبدي دلائل هذا الميل إلى الإسلام بما هو تعاليم دينية واجتماعية. وكثيرون من المسلمين يعتقدون أن هذا الانقلاب الإجماعي في أوروبة أصبح قريباً. هذا الاعتقاد لا يبدو غير معقول لنا نحن الذين نعتقد أن الإسلام وحده من بين جميع النظم الدينية يستطيع أن يثبت ويفوز في وجه الانتقاد الذي لا تحزب فيه. ولقد أخبر الرسول فوق ذلك أن الإسلام سيقبل نهائياً على أنه الدين العام للإنسانية جمعاء. ولكن ليس ثمة ـــ من جهة ثانية ـــ قرينة ما تدل على أن هذا يمكن أن يتحقق في المستقبل القريب. أما فيما يتعلق بالمدنية الغربية فإن هذا ممكن أن يتفق بعد سلسلة من الانقلابات الاجتماعية والعقلية مما يزعزع الغرور الثقافي الحاضر في أوروبة ويبدل العقلية فيها في كل شيء، حتى تستطيع أن تكون مستعدة لأن تتقبل تعليلاً للحياة دينياً»[٢٧].

من أجل ذلك قد يقع المسلمون في تفاؤل خطر خداع فيما لو قالوا إن النفوذ الإسلامي هو الآن في طريقه إلى التغلب على روح أوروبة. إن مثل هذا الاعتقاد ليس في الحقيقة سوى الاعتقاد القديم بظهور المهدي، ولكن وراء قناع يتراءى فيه العقل، فإن هذا الاعتقاد خطر لأنه طيب في النفس سهل عليها، ولأنه يحاول أن يخدعنا عن أن نرى الحقيقة»[٢٨].

هذا، ورغم الواقع السائد اليوم في نظرة الغرب المتعالية إلى

---

(٢٧) ليوبولد فايس: الإسلام على مفترق الطرق، ص٥٨.
(٢٨) المصدر السابق، ص٦٢.

الشرق ، فإننا نعتقد أن حوار الحضارات الذي نادى به العديد من المستشرقين في الغرب ، وعلى رأسهم روجيه غارودي ، سيعزز من دور الإسلام في بناء الحضارة الإنسانية المقبلة ، وسيكون للاستشراق المنصف دوره في مدّ الجسور ما بين الشرق والغرب ، وإقامة الحوار ما بين الإسلام والمسيحية ، ما بين الفكر الإسلامي والاتجاهات الفكرية الغربية بمختلف مشاربها ونزعاتها ، وسيكون لرسالة الإسلام ـــ ذات الهوية العالمية ، والنزعة الإنسانية ـــ دورها في بناء إنسانية المستقبل ....

القسم الأوّل

إضاءات استشراقيّة
على السِيرةِ النبويّةِ



مدخل: **الجزيرة العربية عشية البعثة النبوية.**

الباب الأول: **من مولده ﷺ إلى مبعثه.**

الباب الثاني: **من البعثة إلى الهجرة.**

الباب الثالث: **من الهجرة إلى وفاته ﷺ.**



مَدْخَل

الجزيرة العربية عشية البعثة النبوية

ـ النفوذ السياسي والاقتصادي والروحي لقريش.
ـ مكة ومكانتها في جزيرة العرب.
ـ اللغة العربية ولهجة قريش.
ـ الاتجاهات الفكرية الدينية في جزيرة العرب قبيل البعثة الإسلامية (الجاهلية).
ـ الجاهلية.
ـ الوثنية.
ـ اليهودية والمسيحية في شبه الجزيرة العربية.
ـ الحنيفية في شبه الجزيرة العربية.
ـ الإسلام الحدث الكوني العظيم.

لقد ألهمت شخصية الرسول ﷺ الكثير من الباحثين في الشرق والغرب، فدرسوا سماتها بفيض من المؤلفات التي صورت حياة محمد ﷺ وتناولت جوانب عظمته وعبقريته، وصفة البطولة الملحمية في سيرته التي انضوت في ثناياها سيرة حياة أمة، تجسدت كحقيقة تاريخية ناصعة عبر دعوته التي أحدثت انقلاباً في حياة تلك القبائل العربية المتناحرة فعملقتها أمةً رائدةً أخذت بيد أمم وشعوب في معارج الرقي والتقدم، هادية إياها إلى سبيل النور، ولم تلبث إلا ردحاً قصيراً حتى انقلبت ثورة عالمية معطاءً خيراً وعدالةً ومعرفة.

عظمة أصحاب الرسالات

لا مرية في أن أصحاب الرسالة العظيمة عظماء في ذواتهم، عظماء في سيرتهم، وهم إن ظهروا بمرحلة تاريخية بعينها تركوا بصماتهم ليس في مجتمعاتهم فحسب، بل مدوا ظلهم على التاريخ في مشارق الأرض ومغاربها. وهذا ما حدا بالمستشرقين المنصفين لدراسة شخصية الرسول وتحليل صفاته الخَلْقية والخُلقية، والاهتمام بدوره القيادي في المجتمع كصاحب رسالة سماوية لم تقتصر على العرب وحدهم، بل كانت رسالة عالمية، صالحة لكل زمان ومكان، ولقد جاء في التنزيل العزيز قوله تعالى: ﴿وما أَرْسَلْناكَ إلا كافَّةً للنَّاسِ بَشيراً ونَذيراً﴾ ... و ﴿قُلْ يا أَيُّها الناسُ إني رَسولُ الله إلَيْكُمْ جَميعاً﴾.

إن عظمة الرسول البارزة للعيان، تكمن في أنه كان حامل رسالة سماوية توحيدية، شمولية، تهدف أساساً إلى إصلاح حياة البشرية عامة، ونقلها من البربرية الوثنية إلى الحضارة التوحيدية اليقينية... يقول مؤلف «قصة الحضارة» الباحث الأمريكي وول ديورانت:

«كان محمد ﷺ نبياً كبيراً، وتوحيدياً كاملاً ولم يكن له نظير جاء لإصلاح البشر»[1].

ومنذ نعومة أظفاره ﷺ تبدت فيه علامات النباهة والنبوغ، وظلت مرافقةً إياه في سائر أطوار حياته، ولذا شدت المستشرقين لدراستها، كما سبق أن استوقفت كتاب السيرة النبوية المسلمين الذين بحثوا بالتفصيل علائم النبوة ودلالتها في حياته ــ عليه السلام ــ بدءاً من مولده حتى التحاقه بالرفيق الأعلى، بل ذهب الكثير منهم إلى بحث علامات نبوته، فيما كان يتردد حوله القول بأن أمة العرب سيكون لها نبيها المرتقب، وسيخرج من مكة، وأنه سيكون من قبيلة قريش، وعلى وجه التحديد من أسرة بني هاشم.

ولكن، إن ذهبت الدراسات الإسلامية إلى إضفاء طابع المعجزات على الرسول محمد ﷺ، ووضعت التحولات المقبلة في صلب المجتمع العربي الجاهلي بشبه الجزيرة العربية ضمن إطار دلائل النبوة، فلا مرية أن الجزيرة العربية كانت تمر بمرحلة مخاض تاريخي بالغ الخطورة، سواء ارتبط ذلك الحدث الكوني العظيم بعلائم النبوة، أو كان وليد القوى الداخلية لذلك المجتمع، أو باجتماع هذين العاملين معاً.

الجزيرة العربية والحدث الكوني العظيم

ليس بدعاً إن قلنا إن الجزيرة العربية كانت عهد ذاك مهيأةً لهذا

(١) وول ديورانت: نقلاً عن الإسلام مبدأ وعقيدة ص٤٨.

الانقلاب العظيم، إذ ظهرت المقدمات التاريخية لسقوط وثنيات القبائل المتناحرة، والآلهة الحجرية الصماء، مع قيام الحركة التوحيدية في مكة أم القرى، ملتقى العرب بمختلف قبائلهم عند كعبتها الشريفة، التي يحجون إليها في أشهرهم الحرم.

النفوذ السياسي والاقتصادي والروحي لقريش في مكة

كانت قبيلة قريش التي ينتسب إليها الرسول الكريم، تتميز بين القبائل العربية بنفوذها السياسي والاقتصادي والروحي، فقد توحدت بعد تفرق، وسكنت مكة منذ حوالي مئة سنة قبل انبعاث نور الإسلام بقيادة قصي أحد أجداد النبي محمد ﷺ، الذي أسس دار الندوة التي هي بمثابة مجلس المدينة، والمكان الذي تعقد فيه الاجتماعات للتباحث في الأمور العامة والخاصة التي تهم القبيلة دينياً ودنيوياً، والتشاور بين وجوه مكة في قضايا الحرب والسلم، وبحث الشؤون السياسية والاقتصادية... وكان لتلك القبيلة السيادة الروحية والسياسية والاقتصادية في قلب جزيرة العرب، خاصة ولها سدانة الكعبة، وكانت إلى ذلك فرعين: قريش «البطاح» التي تسكن قلب مكة، وقريش «الظواهر» التي تقطن الضواحي ــ وتضم بهما بطون أمية ونوفل وزهرة ومخزوم وأسد وجمح وسهم وهاشم وتيم وعدي ــ وهي بذلك تؤلف أرستقراطية المدينة، وتهيمن على مختلف الأنشطة اقتصادياً واجتماعياً في أواسط بلاد العرب وغربها، ناهيك عما كان لها من تجارة واسعة مع البلاد المجاورة استدعت عقد اتفاقات مع رؤسائها، إذ كانت القوافل التجارية منظمة، وتسير بين مكة وبلاد الشام واليمن، متبعة طريق التجارة الرئيسي المار بمكة. واكتسبت قريش ــ بفضل تعظيم العرب الكعبة وحجهم إليها ــ فوائد اقتصادية، ونفوذاً روحياً وسياسياً بين القبائل[٢].

---

(٢) الموسوعة الميسرة، ص ١٣٧٨.

الكعبة المشرفة والحجر الأسود وبئر زمزم

وكان لقريش رموز قدسية ثلاثة بقيت في الإسلام، وهي الكعبة المشرفة التي يحج إليها العرب، وتضم الحجر الأسود، وإلى جانبها بئر زمزم.... ويتحدث المفكر الإنكليزي توماس كارليل عن رموزها الدينية والقدسية بقوله:

«والحجر الأسود كان من أهم معبودات العرب ولا يزال للآن بمكة في البناء المسمى «الكعبة»، وقد ذكر المؤرخ الروماني «سيسلاس» الكعبة فقال: إنها كانت في مدته أشرف معابد العالم طراً وأقدمها، وذلك قبل الميلاد بخمسين عاماً، وقال المؤرخ «سلفستر دي ساسي» إن الحجر الأسود ربما كان من رجوم السموات، فإذا صح ذلك فلابد أن إنساناً قد بصر به ساقطاً من الجو، والحجر موجود الآن في جانب البئر «زمزم» والكعبة مبنية فوقهما، والبئر ــ كما تعلمون ــ منظر حيثما كان سارٌ ومفرح، ينبجس من الحجر الأصم كالحياة من الموت، فما بالكم بها إذا كانت تفيض:

بديمومة لاظل في صحصحانها	ولا ماء، لكن قورها الدهر عوّم
ترى الآل فيها يلطم الآل مائجاً	وبارحها المسموم للوجه أُلطم
أظل إذا كافحتها، وكأنني	بوهاجها دون اللثام ملثم

وقد اشتق لها اسمها زمزم من صوت تفجرها وهديرها، والعرب تزعم أنها انبجست تحت أقدام هاجر وإسماعيل فيضاً من الله وشفاءً، وقد قدسها العرب، والحجر الأسود، وما شادوا عليهما الكعبة منذ آلاف السنين. وما أعجب هذه الكعبة وأعجب شأنها، فهي في هذه الآونة قائمة على قواعدها، وعليها الكسوة السوداء، يبلغ ارتفاعها سبعاً وعشرين ذراعاً، حولها دائرة

مزدوجة من العمد، وبها صفوف من المصابيح، وبها نقوش وزخارف عجيبة، وستوقد تلك المصابيح الليلة لتشرق تحت النجوم المشرقة، فنعْمَ أثر الماضي هي، ونعم ميراث الغابر. هذه كعبة المسلمين، ومن أقاصي المشرق إلى أخريات المغرب، ومن دلهي إلى مراكش، تتوجه أبصار العديد المجمهر من عباد الله المصلين شطرها، وتهفو قلوبهم نحوها خمس مرات هذا اليوم وكل يوم. نعم، لهي والله من أجلّ مراكز المعمورة وأشرف أقطابها»[٣].

مكة ومكانتها في جزيرة العرب

مما تقدم نجد أن مكة كانت قبلة العرب، لأن جوانحها تضم الرموز القدسية للعرب، بحكم موقعها التجاري الخطير، ولذا سرعان ما تطورت وغدت الحاضرة العربية الأولى في جزيرة العرب، يقول كارليل:

«وإنما من شرف البئر زمزم وقدسية الحجر الأسود، ومن حج القبائل إلى ذياك المكان، كان منشأ مدينة مكة. ولقد كانت هذه المدينة وقتاً ما ذات بال وشأن، وإن كانت الآن فقدت كثيراً من أهميتها. وموقعها من حيث هي مدينة سيىء جداً. إذ هي واقعة في بطن من الأرض كثير الرمال، وسط هضاب قفرة وتلال مجدبة، على مسافة بعيدة من البحر، ثم يمتارُ لها جميع ذخائرها من جهات أخرى، حتى الخبز. ولكن الذي اضطر إلى إيجاد هذه المدينة هو أن كثيراً من الحجيج كانوا يطلبون المأوى، ثم إن أماكن الحج ما زالت من قديم الزمان تستدعي التجارة، فأول يوم يلتقي فيه الحجيج يلتقي فيه كذلك التجار والباعة. والناس متى وجدوا أنفسهم مجتمعين

---

(٣) توماس كارليل: الأبطال، ص ٦٣ ــ ٦٤.

لغرض من الأغراض رأوا أنه لا بأس عليهم أن يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع وإن لم يكن ذلك في الحسبان ، لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب بأجمعها ، والمركز لكل ما كان من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر بل وبين إيطالية ، وقد بلغ سكانها في حين من الأحيان مائة ألف نسمة بين بائعين ومشترين وموردين لبضائع الشرق والغرب وباعة للمأكولات والغلال ، وكانت حكومتها ضرباً من الجمهورية الأرستقراطية عليها صبغة دينية ، وذلك أنهم كانوا ينتخبون لها عشرة رجال من قبيلة عظمى ، فيكون هؤلاء حكام مكة وحراس الكعبة .

وكانت الكعبة لقريش في عهد محمد ، وأسرة محمد من قبيلة قريش ، وكان سائر الأمة مبدداً في أنحاء تلك الرمال قبائل تفصلها بين الواحدة والأخرى البيد والقفار ، وعلى كل قبيلة أمير أو أمراء ، وربما كان الأمير راعياً أو ناقل أمتعة ، ويكون في الغالب غازياً . وكانت الحرب لا تخمد بين بعض هذه القبائل وبعضها الآخر . ولم يك يؤلف بينهم حلف علني إلا التقاءهم بالكعبة ، حيث كان يجمعهم على اختلاف وثنياتهم مذهب واحد ، هي رابطة الدم واللغة »[٤] .

لغتنا العربية البنت الشرعية للهجة قريش

ولم تقتصر معالم سيادة قريش على الجانبين الاجتماعي والاقتصادي وحسب ، بل كان للهجة قريش سيادتها في معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية . وما اللغة العربية الفصحى ، إلا البنت الشرعية للهجة قريش التي نزل بها

---

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٤ — ٦٥ .

القرآن الكريم، وكانت الأداة «اللغوية» التي وحدت أبناء الجزيرة العربية، وأوصلت رسالة الإسلام إلى مختلف شعوب الأرض.

هذا، ولقد بحثت الدراسات الاستشراقية الحالة الفكرية والواقِعَيْـن السياسي والاجتماعي السائدين في شبه الجزيرة العربية، وانتهوا إلى أن بلاد العرب كانت مقبلة على حدث تاريخي كوني عظيم، سيكون له أثره ليس على صعيد توحيد العرب فقط، بل سيكون له كذلك أثره على مسار حياة الشعوب والأمم.

يقول المستشرق الهولندي رينهارت دوزي (١٨٢٠ ــ ١٨٨٤) مؤلف تاريخ الدول الإسلامية في الأندلس والمغرب، ومدرس اللغة العربية في لايدن، يقول في مؤلفه «عرب إسبانية»:

«كان يوجد على عهد محمد في بلاد العرب ثلاث ديانات: الموسوية والعيسوية والوثنية».

ثم مضى الباحث باسطاً عادات الوثنيين الذميمة حتى انتهى إلى القول:

«في عهد هذه الأحوال الحالكة، ووسط هذا الجيل الشديد الوطأة، ولد محمد بن عبد الله في شهر أغسطس ٢٩ منه عام ٥٧٠، من هذا نرى أن العالم الإنساني كان بحاجة إلى حادث جلل يزعج الناس عمّا كانوا فيه، ويضطرهم إلى النظر والتفكير في أمر الخروج من المأزق الذي تورطوا به»[٥].

وإذا كانت أقطار شبه الجزيرة العربية مقبلة على ذلك الانقلاب

(٥) رينهارت دوزي: عرب إسبانيا.

التاريخي العظيم، والحدث الكوني الذي سيهز العالم، إذ سيولد في قلبها النابض: مدينة مكة، ويحدث في قبيلة قريش نفسها، فلا بد من دراسة الحالة الاجتماعية والسياسية، والدينية السائدة في بلاد العرب قبل الإسلام، ومن تتبع معالم النبوة لدى ذلك الفتى القرشي، في إطار من سيرته الحياتية التي كتب عنها الكثير من الدراسات العربية الإسلامية والاستشراقية الغربية، ومن ثم دراسة مناقب هذا الإنسان العظيم، والرسالة الإسلامية.

شبه الجزيرة العربية قبيل البعثة النبوية

لقد عرفت الفترة السابقة لظهور الإسلام، عند المؤرخين العرب «بالجاهلية»، استناداً للوصف الذي أطلقه القرآن على تلك الحقبة السابقة لدعوة النبي، تدليلاً على ما آلت إليه أحوال شبه الجزيرة العربية من تدهور وانحطاط، إذ ظهر الفساد في البر والبحر.

هذا، ويمكن القول إن الجاهلية لم تكن مقتصرة على العرب وحدهم، بل شملت العالم طراً، إذ خبا شعاع الحضارات القديمة، في اليونان والهند والصين وبلاد ما بين النهرين ومصر، وأخذ التفكك يعتري الإمبراطوريتين العالميتين، وما على رأسيهما من قياصرة وأكاسرة.

ولقد كتب باحث غربي عن الوضع الذي آلت إليه الحضارة الإنسانية قبل ظهور الدعوة الإسلامية بقوله:

«في القرنين الخامس والسادس، كان العالم المتمدين، على شفا السقوط في هاوية الفوضى، لأن العقائد التي تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت، ولم يك ثمة ما يعتد به مما يقوم مقامها. وكان يبدو وقتئذ أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة

آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية إذ أن القبائل تتحارب وتتناحر، فلا قانون ولا نظام. أما النظم التي خلفتها المسيحية فكانت تعمل على التفرقة والانهيار، بدلاً من الاتحاد والنظام فكانت المدنية التي تشبه شجرة ضخمة متفرعة، امتد ظلها إلى العالم كله، واقفة تترنح، وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب، وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم المعروف جميعه[٦]».

(٦) وليم موير: حياة محمد. مولاي محمد علي: محمد رسول الله ص ١٢ ــ ١٣ (ترجمة مصطفى فهمي وعبد الحميد جودة السحار).

الاتجاهات الفكرية الدينية في
جزيرة العرب قبل البعثة

الوثنية في شبه الجزيرة العربية

لقد ارتبطت الحياة الاجتماعية والفكرية في شبه الجزيرة العربية بالذهنية الغيبية الوثنية التي تجلت بعبادة الأصنام المختلفة يتجه إليها عابدوها في تضرعهم وابتهالاتهم اعتقاداً منهم بأنها القادرة على تسيير الحياة والمسيطرة على مصائر الناس، وأنها المنظمة لحركة الكون، هذا، ولقد اهتم المستشرقون بأوضاع شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام عموماً وبالوثنية العربية خصوصاً، يقول الدكتور جواد علي:

« وقد عني المستشرقون بهذا الموضوع، فكتبوا بحوثاً فيه. ومن هؤلاء (ولهوزن) J. Wellhausen صاحب كتاب (بقايا الوثنية العربية) Arabischen Heidentums، و (دتلف نيلسن) Ditlef Nielson و (لودولف كريل) Ludolf Krehl وغيرهم.

ولقد اعتمد (ولهوزن) على ما نقله (ياقوت الحموي) من كتاب الأصنام الذي لم يكن مطبوعاً ولا معروفاً أيام ألف (ولهوزن) كتابه عن الوثنية العربية.

ويعد كتاب (ولهوزن) أوسع مؤلف في موضوعه كتبه مستشرق عن الوثنية العربية، إنما تبعته حديثاً جملة بحوث عن الأصنام العربية التي عثر عليها في الكتابات مما فات ذكرها في كتاب (ولهوزن)، لأن أكثر النصوص الجاهلية لم تكن قد نشرت يومئذ، وبدهياً لم يكن في استطاعة هذا الرجل أن يبحث بشيء من التفصيل في الوثنية ببلاد العرب الجنوبية. ولذا كان أكثر ما جاء في كتاب (ولهوزن) مستمداً من روايات الأخباريين، ولذا كان ضرورياً إضافة هذه البحوث الجديدة إلى ما كتبه هو وأمثاله، لنحصل على صورة شاملة عن أديان العرب قبل الإسلام(٧).

هذا، وقد أدت عبادة الأصنام إلى تعدد الآلهة والابتعاد عن عقيدة التوحيد، التي تدين بعبادة إله واحد لا شريك له خالقٍ للكون، منفرد بذاته في عدم المثل والنظير، بل هو كما وصف ذاته جلَّ جلاله: ﴿لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد﴾.

ومن جهتهم فسر علماء المسلمين الشرك، بأنه يجعل لله شريكاً في ربوبيته وعبادته، والإيمان بالله وبغيره... أو أن يعدل بالله غيره، فيجعل شريكاً له....

هذا... وإذا كانت الوثنية هي الديانة السائدة في الجاهلية قبيل العهد الإسلامي، فقد ذكر الأخباريون العرب أنها كانت طارئة على شبه الجزيرة العربية، وأن الديانة السائدة سابقاً هي الحنيفية: ملة إبراهيم، واضع أعمدة البيت العتيق ﴿إن أولَ بيتٍ وُضِعَ للنّاسِ للذي ببكةَ مباركاً وهدىً

(٧) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ١٥ ــ ١٦.

للعالمين﴾. وتقوم ملته على الإيمان بإله واحد اعتقد به العرب وحجوا إلى بيته... لكن سرعان ما تخلوا عن هذه العبادة التوحيدية إلى الوثنية المشركة، حتى أنهم أقاموا في الكعبة ٣٦٠ صنماً عبدوها مبتعدين عن الحنيفية القديمة، وليس هذا فحسب بل جعلوا لهم في كل منزل صنماً... كما عبدوا إلى جانب الأصنام الكواكب. وخاصة في جنوبي الجزيرة العربية، حتى جاء الإسلام فحطم تلك الأصنام وأعاد الديانة التوحيدية إلى بلاد العرب.

وكان للوضع القبلي علاقة بعبادة الأصنام، فالآلهة الجاهلية كانت آلهة قبلية، وعبادتها عبادة متوارثة، فالصنم هو رمز القبيلة ويمثل للوحدة بين أفرادها، والموكل بالدفاع عنها، ولذا عبده الأبناء أخذاً عن الآباء، وكان أي خروج عن عبادة صنم القبيلة يعني الخروج على إرادتها، وأي تشكيك بهذا المعبود يعني تفكيكاً لوحدتها... التي هي إرادة شيوخ القبيلة وسادتها.

يقول الدكتور جواد علي:

«نعم كان في إمكان أصحاب الكلمة والسيادة والرئاسة تغيير أصنام القبيلة و تبديل آلهتها... فهو همّ السادة، والناس تبع لسادتهم، وفي المثل «الناس على دين ملوكهم» لقد أضاف السادة أصناماً إلى قبائلهم، فعبدت وتمسك أتباعهم بعبادتها، وكأنهم قد تلقوا أوامرهم من السماء. ونبذت قبائل بعض أصنامها بأمر من سادتها، ودخلت قبائل في الإسلام بدخول سيدها فيه، ودخلت أخرى قبل ذلك في النصرانية لتنصر سادتها، بكلمة أقنعت الرئيس أو بعد محاورة أو بإبلال من مرض قيل له إنه ببركة ذلك الدين، فدخل أتباعه في ذلك الدين من غير سؤال ولا جواب»[٨].

---

(٨) المصدر السابق، ص ٦٥ ــ ٦٦.

هذا، وإلى جانب الأصنام عبد العرب القوى الطبيعية كالنجوم، كرموز للقوى الخارقة أو ممثلة للقوة الأعظم، التي تكون الإله الأكبر. ولقد رأى المستشرق الإنكليزي توماس كارليل، في هذه العبادات دلالة على التدين، واعتبرها محمدة، وإن لم تأخذ سمت الاتجاه الصحيح، إذ ابتعدت عن الوحدانية، يقول متحدثاً عن مزايا عرب الجاهلية وتدينهم:

«وأرى لهؤلاء العرب صفة واضحة فيهم، وأحسبها ثمرة الفضائل جميعاً والمحامد بحذافيرها، ألا وهي التدين، فإنهم مذ كانوا ما برحوا شديدي التمسك بدينهم كيفما كان، وكانوا يعبدون الكواكب وكثيراً من الكائنات الطبيعية يرونها مظاهر للخالق، ودلائل على عظمته، فهذا وإن يك خطأ فليس من جميع وجوهه، فإن مصنوعات الله ما برحت بوجه ما رموزاً له ودلائل عليه. ألسنا ـــ كما قدّمت ـــ نعتدها مفخرة للشاعر وفضيلة أن يكون يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال أو «أسرار الجمال الشعري» كما اصطلح الناس على تسميته؟ وقد كان لهؤلاء العرب عدة أنبياء كلهم أستاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقضيه مبلغ علمه ورأيه، ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة ما يثبت لنا أي حكمة بليغة ورأي سديد وأي تقوى وإخلاص قد كان لهؤلاء البدو المفكرين؟[٩]».

اليهودية والمسيحية في شبه الجزيرة العربية

وإلى جانب عبادة الأصنام، كان في شبه الجزيرة العربية اليهودية والمسيحية، الديانتان التوحيديتان اللتان عرفهما العرب. إذ اعتنقت بعض

---

(٩) توماس كارليل: الأبطال، ص ٦٣.

القبائل الديانة اليهودية في اليمن والحجاز وغدت خيبر مستعمرةً يهوديةً ومركزاً تبشيرياً ... ولكن مع ذلك لم يكن بمستطاع اليهودية أن تعم أصقاع شبه الجزيرة، بل على العكس أخذ نفوذها يتراجع شيئاً فشيئاً أمام الوثنية السائدة.

ولقد ارتبطت اليهودية، في شبه الجزيرة العربية، بأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية المتميزة، إذ عرف عنها نشاطها التجاري البارز وتعاملها بالربا والزراعة، وكان لها بعض الصناعات الخاصة بها... وكان لواقعها الاقتصادي ــ الاجتماعي أثره في معاداة اليهود للحركة الإسلامية الجديدة، إذ وجدت بها خطراً أكيداً على مصالحها الاقتصادية، وعلى نفوذها سياسياً واجتماعياً:

«إن اليهودية كانت من ناحية التبشير ــ عند ظهور الإسلام ــ جامدة خامدة، لا يهمها نشر الدين قدر ما تهمها المحافظة على الحياة، وعلى المركز الذي توصلت إليه، وعلى تجارتها التي تعود عليها بمال وفير. فكانت لهذا لا تهتم بحركة إلا إذا وجدت فيها فائدة لها، ومنفعة ترتجى منها، ولا تحارب رأياً إلا إذا وجدت أنه سيكون خطراً عليها، فحاربت النصرانية في اليمن لمّا وجدت الروم يسيرون على سياسة معادية لليهود، وأن النصرانية مهما كانت كنيستها هي فرع من شجرة واحدة هي الشجرة التي يقدسها الروم، فامتداد أي فرع منها إلى اليمن، كفيل بإلحاق الأذى الذي لاقاه أخوانهم من البيزنطيين بهم. وحاربت الإسلام بعد هجرة الرسول إلى المدينة، لما تبين لها أنه يدعو إلى رب العالمين، وأنه لم يكن على ما ظنته حينما سمعت بدعوة الرسول وهو في مكة، من أنه سيخضع لها، أو سيميل إليها، فتستفيد منه على الأقل، فلما

وجدت الأمر غير ما ظنت، عندئذ خاصمته وانضمت إلى المشركين في محاربة الإسلام»[10].

وإلى جانب اليهودية ظهرت المسيحية في مرحلة تالية بتأثير من الإرساليات النصرانية، وامتداد النفوذ السياسي للدولتين المجاورتين لشبه الجزيرة العربية، وهما الامبراطورية الرومانية في الشمال، ومملكة الأحباش في الغرب، وظهر نفوذ المسيحية قوياً في منطقة نجران... لكنها لم تستطع أن تتجاوز إطار هذه المنطقة إلا بصورة ضعيفة.

ومرد أسباب ضعف انتشار الديانة المسيحية في شبه الجزيرة العربية خاضعة لعوامل عامة تعود إلى تراجع المسيحية على المستوى العالمي حسب رأي وشهادات الكتاب النصارى، الذين اعتبروا أن تراجعاً كلياً قد أصاب الدين نتيجة للاضطرابات الداخلية والفساد العام... ويتحدث المستشرق وليم موير عن تلك الحالة بقوله:

«وفوق هذا كانت نصرانية القرن السابع نفسها متداعية فاسدة. كانت معطلة بعدد من الهرطقات المتنازعة، وكان قد استبدلت بإيمان العصور الأولى السّمح صغارات الخرافة وصبيانياتها»[11].

الحنيفية في شبه الجزيرة العربية

وإلى جانب اليهودية والمسيحية كديانتين سماويتين كانت في شبه الجزيرة العربية حركة ثالثة هي الحنيفية التي عرف عنها نبذها عبادة الأوثان

---

(١٠) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٥٤٩.

(١١) وليم موير (نقلاً عن كتاب مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص ٢٠).

وبأنها لا تدين بأي من الديانتين السماويتين قبل الإسلام، وقوام اعتقادها التوحيد.

وهنا، لابد من وقفة عند موضوع الحركة الحنيفية، خاصة وأن بعض المستشرقين ذهب بهم الشطط أبعد مذهب حين حاولوا ربط الإسلام بتلك الحركة ليلقوا بظلال الشك على حقيقة الدين الإسلامي كدين أنزل على محمد ﷺ، وذلك لما عرف عنه أنه كان قبل البعثة، ينفر من عبادة الأصنام وأنه كان يتحنف ويتعبد على ملة إبراهيم عليه السلام...

ومع ذلك لا بدّ لنا من وضع حركة الحنفاء في إطارها التاريخي الحقيقي، ابتعاداً عن الشطط الذي ذهب إليه البعض، دونما إنكار للحقيقة التي تؤكد أن المجتمع العربي الجاهلي كان يمور داخلياً بالمقدمات الحقيقية لظهور الإسلام في المناخ الوثني السائد.

لقد كانت الحنيفية الحركة الإصلاحية المحلية، متمثلة ببعض الشخصيات العربية الذين اتبعوا ملة إبراهيم، ونفروا من عبادة الأصنام، وسفهوا عقائد الجاهليين، وانتهجوا لأنفسهم نهجاً خاصاً بهم. وهناك في القرآن إشارة إلى تلك الفئة من عرب الجاهلية التي لم تعبد الأصنام ولم تدن بأي من الدينين السماويين قبل الإسلام، أي اليهودية والمسيحية، لكنها تعتقد بوجود إله واحد. وقد جاء في الذكر الحكيم: ﴿وقالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قُلْ بلْ مِلةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كانَ مِنْ المُشركين﴾ (سورة البقرة آية ١٣٥) ﴿وما كانَ إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً، ولكن حنيفاً مسلماً، وما كانَ من المُشركين﴾ (آل عمران آية ٦٧).

وقد جاء في كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي في مبحثه حول أديان العرب في الجاهلية عن الحنفاء قوله:

«وقد ذكر المفسرون وأهل الأخبار أسماء جماعة من هؤلاء، غير أن ما ذكروه عنهم غامضٌ لا يشرح عقائدهم ولا يوضح رأيهم في الدين، فلم يذكروا عقيدتهم في التوحيد، ولا كيفية تصورهم لخالق الكون.

وقد عرف هؤلاء بالحنفاء وبالأحناف ونعتوا بأنهم كانوا على دين إبراهيم ولم يكونوا يهوداً ولا نصارى، ولم يشركوا بربهم أحداً. سفهوا عبادة الأصنام، وسفهوا رأي القائلين بها»[١٢].

هذا، وقد أولى المستشرقون موضوع «الحنفاء» اهتماماً بالغاً، فبحثوا في كل ما يتعلق به كأصول تاريخية ولغوية، ولقد عرض الدكتور جواد علي هذه النقطة المتعلقة بدياناتهم بقوله:

«وللمستشرقين بحوث في أصلها ومعناها وفي ورودها عند العرب قبل الإسلام، ومنهم من يرى اللفظة من أصل آرامي وقد كانت معروفة عند النصارى وأخذها الجاهليون منهم، وأطلقت على القائلين بالتوحيد من العرب، وعلى أولئك الذين ظهروا في اليمن خاصة ونادوا بالتوحيد وعبادة الرحمن، وهي ديانة توحيد ظهرت بتأثير اليهودية والنصرانية، غير أن أصحابها لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وإنما كانوا فرقة مستقلة تأثرت بآراء الديانتين».

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن اللفظة من أصل عبراني هو (تحينوت) **Tehinoth** أو من (حنف) **Hnef**، ومعناه التحنث بالعربية، وذلك لما لهذه اللفظة من صلة بالزهد والزهّاد. وقال

---

(١٢) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٦، ص ٤٤٩.

نولدكه: إنها من أصل عربي هو تحنف على وزن تبرر، وهي من الكلمات التي لها معان دينية. ويلاحظ أن السريان يطلقون لفظة حنفه Hanfa على الصابئة. وقد وردت لفظة حنف في النصوص العربية الجنوبية، وردت بمعنى (صبأ) أي مال وتأثر بشيء ما، أي بالمعنى الذي فهمه علماء اللغة، فاللفظة إذن من الألفاظ المعروفة عند العرب الجنوبيين»[١٣].

هذا، وذهب بعض المستشرقين إلى اعتبار «أن الحنفاء شيعة من شيع النصرانية، وخلطوا فيها بعض تعاليم من غيرها»[١٤].

لكن الثابت أن الحنفاء وإن تأثروا بكلتا الديانتين السماويتين، فإن الحنيفة لا تندرج في إطار أي منهما، وقد رفض أتباعها الوثنية وعبادة الأصنام، ونادوا بالتوحيد الخالص، كما أضاف العلماء المسلمون إليها مبدأ اتباع سنة إبراهيم التي تلتقي مع شرائع الإسلام، وكذلك الإخلاص لله وحده، والإقرار بالربوبية والإذعان لله بالعبودية.

وكان الحنفاء بنظر عرب الجاهلية والمؤرخين العرب اللاحقين فئة قليلة صابئة خرجت على الوثنية وعبادة الأصنام السائدة في شبه الجزيرة العربية.

بيد أن بعض المستشرقين ذهبوا بعيداً عن الحقيقة كالمستشرق شبرنكر الذي صنف الأحناف في الجاهلية فرقة دينية منظمة.

هذا ولقد عرف عدد من الرجالات العرب الجاهلين بالحنيفية، أو ممن صنفوا في زمرة الأحناف، أمثال زيد بن عمرو بن نفيل وأمية بن أبي

---

(١٣) المصدر السابق، ص٤٥٣ ــ ٤٥٤.

(١٤) انظر المصدر السابق، ص٤٥٦.

الصلت وعدي بن زيد العبادي، وقس بن ساعدة الإيادي وورقة بن نوفل وسواهم.

ويعد زيد بن عمرو بن نفيل أحد حكماء العرب من أبرز الحنفاء، وحسب رأي ابن حبيب هو «أول من عاب على قريش ما هم عليه من عبادة الأوثان»[١٥]. وكان عدواً لوأد البنات، لذا عدّ من أنصار المرأة في الجاهلية. وتذكر الأخبار أن زيداً وورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث، اتفقوا على نبذ عبادة الأوثان بعد أن حضروا عيداً من أعياد قريش عند أحد أصنامهم الذين يحتفلون كل عام يوماً يعتكفون عنده ويدينون به ويعظمونه. وقال قائلهم «تعلمون والله ما قولكم على شيء لقد أخطأوا دين إبراهيم وخالفوه ما وثن يعبد؟ لا يضر ولا ينفع، فابتغوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء. فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهل الكتاب»[١٦].

ويعرف عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه رحل إلى الشام ليتعرف على عبادات أهلها، فلم تستمله أي من الديانتين اليهودية أو المسيحية، فكان أن تمسك بالحنيفية، وسافر إلى الموصل والجزيرة وبلاد الشام طلباً للعلم وبحثاً عن المبادىء الصحيحة. وأنه كان يتحنث في غار حراء، وأن النبي ﷺ التقى به، وأنه توفي قبل البعثة بخمس سنين.

وروي عن زيد بن عمرو شعرٌ يدل على اعتقاده بوحدانية الله وعدم إيمانه بالأصنام، يقول:

فلا عزى أديـــن ولا ابنـــتيها ... ولا صنمـي بنـــي عمـــرو أزور
أربّـــاً واحـــداً أم ألـــــف رب ... أديـــن إذا تقسّمت الأمـــــور

(١٥) المحبر، ص ١٧١.

(١٦) البداية، ج ٢، ص ٢٣٨.

وقد قال عنه النبي ﷺ: «يبعث يوم القيامة أمة وحده».

هذا، واسترعت شخصية زيد بن عمرو بن نفيل اهتمام المستشرق الأمريكي كالون سل (١٨١١ ـ ١٨٧٣) الذي اشتهر بمؤلفيه «الشرقيون» و «حياة محمد»، إلاّ أنه تحدث بمبالغة عن أثره في الرسول ﷺ، مما يوحي وكأنه تلقى الحنيفية عن زيد بن عمرو، وأن الإسلام ليس سوى امتداد لحركة الأحناف، يقول في كتابه «حياة محمد»:

«إن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى القرشي وأصحابه رغبوا في اتباع دين إبراهيم، ويظن أن محمداً أخذ هذه الفكرة منهم، ثم قال: بقي زيد حنيفاً وعاب على أهل مكة عبادة الأصنام، فأثار ذلك غضبهم، فأرغم إلى ترك مكة والإقامة في جبل حراء، وبعد أن أمضى هنالك زمناً يفكر، توفي ودفن في أسفل الجبل، وقد كان له تأثير عظيم بمحمد الذي كان يجل شأنه ويقدره، ولا ريب أن هؤلاء الرجال وأمثالهم من ذوي العقول الراجحة كانوا كثيراً ما يتشاورون ويتحادثون فيما وصلت إليه حالة العرب الاجتماعية من الانحطاط ويأسفون لانحسار وضعف مركزهم السياسي.

وهنا سنحت الفرصة لظهور نبي، وقد كان الاستعداد لظهوره قريباً، وما لبث أن ظهر نبيٌّ قوي الشخصية، ذو فطنة سياسية فائقة، برسالة محدودة للأمة العربية»[١٧].

---

(١٧) كالون سل: حياة محمد، ص ٨.

الإسلام
الحدث الكوني العظيم

تلك هي الأوضاع الاجتماعية السياسية الاقتصادية التي كانت سائدة في جزيرة العرب، وكذلك الحالة الفكرية الدينية المهيمنة على مشاعر العرب قبيل ظهور الإسلام، من وثنية مشركة، وحركات دينية ضعيفة قوامها اليهودية والمسيحية والحنيفية .... إلى جانب ظهور محاولات إصلاحية دينية محلية، إذ ظهر قبل الإسلام عدد من الأنبياء العرب المصلحين، ورد ذكرهم في القرآن الكريم، إذ بعث الله النبي هوداً في قبيلة عاد وصالحاً في ثمود وسواهما من أنبياء عهد الجاهلية .... وهكذا ظلت جزيرة العرب تعيش مرحلة مخاض تاريخي، يقول توماس كارليل:

«وعلى هذه الطريقة عاش العرب دهوراً طوالاً خاملي الذكر غامضي الشأن، أناساً ذوي مناقب جليلة وصفات كبيرة، ينتظرون من حيث لا يشعرون اليوم الذي يشاد فيه بذكرهم، ويطير في الآفاق صيتهم، ويرتفع إلى عنان السماء صوتهم، وما ذلك ببعيد، وكأنما كانت وثنياتهم قد وصلت إلى طور الاضمحلال وآذنت بالسقوط، وقد حدثت بينهم دواعي اختلاط وفوران»[١٨].

(١٨) توماس كارليل: الأبطال، ص ٦٨.

وكان هذا الفوران الداخلي يشكل المقدمة التاريخية للتحولات المقبلة، وكانت رسالة الإسلام هي الأداة الثورية لإحداث ذلك الانقلاب التاريخي العظيم، والتي أدت إلى تغير لاحق في أوضاع شبه الجزيرة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وأحدثت انقلاباً فكرياً، انتقالاً من الوثنية إلى الوحدانية، هذا الانقلاب الذي اعترف به أعداء الإسلام، وكانت بالنسبة للمسلمين تحقيقاً للإرادة الإلهية مع تحقيق المعجزة العربية والإسلامية التي كان الرسول العربي بطلها، يقول المستشرف وليم موير:

«كانت سمة المحافظة الشديدة هي الغالبة على شبه الجزيرة العربية إبان شباب محمد، ولعل الإصلاح لم يكن متعذراً في أيما فترة من فترات تاريخها أكثر مما كان متعذراً في تلك الفترة. وتلتمس الأسباب أحياناً لتعليل النتائج التي أحدثها عامل يبدو غير كاف لإحداثها. وظهر محمد، وبذلك أوقظ العرب وفتحت أعينهم على إيمان روحي جديد. ومن هنا جاء الاستنتاج القائل بأن بلاد العرب كانت تختمر للتغير، ومستعدة لقبوله. أما نحن فيتبدى لنا، ونحن نراجع الماضي في أناة، أن تاريخ العرب قبل الإسلام يكذب هذا الادعاء. فبعد خمسة قرون من التبشير بالنصرانية لا نقع إلا على قلة قليلة من الداخلين في دين المسيح متناثرين ههنا وههناك.

وبكلمة موجزة، فإننا إذا ما نظرنا إلى سطح بلاد العرب على هذا النحو من زاوية دينية، وجدنا أنه تموج بين الفينة والفينة تموُّجاً رفيقاً بفضل الجهود الواهنة التي بذلتها النصرانية. أما نفوذ اليهودية الأشد فكان ملحوظاً حيناً بعد حين في تيار أعمق وأكثر عَكَراً. ولكن مدّ الوثنية الأهلية المنطلق من كل مكان في قوة وعنف نحو

الكعبة ينهض دليلاً قاطعاً على أن الإيمان المكي والعبادة المكية أبقيا العقل العربي في حال من العبودية القاسية غير المنازعة».

ثم يمضي موير فيقول:

«إن أوضاع بلاد العرب العامة، قبل ظهور محمد لم تكن تؤذن بإمكان القيام بإصلاح ديني ناجح. بقدر ما كانت غير مؤذنة بإمكان الاتحاد السياسي أو الإحياء القومي. فقد كان أساس الإيمان العربي وثنية عميقة الجذور، استطاعت أن تصمد طوال قرون ـــ من غير أن يبدو عليها أي عرض واضح من أعراض الفساد ـــ في وجه كل محاولة من محاولات التبشير من مصر وسورية»(١٩).

ولم تقتصر أوضاع شبه الجزيرة على سيطرة الوثنية وعبادة الأصنام فيها، بل في كونها خاضعة للنظام القبلي الذي فرض حالة الانقسام السياسي والتمزق الداخلي، بسبب كون كل قبيلة تشكل وحدة سياسية واقتصادية ـــ اجتماعية مستقلة، مما قاد إلى نشوب صراعات قبلية حالت دون توحيد الجزيرة العربية وجمع كلمة العرب، حتى إذا جاء الإسلام قضى على الوثنية المخزية والقبلية الخطرة، بقيادة الرسول محمد ﷺ.... يقول وليم موير في كتابه حياة محمد:

«كانت أولى الخصائص التي تلفت انتباهنا، إذاً هي انقسام العرب إلى جماعات لا تعد ولا تحصى، خاضعة لقانون في الشرف والأخلاق واحد، ومتمسكة بأهداب عادات واحدة، ومتحدثة في الأعم الأغلب بلغة واحدة، ولكن كلاً منها مستقلة عن الأخرى. كانت تلك الجماعات لا تعرف طمأنينة ولا استقراراً وكثيراً ما

(١٩) وليم موير: حياة محمد.

نشبت الحروب بينها . وحتى لو اتفق أن جمعتها رابطة الدم أو رابطة المصلحة فسرعان ما كانت تتفرق لأتفه الأسباب وتستسلم لعداواتها الحقود . وهكذا كان خليقاً بمن يرجع البصر ، قبيل بزوغ الإسلام ، إلى التاريخ العربي ، أن يرى ــ وكأنما بواسطة مبداع★ Kaleidoscop ــ ، حالة من التمازج والتنافر لا تفتأ تتغير وتتقلب ، مما أدى إلى إجهاض أيما محاولة من محاولات الوحدة الشاملة ... وكان لا بد لهذه المشكلة من أن تحل عن طريق أيما قوة توفق إلى إخضاع العرب أو جمع شملهم ، ولقد حل محمد المشكلة»[٢٠] .

ويتحدث القس لوزون في كتابه «الله في السماء» عن الانقلاب المنتظر الذي قاده الرسول ﷺ ، بقوله :

لقد بعث محمد رسولاً إلى العرب وعاشت بلاد العرب الأزمان الطويلة عاكفة على عبادة الأصنام وتوغلت في ذلك حتى احتاجت إلى انقلاب ديني عظيم[٢١] .

وهكذا كان النبي محمد ﷺ هذا الرسول ، الذي تمكن في المرحلة المقبلة بفضل كفاحه الإنساني المرير أن يحقق ذلك النجاح العظيم والتحول الكبير ليس في الجزيرة العربية وحسب ، بل على الصعيد العالمي أيضاً . ويتحدث مولانا محمد علي عن عظمة الرسول في نشر الوحدانية الإسلامية في بلاد العرب وقضائه على الوثنية ، قائلاً :

★المبداع : آلة تحتوي على قطع صغيرة من الزجاج الملون يرى بها الناظر أشكالاً شتى ذات منظر بديع .

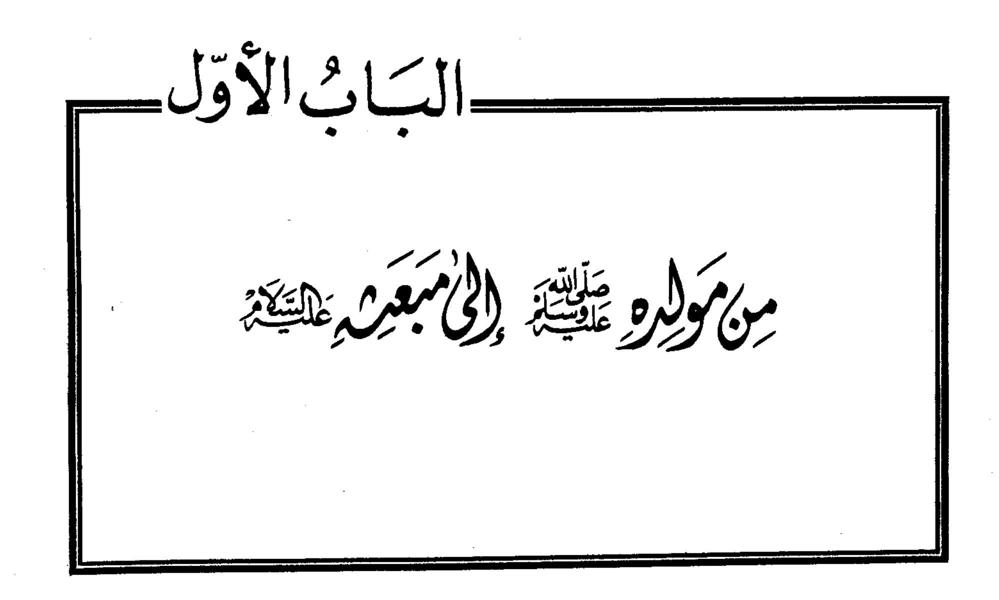
(٢٠) نفس المصدر السابق .

(٢١) القس لوزون : الله في السماء .

«من حضيض هذه الوثنية المخزية انتشل الرسول محمد (عليه السلام) بلاد العرب كلها في فترة من الزمان قصيرة لا تعدو عشرين عاماً. إنه لم يستأصل الوثنية من بلاد العرب استئصالاً نهائياً فحسب، بل أضرم في قلوب أولئك العرب أنفسهم شرارة من الحماسة لوحدانية الله دفعتهم إلى الانطلاق بعيداً في كل رجاً من أرجاء العالم المعروف آنذاك لرفع راية الإله الواحد، أيضاً. وهذا الفطام لبلد برمته ـــ يمتد على مساحة هائلة مقدارها مليون ومئتا ألف ميل مربع ـــ عن لعنة الوثنية التي كانت تهيمن عليه هيمنة مطلقة نتيجة للإرث والتقاليد الراسخة، في مدة لا تتجاوز خُمس قرن، بحيث أكسبت ذلك البلد لقب (محطم الأوثان) المشرف، أقول أليس هذا الفطام هو أعظم معجزة قدر للعالم أن يشهدها في تاريخه كله؟ ألا يستحق الرجل الذي أحدث هذا التحول التقدمي لقب (خير الأنام) استحقاقاً لا مراء فيه؟»[٢٢].

(٢٢) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص ٢٣ ـــ ٢٤.





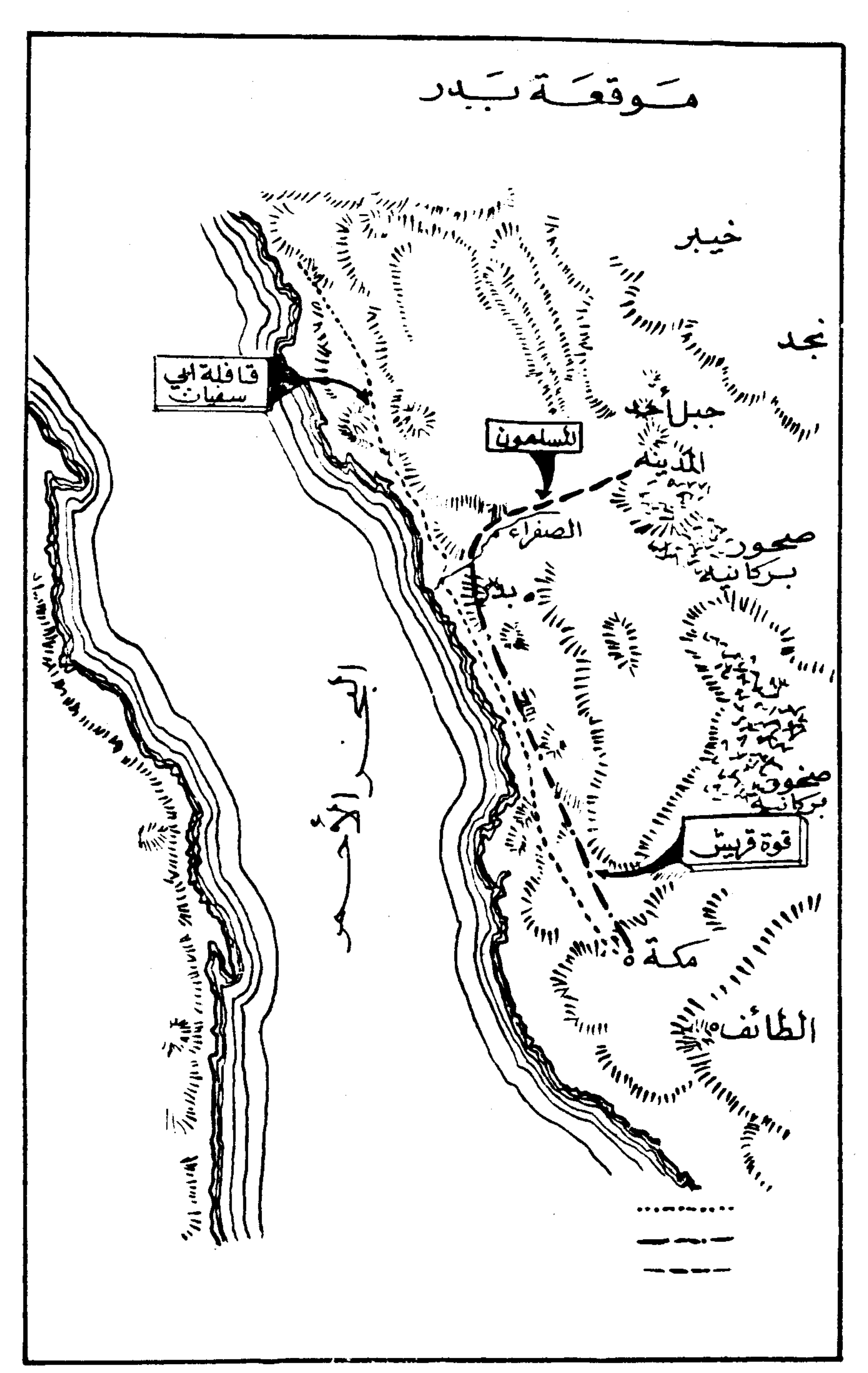
الباب الأول

من مولده ﷺ إلى مبعثه عليه السلام

- مولده ﷺ .
- طفولته في بادية بني سعد .
- رعاية جده إياه وتوسمه الخير به .
- كفالة عمه إياه .



- رحلته الأولى إلى الشام ولقاؤه بالراهب بحيرا .
- رحلته الثانية إلى الشام ولقاؤه بالراهب نسطور .
- زواجه من خديجة .
- الأمين المثل الأعلى في الاستقامة والأمانة .
- الأمين وبناء الكعبة .
- مقدمات النبوة .


موقعة بدر
خيبر
نجد
جبل أحد
المدينة
المسلمون
قافلة أبي سفيان
الصفراء
بدر
صخور بركانية
صخور بركانية
قوة قريش
مكة
الطائف



مولده (ﷺ)

كانت حياة الرسول محمد ﷺ متميزة عن حياة أقرانه، فقد ولد يتيماً، إذ مات أبوه عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وهو في بطن أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف عام الفيل الموافق لعام ٥٧٠ للميلاد... يقول القس الفرنسي لوازون في محاضرة له عن الرسول محمد ﷺ:

«وآخر جميع الأنبياء كما يعتقد المسلمون هو محمد الذي ولد في مكة لعشر ليالٍ مضت من إبريل سنة ٥٧٠ للميلاد، وكانت عائلته أشرف عائلة في قريش، وهي إحدى القبائل الشهيرة في بلاد العرب، وصاحب النسب المرتقي إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وقد كان جده متولياً سدانة الكعبة، وكانت دار حكومتهم، ومعبد ديانة العرب الوثنية، وتوفي والده عبد الله قبل ولادته، وتوفيت أمه وهو ابن ستة أعوام، وكان على أعظم ما يكون من كريم الطباع وشريف الأخلاق، ومنتهى الحياء، وشدة الإحساس، وقد كفله جده وهو ابن ست سنوات وأثناء كفالته بدأت تظهر من محمد علامات الذكاء ورجاحة العقل، ومر بصبيان يلعبون فدعوه للعب معهم، فأجابهم إن الإنسان خلق للأعمال الجليلة، والمقاصد الشريفة، لا للأعمال

السافلة والأمور الباطلة، وكان على خلق عظيم، وشيم مرضية، شفوقاً على الأطفال، مطبوعاً على الإحسان، غير متشدق في نفسه، ولا صلف في معاملته مع الناس، وكان حائزاً قوة إدراك عجيبة، وذكاء مفرط، وعواطف رقيقة شريفة»[١].

علامات النبوة في مولده

لقد دلت الدراسات الإسلامية لسيرة الرسول ﷺ، على أن علامات النبوة قد رافقته قبل ولادته، وأن بعضاً من تلك الدلائل كانت سابقة على ميلاده، وتستدل على أنه سيكون للعرب نبيهم المرتقب. وليس هذا بالأمر العجيب، إذ كانت نبوة الرسول قديمة قدم الخلق، يقول عليه الصلاة والسلام: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»[٢] وفي رواية ثانية للرسول ﷺ يتحدث فيها عن قدم رسالته ودلائل نبوته حين رأت أمه يوم مولده نوراً أضاء قصور الشام بقوله ﷺ:

«إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته وسأخبركم بتأويل ذلك، أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام وكذلك أمهات النبيين يرين»[٣].

---

(١) القس لوازون، نقلاً عن المقتطف، [illegible]
(٢) أخرجه أحمد والبخاري في التاريخ وأبو نعيم والطبراني وابن سعد والبزار والحاكم وصححه وأقره الذهبي عن ميسرة، والترمذي وصححه عن أبي هريرة.
(٣) أخرجه الإمام أحمد والبزار والبيهقي والطبراني وأبو نعيم عن العرباض بن سارية وصححه الهيثمي ورواه الحاكم وابن حبان وصححاه.

وتذكر كتب السيرة الإسلامية والحديث أن اليهود اضطربوا يوم مولد الرسول، ففي رواية لأم المؤمنين عائشة أنها قالت:

«كان يهودي قد سكن بمكة فلما كان الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال: يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا: لا نعلم قال: انظروا فإنه ولد في هذه الليلة نبي هذه الأمة بين كتفيه علامة، فانصرفوا فسألوا فقيل لهم قد ولد لعبد المطلب غلام فذهب اليهودي معهم إلى أمه فأخرجته لهم فلما رأى اليهودي العلامة خرّ مغشياً عليه وقال: ذهبت النبوة من بني إسرائيل يا معشر قريش أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب»[4].

ولم يغب على بال المستشرق والوزير الروماني المفكر كونستانس جيورجيو (المولود عام ١٩١٦) في كتابه: «نظرة جديدة في سيرة رسول الله»، أن يذكر أن السيد المسيح قال لحوارييه حسب روايةٍ في إنجيل يوحنا: إنه سيأتي بعدي شخص يقويكم ويحميكم وإنه سيرسل إليكم «باركلت» لأنني لن أدعكم يتامى، وقد أعلن المسيحيون بعد صعود السيد المسيح أن «باركلت» هو نفسه روح القدس... يقول جورجيو:

«ويرى المسلمون أن النصارى حرفوا كلمة السيد المسيح، لأنه قال إنه سيأتي بعدي «بريكلي توس» ومعناها باليونانية (أحمد) وهو بمعنى (الممدوح)، وهو اسم نبي المسلمين. و (محمد) معناها الأكثر مدحاً. ويروى أن اليهود ذكروا هذه الكلمة «بريكلي توس» ويعلمون أن السيد المسيح سيخلفه (أحمد)، لأن اليهود (والعهدة

---

(٤) أخرجه الحاكم عن عائشة وحسنه ابن حجر.

على الرواية) ليلة ولادة رسول الله ﷺ اضطربوا كثيراً ، وتخوفوا من وضع آمنة »[٥] .

طفولته في بادية بني سعد

لقد كان لطفولة الرسول ﷺ في بادية بني سعد أثرها على بنيته الجسدية ومستقبلاً على تحوله الفكري ، فقد تكوَّنَ في تلك البادية استعداده للتأمل الفكري منذ نعومة أظفاره ، يقول المستشرق الفرنسي إتيين دينيه في كتابه : « محمد رسول الله » :

« هذه الصحة الأخلاقية والجسمية التي يدين بها إلى البادية ، ساعدته كثيراً على تحمل ما ابتلي به بعد من محن .

كان محمد يحب إعادة ذكريات تلك الفترة ، وكثيراً ما كان يقول : « إن من نعم الله عليّ التي لا تقدر ، أني ولدت في قريش أشرف القبائل ، وأني نشأت في بادية بني سعد ، أصح المواطن بالحجاز » وقد بقيت منطبعة في نفسه صور البادية التي كانت أول الأشياء تأثيراً في حسه عندما كان يسرح فيها مع الرعاة فيتسلق شرفاً ليلاحظ القطعان في مراعيها .

على أن استعداده للتأمل والوحدة لم يكن لينسجم مع أخلاق أقرانه الصاخبة ، فكان يفضل اعتزالهم في ألعابهم ، ويذهب وحيداً حيث الهدوء والسكون »[٦] .

---

(٥) ك. جيورجيو : نظرة جديدة في سيرة رسول الله ، ص٢٣ (ترجمة د. محمد التونجي) .

(٦) إتيين دينيه وسليمان بن إبراهيم : محمد رسول الله ترجمة د. عبد الحليم محمود ، د. محمد عبد الحليم محمود ، ص٨٤ .

وتتحدث كتب الحديث والسيرة عن دلائل النبوة التي ظهرت له أثناء طفولته في بادية بني سعد التي ترويها حليمة السعدية، حين حضرت إلى مكة مع نساء عشيرتها لالتماس تربية أطفال أشراف مكة حسبما درجت عليه الطبقات الأرستقراطية التي تعهد بأبنائها للمراضع من القبائل البدوية لتنشئهم التنشئة الصحية في أجواء البادية. ومن جهتهم نقل المستشرقون ممن دونوا سيرة النبي عن تلك الكتب بما يخص طفولة الرسول ودلائل النبوة.

ولقد جاء في كتب السيرة والحديث عن طفولته (صلوات الله عليه) على لسان أمه بالرضاع حليمة السعدية، قولها:

«قدمت مكة في نسوة من بني سعد بن بكر نلتمس الرضعاء في سنة شهباء فقدمت على أتان لي ومعي صبي لنا وشارف لنا والله ما تبض بقطرة وما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ولا نجد في ثديي ما يغذيه ولا في شارفنا ما يغذيه، فقدمنا مكة فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذ قيل إنه يتيم الأب فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيره، فلما لم أجد غيره قلت لزوجي إني لأكره أن أرجع من بين صواحباتي وليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه. فذهبت فإذا هو مدرج في ثوب صوف أبيض من اللبن يفوح منه المسك وتحته حريرة خضراء راقداً على قفاه يغط، فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله فدنوت منه رويداً، فوضعت يدي على صدره فتبسم ضاحكاً ففتح عينيه ينظر إليَّ فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء، وأنا أنظر فقبلته بين عينيه وأعطيته ثديي الأيمن فأقبل عليه بما شاء من لبن، فحولته إلى الأيسر فأبى، وكانت تلك حاله

بعد. قالت فروي وروي أخوه، ثم أخذته بما هو إلى أن جئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء الله من لبن، فشرب حتى روي وشرب أخوه حتى روي، فقام صاحبي تعني زوجها إلى شارفنا تلك فإذا بها لحافل فحلب فشرب وشربت حتى روينا وبتنا بخير ليلة. فقال صاحبي يا حليمة والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه، فلم يزل الله يزيدنا خيراً. قالت حليمة رضي الله عنها فودعت أم النبي ﷺ ثم ركبت أتاني وأخذته بين يدي فسبقت دواب الناس الذين كانوا معي، وهم يتعجبون منها. ثم قدمنا منازل بني سعد ولا أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها وكانت غنمي تروح علي حين قدمنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضر من قومنا يقولون لرعيانهم: اسرحوا حيث يسرح راعي غنم بنت أبي ذؤيب فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن وتروح أغنامي شباعاً لبناً»(٧).

وتتحدث كتب السيرة كذلك عن خبر شق صدر الرسول ﷺ واستخراج علقة سوداء من قلبه، مما يرمز لعصمته وتطهره....

هذا، وقد علق إتيين دينيه في كتابه: «محمد رسول الله» على حادثة شق صدر الرسول بقوله:

«سجل القرآن هذه الحادثة في قوله ﴿ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك ...﴾.

(٧) رواه ابن إسحاق والبيهقي والطبراني وأبو نعيم وأبو يعلى وابن راهويه عن حليمة وحسنه الهيثمي.

هذه القصة ككل القصص التي من نوعها، والتي يجدها القارىء أثناء قراءته هذا الكتاب يجب أن تؤول تأويلاً رمزياً. والقصة التي نحن بصددها تعني: أن الله شرح صدر محمد إلى الفرح بحقيقة التوحيد، إذ أزال عنه منذ الطفولة وزر الوثنية »[٨].

رعاية جده وتوسمه الخير به

هذا، وتولى عبد المطلب بن هاشم جد الرسول محمد ﷺ رعاية حفيده وسماه محمداً. متوسماً به الخير، وكان يعتقد ـــ حسب مصادر الحديث ـــ بأنه سيكون له شأن. يقول توماس كارليل متحدثاً عن مولده وتوسم الخير به:

« وكان بين هؤلاء العرب التي تلك حالهم، أن ولد الرجل محمد (عليه السلام) عام ٥٧٠ ميلادي، وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش، وقد مات أبوه قبل مولده، ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه، وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل، فقام عليه جده الشيخ الذي كان ناهز المائة من عمره، وكان صالحاً باراً وكان ابنه عبد الله أحب أولاده إليه، فأبصرت عينه الهرمة في محمد صورة عبد الله فأحب اليتيم الصغير بملء قلبه، وكان يقول: « ينبغي أن يحسن القيام على ذلك الصبي الجميل الذي قد فاق سائر الأسرة والقبيلة حسناً وفضلاً »[٩].

وتتحدث كتب السيرة الإسلامية، أن جده كان يعتقد بأن محمداً

---

(٨) إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص ٨٥.

(٩) توماس كارليل: الأبطال، ص ٦٩.

سيكون نبي العرب، ولم يكن هذا مستغرباً، في تلك المرحلة التي تنتظر ولادة تاريخية جديدة، ويقول الكاتب جيورجيو في دراسته حياة الرسول ﷺ، واستدلال معاصريه بأنه سيكون الرسول المرتقب:

«والأمر المسلم به أن العرب ــ في الماضي ــ لم يدهشوا من ولادة نبي، لأن مثل هذا الأمر حصل في بعض أنحاء جزيرتهم قبلاً. حتى آمنة، لم يبد عليها العجب، فقد روي أنها سمعت أن ابنها نبي، فلم تندهش لهذه البشرى، لأن أرض العرب، لم تكن أرضاً منجبة للأنبياء وحسب، بل كانت مهاداً لأفراد خاطبوا الله تعالى، بل إن كل أنبياء الجزيرة خاطبوا ربهم»[10].

ويتابع قوله:

«ففي شبه الجزيرة العربية المترامية الأطراف، خلافاً للأقطار الأخرى، وصحرائها التي لا يعترضها حاجز... ترى البصر يمتد إلى اللانهاية من كل طرف، صحراء ممتدة الأرجاء، وسماء لا نهاية لها... ولهذا فليس فيها ما يمنع إمكانية معرفة الله وملائكته. ولم تكن مصادفة الخالق في هذه الصحراء الواسعة حالة استثنائية نادرة، كما لم تكن ولادة نبي فيها خارقة للعادة.

ويروى ــ بالإضافة إلى آمنة ــ أن أقرباء محمد ﷺ جميعاً علموا أن هذا الطفل نبي. ومع هذا فإنهم لم ينظروا إليه نظرة إعجاب، كما لم تختلف رعايتهم له عن رعاية غيره من أطفال قريش.

---

(١٠) ك. جيورجيو: ص ٢٤.

ربما كانت نظرتهم إلى ولادة النبي عادية، لأن المهم في الأمر أن هذا النبي في النهاية يستطيع أن يؤدي رسالته التي سيتلقاها»[11].

كفالة عمه إياه

وحين توفي جد الرسول ﷺ عبد المطلب وهو في الثامنة من عمره، كفله عمه أبو طالب رأس أسرة بني هاشم بعد أبيه، فأحسن تربيته، وسافر معه إلى الشام في بعض رحلاته التجارية، فالتقى النبي محمد ﷺ وهو في الثانية عشرة من عمره بالراهب (بحيرا) واسمه جرجيس، في بصرى الشام، وتوسم هذا الأخير به علامات النبوة... ولقد أوصى بحيرا الراهب أبا طالب أن يعنى بابن أخيه لأنه سيكون النبي المرتقب وحذّره من خطر اليهود...

رحلته الأولى إلى بلاد الشام ولقاؤه ببحيرا الراهب

تقول كتب السيرة والحديث، إن بحيرا الراهب حين رأى رسول الله قال وهو آخذ بيده:

«هذا هو سيد المرسلين، هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين، فقيل له وما علمك بذلك فقال: إنكم حين أشرفتم به من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرّ ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة وإنا نجده في كتبنا، وسأل أبا طالب أن يرده خوفاً عليه من اليهود»[12].

---

(١١) المصدر السابق، ص ٢٥.

(١٢) المصدر السابق.

ولقد بحث الكاتب الإنكليزي توماس كارليل قضية لقاء الرسول ﷺ ببحيرا الراهب، وما كان لهذا اللقاء من أثر على توجيهه للتفكر في قضايا الحياة والخلق... وقد رد كارليل في كتابه الأبطال على تلك المزاعم التي تقول إن ذلك الراهب قد لقنه العلم وإنه وراء النبوة التي أنزلت على النبي محمد ﷺ يقول:

«ولما شب محمد وترعرع، صار يصحب عمه في أسفار تجارية وما أشبه، وفي الثامنة عشرة من عمره نراه فارساً مقاتلاً يتبع عمه في الحروب، غير أن أهم أسفاره ربما كان ذاك الذي حدث قبل هذا التاريخ ببضع سنين، رحلة إلى مشارف الشام، إذ وجد الفتى نفسه هنالك في عالم جديد إزاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جداً في نظره، أعني الديانة المسيحية. وإني لست أدري ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس (بحيرا) الذي يزعم أن أبا طالب ومحمداً سكنا معه في الدار، ولا ماذا عساه أن يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من أي راهب ما، فإن محمداً لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة، ولم يكن يعرف إلا لغته، ولا شك أن كثيراً من أحوال الشام ومشاهدها لم يك في نظره إلا خليطاً مشوشاً من أشياء ينكرها ولا يفهمها. ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان، ولا بد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشؤون فأقامت في ثنايا ضميره، ولو غير مفهومة ريثما ينضجها له كر الغداة ومر العشي، وتحلّها له يد الزمان يوماً ما، فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات، فلعل هذه الرحلة الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير وفوائد جمة»[١٣].

---

(١٣) توماس كارليل: الأبطال، ص٦٨.

الرحلة الثانية إلى بلاد الشام

ولم تكن رحلته إلى الشام برفقة عمه هي الوحيدة، بل كانت رحلته الثانية وهو ابن عشرين عاماً، التماساً للرزق على ما درج عليه المكيون في العمل بالتجارة، يقول إتيين دينيه:

« كانت حالة أغلب المكيين ــ كأبي طالب ــ تضطرهم إلى التجارة، فإقليمهم من أشد الأقاليم جدباً، ولذلك لم يكن من الممكن لقاطنيه أن يعيشوا إلا بالتعامل مع اليمن وسورية، اللذين تربط بينهما مكة، فكانت قوافلها تذهب إلى اليمن الذي أطلق عليه « الإقليم العربي السعيد » للبحث عن منتجاته والمنتجات التي تصل إليه عن طريق البحر، فيبتاعون مما تنتج الحبشة والهند والصين، من التوابل والعطر والبخور، والتبر، والحرير، وفي عودتهم إلى الحجاز يضيفون إلى ذلك تمر يثرب أو الطائف.. ثم يذهبون بعد ذلك إلى سورية، ليستبدلوا ببضائعهم منتجاتهم الزراعية: كالقمح، والشعير، والأرز، والتين، والزبيب، يضاف إليها ما يوجد في سورية مما يصدره إليها اليونان والرومان. ولم تكن النساء بمعزل عن هذا النوع من التجارة: فقد كن يخترن من يخَرج في مالهن للاتجار في مقابل جزء من الربح. هكذا كانت تفعل خديجة بنت خويلد ذات الثراء الواسع، والحسب النبيل. وفي ذات يوم أرسلت إلى محمد ــ وقد كانت تسمع بما له من عقل متزن، وأمانة وإخلاص ــ فعرضت عليه أن يسير على رأس تجارتها إلى الشام، وأن تمنحه في مقابل ذلك ضعف ما كانت تمنح عادة لغيره »[١٤].

---

(١٤) إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص ٩٢ ــ ٩٣.

خبر لقائه مع نسطور الراهب

وتتحدث كتب السير أيضاً عن لقائه ببحيرا الراهب، وفي كتب أخرى مع نسطور الراهب، وكيف أنه جلس في ظل شجرة، وأنه في الرواية الأولى قال بحيرا الراهب لأبي بكر: «هذا والله نبي ما استظل تحت ظلها بعد عيسى إلا محمد ﷺ»، بينما كان تعليق نسطور: «ما نزل تحت ظل هذه الشجرة بعد عيسى إلا نبي»[١٥].

زواج الرسول ﷺ

وتزوج النبي محمد ﷺ خديجة بنت خويلد وهو ابن خمسة وعشرين عاماً، بينما كانت هي في الأربعين، وعلى جانب من الثراء والجمال، «ويقال إنها تزوجته لما عرفت عنه من الأمانة والإخلاص والنباهة، وإنها رأت فيه علامات النجابة والنبوة، وإن غلامها ميسرة أخبرها حين رجع من رحلته مع الرسول من الشام بأنه شاهد في الهاجرة ملكين يظلانه من الشمس»[١٦].

لقد اتفقت الدراسات الاستشراقية على أن النبي شهر بأخلاقه السامية وأمانته وشرف نفسه، يقول الباحث والمستشرق البلجيكي ألفرد الفانز، في كتابه علم النفس: عن أخلاقه ﷺ وأمانته وزواجه من خديجة:

«شب محمد حتى بلغ، فكان أعظم الناس مروءةً وحلماً وأمانةً، وأحسنهم جواباً، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحش حتى عرف في قومه بالأمين، وبلغت أمانته وأخلاقه المرضية خديجة بنت خويلد القرشية، وكانت ذات مال، فعرضت عليه خروجه إلى

---

(١٥) رواه ابن منذر.

(١٦) رواه ابن سعد والبيهقي وأبو نعيم وابن عساكر.

الشام في تجارة لها مع غلامها ميسرة، فخرج وربح كثيراً، وعاد إلى مكة وأخبرها ميسرة بكراماته، فعرضت نفسها عليه وهي أيم، ولها أربعون سنة، فأصدقها عشرين بكرة، وتزوجها وله خمس وعشرون سنة، ثم بقيت معه حتى ماتت»[١٧].

هذا، وقد توقف المفكر الإنكليزي توماس كارليل عند زواج الرسول الحازم الأمين من خديجة التي أعجبت به، وحبه العميق إياها، وعيشه معها تلك العيشة الهادئة، حتى ثار في أعماقه ألق النبوة:

«وما ألذ وما أوضح قصته مع خديجة، وكيف أنه كان أولاً يسافر في تجارات لها إلى أسواق الشام، وكيف كان ينهج في ذلك أقوم مناهج الحزم والأمانة، وكيف جعل شكرها له يزداد وحبها ينمو، ولما زوجت منه كانت في الأربعين، وكان هو لم يتجاوز الخامسة والعشرين، وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحة.

ولقد عاش مع زوجه هذه على أتم وفاق وإلفة وصفاء وغبطة، يخلص لها الحب وحدها، ومما يبطل دعوى القائلين إن محمداً لم يكن صادقاً في رسالته، بل كان ملفقاً مزوراً أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة، لم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دوي، مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة، ولما يك إلا بعد الأربعين أن تحدث برسالة سماوية. ومن هذا التاريخ تبتدىء حوادثه وشواذه، حقيقة كانت أم مختلقة، وفي هذا التاريخ توفيت خديجة. نعم، لقد كان حتى ذاك الوقت يقنع بالعيش الهادىء الساكن، وكان حسبه من الذكر والشهرة حسن آراء الجيران

---

(١٧) ألفرد الفانز: علم النفس.

فيه، وجميل ظنونهم به، ولم يك إلا بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذي كان هاجعاً، وثار يريد أمراً جليلاً وشأناً عظيماً»[١٨].

وكتب المستشرق البلجيكي الأب هنري لامنس (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧) الذي عرف بدراسته عن عرب الجاهلية والعهد الأموي، فصلاً في أحد مؤلفاته «عهد الإسلام» يقول:

«إن محمداً بعد أن تزوج بخديجة أصبح معروفاً في قومه، وكان الناس يجلون أوصافه ويحمدون سيرته، ويلقبونه بالأمين أي الصادق الذي يعتمد عليه»[١٩]

ويقول غلوب باشا في كتابه الفتوحات العربية الكبرى:

«وحرر ثراء خديجة زوجها محمداً من العوز، وفسح له المجال لاحتلال مركز اجتماعي مرموق في مجتمع مكة الذي يقدر الثراء»[٢٠].

وهنا لا بد لنا من وقفة، عند آراء المستشرقين أمثال لامنس وغلوب باشا ممن عزوا تبوّؤ محمد مكانة مرموقة في مكة بفضل ثروة زوجته خديجة.

ومن إقرارنا بأن زواجه يسّر له شؤون حياته وحرره من المشاكل المادية، ليجعله أكثر تفرغاً للنواحي الروحية، ولكن هيهات لهذا أن يعزز مكانته الاجتماعية ويدفعه لتسنُّم ذرى المجد بسبب ثروة زوجه، لأنه كان أبعد عن

---

(١٨) توماس كارليل: الأبطال ٦٨.

(١٩) هنري لامنس: عهد الإسلام، ص ٥٥.

(٢٠) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٥٧.

حياة البذخ، دائم التبتل والتأمل، بل يمكن القول إن نجاح الرسول ﷺ مرده سمو مكانته في قبيلته وسمو أخلاقه، وأمانته وعصمته...

يقول المستشرق الفرنسي «مارسيل بوازار» في كتابه «إنسانية الإسلام»:

«هذا، ولقد أمّن له هذا الزواج اليسر والرخاء، فكان يقضي أوقات الفراغ في عمله بالتجارة في العزلة والتأمل في ما بلغته الأقوام العربية من التردي الخلقي، كما كان يخلو ـ قبل رسالته بثلاثة أعوام ـ إلى غار حراء خلال شهر رمضان للتبتل وتوزيع الطعام على الفقراء»[٢١].

ويتحدث الباحث الإنكليزي مونتجمري وات في كتابه «محمد في مكة» أن الرسول ﷺ بعد زواجه من خديجة، أخذ يرتقي سلم النجاح في مجتمعه المكي، لمكانته في عشيرته ولأخلاقه السامية... وأن خديجة رغم اهتمامها بالمسائل المادية كانت أعجب بكفاءاته الروحية وخير معوان له في المرحلة التالية، يقول:

«كانت السنوات التي تلت زواجه سنوات إعداد لعمله في المستقبل. ولم يحفظ لنا شيء عنها يسمح لنا بإعادة تكوين مراحل هذا الاستعداد. وأفضل ما نفعل هو أن نقوم ببعض الاستنتاجات مما وصلنا فيما بعد. كهذه الآيات في سورة الضحى (٩٣/٦ ـ ٨) التي يبدو أنها ترجع لتجارب محمد الأولى.

﴿ألَمْ يجدكَ يتيماً فآوى، ووجدكَ ضالاً فهدَى، ووجدكَ عائِلاً فَأَغْنى﴾.

---

(٢١) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص ٢١.

يمكن أن نستنتج من هذه الآيات أن إحدى مراحل تفتحه كانت إدراكه أن يد الله قد أخذت بيده بالرغم من مصائب الدهر. وسنعرف بعض الإشارات إلى هذه السنوات الغامضة فيما بعد»[٢٢].

وكانت خديجة رضى الله عنها خير رفيقة الحياة في مرحلة نبوته اللاحقة، وأماً لأولاده، يقول إتيين دينيه:

«كانت خديجة أول زوجة بنى بها الرسول. وبقيت ــ طيلة حياتها ــ زوجه الوحيدة المحببة التي لا يجد غيرها إلى قلبه سبيلاً. وقد أنجبت له سبعة أولاد، ثلاثة ذكور هم: القاسم، والطاهر، والطيب، وأربع إناث: رقية، وزينب، وأم كلثوم، وفاطمة. وبعد مولد القاسم الذي كان أول من أنجب الرسول من الذكور كُنّي محمد بأبي القاسم. لكم سعد محمد بأن منحه الله طفلاً ذكراً، ولكم أعز محمد هذا الطفل وأحبه، ولكم حزن حين أصابته فيه المقادير، وهو ما يزال بعد في دور الطفولة. وأراد الله أن يكون مصير الطاهر والطيب مصير القاسم، فمات الجميع قبل بعثة الرسول.

أما البنات فقد عشن إلى ظهور الإسلام وكن من أوليات من أسلمن، وساعدن جاهدات، في سبيل الله ورسوله»[٢٣].

المثل الأعلى في الاستقامة والأمانة

وأجمع مؤرخو السيرة على استقامة الرسول ﷺ وأمانته التي اعترف

(٢٢) مونتجمري وات: محمد في مكة (ترجمة شعبان بركات)، ص ٧٥.

(٢٣) إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص ٩٩.

فيها أعداؤه قبل أصدقائه ... وكان يلقب قبل البعثة بالأمين .... حتى أن زواج خديجة منها سببه استقامته ، يقول أستاذ اللغات الشرقية ورئيس مجمع البحوث والآداب في باريس المستشرق الفرنسي كليمان هوار (١٨٥٤ ــ ١٩٢٧) في الجزء الأول من كتابه : « تاريخ العرب » :

« كيف تعرف محمد إلى خديجة ، وكيف أمكن أن يحصل على ثقتها ويتزوج بها ، الجواب على الشق الأول لا يزال غير معروف عندنا ، وأما على الشق الثاني فقد اتفقت الأخبار على أن محمداً كان في الدرجة العليا من شرف النفس ، وكان يلقب بالأمين ، أي بالرجل الثقة المعتمد عليه إلى أقصى درجة ، إذ كان المثل الأعلى في الاستقامة »(٢٤) .

وعن رفيع أخلاقه وسامي خصاله وعصمته من الانزلاق في مهاوي الرذيلة يتحد المستشرق جرسان دتاسي ، قائلاً :

« إن محمداً ولد في حضن الوثنية ، ولكنه منذ نعومة أظفاره أظهر بعبقرية فذة ، انزعاجاً عظيماً من الرذيلة وحباً حاداً للفضيلة ، وإخلاصاً ونية حسنة غير عاديين إلى درجة أن أطلق عليه مواطنوه في ذلك العهد اسم الأمين »(٢٥) .

وبديهي أن يعتبر الباحثون المسلمون والمؤرخون العرب تلك الصفات ، و هذه السجايا من دلائل النبوة ، وتتمثل أشد ما تتمثل بعصمة الله رسوله المرتقب من أجواء الرذيلة الشائعة في جاهلية العرب ، وأنه صلوات الله عليه

---

(٢٤) كليمان هوار : تاريخ العرب .

(٢٥) جرسان دتاسي : نقلاً عن كتاب « هذا هو الإسلام » ، ص ٨٧ .

كان يشعر انطلاقاً من حدسه بأن عليه الابتعاد عن المعاصي والموبقات ، وأن الله جلت عظمته اختاره لأداء رسالة عظيمة... وعن هذا الأمر يتحدث الباحث الأرجنتيني دون بايرون (١٨٣٩ ـــ ١٩٠٠) في مؤلفه : « أتح لنفسك فرصة » فيقول :

« لا يبعد أن يكون محمد يحس بنفسه أنه في طينته أرقى من معاصريه ، وأنه يفوقهم جميعاً ذكاءً وعبقريةً ، وأن الله اختاره لأمر عظيم ، وقد اتفق المؤرخون على أن محمد بن عبد الله كان ممتازاً بين قومه بأخلاق حميدة ، من صدق الحديث والأمانة والكرم وحسن الشمائل والتواضع حتى سماه أهل بلده الأمين ، وكان من شدة ثقتهم به وبأمانته يودعون عنده ودائعهم وأماناتهم ، وكان لا يشرب الأشربة المسكرة ، ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً ، وكان يعيش مما يدره عليه عمله من خير ، ذلك أن والده لم يترك له شيئاً يذكر ، ولما تزوج خديجة كان يعمل بأموالها »[٢٦] .

إذاً ، كانت حياة الرسول الأولى ، قبل أن ينزل عليه الوحي حياة الهدوء والسلام ، يميل للدعة ، مما وقف تجاهه المستشرق الإيرلندي السير وليم موير (١٨٠٨ ـــ ١٨٦٧) في كتابه « الإسلام » ، فقال :

« إن محمداً لم يكن في وقت من الأوقات طامعاً في الغنى ، إنما سعيه كان لغيره ، ولو ترك الأمر لنفسه لآثر أن يعيش في هدوء وسلام قانعاً بحالته » .

وقال في مكان آخر :

---

(٢٦) دون بايرون : أتح لنفسك فرصة (تعريب عبد المنعم محمد الزيادي) .

«إن النبي محمداً في شبابه طبع بالهدوء والدعة والطهر والابتعاد عن المعاصي التي كانت قريش تعرف بها»[٢٧].

ويقول المستشرق سيديو، في الجزء الأول من كتابه: «تاريخ العرب»:

«ولقد بلغ محمد من العمر خمساً وعشرين سنة استحق بحسن سيرته واستقامته مع الناس أن يلقب بالأمين ثم استمر على هذه الصفات الحميدة حتى نادى بالرسالة ودعا قومه إليها فعارضوه أشد معارضة، ولكن سرعان ما لبوا دعوته وناصروه، وما زال في قومه يعطف على الصغير ويحنو على الكبير، ويفيض عليهم من عمله وأخلاقه»[٢٨].

وعن هذه القضية يتحدث المؤرخ والمستشرق الإنكليزي السير موير في كتابه: «حياة محمد»:

«إن محمداً نبي المسلمين لُقب بالأمين منذ الصغر بإجماع أهل بلده لشرف أخلاقه، وحسن سلوكه. ومهما يكن هناك من أمر فإن محمداً أسمى من أن ينتهي إليه الواصف، ولا يعرفه من جهله. وخبير به من أنعم النظر في تاريخه المجيد، وذلك التاريخ الذي ترك محمداً في طليعة الرسل ومفكري العالم»[٢٩].

الأمين وبناء الكعبة

ولما بلغ النبي محمد ﷺ من عمره الخامسة والثلاثين، تعرضت

---

(٢٧) وليم موير: الإسلام، ص١٠٣.

(٢٨) سيديو: تاريخ العرب، ص٥٨.

(٢٩) موير، وليم: حياة محمد، ص٢٠.

الكعبة للهدم، فعمدت قريش إلى بنائها، فلما تنازع القرشيون فيما بينهم من الذي سيضع الحجر الأسود في مكانه، اتفقوا على تحكيم أول من يخرج لهم،.... فكان ﷺ أول من خرج ،فحكم بينهم بأن يجعلوا الحجر الأسود في ثوب ثم يرفعه من كل قبيلة رجل.

وجاء في إحدى روايات كتب الحديث الشريف: أنهم قالوا: نحكّم أول من يدخل من باب بني شيبة، فكان أوَل من دخل منه، فأخبروه فأمر بثوب فوضع الحجر في وسطه، وأمر كل فخذ من قبائل قريش بأن يأخذ بطائفة من الثوب فرفعوه ثم أخذه فوضعه بيده الشريفة[٣٠].

وقد استرعت هذه الحادثة انتباه المستشرق الألماني أغسطينوس موللر (١٨٤٨ــ ١٨٩٤) الذي درس اللغة العربية في فيينا، فتوقف عندها ملياً، وقال في كتابه «الإسلام»:

«ذكر أن قريشاً هدمت الكعبة، وكان النبي هو ابن ــ ٣٥ــ سنة يشتغل معهم، وتعرض لتنازع قريش برفع الحجر الأسود فيضعه مكانه، ثم تعرض لسياسة النبي محمد في هذا المقام وأنه أدهش قريشاً بسياسته الرشيدة.

ولقد راح بعض المستشرقين يعلق على هذا الحادث تعليقات مليئة بالتقدير والإعجاب لهذه الشعلة العبقرية التي مكنت محمداً من تفهم الموقف بسرعة عظيمة، والتوسل بهذه الحيلة البريئة إلى إرضاء زعماء قريش جميعاً»[٣١].

---

(٣٠) رواه الإمام أحمد وأبو داود الطيالسي والبيهقي وأبو نعيم ويعقوب بن سفيان وحسنه الهيثمي.

(٣١) اغسطينوس موللر: الإسلام.

كما توقف الأب هنري لامنس عند هذه الحادثة فقال:

«لما اختلفت قريش في قضية بناء الكعبة، وأي فخذ منها يجب أن يعهد إليه بوضع الحجر الأسود في مكانه، وكادوا يقتتلون، فاتفقوا على أن يعهدوا بذلك إلى محمد بن عبد الله الهاشمي، قائلين هذا هو الأمين»[٣٢].

حادثة بناء الكعبة مقدمة النبوة

لقد ربط المستشرق الأسوجي أرثر جيلمان في كتابه: «الشرق» بين هذه الحادثة التي منعت اقتتال القبائل العربية التي هي بطون لقريش ووحدت إرادتهم في بناء الكعبة، وبين المرحلة اللاحقة لبدء البعثة، والتي تشكل مقدمة للنبوة بقوله:

«لا بد أن يكون محمد قد تأثر بإعجاب القوم وتقديرهم العظيم هذه الفكرة التي بسطت السلام بين مختلف القبائل، ولا يبعد أن يكون محمد قد أخذ يحس بنفسه أنه من طينة أرقى من معاصريه، وأنه يفوقهم جميعاً ذكاءً وعبقريةً، وأن الله قد اختاره لأمر عظيم، وقد اتفق المؤرخون على أن محمداً كان ممتازاً بين قومه بأخلاق جميلة، من صدق الحديث، والأمانة، والكرم وحسن الشمائل، والتواضع، حتى سماه أهل بلده ــ الأمين ــ وكان من شدة ثقتهم به يودعون عنده ودائعهم وأماناتهم، وكان لا يشرب الأشربة المسكرة ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً»[٣٣].

(٣٢) هنري لامنس: عهد الإسلام، ص ٥٦.

(٣٣) أرثر جيلمان: الشرق، ص ١١٧.

أجل، لقد شهر عن الرسول ابتعاده عن الوثنية السائدة في قريش، وكان دائم التفكير في أحوال أمته، ينأى عن كل أسباب التلوث الفكري والعملي، فعَصَمته إرادة الله عن ارتكاب المعاصي، يأنس في نفسه الحدس فيما هو مقبل عليه، بمرحلة تأمله في الحقيقة الأزلية لسر الوجود وجوهر الألوهية.... يقول المستشرق كادا دوفيك (١٨٠٥ــ١٨٧٧) في مؤلفه: «مفكرو الإسلام»:

«إن محمداً من سن الخامسة والعشرين إلى الأربعين كان كثير التفكير هادئاً ساكناً، وكان حليماً تقياً حسن الأخلاق، وإنه عندما بلغ الأربعين توجهت جميع قواه العقلية إلى جهة التأمل في جوهر الألوهية، والبحث عن الحقيقة الدينية ومذ ذاك أخذ يعتزل الناس ويخلو بنفسه في غار حراء بقرب مكة»(٣٤).

مقدمات النبوة وسر الوجود

إن هذه الحالة الفكرية التأملية التعبدية التي عاشها الرسول ــ عليه السلام ــ كانت عملياً المقدمة للنبوة، فالبحث عن الحقيقة في شؤون الحياة، وواقع العرب، ومسائل الدين لا بد أن يقود إلى معرفة الحقيقة، وأن يقترب الإنسان أكثر فأكثر من خالقه، خاصة، وأنه كان على موعد مرتقب مع الوحي الإلهي.... يقول توماس كارليل في هذا الصدد:

«لقد كان سر الوجود يسطع لعينيه ــ كما قلت ــ بأهواله ومخاوفه وروانقه ومباهره، لم يك هناك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه، فكان لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه: «هأنذا». فمثل

---

(٣٤) كادا دوفيك: مفكرو الإسلام.

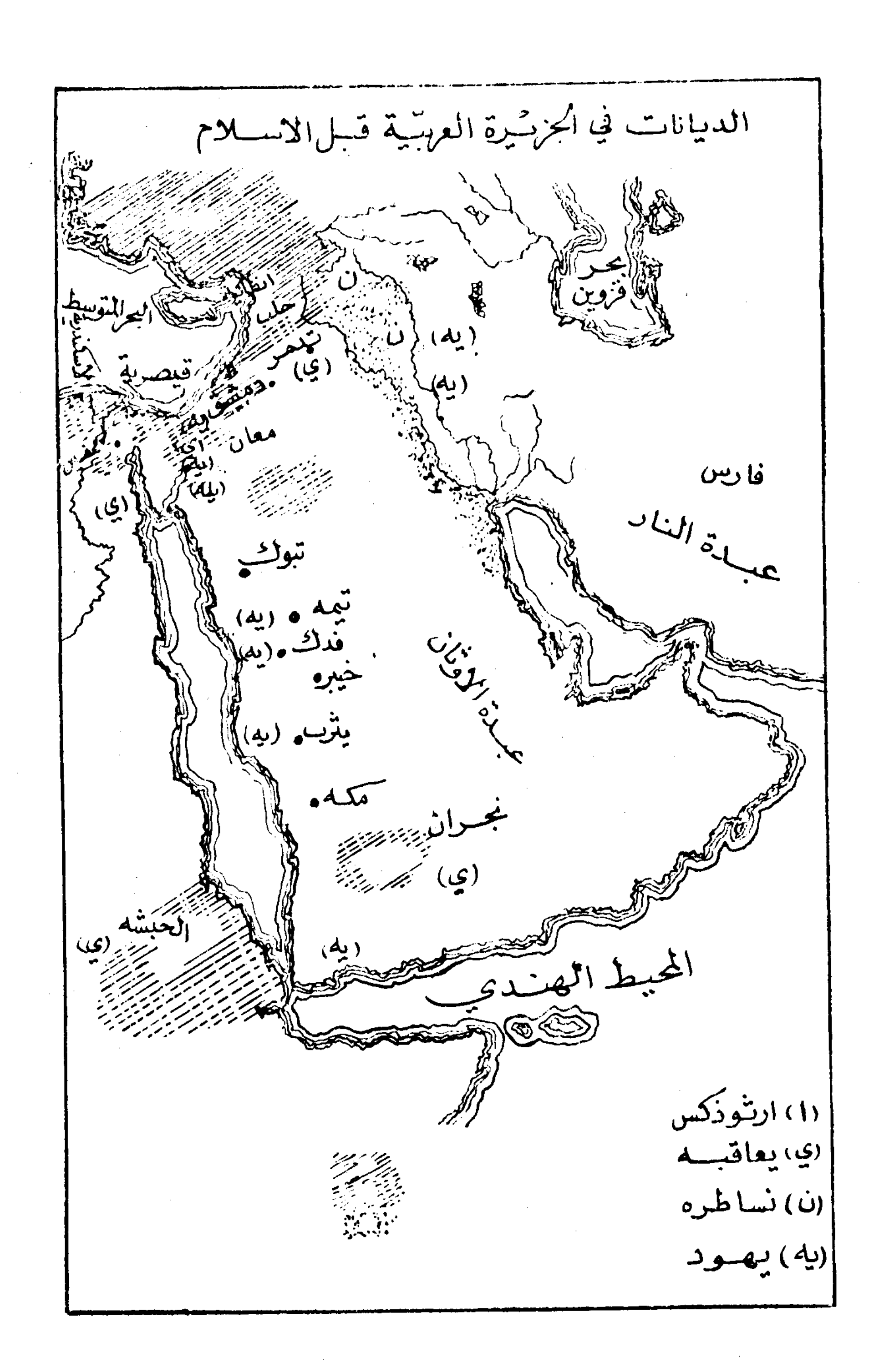
هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلّهي مقدس، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة، فإذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية، وكل القلوب واعية، وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول جفاء، وما زال منذ الأعوام الطوال، منذ أيام رحله وأسفاره، يجول بخاطره آلاف من الأفكار: ماذا أنا؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذي أعيش فيه، والذي يسميه الناس كوناً؟ وما هي الحياة؟ وما هو الموت؟ وماذا أعتقد؟ وماذا أفعل؟ فهل أجابته على ذلك صخور جبل حراء، أو شماريخ طود الطور، أو تلك القفار والفلوات؟ كلا ولا قبة الفلك الدوار، واختلاف الليل والنهار، ولا النجوم الزاهرة والأنواء الماطرة. لم يجبه لا هذا ولا ذاك، وما للجواب عن ذلك إلا روح الرجل وإلا ما أودع الله فيه من سره.

وهذا ما ينبغي لكل إنسان أن يسأل عنه نفسه، فقد أحس ذلك الرجل القفري أن هذه هي كبرى المسائل وأهم الأمور، وكل شيء عديم الأهمية في جانبها، وكان إذا بحث عن الجواب في فرق اليونان الجدلية، أو في روايات اليهود المبهمة، أو نظام وثنية العرب الفاسدة، لم يجده. وقد قلت إن أهم خصائص البطل، وأول صفاته وآخرها، هي أن ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن، فأما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات، فينبذها حميدة كانت أو رديئة. وكان يقول في نفسه: «هذه الأوثان التي يعبدها القوم لا بد من أن يكون وراءها ودونها شيء ما هي إلا رمز له وإشارة إليه، وإلا فهي باطل وزور، وقطع من الخشب لا تضير ولا تنفع».

وما لهذا الرجل والأصنام، وأنى تؤثر في مثله أوثان ولو

رصعت بالنجوم لا بالذهب، ولو عبدها الجحاجح من عدنان والأقيال من حمير، أي خير له في هذه ولو عبدها الناس كافة؟ إنه في وادٍ وهم في واد،هم يعمهون في ضلالهم، وهـو ماثل بين يدي الطبيعة قد سطعت لعينيه الحقيقة الهائلة، فإما أن يجيبها وإلا فقد حبط سعيه، وكان من الخاسرين. فلتجبها يا محمد، أجب، لا بد من أن توجد الجواب، أيزعم الكاذبون أنه الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام محمداً وأثاره؟ حمق وأيم الله، وسخافة وهوس، أي فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب، وفي تاج قيصر وصولجان كسرى، وجميع ما بالأرض من تيجان وصوالجة، وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر، أفي مشيخة مكة، وقضيب مفضض الطرف، أو في ملك كسرى وتاج ذهبي الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة؟ كلا، إذن فلنضرب صفحاً عن مذهب الجائرين القائل إن محمداً كاذب ونعد مواقفهم عاراً وسبةً، وسخافةً وحمقاً، فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع»[٣٥].

(٣٥) توماس كارليل: الأبطال، ص ٦٩ ــ ٧٠.


الديانات في الجزيرة العربية قبل الاسلام
بحر قزوين
فارس
عبادة النار
البحر المتوسط
حلب
تدمر
(ي)
قيصرية
دمشق
معان
(ن)
(يه)
(يه)
(ايله)
(ي)
تبوك
تيمه (يه)
فدك (يه)
خيبره
يثرب (يه)
مكه
عبادة الاوثان
نجران
(ي)
الحبشه
(ي)
(يه)
المحيط الهندي
(ا) ارثوذكس
(ي) يعاقبه
(ن) نساطره
(يه) يهود



الباب الثاني

من البعثة إلى الهجرة

١ ــ الوحي وبدء البعثة .
٢ ــ الدعوة الإسلامية في مسيرتها الكفاحية .

الفصل الأوّل

البعثة



الوحي وبدء البعثة

لقد عرف عن النبي ﷺ أنه كان دائب الاعتكاف يتأمل في سر الوجود، حبب إليه الخلوة والتحنث، يقضي الأيام الطوال في العزلة والتعبد...

وكان نزول الوحي عليه في شهر رمضان من عام ٦١٠ ميلادية حين بلغ الأربعين من عمره وهو في غار حراء، فهو المصطفى المختار ليكون للناس كافة بشيراً ونذيراً....

يتحدث المستشرق الفرنسي جان تورنون كرو (١٨٦٧ ـــ ١٩٢٤) في كتابه «العرب» عن مقدمات النبوة وبدء البعثة في مقدمة كتابه بقوله:

«إن الله اصطفى محمداً لإرشاد أمته، وعهد إليه هدم ديانتهم الكاذبة وإنارة أبصارهم بنور الحق، فأخذ من ذلك العهد ينادي باسم الواحد الأحد، بحسب ما أوحي إليه وبمقتضى عقيدته الراسخة». إلى أن قال:

«وقذف في نفس محمد مجموعَ كتاب ملآن بالأسرار والإلٓهية، وأوحى إليه مجموعة حقائق تجتاز مسافة عقله الطبيعي، لذلك فإن

الله علم الإنسان بالقلم، علمه مالم يعلم، هذا هو سر الوحي، وهو سر الكلمة المكتوبة، وكانت الكلمة المكتوبة وحياً إلهياً»[1].

ويتابع الباحث الفرنسي حديثه من بدء البعثة بقوله:

«وفي نواحي سنة ٦١٠ للميلاد، بلغ محمد أشده، فكان لا يقدر أن يتصور حال قومه بدون أن يتألم، وكان يرى أن أمراً ضرورياً ينقصه وينقص قومه، وكان العرب، كل قبيلة منهم عاكفة على صنمها، وكانوا يقولون بالجن والأشباح والغيلان، ولكنهم كانوا في غفلة عنها، وكانت هذه الغفلة هي الموت الروحي، وكان قلبُ محمد قد خلا من كل فكر غير الفكر بالله، وكان قد تجرد من كل قوة غير هذه القوة، وكان ليس في نظره غير واجب الوجود الأحد الصمد، إلى أن قال: «وأحب محمد في تلك الفترة العزلة، فكان يشعر في خلوته في جبل حراء بسرور عميق، يتزايد يوماً فيوماً، فكان يقضي هناك الأسابيع وليس معه إلا قليل من الغذاء، لأن نفسه كانت تلتذ بالصوم والتهجد»[2].

ويتحدث المفكر الإنكليزي توماس كارليل في كتابه الأبطال عن اعتكاف الرسول ﷺ وتفكره بحقائق الحياة وأسرار الكون حين يقول:

«وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس في شهر رمضان، فينقطع إلى السكون والوحدة دأب العرب وعادتهم، ونعمت العادة ما أجل وأنفع، ولا سيما الرجل كمحمد، لقد كان يخلو إلى نفسه

---

(١) جان تورنون كرو: العرب، مقدمة الكتاب.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٥.

فيناجي ضميره صامتاً بين الجبال الصامتة، متفتحاً صدره لأصوات الكون الغامضة الخفية. أجل، حبذا تلك عادة ونعمت، فلما كان في الأربعين من عمره وقد خلا إلى نفسه في غار بجبل (حراء) قرب مكة شهر رمضان، ليفكر في تلك المسائل الكبرى، إذ هو قد خرج إلى خديجة ذات يوم، وكان قد استصحبها ذلك العام وأنزلها قريباً من مكان خلوته، فقال لها: إنه بفضل الله قد استجلى غامض السر واستثار كامن الأمر، وأنه قد أنارت الشبهة وانجلى الشك وبرح الخفاء، وأن جميع هذه الأصنام محال، وليست إلا أخشاباً حقيرة، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فهو الحق وكل ما خلاه باطل، خلقنا ويرزقنا وما نحن وسائر الخلق والكائنات إلا ظل له وستار يحجب النور الأبدي والرونق السرمدي، الله أكبر ولله الحمد، ثم الإسلام وهو أن نسلم الأمر لله، ونذعن له، ونسكن إليه، ونتوكل عليه، وأن القوة كل القوة في الاستنامة لحكمه، والخضوع لحكمته، والرضا بقسمته، أية كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة، ومهما يصبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فَلْنَلْقَهُ بوجه مبسوط ونفس مغتبطة راضية، ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو»[٣].

ويتابع كارليل الحديث عن هذا الاعتكاف والتفكر في شؤون الحياة والكون، إذ كشفت له الحقيقة وأنيرت بصيرته، مع نزول الوحي عليه، بقوله:

«نعم، هو نور الله قد سطع في روح ذلك الرجل فأنار ظلماتها، هو ضياء باهر كشف تلك الظلمات التي كانت تؤذن

---

(٣) توماس كارليل: الأبطال، ص ٧٠ ـ ٧١.

بالخسران والهلاك، وقد سماه محمد ــ عليه السلام ــ وحياً و «جبريل»، وأينا يستطيع أن يحدث له اسماً، ألم يجيء في الإنجيل أن وحي الله يهبنا الفهم والإدراك، ولا شك أن العلم والنفاذ إلى صميم الأمور وجواهر الأشياء سرٌّ من أغمض الأسرار لا يكاد المنطقيون يلمسون منه إلا قشوره. وقد قال نوفاليس: «أليس الإيمان هو المعجزة الحقة الدالة على الله؟» فشعور محمد ــ إذ اشتعلت روحه بلهيب هذه الحقيقة الساطعة ــ بأن الحقيقة المذكورة هي أهم ما يجب على الناس علمه، لم يك إلا أمراً بديهياً، وكون الله قد أنعم عليه بكشفها له ونجّاه من الهلاك والظلمة، وكونه قد أصبح مضطراً إلى إظهارها للعالم أجمع، هذا كله هو معنى كلمة (محمد رسول الله) وهذا هو الصدق الجلي والحق المبين»[٤].

لقد أنار نزوع الرسول ﷺ إلى الوحدة والتأمل الوجداني العميق، مفكراً بالشؤون الدينية والقضايا الاجتماعية، أنار له الطريق لإدراك جوانب الفساد وضروب الضلال في المجتمع المكّي، كما كشف له الحقيقة الأزلية: حتمية وجود خالق فرد صمد، ولا بد بالتالي أن يخضع هذا الكون الكبير لنواميس تديره، أكبر من أصنام قريش وأوثانها.

ويتحدث المؤرخ الألماني كارل بروكلمان في كتابه: «تاريخ الشعوب الإسلامية» عن بعثة الرسول بقوله:

«وأغلب الظن أن محمداً قد انصرف إلى التفكير في المسائل الدينية في فترة مبكرة جداً، وهو أمر لم يكن مستغرباً عند أصحاب

(٤) المصدر السابق، ص ٧٢.

النفوس الصافية من معاصريه الذين قصرت العبادة الوثنية عن إرواء ظمئهم الروحي. وتذهب الروايات إلى أنه اتصل في رحلاته ببعض اليهود والنصارى، أما في مكة نفسها فلعله اتصل بجماعات من النصارى كانت معرفتهم بالتوراة والإنجيل هزيلة إلى حد بعيد. ومع الأيام أخذ الإيمان بالله يعمر قلبه ويملك عليه نفسه، فيتجلى له فراغ الآلهة الأخرى»[٥].

ويجدر بنا أن نقف عند نقطة هامة، أثارها بروكلمان عرضاً، لكن وقف عندها الكثير من الباحثين الغربيين، وهي أن الرسول ﷺ قد أخذ من اليهود والمسيحيين أخبارهم السالفة، ومعلوماتهم الدينية والتاريخية ليشككوا بصدق الوحي، لينتهوا إلى القول بأن القرآن من تأليف محمد، ولقد أشار الباحث العربي اللبناني الدكتور عمر فروخ في تعليقه على كتاب بروكلمان بقوله:

«أكثر المبشرين والمستشرقين يذكرون أن الرسول اتصل ببعض النصارى واليهود وأخذ عنهم عدداً من المعلومات الدينية والتاريخية. ثم هم يذكرون أن هذه المعلومات كانت خاطئة أو ناقصة.

أما وجه الحق فخلاف ذلك. إلا أنني لا أريد أن أرد هنا على المبشرين والمستشرقين مفنداً جميع أقوالهم فذلك مما يطول، ومما اشتغل به نفر من العلماء أيضاً كالشيخ محمد عبده. ولكنني أقول إن العرب أنفسهم قالوا للرسول إن ما في القرآن يشبه بعض ما يقوله

(٥) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٣٤.

علماء اليهود، فنزلت الآيات الكريمة (٢٦/١٩٢ـ١٩٧):
﴿وإنه لتنزيلُ ربِ العالمين. نَزَلَ به الروحُ الأمينُ. على قلبكَ لتكونَ مِنَ المُنذرين. بلسانٍ عربيٍ مبينٍ. وإنهُ لفي زُبرِ* الأولين. أوَلم يكن لهم آيةً أن يعلمه علماء بني اسرائيل؟﴾.

فالخلاف إذن لا يتناول أن بعض المعلومات التي في القرآن تشبه بعض المعلومات التي في التوراة، بل في زعم هؤلاء بأن القرآن فهم هذه المعلومات فهماً خاطئاً في رأيهم أو أخذها من مصادر غير موثوقة. فالقضية كانت من العرب الأولين ومن المستشرقين اليوم قضية تعصب فقط»(٦).

طبيعة محمد الروحية

لقد كان الرسول ﷺ ذا طبيعة روحية عالية، جم التفكير، عميق التقوى، حساساً بطبعه، متديناً بفطرته، فرضت عليه أحواله الحياتية الخاصة وأسفاره وتعرفه على حقائق الحياة وتفكره بشؤون الكون، أن يكون مهيَّأً لحمل الرسالة.... يقول الباحث الإنكليزي المستشرق ،روم لاندو :

«وفي إمكان المرء أن يتخيل، في يسر، ما استشعره الشاب الحساس من وحدة وانفراد، والأثر الذي كان لا بد لهذا الوضع أن يتركه في تكوينه العقلي. والواقع أن ما نزل عليه بعد من وحي لم يهبط في خواء Vacuum، بل هبط في جو من الاستبطان

* زُبر: كتب.

(٦) عمر فروخ (في هامش بروكلمان، ص ٣٤).

Introspeetion المحتوم والتساؤل الروحي ـــ وهو الجو الذي يلازم في العادة حياة غلام فقد أباه وأمه، وعدم الأخوة والأخوات »[٧].

وإلى جانب كونه رجل فكر وذا طبيعة روحية، كان رجلاً عملياً واقعياً، أدرك نواحي الفساد في مجتمع قبلي وثني، فابتعد عنه وهداه التفكير إلى بلوغ الحقيقة الأزلية القائمة على فكرة الإآله الواحد... يتابع (روم لاندو)، قائلاً:

« كان محمد تقياً بالفطرة، وكان من غير ريب مهيَّأً لحمل رسالة الإصلاح التي تلقاها في رؤاه. وبالإضافة إلى طبيعته الروحية، كان في جوهره رجلاً عملياً عرف مواطن الضعف ومواطن القوة في الخلق العربي، وأدرك أن الإصلاحات الضرورية ينبغي أن تقدم إلى البدو الذين لا يعرفون انضباطاً وإلى المدينين الوثنيين، في آن معاً، على نحو تدريجي. وفي الوقت نفسه كان محمد يملك إيماناً لا يلين بفكرة الإله الواحد ـــ وهي فكرة لم تكن جديدة كل الجدة في بلاد العرب ـــ وعزماً راسخاً على استئصال كل أثر من آثار عبادة الأصنام التي كانت سائدة بين الوثنيين العرب »[٨].

أما الباحث العسكري جان باغوت غلوب، الذي عرف في البلاد العربية باسم غلوب باشا، حيث كان رئيساً لأركان الجيش الأردني، فقد كتب عن تحنث الرسول، ونزول الوحي عليه في كتابه: « الفتوحات العربية الكبرى »، بقوله:

---

(٧) روم لاندو: الإسلام والعرب، ص ٣١ ـــ ٣٢.

(٨) المصدر السابق، ص ٣٢.

«واقترب عام ٦١٠ ميلادية، وكان محمد قد بلغ الأربعين من عمره وازداد ميله إلى الوحدة والتأمل. وكان يهرب من طرقات مكة المحرقة المغبرة، ويلجأ إلى كهوف الجبال القريبة من الوادي العتيق الذي تقبع فيه المدينة ليقضي فيها أحياناً أياماً متوالية. وتسرح أفكار الرجل متأملاً في هذه القمم الجرداء الداكنة التي يراها من فتحات الكهوف، والتي لا تظهر عليها نأمة حياة، ولا تفصلها عن بعضها إلا شعاب عميقة ضيقة من الأخاديد والوديان الجافة، وتعود فتتركز على فلسفة الحياة الأخرى التي كان قد سمع نتفاً عنها من اليهود والنصارى، وعلى وجود إله واحد أحد قوي صمد عنده الجنة السرمدية والحياة السعيدة الأزلية، يمنحها للمؤمنين من عباده، وعنده جحيم بما فيها من عذاب لا نهاية له ينزله بالكفرة وغير الصالحين.

وكان يعود إلى بيته وقد أثقلته هذه الأفكار فيبوح بها إلى زوجته الوفية خديجة التي ما برح يجد عندها المستقر والمراح والحث والتشجيع وقد مزجت في رعايتها له بين حب الزوج وحنان الأم.

وألف محمد اللجوء إلى الغار في الجبال في فترات معينة من شهر رمضان طلباً للتأمل والتعبد والتفكير والتهجد. وبينما كان يتعبد في غار حراء حسب عادته إذ نزل عليه جبريل رأس الملائكة»(٩).

الوحي في كتب الحديث والسيرة

لقد اهتمت المصادر الإسلامية من كتب الحديث أو السيرة بمسألة الوحي، حين صدع الرسول محمد ﷺ بالرسالة، إذ كانت هذه الحادثة هي

(٩) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٥٩.

الانقلاب الخطير في حياة محمد ﷺ وبالتالي في حياة العرب... إذ بدأت منذ ذلك اليوم مرحلة تاريخية جديدة، مع الدعوة الإسلامية... ونجد هنا من المناسب أن نذكر إحدى روايات الحديث، من رواية للسيدة عائشة أم المؤمنين عن بدء الوحي بقولها:

«أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه، ـــ وهو التعبد الليالي ذوات العدد ـــ قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق ـــ وفي رواية: حتى فجأه الحق ـــ وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: قلت: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطّني، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطّني ثانيةً حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ: فقلت: ما أنا بقارىء؟ فأخذني فغطّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقرأ باسمِ ربِّكَ الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علَّمَ بالقلمْ، علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلَمْ﴾ (٩٦/١ ـــ ٥). فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زمّلوني، زمّلوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة ـــ وأخبرها الخبر ـــ: لقد خشيت على نفسي، فقالت له خديجة: كلَّا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي — وهو ابن عم خديجة، أخي أبيها — وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: «هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، ياليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك». فقال له الرسول ﷺ: أومخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلاَّ عودي، وإن يدركني يومك حياً أنصرك نصراً مؤزَّراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي»[10].

الوحي صوت الحقيقة الأبدية

هذا، وقد تناول عدد من المستشرقين قضية البعثة ونزول الوحي على النبي محمد ﷺ، وأن الصوت الذي سمعه في غار حراء كان حقاً هو صوت الحقيقة الأبدية التي أنزلها الله عليه عن طريق جبريل عليه السلام.

يقول الأب هنري لامنس:

«هكذا كان محمد بحراء، فكان ينشد الكون في تلك الجبال التي كان يذهب فيخلو بنفسه فيها متأملاً في السماء ذات الكواكب، إلى ما كان يسمعه من أعمق أعماق قلبه، وهو الرجل

(١٠) جامع الأصول في أحاديث الرسول، ج ١١، ص ٢٧٥ — ٢٧٦.

الأمي الفطري الصادق، وذلك الصوت هو صوت الحقيقة الأبدية»[11].

ويتابع الأب هنري لامنس، قوله:

«لم يكن محمد ممن لم يعرف العالم الباطن، نعم، لم يكن متصوفاً بالمعنى المعروف، إلا إنه كان ممن يرى أن الأمور التي في الغيب أعظم من الأمور التي تحت الحس، المشهود أدنى درجة من المحجوب، فالنظام الروحي في نظره هو الأهمُّ وهو الوجود الحقيقي»[12].

بينما كتب المستشرق اليوغسلافي الدكتور الترر بتكين (١٨٣٣ ـــ ١٩٠٧) في مؤلفه «الحياة تبدأ بالأربعين»، قائلاً:

«في إحدى ليالي شهر رمضان بينما كان محمد نائماً في أحد كهوف حراء، عاد فتجلى عليه ذلك الشبح، وفي يده قطعة من الحرير عليها كتابة، وقال له ذلك الشخص: اقرأ، فأجابه: لست بقارىء، فأعاد عليه القول ثانياً: اقرأ ـــ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق إلى آخر السورة فردد محمد هذه الكلمات، وأحسَّ بالنور قد أشرق عليه»[13].

أما المستشرق الروسي ماكس مايرهوف (١٨١٥ ـــ ١٨٨٧) فقد قال في كتابه: «العالم الإسلامي»:

---

(١١) هنرى لامنس: عهد الإسلام، ص ٦٢.

(١٢) المصدر السابق، ص ٨٠.

(١٣) الترر بتكين: الحياة تبدأ بالأربعين.

«إن محمداً عام ٦١٠ للميلاد كان كثير التفكير والانفراد، وكان يقصد إلى البادية ويخلو بنفسه في جبل حراء قرب مكة، فرأى ذات يوم رؤيا هي أن الملك جبريل تجلى له، وناوله كتاباً وقرأ عليه هذه الآيات هي السورة السادسة والتسعون من القرآن ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ الخ نزل عليه هذا الكلام وحياً فأخبر امرأته بما وقع، ثم جاء وحي آخر فيما بعد، فلما شعر تغطى بثوب فسمع هذه الكلمات ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر﴾ (٣/٧٤) ومنذ ذلك الحين اقتنع بأن الله اختاره مبشِّراً بعقيدة جديدة، وتسمى برسول الله ليدعو إلى الله بلسان عربي مبين»[١٤].

إن نزول الوحي على النبي محمد ﷺ كان إيذاناً ببدء المرحلة التاريخية الحاسمة الجديدة في حياته ــ عليه السلام ــ أولاً، وفي حياة شبه الجزيرة العربية ثانياً، لقد كان الإسلام منعطفاً تاريخياً كبيراً، ولا بد لانتشاره من أن يصطدم بكل القيم والعادات والتقاليد والعبادات السائدة... فالدعوة الجديدة تحمل في ثناياها خصوصية مرحلتها وعالمية الدعوة دونما تناقض أو تنافر، فهي تسعى إلى صلاح الإنسان وصلاح المجتمع، ونبذ العادات القبلية الذميمة كوأد البنات والعبادات الوثنية ونقلها إلى العادات الإنسانية السامية، ورأسها العبادة التوحيدية التي تقول بوحدانية الله وربوبيته.

صلاحية الرسالة ووحدانيتها

لذا، فإن الكثير من المستشرقين المنصفين رأوا في دعوة الرسول دعوة إصلاحية قوامها صلاح المجتمعات وتوحيديته: أي المناداة بوحدانية الله، وإن

---

(١٤) ماكس مايرهوف: العالم الإسلامي.

مرحلة النبوة الحقة التي جعلت من الرسول قطب أقطاب رجالات التاريخ العظماء، وبطل الأبطال الأفذاذ، وخاتم الأنبياء أصحاب الرسالات الخالدة.

يقول المستشرق والمؤرخ الفرنسي رينيه غروسيه صاحب كتابي «الحروب الصليبية» و «مدنيات من الشرق» في مؤلفه الأخير:

«كان محمد لما قام بهذه الدعوة شاباً كريماً نجداً، ملآن حماسة لكل قضية شريفة، وكان أرفع جداً من الوسط الذي يعيش فيه، وقد كان العرب يوم دعاهم إلى الله منغمسين في الوثنية، وعبادة الحجارة، فعزم على نقلهم من تلك الوثنية إلى التوحيد الخالص البحت، وكانوا يهتفون بالفوضى، وقتال بعضهم بعضاً فأراد أن تؤسس لهم حكومة ديموقراطية موحدة، وكانت لهم عادات وحشية همجية صرفة، فأراد أن يلطف أخلاقهم، ويهذب من خشونتهم»(١٥).

بينما نظر إليه المستشرق السويسري إدوار مونتيه (١٨١٠ — ١٨٨٢) — مدير جامعة جنيف ومدرس اللغات الشرقية — في مؤلفه: «المدنية الشرقية»، نظرته إلى الأنبياء التوراتيين القدماء بقوله:

«كان محمد نبياً بالمعنى الذي كان يعرفه العبرانيون القدماء، ولقد كان يدافع عن عقيدة خالصة لا صلة لها بالوثنية، وأخذ يسعى لانتشال قومه من ديانة جافة لا اعتبار لها بالمرة، وليخرجهم من حالة الأخلاق المنحطة كل الانحطاط، ولا يمكن أن يشك لا في إخلاصه، ولا في الحمية الدينية التي كان قلبه مفعماً بها»(١٦).

---

(١٥) رينيه غروسيه: مدنيات الشرق.

(١٦) إدوار مونتيه: المدنية الشرقية، ص ٤٧.

ويقول مونتيه نفسه في مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن:

«كان محمد نبياً صادقاً، كما كان أنبياء بني إسرائيل في القديم، كان مِثْلَهم يُؤتى رؤيا ويوحى إليه، وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الألوهية متمكنتين فيه كما كانتا متمكنتين في أولئك الأنبياء أسلافه فتحدث فيه كما كانت تحدث فيهم، ذلك الإلهام النفسي، وهذا التضاعف في الشخصية اللذين يحدثان في العقل البشري المَرائيّ والتجليات والوحي والأحوال الروحية التي من بابها»(١٧).

هذا، ولا بد من وقفة مطولة في دراسة صدق الرسول وصحة الرسالة الإسلامية، في بحث مستقل سندرس فيه حقيقة الوحي، وأن محمداً لم يؤلف القرآن، ونرد على المزاعم الاستشراقية التي اتهمت الرسول بالصرع والجنون والاحتيال، وبأن الوحي الذي سمعه في رؤاه الصادقة كان صوت الحقيقة الأبدية، صوت الله الذي اختاره ليكون رسولاً للناس كافة ..... ونقول: إن الرسالة التي نزلت على الرسول ﷺ قد حملته أعباء هائلة فوق طاقة البشر، يقول إتيين دينيه:

«نزل الوحي كجذوة وهَّاجة بددت من نفس محمد كل شك، وأشعلت فيها تلك الآمال اللاشعورية، وتلك القوى الكامنة التي كدسها في نفسه خمس عشرة سنة تقضت في التأمل والتحنث. لقد فتح الوحيُ عينيه على آفاق شاسعة. وأطلعه على ما يجب أن يقوم به نحو تلك الرسالة من جهود جبَّارة خطرة. لم يدر بخلد محمدٍ يوماً ما أنه سيحمل هذا العبء الهائل، ولئن كان بعض الرهبان قد

---

(١٧) إدوار مونتيه: نقلاً عن الوحي المحمدي، ص ٤٥.

تنبؤوا بشيء منه، فإنه لم يعر تنبؤاتهم أي اهتمام، بل لقد نسيها، وإن اضطرابه وخوفه، حينما فوجىء بالوحي، من أن يكون فريسة لتخيلات شيطانية، ليؤكدان لنا صحة ما نقول.

وهذا محمد الذي كان يفر من الاختلاط ببني جنسه، والذي كان يأبى أية وظيفة من تلك الوظائف العامة، التي كان مواطنوه على استعداد لأن يمنحوها إياه، وقد أصبح ــ تحت تأثير الوحي ــ مستعداً لأن يواجه الحياة الصاخبة الجارفة، وقد امتلأ قلبه إيماناً مكيناً، وأفعمت نفسه بشجاعة لا تلين، وتأهب للقيام بالرسالة، بل تأهب للقيام بأعظم رسالة اؤتمن عليها إنسان. ولقد تأهب، في غير ما خوف أو إشفاق من تلك الامتحانات الهائلة التي لا مفر من أن يبتلى بها أمثاله من الهداة المرسلين. في تلك الليلة الخالدة، ليلة القدر، نزل القرآن كله من السماء العليا حيث كان محفوظاً بها إلى السماء الدنيا، التي تنتشر مباشرة فوق كرتنا الأرضية. وفي هذه السماء الدنيا وضع القرآن في بيت العزة، ذلك البيت الذي على سمت بيت الله: الكعبة المقدسة»[18].

(١٨) إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص ١١٠.



الفصل الثاني

الدعوة الإسلامية في مسيرتها الكفاحية



المسلمون الأوائل وسرية الدعوة

لقد كان قميناً بتلك الدعوة الإسلامية أن تكون كفاحية المسيرة، وخاصة فيما يتصل بانطلاقتها التي بدأت سراً، ومن ثم بالمجاهرة والعلانية، إذ اقتصرت بادىء ذي بدء على قلة من المسلمين، في طليعتهم زوج الرسول خديجة من النساء وأبو بكر من الرجال، وعلى بن أبي طالب من الفتيان، وزيد بن الحارثة من الموالي، وبلال من العبيد.

ومن ثم انضم إلى صفوف المسلمين عدد من الرجالات الذين كان لهم دورهم البارز في التاريخ الإسلامي... يتحدث «إتيين دينيه» عن تلك المجموعة الإسلامية الأولى وممارستها العقيدة سراً، وبالتالي مسيرة الحركة في هذه المرحلة بقوله:

«هذه المجموعة الصغيرة من المؤمنين كانت تحيا حياة مليئة بالانفعالات والعواطف. حقاً ما أجمل اجتماعهم في عبادة الله مستخفين عن أعين الناس. لشد ما كانوا يأخذون حذرهم كيلا يثيروا انتباه المشركين.

وفي هذه الظروف لا يمكن للدعوة الإسلامية أن تنتشر

إلا سراً، وبين الأصدقاء، ولهذا كان تقدم الإسلام في سنواته الثلاث الأولى بطيئاً»[1].

علانية الدعوة وعداء قريش للإسلام

وبعد ثلاثة أعوام على بدء البعثة، انتقلت الدعوة إلى العلانية، حيث صدع الرسول ﷺ بأمر ربه لنشر رسالة الإسلام انطلاقاً من عشيرته الأقربين، وبعدها إلى سائر أفراد قبيلته في قريش المكية....

ولم يلق الرسول ﷺ إلا إعراضاً وهزءاً جابههما به سكان مكة، بل سرعان ما ثارت ثائرة قريش حين دعا ـ عليه السلام ـ إلى نبذ عبادة الأصنام، والالتفات إلى الديانة التوحيدية.... وكان قادة مكة من مشركي قريش متمسكين بتقاليدهم الدينية عكوفاً على الأوثان، ورموا الرسول ﷺ بأقبح النعوت، من سحر وشعر وكهانة وجنون، وأطلقوا عليه لقب الصابىء لخروجه على عقيدة أجداده، وساموه مر العذاب... ويتحدث المفكر الإنكليزي توماس كارليل عما لاقاه الرسول من عشيرته وعاناه في محاولته إقناع أفرادها بصحة ما يؤمن به، فقال:

«وجعل يذكر رسالته لهذا ولذاك، فما كان يصادف إلا جموداً وسخريةً، حتى أنه لم يؤمن به في خلال ثلاثة أعوام إلا ثلاثة عشر رجلاً، وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع، ولكنه المنتظر في مثل هذه الحال، وبعد هذه السنين الثلاث أدب مأدبة لأربعين من قرابته، ثم قام بينهم خطيباً فذكر دعوته، وأنه يريد أن يذيعها في سائر أنحاء الكون، وأنها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة، فأيهم

---

(١) إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص ١١٧ ـ ١١٨.

يمد إليه يده ويأخذ بناصره؟ وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة وثب علي، وكان غلاماً في السادسة عشرة، وكان قد أغاظه سكوت الجماعة فصاح في أشد لهجة أنه ذاك النصير والظهير. ولا يحتمل أن القوم كانوا منابذين محمداً ومعادينه وكلهم قرابته، وفيهم أبو طالب عم محمد وأبو علي، ولكن رؤية رجل كهل أمي يعينه غلام في السادسة عشرة، يقومان في وجه العالم بأجمعه كانت مما يدعو إلى العجب المضحك، فانفض القوم ضاحكين... ولكن الأمر لم يك بالمضحك، بل كان نهاية في الجد والخطر»(٢).

اضطهاد قريش للرسول والمسلمين الأوائل

لكن عداء قريش لرسالة الإسلام لم تثنِ الرسول ولا المسلمين الأوائل عن عقيدتهم، فاستمر عليه الصلاة والسلام على نشر الدعوة بروح كفاحية عالية، كما لم تستطع كل أساليب الاضطهاد والإرهاب أن تنتزع الإيمان من قلوب تلك العصبة الإسلامية الصغيرة بعددها، الكبيرة بإيمانها بالرسالة الجديدة.....

وإذا كان الرسول ﷺ يحظى بحماية قبيلته ــ بني هاشم ــ حسب الأعراف القبلية، وكذلك بعض المؤمنين من أسرهم القرشية، تبعاً للأعراف نفسها، فقد لاقى مستضعفو المسلمين أقسى أنواع الظلم والاضطهاد، وعوملوا بمنتهى الوحشية، إذ تفنن القرشيون في عذابهم، حتى سقط منهم الشهداء، مما دل على الإيمان العميق لأولئك المسلمين الأوائل الذين صمدوا للهمجية الشرسة لمشركي قريش، ودلل صمودهم البطولي على قوة الإسلام ومِنْعَتِه رغم طراوة عوده.

---

(٢) توماس كارليل: الأبطال، ص ٧٢ ــ ٧٣.

الصراع بين الوثنية والتوحيد

كان الصراع بين الوثنية والتوحيد على أشده، وقد تجلى فيه الثبات على العقيدة والإيمان بالمبدأ لدى طرفي الصراع.... فمن جهة، كان القرشيون حريصين بالغ الحرص على طقوس عبادة أسلافهم، لا سيما وقد جاءت الدعوة الجديدة لتهدم كل معتقداتهم ولتضرب مصالحهم الأرستقراطية القائمة على ترابط العوامل السياسية والاقتصادية والدينية....

كفاحية الرسالة الإسلامية

ومن جهة ثانية، دلل صمود المسلمين الأوائل على أن العقيدة التي آمنوا بها هي أقوى من جميع نوازعهم، فبلغ لديهم الثبات على المبدأ ذروة التضحية بالذات والمال في سبيل أن تبقى شعلة الإسلام متألقة نيرة...

وكان نضال الرسول ملحمياً، وإيمانه بالرسالة عميقاً، لم تثنه مواقف قومه عن المضي في نشر الدعوة، مما تحدث عنه المستشرق الإيطالي ميخائيل إيماري في كتابه «تاريخ المسلمين»، فقال:

«وحسب محمد ثناءً عليه أنه لم يساوم ولم يقبل المساومة لحظةً واحدة في موضوع رسالته على كثرة فنون المساومات واشتداد المحن وهو القائل «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته». عقيدة راسخة، وثبات لا يقاس بنظير، وهمة تركت العرب مدينين لمحمد بن عبد الله، إذ تركهم أمة لها شأنها تحت الشمس في تاريخ البشر»[٣].

(٣) ميخائيل إيماري: تاريخ المسلمين.

رسالة الإسلام وخطرها على السلطة القرشية

وقد جرّ موقف الرسول ﷺ الثابت في نشر الدعوة عداء القبيلة، ممثلاً في السلطة القرشية التي أخذت تخشى على مواقعها السياسية ومصالحها التجارية فضلاً عن استيائها من ذم عباداتها وأوثانها، يقول «وشنطون إرفنج» متحدثاً عن مكانة الرسول ﷺ في قبيلته واصطدامه بها حين صدع بالرسالة التي تشكل خطراً على السلطة القرشية:

«هل كان قوي النفوذ؟ نعم، فقد كانت أسرته تقوم بسدانة الكعبة، وتتولى شؤون مكة، تلك المدينة المقدسة، ولذا كان مركزه وما اتصف به من أخلاق كريمة يؤهلانه ليكون موضع الثقة. ولكن حينما دعا محمد إلى الإسلام اصطدم بأسرته وقبيلته، وجر على نفسه عداءهما، فقد كان تحطيم الأوثان يقضي على سيطرة قريش على الكعبة وما تستفيده من قدوم الحجاج»[٤].

الأثر التاريخي للدعوة الإسلامية

لقد شكلت الدعوة الإسلامية التي لا تعرف الطبقية، بمناداتها بالمساواة الاجتماعية، خطراً على الأرستقراطية القرشية.... فالإسلام دعوة إنسانية تبشر بالإخاء والحرية والعدل والمساواة، وذلك لأن الرسالة لم تكن مقصورة على الخاصة، بل اجتذبت إلى صفوفها الفقراء والعبيد، الذين رأوا بتعاليم الإسلام الإصلاحية، إطلاقهم من أسر العبودية والفقر، وخلاصاً روحياً من عبادة الأوثان، فتطهراً بوحدانية الإيمان... هذا ويذهب الباحث

---

(٤) واشنطون إرفنج (نقلاً عن كتاب روح الدين الإسلامي).

الهجري جولد تسهير (١٨٥٠ ــ ١٩٠٣) في مؤلفه: «العقيدة والشريعة في الإسلام» إلى دراسة الأثر التاريخي للدعوة الإسلامية في محيطها العربي بقوله:

«يمكننا أن نلقي نظرة عامة شاملة على الأثر التاريخي الذي قامت به الدعوة إلى الإسلام، خاصة أثرها في الدائرة القريبة، التي كانت دعوة محمد موجهة إليها بطريق مباشر قبل غيرها، حقاً لا جدة ولا طرافة في هذه الدعوة، ولكن قد استعيض عنها بأن محمداً قد بشر برسالة الإسلام للمرة الأولى بحماس لا يفتر ولم تعوزه المثابرة، وبعقيدة ثابتة بأن هذا الدين يحقق صالح الجماعة الخاصة، وقد كان في ذلك كله مظهراً إنكار الذات، برغم سخرية الجمهور، إذ الحق أن محمداً كان بلا شك أول مصلح حقيقي في الشعب العربي من الوجهة التاريخية، تلك كانت طرافته برغم قلة المادة التي كان يبشر بها»[٥].

الوعد والوعيد والترغيب والترهيب

هذا، وقد استخدمت السلطة القرشية جميع أسلحتها لمحاربة الدعوة الإسلامية، التي وإن كانت تعيش أجواء الحصار، وتنتشر بصعوبة، لأنها أدركت جدية الخطر المقبل، إذ أخذ بعض القرشيين يتعاطفون مع هذه الفئة الصامدة، كما كان للرسول ﷺ الداعية الإسلامي الأول عميق الأثر في وجدان من يحاججهم ويدعوهم إلى طريق الهداية... فحين أدركت قريش فشل أساليبها العقيمة لجأت إلى سلاح آخر هو سلاح الوعد والوعيد

(٥) جولد تسهير: العقيدة والشريعة في الإسلام (ترجمة طائفة من علماء الأزهر)، ص ٥ ــ ٦.

والترغيب والترهيب... لقد عرضت على الرسول ﷺ المال والجاه والسلطان والنساء، على أن يتخلى عن رسالته... لكن هيهات أن تجدي هذه الوسائل والأساليب نفعاً... فارتدت إلى أساليب الإيذاء النفسي والجسدي، التي بلغت مرحلة خطيرة، إذ جرت محاولتان لقتله وهو يصلي في ظل الكعبة.

غير أن الرسول ﷺ بلغ من الإيمان برسالته درجة لا رجوع فيها ورغم كل المخاطر والمزالق، وكل أساليب الوعد والوعيد ما كان بمقدوره أن يتراجع قيد أنملة عن مسيرته، وهو على ثقة تامة بأن الله مؤيده بنصره ولا ريب، وأن الرسالة لا بد أن تعم مستقبلاً، ولذا مضى مستهيناً بكل الصعاب ليقينه أن نشر رسالة التوحيد في الأجواء الوثنية لا بد أن تؤلب عليه الأعداء وتقوده إلى خصومة القيادة القرشية، يقول المؤرخ الأمريكي واشنجتون إرفنج:

«لقي الرسول من أجل نشر الإسلام كثيراً من العناء، وبذل عدة تضحيات. فقد شك الكثير في صدق دعوته، وظل عدة سنوات دون أن ينال نجاحاً كبيراً، وتعرض خلال إبلاغ الوحي إلى الإهانات والاعتداءات والاضطهادات، بل اضطر إلى أن يترك وطنه ويبحث عن مكان يهاجر إليه... فقد كان في الأربعين من عمره حينما نزل عليه الوحي وعانى كثيراً سنة بعد أخرى في نشر الإسلام بين أفراد قبيلته»[٦].

وبدوره يتناول الباحث الإنكليزي توماس كارليل موقف قريش من الرسول وكفاحه المرير في نشر الدعوة وموقف عمه أبي طالب، فقال:

«وسرى أمر محمد ببطء ولكنه سريان على كل حال، وكان

---

(٦) واشنطون إرفنج (نقلاً عن كتاب روح الدين الإسلامي، ص ٤٣٧).

عمله بالطبع سيء الوقع لدى كل إنسان ، إذ جعلوا يقولون : « من هذا الذي يزعم أنه أعقل منا جميعاً ، والذي يعنّفنا ويرمينا بالحمق وعبادة الخشب » وأشار عليه أبو طالب أن يكتم أمره ويؤمن به وحده ، وأن يكون له من نفسه ما يشغله عن العالم ، وأن لا يسخط القوم ويثير غضبهم عليه فيخطر بذلك حياته ، فأجابه محمد : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » كلا ، فإن في هذه الحقيقة التي جاء بها لشيئاً من عنصر الطبيعة ذاتها لا تفضله الشمس ولا القمر ، ولا أي مصنوعات الطبيعة ، ولا بد لتلك الحقيقة من أن تظهر برغم الشمس والقمر ، ما دام قد أراد أن تظهر ، وبرغم قريش جميعها ، وبكره سائر الخلائق والكائنات . نعم لا بد أن تظهر ولا يسعها إلا أن تظهر ، بذلك أجاب محمد ، ويقال إنه اغرورقت عيناه : لقد أحس من عمه البر والشفقة ، وأدرك وعورة الحال ، وعلم أنه أمر ليس بالهين اللين ، ولكنما أمر صعب المراس ، مر المذاق »[(٧)] .

الهجرة إلى الحبشة

كان لعلانية الدعوة الإسلامية أن شكلت منعطفاً تاريخياً في مسارها ، إذ لاقى المسلمون الأوائل شتى أفانين العذاب وضروب الظلم ، وتعرضوا للفتنة والقتل ، فسقط منهم الشهداء ، وهم صامدون مدلّلين بذلك على الثبات على إيمانهم العميق الذي هيهات أن تزعزعه أية قوة غاشمة .

ومع ذلك لم يكن جميع المسلمين الأوائل على هذا المستوى والاستعداد للتضحية ، فكان هناك من لانت قناته فلم يصبر ولم يصمد أمام العذاب ،

(٧) توماس كارليل : الأبطال ، ص ٧٤ .

فانتزعت من شفاههم كلمات الردة عن الإسلام، رغم إيمانهم بالرسالة، مما جعلهم يعانون الأمرين، مرارة الخجل والشعور بالهزيمة، ومرارة تنكرهم للإسلام والتزامهم بدين أجدادهم، ويتحدث المستشرق الروماني «جيورجيو» عن الأوضاع السائدة، قبل اتخاذ الرسول قرار هجرة المسلمين إلى الحبشة، بقوله:

«لم يكن إيمان بعض من أسلم مؤخراً بمستوى المسلمين الأوائل، كما لم يكن لهم ذلك العزم الذي يجابه شدائد المشركين، ولا سيما أن قريشاً زادت من عدائها حيث منعت الناس من بيع المسلمين والشراء منهم، كما منعت الزواج منهم، أو التزوج ببناتهم. ففي مكة، كانت التجارة هي الوسيلة الوحيدة للعيش، فعندما امتنعوا عن التعامل معهم شلوا حركتهم وهذا ما دفع بعض من أسلموا مؤخراً إلى التخلي عن إيمانهم والارتداد إلى دين أجدادهم»[8].

ويتحدث المستشرق الفرنسي «إتيين دينيه» عن مأساة المسلمين وآلام الرسول ﷺ لفتنتهم، وقراره الشجاع بهجرتهم إلى الحبشة، قائلاً:

«وامتلأت نفس الرسول حزناً، أمام هذه المآسي التي كان يتحملها ضعاف المسلمين الذين لا يجدون من يحميهم. حقاً إن شجاعة المعذبين والشهداء في سبيل الله برهنت على إسلامهم العميق، ولكنه رأى أن من الخير ألا يستمر هذا البلاء، فنصح الضعفاء ومن لم تدعهم الضرورة إلى البقاء في مكة بالهجرة إلى الحبشة حيث المسيحيون، وحيث التسامح والعدل اللذان اشتهر بهما ملكها النجاشي»[9].

---

(٨) ك. جيورجيو: نظرة جديدة على سيرة رسول الله، ص١١٦.

(٩) إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص١٤٥.

وتدل فكرة الهجرة إلى الحبشة على ما تعانيه الحركة الإسلامية من تعثر وضغوط نفسية وآلام جسدية في أتون ذلك الصراع بين العقيدتين الوثنية والتوحيدية، ونلخص بما يلي الأسباب المباشرة لتلك الهجرة:

— الهروب من الاضطهاد الجسدي والمعنوي والإفلات من الحصار المادي.

— تجنيب المسلمين خطر الارتداد عن الإسلام.

— وتذهب بعض المصادر الاستشراقية إلى الاعتقاد بأن وراء الهجرة أسباباً أخرى منها التجارة، أو مخططاً سياسياً، هدف الرسول من ورائه الحصول على مساعدة حربية من الأحباش. في حين يتحدث بعض المستشرقين عن ظهور انشقاق داخل أمة الإسلام الناشئة بين طائفتين متنافستين يقود كلاً منهما أبو بكر وعثمان بن مظعون، فعمل الرسول ﷺ على القضاء على الشقاق في مهده فأشار بالسفر إلى الحبشة لتأييد مخطط المحافظة على مصالح الإسلام[١٠].

لقد كان قرار الرسول ﷺ حكيماً وواقعياً لحماية المسلمين من الاضطهاد، ولحماية الحركة الإسلامية — مستبعدين الآراء الاستشراقية الأخرى — فجاء تصميمه على هجرة المسلمين وأن يبقى هو في مكة يواجه ذلك الإعصار العاتي، يقول جيورجيو:

«وقر رأيه أخيراً على ترحيل المسلمين إلى الحبشة، بينما يبقى هو في مكة، متحملاً كل الأخطار. ولم يقم أي من الأنبياء السابقين بمثل هذا التصميم»[١١].

(١٠) مونتجمري وات: محمد في مكة، ص ١٨٢ — ١٨٩.
(١١) ك. جيورجيو، ص ١١٧.

وتوجست القيادة القرشية من هجرة المسلمين إلى الحبشة شراً مستطيراً، فحاولت دون جدوى أن تقبض عليهم وتحول دون إبحارهم، فثارت ثائرتها لإفلاتهم من قبضة الكفر، وأخذت تحسب لهذه الهجرة ألف حساب، فاستقر رأيها على إيفاد رجلين من لدنها هما عمرو بن العاص داهية العرب وعمارة بن الوليد ليطلبا إلى النجاشي إعادة المسلمين على أنهم مارقون من الدين... وفعلاً، تحدث سفيرا قريش مع النجاشي في مهمتهما هذه، إلا أن دفاع المهاجر جعفر بن أبي طالب عن الإسلام بحضرة النجاشي، كان له أثره العميق في وجدانه. ورأى بالرسالة الجديدة ديناً جديداً يعترف بالرسالات السماوية السابقة، ويقر بوحدانية الله، ويرفض الشرك والوثنية، وينهى عن فواحش الجاهلية ويدعو إلى مكارم الأخلاق. فكان أن رفض طلب القيادة القرشية، ومنح المسلمين حق اللجوء، فوجدوا بجواره أمناً ودعة.

كانت الهجرة الإسلامية إلى الحبشة حدثاً بارزاً في مسار الدعوة الإسلامية وكفاحها البطولي أمام هجمة مشركي قريش الشرسة، وغدت جميع مواقفها دفاعية، لكن برجولة، مما حدا بقريش إلى التفكير جدياً بالقضاء على الجماعة الإسلامية.

ويتحدث الباحث الإسلامي مولانا محمد علي في كتابه: «حياة محمد ورسالته» عن آثار الهجرة الإسلامية على القيادة القرشية، بقوله:

«وحين عاد الوفد القرشي من الحبشة بخفي حنين تخطى غيظهم كل حد، لقد واصلوا اضطهادهم المسلمين في اهتياج مضاعف. كانوا حتى ذلك الحين يشهدون صبر المسلمين على هذه المحن القاسية في دهش عظيم، ولكن الهجرة إلى الحبشة أعطتهم برهاناً قاطعاً على أن المسلمين مستعدون لمختلف ضروب المخاطر،

ولتحمل كل لون من ألوان التعذيب في سبيل عقيدتهم، وعلى أنهم لن يحجموا عن خوض غمار المخاطر كلها في سبيل الله. وفوق هذا، فعندما تسامع سائر المسلمين في مكة بالرعاية الكريمة التي أسبغها النجاشي على إخوانهم شَخَصَ عددٌ منهم في العام التالي إلى الحبشة. وتُعرف هذه الهجرة بالهجرة الثانية إلى الحبشة. وبذل القرشيون قصارى جهدهم لكبح جماح هذه الهجرة، ولكن دونما طائل»[١٢].

نقد خبر «الغرانيق»

وفي تلك الفترة المتأزمة في تاريخ مسيرة الدعوة الإسلامية، التي شهدت هجرة المسلمين إلى الحبشة، تحول أعظم رجلين من رجالات قريش إلى الإسلام وهما حمزة عم الرسول وعمر بن الخطاب، فبلغ الصراع بين المشركين والمسلمين أعلى مراحل احتدامه، وهنا، في هذه الفترة بالذات يأتي خبر «الغرانيق العلى» ليحدث في سيرة الرسول ومسيرة الدعوة الإسلامية شرخاً، ليشكك بإيمان النبي محمد وبمسيرة الإسلام...

ورغم اقتناعنا المسبق باختلاق خبر «الغرانيق العلى» لكننا آثرنا الوقوف عنده لأنه عملياً، أثار ضجة كبرى في الدراسات الإسلامية، ونبهت الكثير من المستشرقين للتوقف عندها، بل للتحقق من مدى صحتها تاريخياً لما فيها من مساس برسول الإسلام، وشخصيته العظيمة وحقيقة الصلح المؤقت المزعوم بينه وبين الزعامة القرشية... ويندرج في جملة من تحدث بها على أنها حقيقة ثابتة المؤرخ الألماني كارل بروكلمان الذي ذهب به الرأي إلى أنه رغم ما يعمر قلبه ﷺ من إيمان بوحدانية الله جل جلاله وبالتالي ببطلان آلهة قريش، فقد اعترف في البدء بآلهتهم الغرانيق الثلاث، اللات والعزى ومناة، يقول:

(١٢) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص ٩١ ــ ٩٢.

«ولكنه على ما يظهر اعترف في السنوات الأولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاث اللواتي كان مواطنوه يعتبرونها بنات الله. ولقد أشار إليهن في إحدى الآيات الموحاة إليه بقوله: «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى». أما بعد ذلك حين قوي شعور النبي بالوحدانية فلم يعترف بغير الملائكة شفعاء عند الله، وجاءت السورة الثالثة والخمسون (النجم) وفيها إنكار لأن تكون الآلهة الثلاث بنات الله. ولم يستطع التقليد المتأخر أن يعتبر ذلك التسليم إلا تحولاً أغراه به الشيطان، ولذلك أرجعت حوادثه إلى أشد أوقات النبي ضيقاً في مكة، ثم ما لبث أن أنكره وتبرأ منه في اليوم التالي»[١٣].

والغريب أن الباحث العسكري غلوب باشا، قد أورد خبر «الغرانيق» رغم الاتجاه العسكري لكتابه: «الفتوحات العربية الكبرى»، وما يحرص عليه غالباً من الموضوعية فقد ساق الخبر نقلاً عن المستشرقين الذين سبقوه في التشكيك برسالة الإسلام، ونحن لا نرى في ذلك بدعاً، إذ وقع في هذا الشرك الكثير من كتاب السيرة المسلمين ورواة الأحاديث الضعيفة، يقول:

«وكان وجوه مكة وشيوخها يجلسون ذات يوم في العراء على مقربة من الكعبة عندما اقترب منهم محمد واقتعد مجلسه معهم، وبعد صمت قصير بدأ النبي يتلو على مسامعهم سورة النجم، فيحدثهم عن الوحي والتنزيل وكيف وقف الملاك جبريل على بعد خطوتين منه ثم حدثهم عن زيارة الملاك الثانية، عند سدرة المنتهى، ثم مضى يقول... ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى. أفرأيتم اللاتَ والعزى،

(١٣) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٣٤ ــ ٣٥.

ومَناةَ الثالثةَ الأخرى. ألكم الذكرُ وله الأنثى، تلكَ إذاً قسمة ضيزى*﴾ ورأى سادة قريش الرسول وهو يشهد لهذه الآلهة الثلاثة، ثم رأوه في نهاية السورة وهو يسجد في صلاته فسجدوا معه جميعاً وأخذوا يصلون معه. ولا ريب في أن هذا الحادث يقيم الدليل على أن أهل مكة كانوا يعترفون بصورة عامة بوجود إله عظيم واحد. ولكنهم كانوا يرون أن آلهتهم المحلية هذه هي سبيل للوساطة عنده. وكانوا يقولون إنهم على استعداد لاتباع النبي في عبادة الله شريطة أن يكون على استعداد للاعتراف بدور آلهتهم الصغرى. وسرعان ما وقعت مهادنة آنية وتوقفت حملات العذاب والاضطهاد.

ولكن الرسول ما فتىء أن عاد إلى داره وشعر بضميره يعذبه، فهل من الحق أن يهادن الشرك حتى ولو كانت غايته إنقاذ أتباعه من الاضطهاد؟ وظهر له جبريل من جديد وأخذ يعاتبه. وأحس بالألم والخوف من الله. إنه لا يرضى عن تراجعه وقرر أن يتراجع عن موقفه السابق وأن يواجه من جديد غضب قومه. وعاد إلى القوم فأكمل على مسامعهم السورة على النحو الذي يبدو في القرآن. وأثار هذا التراجع سخط أهل مكة واستفزهم فعادوا إلى اضطهاد المسلمين»[(١٤)].

ويعتبر المستشرقون أن اعتراف الرسول ﷺ بالآلهة الثلاث كان وراءه هدف سياسي لكسب الأنصار في مكة والمدينة والطائف، واستمالة عدد من زعماء قريش... غير أنه من الأهمية بمكان، التأكيد على أن الرسول ﷺ

---

*ضيزى: جائرة.

(١٤) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٦٧ ـــ ٦٩.

الذي عرف طوال حياته بروحه الكفاحية العالية التي لا تهادن لا يمكن البتة أن يعترف بتلك الآلهة، ويقع في فخ الشرك الذي كان أساس دعواه القضاء عليه وإقامة الوحدانية .. وهذا مما يؤكد بدوره اختلاق هذا الخبر المدسوس في كتب الحديث المشهورة بضعفها وعدم ثقة رواتها.

ونرى أن نثبت هنا ماردّ به الباحث اللبناني الدكتور عمر فروخ في تعليقه على كتاب بروكلمان ومناقشته تمسك المبشرين بهذه الرواية، يقول ذلك العلامةُ:

«الكلام في هذا الموضوع كثير، وجله خارج عن الحقيقة. وخلاصة الموضوع توجز في ما يلي:

«زعم قوم من الرواة أن الرسول قرأ يوماً في سورة النجم (السورة ٥٣): ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ (الآيتان ١٩ ــ ٢٠) ثم قرأ بعدها: «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى».

وأمسك المبشرون وبعض المستشرقين بهذه الرواية وزعموا أن الرسول إنما فعل ذلك لمّا قاومه مشركو مكة، فأحب أن يتقرب منهم فمدح آلهتهم ثم عدوا عمله هذا تراجعاً عن تشدده في التوحيد ومهاجمة الأصنام.

ولقد وجدت أن أحسن رد على هذه الفرية ما ذكره العالم الهندي المشهور مولانا محمد علي:

قال: إن هذه الرواية وردت عند الواقدي وعند الطبري، ومع ذلك فإنها لا ظل لها من الحقيقة، فإن كل عمل من أعمال رسول

الله مناقض لمثل هذا الاتجاه. أضف إلى ذلك أن الواقدي معروف بسرد الإسرائيليات وبسرد الخرافات. وكذلك الطبري معروف بالجمع الكثير وباستقصاء الروايات مهما كان حظها من الصحة.

على أننا لو رجعنا إلى رواية محمد بن إسحق أو إلى صحيح البخاري وهو الذي لم يغادر من حياة الرسول شيئاً إلا ذكره لم نر لقصة الغرانيق أثراً. وابن إسحق جاء قبل الواقدي بأربعين سنة وقبل الطبري بنحو مائة وخمسين سنة أو تزيد. ومع ذلك لم يذكر هذه القصة. ثم إن الواقدي معروف عند المحدثين بأنه يضع الأحاديث وأنه غير ثقة فيما يروي، وكذلك لم يذكرها أحد من رواة الحديث.

وإذا عدنا إلى قراءة الآيات نفسها بالتسلسل وجدناها: ﴿أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى؟ ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذن قسمةٌ ضيزى، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفسُ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾.

فليس من المعقول أن تحشر بين هذه الآيات المتتالية آية مناقضة لها في أصل العقيدة الإسلامية وصلب دعوة محمد ﷺ»(١٥).

وجدير بالذكر أن المفكر العربي الإسلامي محمد حسين هيكل ناقش بدوره مسألة «الغرانيق العلى» وردّ على ادعاءات المستشرقين الذين اعتبروها مُسَلّمة، وفي مقدمتهم المستشرق الإنكليزي وليم موير، فخلص إلى القول:

---

(١٥) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٣٥.

«هذه هي الحجج التي يسوقها من يقولون بصحة حديث الغرانيق وهي حجج واهية لا تقوم أمام التمحيص»[16].

إسلام حمزة وعمر

هذا، وإن كان خبر «الغرانيق» غير صحيح، فالثابت أن قريشاً لم تهادن الرسول ﷺ البتة، بل كانت في هذه المرحلة التاريخية، التي اختلق في سياقها هذا الخبر، على أشد عنفها ومحاربتها الدعوة الإسلامية، التي كانت تعاني صعوبات جمة، ومع ذلك استطاعت أن تحقق نصراً كبيراً في إسلام رجلين هما من أبرز وجوه قريش وأشجع أبطالها.. وهما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، وذلك في السنة السادسة للبعثة...

وكان لإسلام هذين الرجلين أثره البالغ على مسار الحركة الإسلامية، إذ شجع الناس على الدخول في الإسلام، فكان أن تحولت الدعوة للمرة الثانية للعلانية، بعد أن اضطرت إلى السرية إبان الهجمة الشرسة، يتحدث الباحث الإسلامي مولانا محمد علي عن أثر إسلام هاتين الشخصيتين الضخمتين ــ حمزة وعمر ــ في مسار الدعوة الإسلامية بقوله:

«وكان في إسلام عمر منعة للجماعة الإسلامية الفتية التي كان عودها ما يزال أطرى من أن يواجه عاصفة المعارضة. وإنما أعز الله الإسلام بحمزة وعمر في السنة السادسة من رسالة محمد، فحتى ذلك الحين لم يجرؤ المسلمون على ممارسة شعائرهم علناً. وكانوا قد حصروا نشاطهم الديني ضمن جدران دار الأرقم الأربعة. حتى إذا

---

(١٦) محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص ١٦٢ ــ ١٦٣ (راجع دراسته القيمة في كتابه المذكور).

أعلن عمر إسلامه استشعروا أنهم أمسوا من القوة بحيث يخرجون من نطاق السرية، فأخذوا يقيمون صلواتهم على نحو علني في البيت الحرام (الكعبة)، وفي غضون ذلك دخل في كنف الإسلام كثيرٌ من أبناء الطبقات الدنيا»(١٧).

النصر المرحلي في مسار الدعوة الإسلامية

كان إسلام حمزة وعمر انعطافاً في تاريخ الدعوة إذ تمكنت من كسر طوق الحصار القرشي، وانتهت إلى الانتشار بين القبائل العربية المجاورة، فحققت بذلك نصراً مرحلياً مؤقتاً، لكن سرعان ما تحركت قريش هذه المرة بجدية أكبر، لأنها شعرت بالخطر المحدق ينمو يوماً بعد يوم، ويشكل تهديداً حقيقياً لمصالحها الاقتصادية والسياسية، لا سيما حين سلكت الدعوة هذه المرة سبيل التحدي وممارسة الشعائر الإسلامية علانية وأخذت تكسب أنصاراً جدداً... يقول الباحث العسكري غلوب باشا:

«وعلى الرغم من أن إسلام هذين الرجلين ـــ حمزة وعمر ـــ قد شجع النبي إلا أنه في الوقت نفسه حفّز كبراء قريش على أن يوسعوا نشاطهم ضد الدعوة الإسلامية. وخافوا أن يؤدي اغتيالهم المسلمين من القرشيين إلى نزاعات دموية في المدينة ولا سيما مع بني هاشم»(١٨).

حصار المسلمين في شعب أبي طالب

وفي هذه المرحلة الحرجة من مسيرة الدعوة، استخدمت القيادة

(١٧) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص٧٩.

(١٨) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٧٠.

القرشية سلاحها الأخير إذ اتخذت قرارها المجرم بفرض الحرم الجماعي على قبيلة بني هاشم لمنعتها الرسول ﷺ ضد أعدائه، وذلك حين أفلست جميع محاولاتها السابقة لإيقاف مسيرة الدعوة الإسلامية، يقول مولانا محمد علي:

«حتى إذا مني القرشيون بالخيبة في تلك المحاولات جميعاً عزموا على اللجوء إلى سلاحهم الأخير. كان ذلك في السنة السابعة للدعوة، وكانت كثرة المسلمين قد وفقت إلى الفرار بأنفسها إلى الحبشة. وكان حمزة وعمر قد اعتنقا الإسلام، وكان أبو طالب قد رفض صراحة، أن يخذل الرسول نزولاً عند مطلب قريش. وباستثناء أبي لهب كان بنو هاشم كلهم قد عقدوا العزم على أن ينصروه ويقاتلوا دفاعاً عنه حتى الرجل الأخير. وفوق هذا، فقد راح نور الإسلام ينتشر من قبيلة إلى قبيلة. من أجل ذلك قرر القرشيون أن يفرضوا حرماً اجتماعياً على بني هاشم، فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً. ثم أنهم كتبوا صحيفة بهذا المعنى وعلقوها في (جوف) الكعبة لكي يعطوها معنى القداسة. فلما سمع بنو هاشم بهذا شخصوا إلى موطن منعزل من مكة يعرف بالشعب»[١٩].

ووقفت قبيلة بني هاشم موقفاً شجاعاً بتأييدها الرسول وقبلت الحرم الاجتماعي رغم أن الإسلام لم يعم سائر أفرادها، وينبع موقفها هذا من موقف أبي طالب من جهة، ولاحترامها النبي ﷺ من جهة ثانية، فرفضت التخلي عنه في أيام محنته...

هذا، وشكل الحرم الاجتماعي مصاعب جدية أمام الدعوة الإسلامية،

---

(١٩) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص ١٠١.

إذ مرت في مرحلة جمود بعد نهضتها السابقة، فلم يعد بالإمكان أن يتصل المسلمون بالقبائل العربية وهم محصورون داخل شعب أبي طالب، ذلك أن بني هاشم قبلوا ببطولة ملحمية أن يقفوا مع الرسول في محنته، ويعيشوا في أشد الظروف قساوة في ظل المقاطعة القرشية اجتماعياً واقتصادياً.

ثبات الرسول على المبدأ

رغم أن الحصار دام ثلاث سنوات، لكن ما لبث أن ظهرت المعارضة داخل صفوف القرشيين لفك الحصار عن بني هاشم والمسلمين، ولا سيما بعد تمزق صحيفة الطرد الجماعي المعلقة في الكعبة، فكان أن عادت الدعوة مرة أخرى إلى نشاطها.

وشهد العام العاشر للبعثة تحولاً في أسلوب محاربة قريش الدعوة الإسلامية إذ عرضت على الرسول أن لا يتعرض لديانة أجدادهم وأن لا يتعرضوا بدورهم للمسلمين شريطة أن يدعهم ودينهم ويدعوه ودينه...وكان أن تم اللقاء بين الطرفين في منزل عم الرسول أبي طالب وهو على فراش الموت... لكن موقف الرسول ﷺ ظل ثابتاً فلم يقبل بأي شكل من أشكال التراجع عن نشر رسالته في صفوف المشركين، ولو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في شماله....

مصاعب على طريق الدعوة

وفي هذه المرحلة من مسيرة الدعوة الإسلامية، أصيب الرسول بضربة قاسية إذ توفيت زوجه المخلصة خديجة، وعمه وراعيه أبو طالب، وشرعت قريش تحاربه بشراسة وضراوة، ويتحدث توماس كارليل عن وضع الرسول الجديد بقوله:

«فنصبوا له الأشراك وبثوا الحبائل وأقسموا بالآلهة ليقتلن محمد بأيديهم، وكانت خديجة قد توفيت، وتوفي أبو طالب، وتعلمون ــ أصلحكم الله ــ أن محمداً ليس بحاجة إلى أن ترثي له ولحاله النكراء إذ ذاك ومقامه الضنك وموقفه الحرج، ولكن اعرفوا معي أن حاله إذ ذاك من الشدة والبلاء كما لم ير إنسان قط، فلقد كان يختبىء في الكهوف، ويفر متنكراً إلى هذا المكان وإلى ذاك، لا مأوى ولا مجير ولا ناصر، تتهدده الحتوف وتتوعده الهلكات، وتفغر له أفواهها المنايا، وكان الأمر يتوقف أحياناً على أدنى صغيرة ــ كإجفال فرس من أفراس أتباع محمد ــ فلو حدث ذلك لضاع كل شيء ولكن أمر محمد ــ ذلك الأمر العظيم ــ ما كان لينتهي على مثل تلك الحال»[٢٠].

طرد الرسول من قريش

ولكن رغم تلك الصعوبات التي واجهها الرسول ﷺ في مسيرته الكفاحية لنشر الدعوة الإسلامية، لم يتوقف هنيهة عن متابعة تبليغ رسالات ربه، وما كانت قريش لتتوقف بدورها عن مهاجمته ومحاربته... وكان أخطر قرار اتخذته بعد تسنم عمه أبي لهب زعامة بني هاشم خلفاً لأخيه أبي طالب هو طرد الرسول، يقول المستشرق الروماني جيورجيو:

«لقد طرد محمد ﷺ في المرحلة الأولى من قبل قريش، في حين أن هاشماً لم تطرده، إذ حماه أبو طالب، وخرج معه من مكة إلى الشعب، ولكن قبيلة هاشم هذه المرة هي التي أقرت طرده. ومنذ

(٢٠) توماس كارليل: الأبطال، ص ٧٤ ــ ٧٥.

الساعة التي صمم فيها رئيس قبيلة هاشم على طرد محمد ﷺ تبدلت شخصية محمد ﷺ نبي الإسلام، وغدت أشبه برجال الثورة الفرنسية. فالذين يسيرون على مبدأ مخالفة القوانين لا يحميهم القانون. وساءت أوضاع محمد ﷺ بعد طرده بشكل يفوق من خرج عن حماية القانون أيام الثورة الفرنسية، لأن من يقتل شخصاً فرنسياً تعاقبه محكمة الثورة، وهي وحدها التي تحاكم هؤلاء الأشخاص وتحكمهم. أما في مكة فإن من طرد من قبيلته هدر دمه، وبإمكان أي امرىء أن يقتله، أو يبيعه، أو يستعبده. حتى إنْ أحرقه أحدهم حياً لا يعاقب حارقه. لأن المطرود من القبيلة يغدو شيئاً لا قيمة له، وبالتالي غير لائق لأن يخضع أحد للمحاكمة بسببه، فهو من طبقة لا تعتبر من ذوي الحياة»[٢١].

الإسراء والمعراج

في خضم النضال البطولي الذي خاضه الرسول ﷺ لنشر الدعوة الإسلامية، وفي تلك الظروف الصعبة من محاربة كفار قريش إياه، والحصار المفروض على المسلمين كان الحدث العظيم: الإسراء والمعراج الذي أوقع بلبلة فكرية في صفوف المسلمين وزاد في تعنت المشركين، أي إسراء الرسول ﷺ إلى بيت المقدس، وعروجه إلى السموات السبع وبلوغه سدرة المنتهى...

هذا، وقد ساهمت الدراسات الاستشراقية في بحث مسألة الإسراء والمعراج من زوايتهما الإيمانية والعلمية وإعادة طرح مسألة طالما أثارها المسلمون أنفسهم من قبل ــ أي كيفية الإسراء وهل أسري به ﷺ بالروح والجسد معاً أم بالروح وحده ــ...

---

(٢١) ك. جيورجيو: نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ص ١٣٤.

وتقترب نظرة المستشرقين من موقف عقلانيي المسلمين الذين يعتقدون بأن الإسراء والمعراج كانا بالروح فقط، اعتماداً على حديث عائشة التي ترى أن الإسراء كان ضرباً من الرؤيا الصادقة.

يقول المستشرق الفرنسي إتيين دينيه في كتابه: «محمد رسول الله»:

«أثار الإسراء والمعراج كثيراً من المناقشات بين علماء الإسلام، فبعضهم يرى أن ذلك معجزة حصلت فعلاً بالروح والجسد في اليقظة، بينما يعتمد الآخرون على أصح الآثار، من بينها حديث عائشة زوج الرسول المفضلة وبنت أبي بكر، ويرون أن الروح وحدها هي التي أسري بها وعرج إلى السماء، وليس ذلك إلا رؤيا صادقة، كما كان يحصل كثيراً للرسول أثناء نومه»(٢٢).

هذا، ولقد أدلى الباحث الروماني ك. جيورجيو برأيه بهذه المسألة، فهو رغم اعتقاده أن إسراء الرسول ومعراجه قد تما بالروح فقط، وهذا ليس بغريب على أصحاب الرؤى العظيمة الصادقة، لكنه يؤكد احترامه للعقيدة الإسلامية حتى وإن ذهب بعض مفكريها إلى القول بالإسراء بالروح والجسد معاً في تلك الرحلة الإعجازية، التي تفوق كل خيال، وتتجاوز موضوعية العلوم الفيزيائية، فيقول:

«وعلم الفيزياء، وإن لم يقبل هذا الموضوع، فإنني أحترم العقيدة الإسلامية، وأقبل كل ما جاءت به من الناحية الدينية. ولدينا نحن المسيحيين اعتقادات دينية لا يقبل بها علم الفيزياء كذلك، مع ذلك فنحن نقبل بها، ونعتبرها من صلب معتقداتنا»(٢٣).

---

(٢٢) إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٢٣) ك. جيورجيو: نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ص ١٤٣.

وكان لمسألة الإسراء والمعراج وقعها الخطير في مسار الدعوة الإسلامية إذ قوبلت بسخرية قريش وهزئها، بينما أحدثت بلبلة في الصف الإسلامي الذي كاد أن ينشق على نفسه بين مصدق ومشكك، لولا وقفة أبي بكر الحازمة التي صدت تيار البلبلة الفكرية التي كادت أن تحدث شرخاً وردةً في الصف الإسلامي..

اتصال الرسول بقبائل العرب وخروجه إلى الطائف

كان للحصار الذي فرضته قريش على المسلمين وفقدان الرسول ﷺ حماية بني هاشم إياه، أن جعلته يسارع إلى التفكير في ضرورة نشر الرسالة الإسلامية خارج حدود مكة... إذ أن رسالة الإسلام لم تكن البتة مقصورة على قبيلة قريش المكية، بل كانت رسالة إنسانية عامة... وإذا كانت الظروف الموضوعية فرضت على الرسول حين انتقال الرسالة من السرية إلى العلنية أن يبدأ بالأقرب فالأقرب، ويحصر جل نشاطه في مكة لتكون قاعدة ينطلق الإسلام منها إلى باقي مناطق جزيرة العرب... فقد رأى الرسول الآن مع الحصار الجديد أن ينشُط لكسب القبائل العربية.

وتأكيداً على هوية الرسالة الشمولية، تابع الرسول نشر الدعوة بين قبائل العرب في مواسم الحج، كما خرج إلى الطائف عارضاً الإسلام على سادات ثقيف لكنه لم يلق في محاولاته جميعاً إلا الإعراض والسخرية والإيذاء...

لكن، رغم كل هذا وذاك تابع الاتصال بالقبائل العربية في مواسم الحج إيماناً منه بأن الله جاعل له مخرجاً وأنه لا بد مُظهر دين الحق وناصر نبيه...

بيعة العقبة

وفي العام العاشر للهجرة (٦٢٠م) حدث تحول في حياة الرسول ﷺ وفي مسيرة الدعوة الإسلامية معاً، حين التقى صلوات الله عليه برهطٍ من الخزرج قادمين من يثرب (المدينة) فبايعوه على الإسلام عند العقبة ـــ موقع بين مكة والمدينة ـــ أثناء قدومهم لأداء فريضة الحج، وفي العام التالي بايعه اثنا عشر رجلاً من الأوس والخزرج، الذين نشطوا في نشر الرسالة الإسلامية في يثرب... ولما كان العام الثالث حدثت بيعة العقبة الثانية التي عرفت باسم بيعة الحرب حين بايعه ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من الأوس والخزرج (الأنصار).

وحين أدركت قريش نبأ الحلف الجديد المعقود بين محمد ﷺ وأنصار المدينة، خشيت ازدياد نفوذه واستشراء خطر الدعوة الإسلامية، إذ غدا ذا منعة من قبيلتي الأوس والخزرج، لذا شرعوا يضيقون الخناق على مسلمي مكة، ومكروا تآمراً لإحكام خطة يغتالون بها الرسول ويتم لهم بالتالي القضاء على الإسلام قبل أن يفلت من أيديهم زمام المبادرة.

طلائع الهجرة الإسلامية

ومع اشتداد الحملة القرشية المسعورة أذن الرسول ﷺ لأتباعه بالهجرة إلى يثرب على شكل جماعات صغيرة وبسرية متناهية، وحين لاحظ القرشيون حركة الهجرة السرية عمدوا إلى إيقافها، ولكن أشد ما كان يقض مضاجعهم ويتوجسون منه الشر المستطير هو إفلات الرسول من قبضتهم، لأن معنى ذلك الخطر الداهم على الزعامة القرشية خاصة، إذا ما فكر عليه

الصلاة والسلام مستقبلاً بتشكيل جيش هدفه الكر على مكة وانتزاعها من أيديهم...

ويحلل الباحث الإنكليزي غلوب باشا الوضع العام النـاشيء عن الهجرة الإسلامية من مكة إلى يثرب لتلك الفئة التي غالبيتها من الفقراء والمسحوقين والتي اضطرت أن تقطع ٢٥٠ ميلاً سيراً على الأقدام في ظروف قاسية جداً، ومن ثمَّ يخلص إلى القول:

«ولم تنقض سبعة أسابيع أو ثمانية حتى كان جميع المسلمين قد هاجروا من مكة باستثناء النبي نفسه وابن عمه علي بن أبي طالب وولده بالتبني زيد بن حارثة ورفيقه الأمين أبي بكر الصديق. وارتد عن الإسلام نفر خوفاً من أهلهم بينما حال هؤلاء دون هجرة نفر آخر، وجدير بنا أن نعترف هنا بأن محمداً أبدى جرأة منقطعة النظير ببقائه في مكة حيث لم يعد يحظى بحماية عمه أبي طالب كبير بني هاشم.

وأدركت قريش خطورة ما وقع من تطور وهالهم أن المسلمين أخذوا يقيمون الآن في يثرب مجتمعاً متلاحم الوشائج خارجاً على نفوذهم وبعيداً عن متناول أيديهم، وأنهم شرعوا يكسبون أنصاراً إلى جانبهم من أبناء القبائل الأخرى الذين قد يتحولون إلى معاداة قريش. واجتمع كبار القوم في دار الندوة يتشاورون في أمر محمد ورأى بعضهم أن محمداً هو سبب كل ما يواجهونه من متاعب، وأن من الخير لهم لو تخلصوا منه في أسرع وقت ممكن قبل أن يتمكن من اللحاق بأصحابه في يثرب»[٢٤].

---

(٢٤) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٨٠ ــ ٨١.

خطة قريش لهدر دم الرسول

وإزاء ذلك، اتخذ زعماء قريش قراراً خطيراً إثر اجتماعهم في دار الندوة، ويقضي بقتل الرسول ﷺ بشكل جماعي على أن تشترك بذلك البطون العشرة المنتمية إلى قبيلة قريش، وهدر دمه بين هذه القبائل نزولاً عند رأي أبي جهل، يتحدث المستشرق الفرنسي إتيين دينيه عن إقرار زعماء قريش تلك الخطة الغادرة بقوله:

«أقرت الجماعة الغادرة هذ الرأي، واعتقد المشركون ــ منذ إقراره ــ أنهم قد تخلصوا من عدوهم، غير أن المشيئة الإلهية أخلفت ظنهم، فقد أرسل الله جبريل إلى رسوله يعرفه بمؤامرة دار الندوة، ويأمره بالهجرة ويطلب إليه أن لا يبيت على فراشه الذي كان يبيت عليه.

كان بمنزل الرسول أمانات وضعها عنده المشركون لثقتهم في طهارته، فأبت نفسه الهجرة قبل رد الأمانات إلى أهلها، لذلك أتى بعلي المخلص الوفي، وكلفه بردها، بعد أن أخبره بنبأ دار الندوة، وقال له: «نم على فراشي، وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم»[٢٥].

وبحث المستشرق الفرنسي سيديو في كتابه: «خلاصة تاريخ العرب» مسألة خلاص النبي محاطاً بالعناية الإلهية، من مكيدة القرشيين، بقوله:

«فدفع الله شرهم، وهو أولى أن يحفظ نبيه القائم بالدعوة له،

---

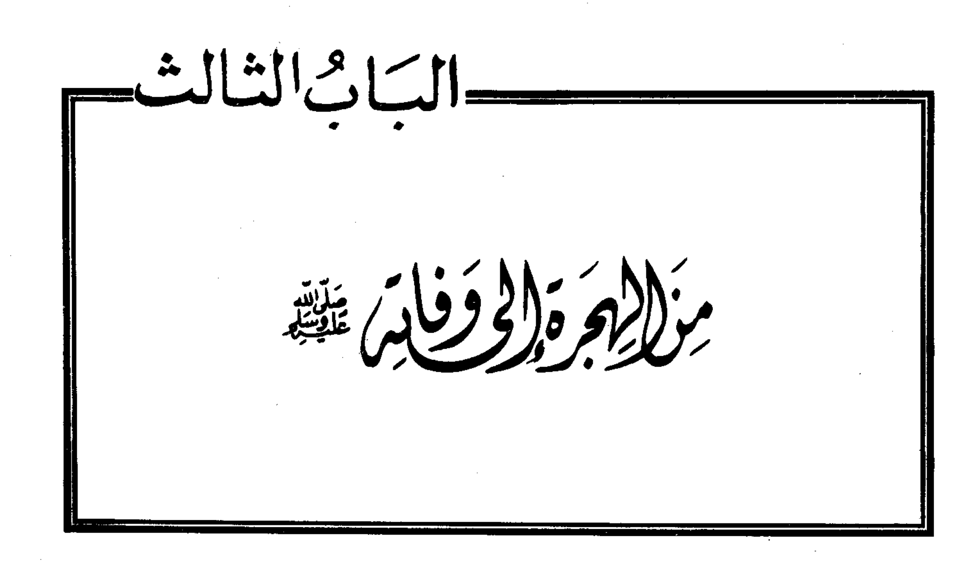
(٢٥) إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص ١٦٩.

وأحق أن يجعل كيدهم في نحورهم وما زال آخذاً بيمينه، حتى غنى له الزمن، وصفق له الدهر»[٢٦].

وكانت الهجرة الإسلامية إيذاناً بعهد جديد، ومرحلة عتيدة في مسيرة الدعوة الإسلامية وجاءت تأكيداً على الهوية الشمولية للدعوة التي لم تكن قاصرة على قريش، وإنما جاءت لتغير واقع المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية، وتصهرها في بوتقة الإسلام، ومن ثمَّ لتؤكد أنها رسالة عالمية للناس كافة.

---

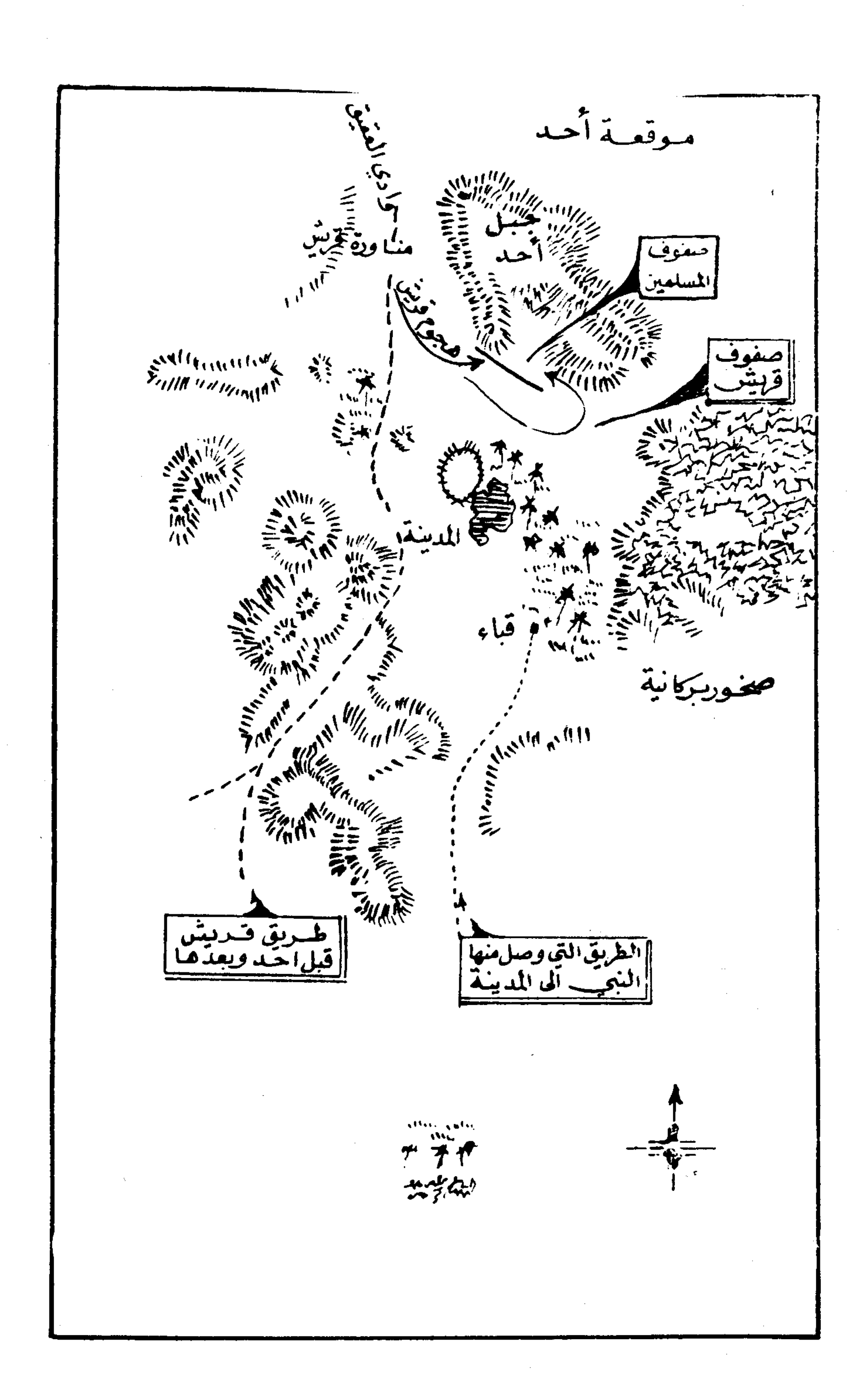
(٢٦) سيديو: خلاصة تاريخ العرب، ص ٥٤.



الباب الثالث

من الهجرة إلى وفاته ﷺ

- الهجرة وإقامة الدولة الإسلامية .
- حروب الدعوة الإسلامية .
- سياسة الرسول التوحيدية .


موقعة أحد
وادي العقيق
مناورة قريش
جبل أحد
صفوف المسلمين
هجوم قريش
صفوف قريش
المدينة
قباء
صخور بركانية
طريق قريش قبل أحد وبعدها
الطريق التي وصل منها النبي الى المدينة



الفصل الأوّل

الهجرة
وإقامة الدولة الإسلامية الأولى



الهجرة إلى المدينة

مع العام الثالث عشر للبعثة الإسلامية، حدثت الهجرة النبوية التي كانت مبدءاً للتاريخ الإسلامي، من مكة ـ عاصمة الشرك ـ إلى المدينة ـ قاعدة الإسلام الأولى ـ، يقول توماس كارليل:

«ومن هذه الهجرة يبتدىء التاريخ في المشرق، والسنة الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية، وهي السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد، فترون أنه كان قد أصبح شيخاً كبيراً، وكان أصحابه يموتون واحداً بعد واحد ويخلون أمامه مسلكاً وعراً، وسبيلاً قفراً وخطةً نكراءَ موحشةً، فإذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعاً ومحركاً، ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه، فهيهات أن يجد بارقات الأمل فيما يحدق به من عوابس الخطوب ويحيط به من كالحات المحن والملمات، وهكذا شأن كل إنسان في مثل هذه الأحوال»[١].

الدلائل الروحية للهجرة

ولقد حملت الهجرة معاني عدة، فهي هجرة الشرك وخلاص المسلمين

(١) توماس كارليل: الأبطال، ص ٧٥.

المهددين بفتنتهم عن دينهم، بسبب الحصار القرشي العنيف، واضطهاد ضعفاء المسلمين، كما حفلت بدلائل إيمانية عميقة، قاربت المعجزات حين اختبأ الرسول عن أعين مطارديه هو وأبو بكر في الغار الذي نسجت العنكبوت على فمه نسجها وباض الحمام على مدخله....

وتحدث المستشرق الأمريكي ماكس (١٧٩٥ ــ ١٨٦٨) في كتابه: «عظماء الشرق» عن هجرة الرسول ﷺ ودلائل النبوة والقوة التي ظهرت في تلك المرحلة التي مثلت منعطفاً تاريخياً عظيماً في سيرة رسول الله وتطوراً نوعياً في مسار الدعوة الإسلامية، يقول ماكس:

«لقد نفذت روح الإسلام من محمد رسول الله إلى المسلمين، إلى الهداة والصالحين، وإن هذه الروح القوية حدتْ بالنبي إلى الهجرة من مكة إلى المدينة، بينما كان أعداؤه من المشركين يجدُّون في البحث عنه ليؤذوه بل ليذيقوه ريب المنون، ومن الغريب أن أعداء النبي لم يقنعوا أنفسهم بتركه مكة، بل تعقبوه في هجرته، وهناك ضربوا على منزله سياجاً من الحيطة لأجل القبض عليه، ولكن روح الإسلام الدفينة في أعماق الهمة، ألهمته أن يتناول قبضة من تراب فتناولها ورمى بها عليهم فأخذتهم سنة من النوم تمكن خلالها النبي من النجاة منهم إلى الصحراء حيث اختفى في غار هناك، ولا تقل إن اختفاءه في الغار يحول دون هلاكه وحتفه، ولكن الإسلام وما في ثناياه من روحانية وقوة، جعل الحمام يبيض على باب الغار، ولما أفاق أعداؤه من غشيانهم تتبعوا أثره إلى الغار، وأخذتهم هواجس الظن، لعلمهم بأن النبي لا يمكن بأي حال أن يكون في الغار، فمن يرد أن يؤمن بوحدانية الله، فعليه أن يُشاهد بسهولة يد الله

المحركة للكائنات من غير أن تبصرها العين المجردة، وخاصة عندما أحيطتَ حياة النبي من يد العدوان برعاية الطير الذي اندفع إلى حماية محمد بيد الإله الخافية عن الأبصار»[٢].

الدلائل الإيمانية للهجرة

لا مرية في أن الهجرة الإسلامية من مكة إلى يثرب تمثل مرحلة من مراحل الصراع الديني السياسي الدائر في الجزيرة العربية، كما تتضمن دلائل إيمانية بخروج المسلمين من عهد الجاهلية وتشكيل بداية التاريخ الإسلامي، يقول المستشرق الفرنسي مارسيل بوازار في كتابه «إنسانية الإسلام»:

«وما إن شعر محمد بالخطر حتى أوعز لفئة قليلةٍ ممن آمنوا بدعوته، وكانوا مهددين بشكل خاص، على الهجرة إلى الحبشة. ثم ما لبث أن نظم هجرة أتباعه بالتدريج إلى يثرب التي عرفت فيما بعد باسم (المدينة). وائتمر المكيون لقتل النبي، وعلم بالأمر، وتمكن من النجاة بشبه معجزة بمساعدة شجاعة من ابن عمه علي، كما تقول كتب السيرة. وفي المدينة استقبل محمد بالتهليل في شهر تموز عام ٦٢٢م، وكانت «الهجرة» التي يحدد بها المسلمون مطلع سنتهم، والتي تعتبر بداية التاريخ الإسلامي. وتعني اللفظة حرفياً ترك البلاد إلى أخرى، والمنفى، والنجاة بالنفس. أما الدين فقد أضفى عليها معنى خاصاً هو الخلاص من الجهل، ورفض الشر، واطراح الكفر، وبكلمة تكون الهجرة فعل إيمان. ومن المفيد التذكير بأن الهجرة (ابتعاد طوعي وإن يكن محدداً بأسباب لا إرادية) يتجدد بلا انقطاع

(٢) ماكس: عظماء من الشرق، ص٩٣.

إذا حدث إذلال أو اضطهاد. وعلى المسلم أن (يهاجر إذا اقتضى الأمر ليجاهد في سبيل الله حتى يزول كل ظلم)»[٣].

معالم الدولة الإسلامية الأولى

ومع وصول الرسول إلى المدينة عام ٦٢٢ بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الحركة الإسلامية الفتية، هي مرحلة كانت ما بين عهدي الجاهلية والإسلام. وأخذت تتبلور فيها معالم الدولة الإسلامية الأولى، المبنية على قاعدة الإخاء الإسلامي ما بين الأنصار (الأوس والخزرج) والمهاجرين المكيين، وأسس الدستور الإسلامي الجديد الذي نظم العلاقات ما بين قوى المدينة، المسلمين والقبائل التي لا تدين بالإسلام واليهود، فكان التعايش بين مختلف الطوائف هو سدى هذا الدستور، والإخاء لحمته... دستور المدينة، الذي تضمن تنظيم العلاقات ما بين المسلمين من جهة، وأصحاب المذاهب الأخرى من جهة أخرى، في إطار من الحرية الدينية، يقول المستشرق الروماني جيورجيو:

«وقد حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بنداً، كلها من رأي رسول الله. خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى، ولا سيما اليهود وعبدة الأوثان.

وقد دون هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء. وضع هذا الدستور في

---

(٣) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص ٤٤ ــ ٤٥.

السنة الأولى للهجرة، أي عام ٦٢٣م. ولكن في حال مهاجمة المدينة من قبل عدو عليهم أن يتحدوا لمجابهته وطرده»[٤].

وحقق المجتمع المدني في ظل الدستور الجديد نقلة نوعية، وثورة اجتماعية، إذ غدت الأمة الإسلامية هي البديل العملي للعصبية القبلية، والإخاء والمساواة عوضاً عن طبيعة العلاقات الاجتماعية الجائرة... وأخذ بالسطوع نجم الرسول ﷺ الذي أصبح عملياً الحاكم السياسي للمدينة، فكان الداعية والنبي والحاكم والقائد العسكري وأصبحت سيرة حياته تاريخاً للحركة الإسلامية.

عوامل انتشار الدعوة الإسلامية

كانت المدينة قبل الهجرة تعاني اضطرابات داخلية، ومشاكل اقتصادية وتمور داخلها تيارات سياسية وفكرية شتى، ناهيك بما كانت تعيش من صراعات قبلية، هذا ويتحدث الباحث الإنكليزي غلوب باشا عن واقعها السكاني وأحوالها في تلك المرحلة بقوله:

«كانت المدينة مأهولة عندما هاجر إليها النبي بقبائل عدة، منها العربية ومنها اليهودية. (أرى من الأسهل التمييز بينها على هذا النحو، وإن كان من يُدعون باليهود قد لا يخرجون عن كونهم عرباً تحولوا إلى اليهودية). وكان اليهود ينقسمون إلى ثلاث قبائل تعمل اثنتان منها في الزراعة وتعيش على زراعة النخيل والحبوب، أما الثالثة فتضم فنيين يعملون في صياغة الذهب والفضة وصناعة الأسلحة. أما العرب فكانوا قبيلتين: الأوس والخزرج، ولم تكن قد انقضت أربع

(٤) ك. جيورجيو: نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ص١٩٢.

سنوات على توقف الحرب بينهما ليحل محلها السلام، وليصبح للقبيلتين رئيس واحد هو عبد الله بن أبيّ يتولى قيادتهم وزعامتهم معاً»[٥].

التفوق الروحي والزمني للرسول

كل هذه العوامل مجتمعة ساعدت على انتشار الإسلام في يثرب، ومكنت الرسول حين بلوغها إلى تحويلها قاعدة انطلاق لنشر الدعوة الإسلامية، ومركزاً للدولة الإسلامية الأولى مما أكسب الرسول التفوق الروحي والزمني، ومنح الإسلام عزة ومنعة. يقول المستشرق الهولندي فلوتن يان (١٨٠٧ ــ ١٨٧٩) صاحب الدراسات العديدة والجادة في كتابه: «الفصول»:

«إن محمداً لم يلبث أن أصبح له تفوق روحي وزمني بعد سنين قلائل من الجهاد والاضطهاد، كما يدل على ذلك غير آية من القرآن، وذلك بتحول أهل المدينة إلى الإسلام بفضل ذلك النفوذ الذي كان يتمتع به الرسول. وغدا الإسلام ديناً قوياً ما لبث أن انتشر بين الشعوب عن طريق الوعد والوعيد»[٦].

أعداء الإسلام في المدينة

وكان أن واجهت الرسالة الإسلامية صعوبات مع قيام الدولة الإسلامية الأولى... ممن لم يعجبهم الواقع الديني الاجتماعي السياسي الجديد، فشكلت

---

(٥) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٨٣ ــ ٨٤.

(٦) فلوتن يان: الفصول، ص ١٠٣.

القوى التي عملت بالسر أو بالعلن على تخريب الإسلام من الداخل والإيقاع بين المسلمين، وقد تشكلت من ركائز ثلاث:

أولاً: القبائل العربية التي ما زالت محافظة على وثنيتها، وتلتقي مع قريش في اتجاهاتها الدينية ومصالحها الاقتصادية.

ثانياً: اليهود بقبائلهم وتجمعاتهم السكنية الثلاثة (قينقاع وقريظة والنضير) وذلك حين شعروا بخطر الدعوة الإسلامية التي عملت على تقويض نفوذهم الديني ومكانتهم الاقتصادية، فكانوا أن عمدوا إلى إثارة الفتن بين المسلمين وحبك الدسائس ضدهم، وهذا ما قاد الرسول في مرحلة تالية إلى تقويض وجودهم في المدينة، إذ أجلى القبيلتين الأوليين (قينقاع والنضير) وأنفذ حكم السيف في القوة الثالثة (قريظة) حين تأكد من تآمرها وتواطئها مع قريش، والحلف المعادي للرسول (في معركة الخندق).

ثالثاً: المنافقون، وهم الحركة السياسية التي تزعمها عبد الله بن أبي، التي أعلن أفرادها إسلامهم ظاهراً، لكنهم ظلوا يكيدون للإسلام وللمسلمين ويحاولون الإيقاع بين الأنصار (مسلمي المدينة، وهو الاسم الذي أطلقه الرسول على قبيلتي الأوس والخزرج اللتين نصرتا الإسلام) والمهاجرين (مسلمي مكة) الذين هاجروا إلى المدينة.

بدء الصراع مع قرشيي مكة

إلا أن أعداء الداخل لم يكونوا هم الخطر الوحيد الذي يهدد الإسلام ودولته... لقد كان العدو الخارجي ــ أي مشركو قريش ــ هم الخصم الأساسي، الذين عملوا على كسب أعداء الداخل، واستخدموا مختلف الأساليب في الضغط السياسي والاقتصادي والتهديد العسكري، كما لجؤوا إلى أسلوب الفتنة التي كان هدفها الوقيعة بين المسلمين ويهود المدينة، غير أن

جميع وسائل الضغط والترهيب لم تُجد فتيلاً، لا سيما وأن مكانة الرسول والتفاف القوى الإسلامية حوله أدخلت الذعر في قلوب أعداء الداخل...

الصراع الاقتصادي

وكان السهم الخطير الذي لعبته مكة، هو الحصار الاقتصادي الذي ضربته على المدينة، وكان له أثره في تعجيل الصدام ما بين قوتي الشرك والإسلام، رغم أن الرسول الكريم كان يهدف إلى نشر الدعوة بالوسائل السلمية، إلا أن موقف العدو الذي يسعى إلى القضاء على الدعوة في مهدها، بخنقها اقتصادياً فرضت على المسلمين المواجهة، يقول توماس كارليل:

«وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط، فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الإصغاء إلى صوت ضميره وصيحة لبه، حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة ــ عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه دفاع رجل، ثم دفاع عربي، ولسان حاله يقول (أما وقد أبت قريش إلا الحرب فلينظروا أي فتيان هيجاء نحن) ــ وحقاً رأى أن أولئك القوم صموا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق، وأبوا إلا التمادي في ضلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون وينهبون ويقتلون النفس التي حرم الله، ويأتون كل إثم ومنكر، وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة فأبوا إلا عتواً وطغياناً، فليجعل الأمر إذن إلى الحسام المهند والوشيج المقوم، وإلى كل مسرودة حصداء وسابحة جرداء، وكذلك قضى محمد بقية عمره وهي عشر

سنين أخرى في حرب وجهاد لم يسترح غمضة عين ولا مدر فواق، وكانت النتيجة ما تعلمون»[7].

ومن هذا المنطلق الفكري يتحدث المستشرق الفرنسي جان بروا في كتابه: «محمد نابليون السماء» بقوله:

«إن إبلاغ الرسالة إلى العالم هو الهدف الأول والأخير للنبي محمد، ولم تكن مشاغل الأسرة والحياة لتحول بينه وبين أدائها أبداً، وإنك إذا نظرت إلى عنف قريش ومؤامراتها الدموية وربط جأشها على اغتياله مراراً، بل إذا نظرت إلى كل القبائل العربية حينذاك، ألفيت الغزو جلّ عملها، ولم يكن النبي إلى ذلك الوقت ـــ وإن كثر حوله الرجال ـــ قد أُذن له في النضال ودفع العدوان بالعدوان، ولكن بعد كل تلك الاعتداءات جاء الوحي الإلٓهي يبيح له حرب المعتدين ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ (٢٢/٣٩) (الحج) وجاء أيضاً ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ (٢/١٩٠)[8]».

الحصار الاقتصادي المضاد

وكان طبيعياً أن يواجه المسلمون المشركين بصراع اقتصادي مضاد، فكان أن أنفذ الرسول عدداً من السرايا العسكرية، التي شكلت خطراً على القوافل التجارية القرشية... كما عقد عدداً من المعاهدات مع القبائل العربية، التي شكلت رديفاً في صراعه مع قادة مكة.

(٧) توماس كارليل: الأبطال، ص ٧٥ ـــ ٧٦.

(٨) جان بروا: محمد نابليون السماء (ترجمة محمد بنداق)، ص ٥٢.

وهذا، ما دفع المستشرقين لأن ينظروا إلى الرسول كنبي ورجل دولة وقائد عسكري حين قرن الدين بالسيف والدعوة بالقوة، يقول المستشرق أ. أفريمان في كتابه: «تاريخ العرب»:

«وجد النبي ــ الذي لا كرامة له في عشيرته ــ الولاء والإجلال في مدينة الهجرة. وأخذ النبي يظهر تدريجياً في صورة جديدة. فالنبي المضطهد يتحول الآن إلى محارب ظافر. وإذا فشلت نذر النبي وبشائره في إقناع قريش فإن سلطان الفاتح سيرغمهم على الاقتناع»[٩].

الإذن بالقتال وبدء العمليات العسكرية

وما إن نزلت الآية القرآنية التي تأذن للمسلمين بقتال أهل الشرك حتى أدرك المسلمون أن عليهم واجباً مقدساً. هو نشر الرسالة سلماً وحرباً، ومجابهة أعداء الإسلام عسكرياً، لأن هؤلاء يهدفون أساساً إلى القضاء على الدولة الإسلامية الأولى...

فكان أن تحول المسلمون إلى جيش للثورة الإسلامية وغدت المدينة قاعدة الانطلاق للعمليات العسكرية الموجهة ضد مكة، وكانت فاتحة لتاريخ الإسلام العسكري، وقادت إلى أول مواجهة ما بين الطرفين في موقعة بدر...

---

(٩) أ. أفريمان: تاريخ العرب (نقلاً عن كتاب الفتوحات العربية الكبرى، ص ٧٩).

الفصل الثاني

حروبُ الدعوَةِ الإسلاميَّةِ



المدينة قاعدة الثورة الإسلامية

كانت الهجرة إلى المدينة حدثاً تاريخياً عظيماً في تاريخ الجزيرة العربية، مع قيام الثورة الإسلامية، المحاطة بأعداء الداخل والخارج، ناهيك برسوخ الدعوة الإسلامية التي اشتد ساعدها في قاعدتها الجديدة بعد أن كانت مطاردة في مكة، ولذا ترتب عليها أن تحسب حسابها لمواجهة أعداء الإسلام، لأنهم يخشون وجودها خشية تدفعهم للسعي للانقضاض عليها عند أول بارقة تسنح لهم، ثم لأن الرسالة لم تكن مقصورة على مكة والمدينة، وإنما لتنتشر في جميع أرجاء بلاد العرب... وهذا ما يحدوها لأن تعد العدة لمواجهة طويلة مع أعداء حركة التوحيد، وخاصة بعد أن أنزل الله آية الإذن بالقتال ﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ (الحج آية ٣٩). وهكذا كانت حروب الدعوة الإسلامية في عهد الرسول، تزيل الحواجز القبلية وتسقط الوثنية، فتوحد العرب وتعلي راية وحدانية الله في ربوعهم.

العمليات العسكرية السابقة على معركة بدر

إذا كانت معركة بدر أول مواجهة فعلية بين المسلمين ومشركي قريش، فقد جرت مع ذلك سلسلة من العمليات العسكرية التمهيدية قادها الرسول

بنفسه أو أنفذها بقيادة رجال من صحابته وكانت حسب تعبير الباحث العسكري العماد مصطفى طلاس:

«أشبه بذوريات الاستطلاع القتالية التي تجري عادة قبل المعركة لتعرف جهاز الخصم الدفاعي وسبر نقاط القوة ونقاط الضعف فيه»[1].

وكانت هذه الحركات ضرورية في بدء تاريخ الثورة الإسلامية لدراسة طبيعة المنطقة، ولإظهار قوة المسلمين ويقظتهم ضد تحركات الأعداء.

ويتحدث الباحث العسكري جان باغوت غلوب عن طبيعة الخطط السوقية (الاستراتيجية) التي اتبعها الرسول في صراعه مع قاعدة الشرك العربي: مكة في عهده، قائلاً:

«وكانت الخطط السوقية التي اتبعها النبي بين عامي ٦٢٣ و ٦٣٠ هي عين الخطط السوقية التي اتبعها فيصل ولورنس في الحملة بين عامي ١٩١٦ و ١٩١٨. فلقد احتفظ الأتراك في الحرب الكونية الأولى بحاميات ضخمة في مكة والمدينة وكانت هذه الحاميات تعتمد في بقائها لا على قوافل الإبل بل على الخط الحديدي بين المدينة ودمشق، وقد عزز الأمير فيصل ولورنس مواقعهما إلى الشمال من المدينة حيث كانا في وضع يمكنهما من قطع شريان حياتها مع سورية.

وكان الغزو بالنسبة إلى العرب وسيلة طبيعية للخلاص من العوز. ولقد تولت القيام بالغزوات الصغيرة الأولى جماعات صغيرة

(١) مصطفى طلاس: الرسول العربي وفن الحرب، ص ١٣٥.

من المهاجرين. ولم يشترك أهل المدينة في هذه المشاريع، لكن أهل مكة والمدينة على السواء لم يكونوا قد ألفوا العمليات الحربية، وهي العمليات التي يقضي فيها البدو الرحل أوقات فراغهم، ولا تعرفها الجماعات التي تعمل في التجارة أو الزراعة. لكن أياً من الغزوات الأولى لم تحقق نجاحاً مذكوراً، فلقد كانت أنباء الحملة تصل إلى قريش قبل وقوعها، بينما كانت الأنباء التي تصل إلى المسلمين إما متأخرة أو مفتقرة إلى الدقة.

«وفي خريف عام ٦٢٣ ميلادية مرت قافلة كبيرة تضم نحواً من ألف بعير محملة بالبضائع التي تملكها قريش ويتولى قيادتها أبو سفيان أحد كبار أعداء النبي في مكة قاصدة الشمال إلى غزة. وقد حاول المسلمون قطع الطريق عليها في ذهابها ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك.

ولكن بينما كان رجال مكة والمدينة يعيشون في هاتين المدينتين كانت الصحراء الفسيحة المكشوفة مأهولة بقبائلَ متفرقةٍ من البدو وتعيش على الرعي، وبدأ النبي يدرك أن مساعدة هؤلاء البدو ضرورية لنجاح حملاته الصحراوية ولذا فقد شرع وبصورة تدريجية يقيم علاقات معهم، ولا سيما مع قبيلة جهينة التي كانت تقيم آنذاك كما تقيم اليوم بين المدينة والبحر»(٢).

موقعة بدر

تعتبر موقعة بدر من أهم المواقع العسكرية في التاريخ العسكري

(٢) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٨٨ ـــ ٩٠.

الإسلامي لأنها المعركة الأولى التي خاضتها قوات الثورة الإسلامية ضد قوى الشرك التي تزيدها ثلاثة أضعاف، وكانت ترمي إلى تصفية الحركة الإسلامية الفتية في المدينة، حين لاقاها الرسول بقواته التي قدر عددها ٣١٣ رجلاً (ثلاثة وسبعون منهم من المهاجرين الذين تطالب مكة برؤوسهم والبقية من الأنصار) عند قرية بدر الصغيرة القريبة من المدينة والواقعة على طريق القوافل بين مكة والشام، وذلك في السابع عشر من رمضان السنة الثانية للهجرة.

وحين تقابل المعسكران الإسلامي والمكي، لم يكن الطرفان في حالة نفسية واحدة، كان المسلمون كتلةً متراصةً منضبطةً تحفزها حمية دينية طاغية وروح عسكرية منظمة لأنها تحارب دفاعاً عن العقيدة والنفس والوجود...

بينما كان معسكر الشرك موزعاً في نوازعه فبعضهم أرادها حرباً ضروساً تقضي على شعلة الإسلام لأنها تشكل خطراً يهدد المجتمع الأرستقراطي القرشي، كما أرادها آخرون تطميناً لمصالحهم التجارية المهددة، على حين كان ثمة فريق لا يريد الحرب أصلاً مع أبناء العمومة من المهاجرين، يقول غلوب باشا في كتابه: «الفتوحات العربية الكبرى»:

«وهكذا تقدمت قريش إلى المعركة وهي موزعة بين الإقبال والإحجام كما أن بني زهرة أخوال النبي رفضوا القتال وعادوا إلى مكة. أما نفسية المسلمين فكانت على النقيض من ذلك تماماً، فلقد كان المهاجرون يائسين تخلوا عن كل ما يملكونه في مكة ولا يحملون إلا سيوفهم، يضاف إلى هذا أن المسلمين تخلوا عن العصبيات القبلية والعائلية التي تربطهم بعد أن أكد لهم النبي أن المسلمين هم إخوانهم فقط. فالخوف من سفك دماء الأقرباء، وهي النزعة التي كبحت جماح قريش، وحدّت من إقبالهم على المعركة والتي لا تزال

مسيطرة على عقلية البدو من العرب حتى اليوم لم تكن معروفة عند المسلمين الأوائل، الذين قيل إن بعضهم قتلوا آباءهم أو إخوانهم إذا كانوا من المشركين. يضاف إلى هذا أن تعودهم الوقوف في صفوف منتظمة خمس مرات في اليوم لأداء فريضة الصلاة مؤتمين بقائدهم قد أوحى إلى عقولهم الباطنة بشيء من الانضباط، ومن الروح العسكرية المنظمة. يضاف إلى هذا أن المهاجرين والأنصار كانوا تحت تأثير حمية دينية عارمة وهم يشهدون قائدهم محمداً بين ظهرانيهم يشترك معهم في القتال»[٣].

لكن الأهم، كانت عبقرية الرسول العسكرية عاملاً حاسماً في النصر الساحق الذي حققه الجيش الإسلامي في تلك المعركة غير متكافئة القوى، ناهيك بالحماسة الدينية المتقدة لدى المسلمين الذين حاربوا في سبيل العقيدة، وقاتلوا بصورة ملحمية جماعية، خاصة وكانوا موقنين بالعون الإلٓهي المؤزر ــ حسب ما تذهب إليه المراجع الإسلامية ــ...

عبقرية الرسول العسكرية في بدر

هذا، وقد اعترف بعض المستشرقين وخاصة الباحثين العسكريين الغربيين بعبقرية محمد الرسول العسكرية، تقويماً منهم لخطته العسكرية حين أصدر أمره للمسلمين بأن يحاربوا حرباً جماعيةً والابتعاد عن المبارزات الفردية، فالمعركة هنا ليست لإظهار بطولة الأفراد ومهاراتهم القتالية، وإنما في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا... يتحدث المستشرق والباحث العسكري الروماني جيورجيو عن خطة الرسول البارعة، بقوله:

---

(٣) المصدر السابق، ص ٩٥.

« وبعد ذلك شرح النبي ﷺ خطته الحربية للمسلمين ، وهي خطة ابتدعها فيليب أبو الإسكندر المكدوني قبل ألف سنة تقريباً ، وتدعى باليونانية (فالانثر Ferlange) وهي عبارة عن اصطفاف الجنود إلى جانب بعضهم بعضاً وتلتصق نهاية الصف الأول في أول الصف الثاني ، وهكذا حتى يتكون من المجموع شكل هندسي كالمثلث أو المربع أو الدائري . ويقف الجميع بهذه الأشكال بمواجهة العدو ، في حين تكون ظهورهم نحو الداخل . وبهذا الشكل لا يقدر العدو على مهاجمتهم من الخلف ، لأنه حيثما اتجه قابله الجنود مستعدين . هذا (التكتيك العسكري) هو الذي يدعى باليونانية (فالانثر) ولهذا سميت وحداتهم العسكرية اليونانية قديماً بهذا الاسم . وقد اتبع محمد ﷺ هذه الخطة لأول مرة في تاريخ الجزيرة العربية ، وفي معركة بدر بالذات . هذه الخطة ، إضافة إلى شجاعة المسلمين ، كانت سبب نصرهم في هذه المعركة .

« وقد رتبت (فلانثرات) المسلمين في ذلك اليوم بشكل مثلث . ارتفع فيه ثلاث رايات إسلامية في رؤوس المثلث وقد أبرز محمد ﷺ عبقريته العسكرية في تنظيمه هذا المثلث واستحكام كل جندي في مكانه واستقباله العدو من غير استدباره »(٤) .

وأسفرت المعركة عن فوز ساحق للمسلمين في معركة لم تدم أكثر من ساعة ، وهزيمة منكرة للجيش المكي الذي فقد فيها قادة قريش وصناديدها فكانت ضربة قاصمة لمعسكر الشرك ...

---

(٤) ك. جيورجيو : نظرة جديدة في سيرة رسول الله ، ص ٢١٩ ــ ٢٢٠ .

سلسلة العمليات العسكرية ما بين بدر وأحد

كان الانتصار الكبير الذي حققته القوى الإسلامية على مشركي مكة في بدر، فاتحة مرحلة جديدة أساسية في التاريخ الإسلامي عموماً، والتاريخ العسكري خصوصاً، مع ارتفاع الروح المعنوية لدى المسلمين، التي عمل الرسول على إبقائها متقدة لإدراكه ألاّ مناص من مواجهة مقبلة مع القرشيين الذين سيعيدون الكرة لمهاجمة المسلمين في المدينة، ويحلل المفكر مونتجمري وات هذه المسألة بقوله:

«أدرك محمد، بعد انتصاره في بدر أنه كتب عليه (القتال الشامل) ضد المكيين، إذ أن ازدهارهم متعلق بمكانتهم، وكان عليهم أن يستعيدوا ما فقدوه في بدر، حتى يحافظوا على وضعهم والقضاء على سيطرة محمد على طريق الشمال. فلم يكن محمد ينتظر إذاً من المكيين سوى ازدياد حدة النضال حتى أنه كرس كل قواه لتقوية نفسه وإضعاف أعدائه. وكانت أخبار بدر ومشاهدة الغنيمة قد أدتا إلى ازدياد قوة محمد، وأصبح أهل المدينة أكثر رغبة في الاشتراك بغزواته»(٥).

إجلاء يهود بني قينقاع عن المدينة

لعل أبرز العمليات التي قام بها الرسول في هذه المرحلة إجلاء يهود قينقاع عن المدينة في السنة الثانية للهجرة، حين أخذوا يلعبون دور «الثورة المضادة» خلف صفوف المسلمين والطابور الخامس للعدو، ويتحدث

(٥) مونتجمري وات: محمد في المدينة، ص٢٦.

المستشرق إسرائيل ولغنسون في كتابه « تاريخ العرب واليهود في بلاد العرب » عن انعدام الثقة بين الطرفين بقوله :

« وقد نجم عن هذا النزاع أزمة سياسية جعلت تشتد يوماً بعد يوم ، تأكد عندها لمحمد استحالة تحقيق الفكرة التي كان يرمي إليها من التأليف بين قلوب اليهود والعرب وإيجاد أمة مؤلفة من جميع عناصر يثرب . وكان لا بد من عمل حاسم إزاء بني قينقاع ، وهم يسكنون داخل المدينة في حي واحد من أحياء العرب فتطهر المدينة وأحياء الأنصار من غير المسلمين »[٦] .

وكان لهذه العملية آثارها البعيدة ، لتأكيد الوحدة السياسية للمدينة ، وانتزاع السيادة المطلقة عليها ، وجعلها حصراً في أيدي المسلمين .

العمليات التأديبية ضد القبائل العربية المناوئة للإسلام

وفضلاً عن عملية إجلاء يهود بني قينقاع عن المدينة ، نفذ الرسول سلسلة من العمليات التأديبية التي قادها بنفسه ضد القبائل العربية المتحالفة مع قريش والتي هدفت إلى غزو المدينة ، انطلاقاً من موقف تحالفها مع قوى الشرك ودرجاً مع شرعة الغزو السائدة لدى القبائل ... ويعرض المفكر العسكري غلوب باشا ، باحثاً قضية العلاقة بين مدينتي مكة والمدينة مع القبائل العربية بقوله :

« على الرغم من أن العداء كان في هذه الفترة قائماً بين مدينتي مكة والمدينة إلا أن القبائل البدوية التي تعيش في الصحاري

---

(٦) إسرائيل ولغنسون : تاريخ العرب واليهود في بلاد العرب (نقلاً عن كتاب محمود الدرة معارك العرب الكبرى ص ٩٧) .

المجاورة لعبت دوراً هاماً في المشاحنات التي قامت بين المدينتين. وكان هؤلاء البدو بتجوالهم المستمر بين المدينتين يؤدون دوراً بارزاً في نقل الأخبار والمخابرات وهي ضرورة عسكرية كان المسلمون مفتقرين إليها أشد الافتقار في البداية. يضاف إلى هذا أن هذه القبائل كانت تحتل الصحراء المكشوفة وكانت قادرة عن هذا الطريق على حماية القوافل أو نهبها، وكانت قريش واثقةً من أنها لو استطاعت ضمان ولاء هؤلاء البداة فإن قوافلها تستطيع أن تنجو من الغزاة المسلمين، أما إذا أفلح النبي في كسب ولاء هذه القبائل فإن أهل مكة سيصبحون محصورين داخل مدينتهم ويتعرضون للتضور جوعاً. وكان المسلمون قد فازوا بصداقة قبيلة جهينة التي تقيم في السهل الساحلي، لكن قبيلتي غطفان وبني سليم المقيمتين في الشرق من المدينة ظلتا حليفتين لقريش. ودفعت هذه الأوضاع المسلمين إلى القيام بغزوات صغيرة عديدة ضد هاتين القبيلتين لإرهابهما وإقناعهما بأن صداقة محمد خير لهما من التحالف مع أهل مكة»(٧).

وعملياً فقد فرض الرسول ﷺ هيبته واحترامه على القبائل العربية التي كسب بعضاً منها، وأنزل الهزيمة النكراء ببعضها الآخر إذ حاولت غزو المدينة، فكان الرسول يبادر إلى ضربها قبل تحركها وفي مواقع تحشدها....

معركة أحد

كان للهزيمة القاسية التي حلت بالجيش المكي، دورها في ضياع هيبته، مضافاً إليها عملية الحصار الاقتصادي الإسلامي لمكة عن طريق

(٧) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٠٤.

تحركات السرايا الإسلامية التي هيمنت عملياً على طريق القوافل الواصلة بين مكة والشام .. مما جعل القيادة القرشية تعيش أحلك ظروفها ، خاصة وأن قوام حياة مكة يرتكز على التجارة أساساً. وكان لهذين العاملين الهامين أن عجّلا في تسريع المواجهة ثانية بين قريش والمسلمين ، ليمحو المشركون عنهم عار الهزيمة أولاً ، ولفتح الطرق أمام تجارة قريش ثانياً .

ومن هنا شكل المكيون جيشاً قوامه ثلاثة آلاف محارب بإمرة أبي سفيان الذي تحرك بقواته باتجاه المدينة ، وعسكر في شمالها قرب جبل أحد حيث التقى هناك بالقوة الإسلامية المؤلفة من ستمئة وخمسين رجلاً بقيادة الرسول . . .

وكان أن وضع الرسول خطته الحربية لمجابهة جيش الأعداء الذي يفوقه عدة وعدداً ، اعتماداً على مبدأ القتال الجماعي ومجابهة الأعداء بكتلة بشرية متراصة . ويتحدث الباحث العسكري المستشرق جيورجيو عن خطة الرسول الحربية والأسلوب الذي اتبعه صايغاً ذلك على لسان النبي محمد ﷺ ، بقوله :

«إن خطتنا الحربية اليوم هي خطتنا في يوم بدر تماماً ، فعليكم أن تشكلوا الصفوف المتكاملة المتراصة ، حتى لا يجد الخصم فرصة لشق الصفوف ومحاربتكم من الخلف . علينا اليوم أن نقدر قوة خصمنا ، ففيه الآن جيش من الفرسان ، مئتا فارس بقيادة خالد بن الوليد ، وبإمكان هؤلاء الفرسان أن يبددوا صفوفنا . عندما تتشكل صفوفنا المتراصة بكل مربع أو دائرة تثبت تجاه أية حملة من المشاة ، أما إذا كانت الحملة من الفرسان فإن صفوفنا تقع في خطر . وقد نستطيع أن نصد صف الفرسان الأول ، ولكننا أيقنا أننا سنفاجأ

بسيل من الخيل والفرسان يلاحقوننا من الصف الأول، وسيشتت شملنا حتماً. ومن الواضح أن سرعة حركة الخيل لن تسمح لنا بإعادة تنظيم صفوفنا كما كانت.

وبعد ذلك أشار محمد ﷺ بإصبعه نحو الجنوب وتابع:

إذا أراد خالد بن الوليد مهاجمتنا فسيأتينا من هذه الناحية، لأن هذا السهل يسهِّل حركة جياده.

إن الموقع الذي أشار إليه محمد كان شعباً في جبل أحد، تكثر فيه الحقول. وإن عبر هذه الحقول أحد نحو الجنوب فقد وصل إلى المدينة. وفي ذلك الشعب تلة قليلة الارتفاع، تدعى (عينين). فقسم محمد ﷺ الرماة من المشاة إلى قسمين برئاسة «عبد الله بن جبير» حيث أمره أن يتخذ مكانه على تلك التلة، وعدد هاتين الفرقتين خمسون نفراً على رأي بعض المؤرخين، ومئة نفر على رأي آخرين، وأعتقد أن عددهم مئة، كل فرقة خمسون»[٨].

لقد أدرك الرسول الأهمية الاستراتيجية لهضبُة عينين، وأنها تشكل خطراً ماحقاً على المسلمين إن استطاع المشركون مباغتتهم من الخلف... وعملياً كانت مسيرة المعركة تجري في صالح المسلمين، فما إن التحم الطرفان حتى ظهر النصر جلياً لصالح المسلمين الذين أخذت تتحرك قواهم بصفوف متراصة منتظمة يستحيل اختراقها ساحقة قوى الخصم، دافعة العدو إلى الخلف، وما عتم أن دب الرعب والذعر في صفوفه، فتراجع منهزماً، فانكشفت صفوفه...

---

(٨) ك. جيورجيو: نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ص ٢٥٤.

ولقد دللت مسيرة المعركة على عبقرية الرسول العسكرية في تحقيق النصر في المرحلة الأولى وإدراكه موقع الخطر الذي وقع فيه المقاتلون المسلمون بارتكابهم الخطأ الفادح حين خالفوا الرسول فسارعوا إلى جمع الغنائم من معسكر العدو المنهزم، ونزل الرماة بدورهم متخلين عن موقعهم الاستراتيجي فكانوا أن فتحوا الثغرة القاتلة التي تبينها الرسول ووضع لأجلها الرماة خشية قيام خيالة العدو، بقيادة خالد بن الوليد بحركة التفاف مباغتة من الخلف، وكان لتخلي الرماة عن مواقعهم على الجناح الأيسر ما عدا فئة قليلة بقيت مع قائدها عبد الله بن جبير، أن تبدل سير المعركة وقلبت موازينها، وتحولت هزيمة الجيش المكي الأكيدة إلى نصر، فكاد أن يفنى الجيش الإسلامي لولا ثبات قلة التفت حول رسول الله ﷺ واستبسلت استبسالاً ملحمياً بعزيمة لا تقهر، وهي تذود عن صاحب الرسالة، حتى تمكنت أن تفتح طريقاً حتى مضيق عينين الذي تكسرت عنده هجمة المشركين... مما اضطر قادتهم إلى الانسحاب من المعركة بعد أن تواعد الفريقان على اللقاء في بدر العام المقبل، واعتبر المكيون أنفسهم منتصرين وثأروا للهزيمة في بدر، إذ أوقعوا الكثير من القتلى في صفوف المسلمين الذين مثل بجثثهم... ولا يخفى أن غالبية المؤرخين الإسلاميين عدّوا موقعة أحد نصراً لقريش وهزيمة للمسلمين.

على إن للاستشراق المنصف كلمته إذ لم ير في معركة أحد هزيمة للمسلمين، ولم تكن بالتالي نصراً للمشركين، وهذا ما استعرضه المستشرق جيورجيو مناقشاً آراء المؤرخين الإسلاميين كباحث عسكري، انطلاقاً من مفهوم النصر والخسارة في الحرب، يقول:

«يذكر المؤرخون الإسلاميون أن المسلمين خسروا في معركة أحد. وهذا الرأي يحتاج إلى مناقشة. ولو أننا تحدثنا مع متخصص

حربي في مسألة خسارة المعركة، وسألناه: ما هي علامة الخسارة الحربية؟، لأجاب إن كان جيش الخصم المنتصر احتل البلاد، وأزال جيش العدو، عدّ عندئذ منتصراً، أما إن احتل دولة ما ولم يتمكن من إبادة جيشها فلا تعتبر الدولة خاسرة. فألمانيا في الحرب العالمية احتلت روسيا كلها، ووصلت جيوشها حتى شواطىء نهر الفولغا، ولأنها لم تستطع دحر جيش روسيا دحراً كاملاً فإن ألمانيا لم تُعتبر منتصرة تماماً. فالدولة تعتبر ظافرة بشرطين: أولهما احتلال الدولة المغلوبة، وثانيهما إخماد حركة الجيش.

والمشركون في معركة أحد لم يستطيعوا احتلال المدينة، كما لم يوفَّقوا إلى إفناء جيش محمد ﷺ. فمع أنهم شتتوا جيش المسلمين، فإن فلوله عادت فتجمعت في اليوم الثاني، فعندما عاد محمد إلى مدينته (كما سنذكر) كان تحت قيادته جيش منظم. فمن وجهة نظر محارب متخصص ــ برأيي ــ لم يخسر المسلمون في معركة أحد، إنما وقعوا في تجربة مفاجئة وحسب، لأن جيش مكة لم يفن جيش المسلمين، كما لم يحتل المدينة»[٩].

ومما عزز معنويات المسلمين، ودلل على قوة الجيش الإسلامي وتماسكه، أنَّ الرسول قام في اليوم التالي لمعركة أحد، بحركة عسكرية بارعة طارد فيها جيش مكة إلى منطقة تعرف باسم «حمراء الأسد» إلا أن الجيش المكي آثر عدم الاشتباك مع الجيش الإسلامي والعودة إلى مكة...

الحركات العسكرية في أعقاب أحد وقبل الخندق

كان لغزوة أحد آثارها النفسية على الدعوة الإسلامية، فبعد الفوز

(٩) المصدر السابق، ص ٢٦٧.

العسكري الباهر في بدر كانت نكسة أحد مريرة، ولكنها لم تعزز وضع المكيين في صراعهم مع الرسول، يقول غلوب باشا:

«أصابت هزيمة أحد الدعوة الإسلامية بما يشبه الجزر بعد المد الذي حققه نصر بدر، ولما كان النصر في بدر قد عزي إلى نصرة الله وعونه للمؤمنين فقد صعب على هؤلاء أن يفهموا لماذا ضنت العناية الإلّهية عليهم بالنصرة في أحد. وتوالت الآيات منزلات على النبي، لتعينه في الحفاظ على الروح المعنوية القوية عند المسلمين. وسورة آل عمران في القرآن طافحة باللوم والتثريب على عبد الله بن أبيّ وأتباعه لتخاذلهم وبالوعد للمسلمين بالنصر النهائي والتأكيد لهم بأن الله أراد لهم الانكسار ليبتليهم ويمتحنهم»[10].

واقتصر نشاط قريش في المرحلة اللاحقة على معركة أحد على الاستعداد لحرب الرسول، وكان جل عملهم التهيئة لتكوين جيش قوي من قريش وعدد من القبائل المتحالفة معهم.

أما أعمال الرسول فكانت على العكس من ذلك تتسم بالتحرك العسكري لضرب تحشدات القوى المعادية...

إجلاء يهود بني النضير

كانت العلاقة بين المسلمين واليهود متوترة انعدمت فيها الثقة وخاصة بعد إجلاء يهود بني قينقاع، واستهانة يهود بني النضير بالمسلمين بعد معركة أحد، واهتزاز هيبة الرسول ﷺ وعزمهم على اغتياله وهو في عقر دارهم، فكان أن اتخذ الرسول قراره الحاسم لتصفية أعداء الإسلام داخل المدينة...

---

(١٠) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٢٣.

وذهب المستشرقون في تأويل أسباب إجلاء الرسول يهود بني النضير شتى المذاهب، ومنها التشكيك بصحة رواية مؤامرتهم لاغتيال الرسول ﷺ ....

«ويرى الدكتور إسرائيل ولغنسون مؤلف كتاب: «تاريخ اليهود في بلاد العرب» أن إنذار بني النضير بوجوب الجلاء عن المدينة كان بمثابة انتقام منهم على عدم اشتراكهم في معركة أحد، إذ أنها غزوة موجهة إلى مدينة يثرب، فكان على بني النضير أن يخرجوا للقاء العدو، كما تقضي به شروط المعاهدة المعقودة بين المسلمين واليهود»(١١).

العمليات العسكرية ضد القبائل المعادية للإسلام

وإلى جانب عملية إجلاء يهود بني النضير عن المدينة، قام الرسول ﷺ بسلسلة من العمليات العسكرية قاد بعضها بنفسه أو أنفذ سرايا يقودها صحابته كحملات تأديبية ضد القبائل التي تحشدت لغزو المدينة. وكان أن بلغ في إحدى غزواته الطرف الشمالي الغربي من الجزيرة العربية لضرب التحشدات المعادية في دومة الجندل، لمنع انضمام قبائل الشمال إلى التحالف المعادي للإسلام.

وكان لهذه التحركات العسكرية أن وطدت دعائم الحكم الإسلامي في المدينة، وقوت ساعد المسلمين، وشلت حركة قريش التي تميزت في تلك المرحلة بالسلبية، يقول غلوب باشا:

«ولعل المفارقة العظيمة بين الجانبين في هذه السنوات من

---

(١١) نقلاً عن كتاب محمود الدرة: معارك العرب الكبرى، ص ١٢٢.

سنوات المعارك تبدو واضحة جلية فيما تميز به المسلمون من نشاط لا حدود له، وما تميزت به قريش من سلبية وجمود. وظل المسلمون يقومون بغزوات وسرايا من هذا النوع، من قاعدتهم في المدينة ضد القبائل البدوية الحليفة لقريش مستعينين فيها بحلفائهم من البدو. أما الأفراد الذين يظهرون عداءً شديداً للمسلمين أو للنبي فكان مصيرهم القتل»[١٢].

كان الرسول ﷺ يدرك أن معركة ما بين المسلمين والمشركين واقعة ولا مناص، ولذلك كانت أعماله تهدف إلى إعطاء الثورة الإسلامية زخماً وقوة استعداداً للمستقبل، وإضعافاً لجبهة الأعداء، يقول مونتجمري وات:

«وهكذا استطاع محمد في الفترة الواقعة بين وقعة أحد وحصار المدينة ــ وإن عجز عن منع المكيين من تكوين حلف ضده ــ أن يمنع كثيراً من القبائل من الانضمام إليهم، وزادت القوى التي كانت في حوزته. ولم يكن يستطيع أن ينظر إلى الهجوم المهدد له بدون قلق ولكنه لم يفقد الأمل»[١٣].

موقعة الخندق أو الأحزاب

كانت الرسالة الإسلامية ظافرة دائماً، رغم ما يعترض مسيرتها من صعوبات ونكسات ومؤامرات ومخاطر.. وكان أشدها وطأة يوم تآمر أطراف الأحزاب للقضاء على الإسلام في معركة الخندق، وقوامها قريش ويهود النضير

---

(١٢) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٢٤.

(١٣) مونتجمري وات: محمد في المدينة، ص ٥٣.

(ممن أجلوا عن المدينة) وخيبر وقبائل البدو الغطفانية، ناهيك بيهود الداخل بني قريظة، الذين اتفقوا مع الأحزاب على ضرب الإسلام من الخلف...

وتشير التقديرات الأولية إلى أن عدد الحلف الجديد يتراوح ما بين عشرة آلاف وأربعة وعشرين ألفاً، زُجت كلها في المعركة الجديدة بهدف القضاء على الرسالة الإسلامية...

وأمام هذا الخطر المحدق من الحشد الهائل، اتخذ الرسول ﷺ قراره باتخاذ الإجراءات الدفاعية الكفيلة بحماية المدينة، واستقر الرأي على حفر خندق لحماية القسم المكشوف من المدينة، عملاً باقتراح سلمان الفارسي، فبدىء بتنفيذه فوراً، واشترك سائر المسلمين بحفره يتقدمهم النبي ﷺ وقد تم فعلاً إنجازه في فترة ستة أيام قبل وصول الأحزاب إلى المدينة.

ويقيّم ك. جيورجيو عالياً خطة الرسول في موقعة الخندق التي حازت إعجاب المفكرين والباحثين العسكريين، بقوله:

« ولم تكن خطة محمد ﷺ الحربية هذه سبب إعجاب الناس العاديين وحسب، بل مبعث إكبار من وجهة نظر رجال الحرب المتخصصين. إذ كيف استطاع محمد ﷺ استنباط هذه الخطة وإنجازها، لأن النبوغ ليس في استنباط الخطة وحسب، بل في تنفيذها أيضاً. فالذين يقيمون في منازلهم ويقرأون على صفحات الجرائد الخطط الحربية والعمليات العسكرية التي يقوم بها رجال ضد خصومهم لا يقدرون مدى العناء الذي يعانيه القائد في تنفيذ مثل هذه الخطط في ساحة المعركة. وقد كان حفر الخندق في الجزيرة لمنع

هجوم جيش معاد جديداً، يشبه « الفالانج » الذي خططه في معاركه السابقة من حيث الجدة والبراعة »[١٤].

وعملياً، فإن الخندق الجديد حال دون اقتحام جيش العدو المدينة في هجوم كاسح، واضطره إلى ضرب الحصار عليها شهراً كاملاً دون أن يتمكن من اختراق الخطوط الدفاعية الإسلامية، يقول غلوب باشا محللاً:

« ولم يكن حلفاء قريش من قبائل البادية يستسيغون طعم الحرب الثانية، وسرعان ما أخذت المؤن تنضب والاحتكاك ينشب بين الأحزاب. وقد أثار الكثيرَ منه رسلُ محمد الذين أخذوا يبذرون الخلافات سراً في صفوف المشركين، وراحت إبل قريش وجيادها تنفق لنقص المرعى. ورغم أن أبا سفيان كان القائد العام للحملة اسمياً إلا أن الأحزاب اتبعت نظاماً غريباً للقيادة، وهو إسناد أمرها في كل يوم إلى واحد من رؤسائهم. وعلى الرغم من أن هذا النظام كان ضرورياً لتهدئة حوافز الغيرة والحسد بين مختلف القادة إلا أن مثل هذا الترتيب جعل أية عملية منظمة للحصار أمراً مستحيلاً. »[١٥].

وآل حصار المدينة إلى هزيمة سياسية وعسكرية كبرى في صف الأحزاب، إذ فشلت كل جهودها في القضاء على الثورة الإسلامية لما أبداه المدافعون من صمود بطولي، ناهيك بالظروف القاسية التي عاناها رجال الأحزاب نتيجة لنضوب موادهم التموينية، إضافة إلى العوامل الطبيعية إذ هبت عاصفة هوجاء أطاحت بمعسكرهم .. مما دفع قريشاً إلى الانسحاب من ساح

---

(١٤) ك. جيورجيو : نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ص ٢٨٩ .

(١٥) جان باغوت غلوب : الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٢٩ .

المعركة تجر أذيال الخيبة والهزيمة، وكتحصيل حاصل انسحاب القوى الأخرى، ورفع الحصار عن المدينة...

ويحلل الباحث الانكليزي مونتجمري وات في كتابه: «محمد في المدينة» أهمية النصر الذي حققه الرسول بدبلوماسيته على أعدائه، بقوله:

«ولن نألو جهداً في تقدير أهمية هذا الانتصار الدبلوماسي لأن هجوم قريظة من الجنوب على مؤخرة المسلمين كان بإمكانه القضاء على رسالة محمد. لقد دل تفسخ المحالفة على فشل المكيين فشلاً ذريعاً في عملهم ضد محمد. وأصبح المستقبل مكفهراً بالنسبة إليهم. لقد استخدموا أقصى جهودهم لإزاحته عن المدينة، فبقي فيها أكثر نفوذاً مما مضى، وذلك بسبب فشل المحالفة. كما ماتت تجارتهم مع سورية، وفقدوا الكثير من مكانتهم. ولم يعودوا يأملون، حتى لو انقطع محمد عن مهاجمتهم، في الاحتفاظ بثرواتهم ومكانتهم. وهو يستطيع أن يستخدم القوة المسلحة ضدهم، ويحاول إبادتهم كما حاولوا إبادته. ومن الغريب أن بعض المكيين، وهم الشعب الواقعي لم يأخذوا بالتساؤل عما إذا لم يكن من الأفضل قبول محمد وديانته»[١٦].

ومع الهزيمة العسكرية المرة التي أحاقت بقوى الأحزاب ظهر المسلمون قوةً عسكرية لا يستهان بها، وطفقت القبائل الوثنية تخشى جانبه.. وعملياً، انتقل زمام المبادرة بعد معركة الخندق لأيدي المسلمين، إذ أصبحوا منذ ذلك اليوم في موقع الهجوم، تأكيداً لرؤية الرسول لمسيرة الصراع المستقبلية مع قريش، حين قال صلوات الله عليه:

«لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم».

---

(١٦) مونتجمري وات: محمد في المدينة، ص٥٨ ــ ٥٩.

تصفية آخر معاقل اليهود في المدينة

كان لنقض يهود بني قريظة العهد مع رسول الله ﷺ، في أخطر مرحلة مرت بها الدعوة الإسلامية حين ضرب الأحزاب الحصار على المدينة، وفتحهم ثغرة كبيرة في دفاع المسلمين، بتحالفهم مع الأعداء الخارجيين (الأحزاب) أنْ وضع المسلمين في موقف حرج، كاد أن يودي بحركة التوحيد الإسلامية، إذ وجدت نفسها بين طرفي كماشة، فالأحزاب من أمام وبنو قريظة من الخلف...

ولكن ما إن فشل حصار الأحزاب وتفرق شملهم حتى أحس بنو قريظة بفداحة الخطأ الذي ارتكبوه نتيجة نقضهم العهد مع الرسول... يقول جيورجيو:

«لكن بني قريظة نقضوا عهد المدينة، فاتحدوا مع أعدائها، في حين أن الواجب كان يحدوهم إلى الدفاع عن بلدتهم ضد المهاجمين. والرسول ﷺ في معركة أحد قال لهم إن هذه الحرب دينية، ولستم مضطرين إلى الخروج مع المسلمين، والحرب في صفهم، ولا سيما أن المعركة جرت خارج المدينة، أما الآن فهم داخل الخندق.

حين رأى بنو قريظة أن المشركين رحلوا، وتفرغ لهم المسلمون، أحسوا بالخطر يداهمهم لخيانتهم، فتحصنوا في قلاعهم ومنازلهم»(١٧).

وسارع المسلمون بضرب الحصار على منازلهم الشبيهة بالقلاع الحجرية

(١٧) ك. جيورجيو: نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ص ٣٠٠.

بقيادة علي بن أبي طالب مدة خمسة وعشرين يوماً، فقرروا في نهايتها الاستسلام والنزول على حكم النبي محمد، وقبلوا بتحكيم حليفهم من الأوس سعد بن معاذ، الذي أصدر حكمه وفق الشريعة الموسوية «بأن تقتل المقاتلة، وتقسم الأموال وتسبى الذرية والنساء»...

ويتابع جيورجيو متحدثاً عن الحكم الذي صدر بحق اليهود، بقوله:

«خالفت قريظة العهد، وأهملت العقد، وسعت إلى الاتفاق مع الخصوم لضرب المسلمين من الخلف، لذا توجب عليهم الإعدام. لم يصدر المسلمون هذه الفتوى، بل أعلنها رجل اعتبره اليهود صديقاً لهم، وهم الذين اختاروه لهذه المهمة. وبعد صدور هذا الحكم برأ علي النساء والأطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد، والشيوخ المسنين. أما الباقون فمن دخل في الإسلام برئت ساحته، وأما الباقون فقد ثبتوا في القلاع والمنازل، وحاربوا ببسالة حتى قتلوا عن بكرة أبيهم»(١٨).

هذا، وقد ناقش الباحث الإسلامي مولانا محمد علي الحكم الذي صدر بحق بني قريظة وردّ على اتهامات المستشرقين المتعاطفين مع اليهود حين اعتبروه جائراً، بأنه تم وفق الشريعة الموسوية، وأن الذي أصدره هو قاض من اختيارهم، يقول:

«وهكذا حكم سعد، وفقاً للشريعة الموسوية، بقتل ذكور بني قريظة، وعددهم ثلاثمئة، وبسبي نسائهم وأطفالهم، وبمصادرة ممتلكاتهم. ومهما بدت هذه العقوبة قاسية فقد كانت على وجه

(١٨) المصدر السابق، ص ٣٠٣.

الضبط العقوبة التي كان اليهود ينزلونها، تبعاً لتشريع كتابهم المقدس، بالمغلوبين من أعدائهم، وإلى هذا فإن جريمة الغدر الشائنة التي اتهم بها بنو قريظة خليق بهم، في مثل تلك الظروف، أن لا تجازى بأيما عقوبة أخف، حتى في عصر المدنية هذا. كان القاضي من اختيارهم، وكان الحكم منطبقاً أشد انطباق مع شريعتهم المقدسة نفسها. وفوق ذلك، فقد أدينوا بخيانة من نوع خطير. فهل من المنطق في شيء أن ينتقد الرسول لهذا السبب؟ إن كل اعتراض على قسوة هذه العقوبة هو اعتراض على الشريعة الموسوية. إنه في الواقع انتقاد لا شعوري لتلك الشريعة، وتسليم بأن شريعة أكثر إنسانية يجب أن تحل محلها، وأيما مقارنة بالشريعة الإسلامية في هذا الصدد خليق بها أن تكشف، في وضوح بالغ، أي قانون رفيق عطوف، رحيم قدّمه الإسلام إلى الناس»(١٩).

وكان من نتائج تصفية بني قريظة، القضاء التام على السلطة اليهودية في المدينة، وتوطيد السلطة الإسلامية فيها دينياً وسياسياً واقتصادياً، كما أخذ دورها يكبر وينعكس على القبائل الوثنية في جزيرة العرب، التي أخذت تحسب للمسلمين ألف حساب...

صلح الحديبية

ونتيجة للعمليات العسكرية التي حققت فيها الدعوة الإسلامية النصر تلو النصر، ظهرت كقوة بارزة مركزها المدينة، إنما تمتد ذراعها إلى أبعد نقطة في الجزيرة العربية، وتوجت عملياً بصلح الحديبية بين المسلمين وقرشيي

---

(١٩) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص ١٧٥.

مكة... وذلك حين اتخذ الرسول عليه السلام قراره الخطير بذهابه إلى مكة سلماً معتمراً..

لقد كانت هذه الحركة مفاجأة ليس للمشركين فحسب، بل للمسلمين كذلك، يقول الباحث العسكري الروماني جيورجيو:

«كان المسلمون يظنون أن النبي ﷺ سيهاجم خيبر أو مكة ليفك الحصار، لكنه ارتأى حلاً آخر لم يتوقعه المسلمون، ذلكم هو ذهاب المسلمين جميعاً معه لأداء العمرة، في حين أن مكة تحمل في طياتها الضغينة والحقد لمحمد ﷺ. فهي التي جيشت الجيوش لحربه. ومع ذلك فقد صمم على الذهاب إليها. وقد ظنوا بادىء ذي بدء أنه يريد فتحها، لكنه أجابهم بأنه يريد زيارتها لا حربها.

وهكذا سار، ومعه ألفا رجل، وعدة مئات من الجمال إلى مكة في الشهر الثاني من فصل الشتاء سنة ٦٢٨ المطابقة للسنة السادسة»(٢٠).

كان موقف القرشيين صعباً، إذ أنهم خشوا أن يكون وراء حركة الرسول السلمية خدعة عسكرية هدفها احتلال مدُينتهم، وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، فسيكون موقفهم ضعيفاً إن سمحوا للقوات الإسلامية بدخول مكة سلماً، لأنهم في حالة حرب معها، ومعنى ذلك الاعتراف بمحمد. وإذا ما منعوه فسيكون موقفهم أكثر حرجاً، ويحمل في طياته مضاعفات خطيرة، لأن المسلمين قدموا في الشهر الحرام ولا يحق لقريش منع أي عربي من زيارة الكعبة في هذه المواسم...

---

(٢٠) ك. جيورجيو: نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ص ٣٠٤.

وبعد تردد، اتخذت قريش قرارها بمنع الرسول والمسلمين من دخول مكة ولو سلماً، كما احتجزت لديها رهينة رسول رسول الله إليها عثمان ابن عفان، وتأهبت للحرب، يقول الباحث العسكري غلوب باشا في معالجة هذا الموضوع:

«لكن قريشاً لم تقتنع بنوايا الرسول السليمة. فسارعت تسلح نفسها وتتخذ مواقعها على طريق المدينة للدفاع عن مكة. ولم يكن المعمرون من المسلمين يحملون إلا السيوف، ولم يكونوا في وضع يمكنهم من خوض القتال ويبدو أن محمداً بحركته هذه مع جماعته نصف المسلحين قد ارتضى المغامرة، وكانت مغامرة من طراز نادر. وعندما وجد المسلمون طريق مكة مغلقاً في وجوههم انحرفوا ناحية اليمين ومروا إلى الغرب من مواقع العدو واقتربوا من مكة من الطريق المؤدي إليها من ساحل البحر ثم توقفوا عند الحديبية، وهي على مسيرة يوم إلى الغرب من مكة. وعندما سمع أهل مكة بأن محمداً قد التف حول جناح مواقعهم الدفاعية تراجعوا مسرعين إلى مكة وراحو يوفدون الرسل لمفاوضته»[21].

وأصر الرسول على دخول مكة سلماً، مؤكداً الاعتراف بقدسية الكعبة، لكن قراره السياسي الخطير هذا قد يدفعه للجوء إلى الحل العسكري، رغم عدم تكافؤ القوى الإسلامية والمكية، إذ خرج المسلمون عزلاً إلا من أسلحتهم الفردية وكان عددهم دون عدد القرشيين بكثير، ومع ذلك تخوف القرشيون من مجابهة المسلمين حين علموا بمبايعتهم الرسول على القتال حتى آخر رجل، بالمبايعة التي عرفت بـ «بيعة الرضوان» دفاعاً عن

---

(٢١) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٣٢ ـــ ١٣٣.

العقيدة، ولذا سارعوا جدياً بفتح صفحة المفاوضات مع المسلمين، يقول جيورجيو:

«ولقد تخوف المشركون، ولا سيما قريش، من بيعة الرضوان، التي بموجبها يتعهدون بتنفيذ ما يأمرهم رسول الله ﷺ، وإن كان مخالفاً لمعتقداتهم. فلقد تصوروا أن الرسول ﷺ أخذ هذه البيعة، لأنه سيهاجمهم، وسيقتل من يقاوم، ويأسر من يستسلم. لقد كانت قريش على يقين من براعة محمد ﷺ العسكرية، بعد أن لمسوا منه ذلك في المعارك السابقة، كما أيقنوا بأن المسلمين يتحلون بيقظة تامة. ووثقوا بأن محمداً ﷺ إن صمم على احتلال مكة فعل.

ولهذا أطلقوا سراح عثمان فوراً، وأعادوه إلى الحديبية، وحمّلوه رسالة إلى النبي ﷺ، مفادها أنهم مستعدون للمباحثة معه، وسيرسلون وفداً لذلك»[٢٢].

وأخيراً توصل الطرفان إلى عقد صلح الحديبية الذي يقر السلم بين الطرفين مدة عشر سنوات، وكان النص النهائي للوثيقة:

«باسمك اللهم: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل ابن عمرو على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأنه بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن

---

(٢٢) ك. جيورجيو: ص ٣١٢ ـــ ٣١٣.

يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فادخلها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً ومعك سلاح الراكب والسيوف في القرب ، لا يدخلونها بغيرها » .

خاتم	خاتم
سهيل بن عمرو	محمد رسول الله

شهود عقد الصلح : أبو بكر ، عمر بن الخطاب ، علي بن أبي طالب .
وكتب : وكان هو كاتب الصحيفة ، عبد الرحمن بن عوف ، عبد الله بن سهيل بن عمرو ، محمود بن مسلمة ، مكرز بن حفص »[٢٣] .

وكان صلح الحديبية فتحاً مبيناً رغم قبول الرسول ببعض الشروط المجحفة التي أثارت وقتها سخط المسلمين وخاصة المهاجرين منهم ، لأنها لم تسمح لهم بالحج عامهم ذاك ، وذلك لأن التطورات اللاحقة أكدت هذا النصر الباهر ، إذ منعت قيام أي حلف عسكري ما بين قريش وأعداء القوى الإسلامية ، ومكنت الرسول ﷺ عملياً من إسقاط آخر قلاع اليهودية في جزيرة العرب وذلك بفتحه خيبر ...

فتح خيبر

يدخل فتح خيبر في إطار علاقات الرسول باليهود الذين مثلوا الثورة المضادة للإسلام في جزيرة العرب ، وكان ليهود خيبر مع بني النضير دور بالغ الخطورة في إقامة الحلف المعادي للقوة الإسلامية الذي عرف باسم الأحزاب وحاول القضاء عليها في موقعة الخندق . يقول الباحث الإسلامي مولانا محمد علي :

---

(٢٣) سيرة ابن هشام ، ج ٣ ، ص ٣٦٦ .

«أما موقعة خيبر فقد حدثت بعد صلح الحديبية، في السنة السابعة للهجرة، ولكنا لا نحسب، بقدر ما يتعلق الأمر بأثرها في العلاقات الإسلامية اليهودية، أن من الخروج عن الموضوع أن نتحدث عنها في هذا الفصل. فحين نفي بنو النضير من المدينة نزلت كثرتهم الكبرى، وبخاصة زعماؤهم وأعيانهم، في خيبر، معقل اليهود في بلاد العرب، على مبعدة مئتي ميل تقريباً، من المدينة. وكان اليهود ينعمون ثمة بسلطان مستقل، وكانوا قد حصنوا الموقع تحصيناً قوياً. حتى إذا وفد عليهم بنو النضير غرست بذرة العداوة للإسلام في قلوبهم. وما إن نشبت معركة الأحزاب حتى راحوا يحرضون المكيين، وقبيلة غطفان، والقبائل البدوية، على المسلمين، بل لقد وفقوا إلى اكتساب تعاون بني قريظة أيضاً. ورسخت جذور القوة الإسلامية في المدينة بعد إخفاق حملة الأحزاب. ولكن الحقد اليهودي لم يزدد إلا ضراوة، لقد أجروا مفاوضات سرية مع عبد الله ابن أبي، زعيم المنافقين الذي أكد لهم توكيداً جازماً أنه لا يزال في إمكانهم سحق القوة الإسلامية»(٢٤).

وكان لصلح الحديبية الذي عقد بين الرسول ومشركي قريش أن سرّع في تطور الأحداث، وإسقاط آخر قلاع اليهودية في جزيرة العرب... لقد اعتقد يهود خيبر أن هذا الصلح الذي عقد بشروط مجحفة بحق المسلمين، يشكل دليلاً على ضعفهم،.. فراودتهم الآمال بالقضاء على الدولة الإسلامية في المدينة قضاءً تاماً، وذلك بتحالفهم مع قبيلة غطفان، يقول جيورجيو:

«حين علم سكان خيبر أن المسلمين عقدوا هدنة مع أهل

(٢٤) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص ١٧٥ ــ ١٧٦.

مكة صمموا على حربهم وحدهم، وذلك بأن يهاجموا المدينة بصورة خاطفة. ولكن محمداً ﷺ أعد ألفاً وخمسمئة محارب لحرب خيبر، في حين أن اليهود يستطيعون تجهيز عشرين ألف مقاتل»[٢٥].

وحاصر جيش المسلمين بقيادة علي بن أبي طالب معاقل اليهود في خيبر، وسرعان ما أخذت قلاعهم تتساقط الواحدة تلو الأخرى، ودان اليهود بسلطان المسلمين...

«وقد أحسن محمد ﷺ معاملة اليهود. إذ سمح لمن يريد منهم بالرحيل، وحمل ما يريدون، عدا التمر والغنم والغلال. وبرواية أخرى عدا أثاث المنازل. أما من لم يرد الرحيل فليبق، وله الحرية في العمل الذي يريد. كما أنه منع المسلمين من الزواج بالنساء اليهوديات على طريقة الزواج بالمتعة. ـــ و «المتعة» زواج مؤقت بنساء الأمة المغلوبة. وللمسلم كامل الحرية في اقتناء النساء على أساس هذا الزواج ـــ. أما إذا كانت النساء قلة فيوزعن عليهم بالتساوي.

كما أن علياً منع الجنود المسلمين من دخول بساتين اليهود، والعبث بحقول النخيل، كيلا يؤذوا فواكههم أو أشجارهم. وكي يوطد محمد ﷺ العلاقة بين المسلمين واليهود عقد قرانه على «صفية» إحدى نسائهم.

«وكان يسكن في وادي القرى ـــ قرب تلك الديار ـــ قبيلتان يهوديتان، وقبيلتان أخريان سكنتا فدك وتيماء. فبعد أن رأوا انتصار المسلمين في خيبر عقدوا معهم صلحاً، يدفعون فيه الجزية المستحقة»[٢٦].

---

(٢٥) ك. جيورجيو: ص ٣٢٩.

(٢٦) المصدر السابق، ص ٣٣٣ ـــ ٣٣٤.

ومع سقوط أمنع مواقع اليهود في حصون خيبر، انتهى كل نفوذ سياسي وعسكري واقتصادي لهم في جزيرة العرب.

غزوة مؤتة

هذا، ولقد جرى بين فتح خيبر وفتح مكة عدد من السرايا العسكرية والغزوات التي قادها الرسول ﷺ بنفسه أو أنفذها بقيادة صحابته. كان بعضها بمثابة حملات تأديبية أو دوريات استطلاع، لكن أهم حملة حدثت في تلك الفترة هي غزوة مؤتة لأنها جرت داخل الأراضي الواقعة تحت النفوذ البيزنطي، يقول غلوب باشا:

«ومع كل هذه العوامل فقد أعد النبي في شهر سبتمبر / أيلول / عام ٦٢٩ حملة عسكرية كبيرة الأهمية وكثيرة التنظيم، وكان القصد منها غزو بعض الأراضي الخاضعة للسيطرة البيزنطية، وتقول الروايات العربية إن القصد من الحملة كان الثأر لبعض الرسل المسلمين الذين أوفدهم النبي إلى المنطقة. وكان الثأر دفاعاً أقوى في الحروب العربية من الفتح والاحتلال.

وأقام النبي معسكراً على بعد بضعة أميال إلى الشمال من المدينة وأمر المتطوعين من المسلمين بالتجمع فيه وولى زيد بن حارثة ــ ولده بالتبني ــ قيادة الحملة التي ضمت نحواً من ثلاثة آلاف رجل. وكانت هذه هي الحملة الإسلامية الأولى على هذا النطاق الضخم التي خرجت إلى هدف بعيد عن المدينة، وتطلب أعداد مثل هذه الحملة وقتاً طويلاً. ولذا فإن أنباءها بلغت ما يسمى الآن بشرق الأردن قبل تحركها»[٢٧].

(٢٧) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص١٤٦.

وكان أن التقى الجيشان الإسلامي والبيزنطي في مؤتة، وكانت النسبة بين الجيشين هي واحد إلى سبعة لصالح الروم وحلفائهم من القبائل العربية الموالية لهم، ورغم عدم تكافؤ القوى في العدد والعدة، لم يتردد المسلمون الذين عمر الإيمان قلوبهم في خوض المعركة. وكانت النتيجة أن سقط قائد القوات الإسلامية زيد بن حارثة والقائدان جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة... وهنا ظهرت عبقرية خالد بن الوليد الذي اعتنق الإسلام، وكان ذا خبرة عالية في القيادة العسكرية فاستطاع أن ينقذ الجيش الإسلامي من الفناء بانسحابه المنظم والعودة به إلى المدينة، فنال بفضل ذلك اللقب الذي أطلقه عليه الرسول: سيف الله.

غزوة ذات السلاسل

واتخذ الرسول قراره بتجريد حملة يقودها عمرو بن العاص إلى شمالي الجزيرة العربية، لإعادة الثقة بالجيش الإسلامي، ولضرب القبائل العربية الموالية للبيزنطيين، حين بلغه تحشدها لمهاجمة المدينة، وتمكن عمرو بن العاص ــ بعد طلب المدد الذي أنفذه إليه الرسول ووصول تلك المساعدات العسكرية ــ من إلحاق هزيمة نكراء بالقبائل العربية وتشتيت جموعها.. وبالتالي إعادة الهيبة للجيش الإسلامي.

فتح مكة

كان صلح الحديبية الذي عقد ما بين الرسول والمشركين مجحفاً بظاهره بحق المسلمين، ولكن سرعان ما انقلب لصالحهم، وبلغ الأمر أن طلبت قريش بالذات إلغاء البنود التي اعتبرها البعض مذلة، وخاصة ما يتعلق

بأولئك الذين يلجؤون إلى محمد هرباً من قريش بأن يعيدهم إلى مكة... والذين لم يلبثوا أن انقلبوا عصبة مسلحة تهدد قريشاً تهديداً جدياً.

وعملياً، فقد نشأت تلك العصبة بقيادة أبي بصير من مسلمي مكة الذين لم يستطيعوا اللحاق بالمدينة، تنفيذاً لاتفاق صلح الحديبية، فنزلوا العيص على ساحل البحر وطفقوا يغيرون على قوافل قريش يستلبون أموالها ويفتكون بقواتها، ويتحدث جيورجيو عن تلك العصبة المجاهدة بقوله:

«ولم يمض حين حتى ازداد عددهم، واستطاعوا أن يؤلفوا جيشاً. فأخذوا يغيرون على قوافل مكة. فتضايقت جماعة قريش كثيراً منهم، فاضطرت إلى مراسلة النبي ﷺ تسأله بأرحامها ألاّ آواهم، فلا حاجة لهم بهم. فطالبهم رسول الله ﷺ بكتاب خطي كي يكون سنداً له وعهداً. وبهذا نقض هذا الشرط من كتاب العهد. وما فتئت الشروط التي لم تكن لصالح المسلمين يزول مفعولها شيئاً فشيئاً، وما هي إلا مدة وجيزة حتى غدا صلح الحديبية كله في صالح المسلمين»(٢٨).

ولم ينقض طويل وقت حتى أخذت قريش تتململ من هذه الاتفاقية، التي تحولت لصالح المسلمين إذ مكنتهم من نشر الدعوة الإسلامية مما دفع المشركين إلى التذمر ومحاولة نقض صلح الحديبية، وإلغائه من جانب واحد، لكن سرعان ما شعرت بالخطأ، وحاولت أن تتدارك الأمر، لكن بعد فوات الأوان، إذ اتخذ الرسول قراره بفتح مكة.

يقول غلوب باشا:

---

(٢٨) ك. جيورجيو: ص ٣٤٢.

«وكان الرأي العام في مكة قد تحول في هذه الآونة تحولاً واضحاً إلى جانب المسلمين. وأدرك النبي أن الوقت قد حان لتوجيه ضربته النهائية إلى قريش.

وسرعان ما أمنت له القبائل البدوية الذريعة أو المبرر. وكانت هناك قبيلتان إحداهما تسمى خزاعة والأخرى بنو بكر تعيشان متجاورتين خارج مكة، وبينهما ثارات قديمة منذ عهد الجاهلية. وكانت خزاعة حليفة النبي بينما كان بنو بكر حلفاء لقريش. وحدث في هذه الآونة أن أرادت بكر الثأر من خزاعة فخرج نفر منها لمباغتة أعدائهم على ماء خارج مكة، وأوقعوا بالخزاعيين عدداً من الإصابات القاتلة. وخرج بديل بن ورقاء أحد شيوخ خزاعة والذي قام بدور الوساطة في الحديبية على رأس وفد من قومه إلى المدينة، فأخبروه بنقض قريش لعهدها، وأن غدر بني بكر حلفاء قريش يعتبر خرقاً لمعاهدة الحديبية. ويبدو أن النبي قرر أن الفرصة جد مؤاتية للقيام بعمل حاسم إزاء قريش وراح في يناير / كانون الثاني / عام ٦٣٠ يأمر المسلمين بالتأهب للحرب، وسيطر الرعب على زعماء قريش الذين كانوا يدركون ولا شك ما بلغه نفوذ محمد وسلطانه وراح أبو سفيان قائدها في معركة أحد وأحد كبار أعداء النبي ومعارضيه يسرع إلى المدينة ولكن هذا القائد المتغطرس وزعيم قريش لم يستطع مقابلة النبي إذ رفض السماح له بمقابلته واضطر أن يرجو أبا بكر وعمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب الوساطة والشفاعة عند محمد فضنوا بها عليه وعاد إلى مكة مخذولاً مهاناً»[٢٩].

---

(٢٩) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٤٩ ــ ١٥٠.

وسار الرسول على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل قاصدين مكة لفتحها.. ويربط الباحث الإسلامي مولانا محمد علي فتح مكة بالنبوءة الموسوية بقوله:

«وأخيراً سار الرسول، على رأس عشرة آلاف من أتباعه البررة، إلى مكة، في العاشر من رمضان، من السنة الثامنة للهجرة، وهكذا تحققت النبوءة التي انطلقت، قبل ألفي عام، من بين شفتي موسى «وأتى مع عشرة آلاف من القديسين» (سفر التثنية ٣٣: ٢).

وليس في التاريخ بعد الموسوي أيما حادثة أخرى تتحقق بها هذه الكلمات النبوئية. يالها من ظاهرة أعجوبية، لقد كان عدد المسلمين عشرة آلاف مقاتل، وكانوا في الوقت نفسه كلهم (بررة) كما جاء في النبوءة.

إن هدفهم في الحياة لم يكن بأية حال خوض غمار الحرب وسفك الدماء، ولكن إقامة قواعد البر ولو كلفهم ذلك حياتهم»[٣٠].

وحين أدرك القرشيون ألاّ قِبَلَ لهم بمواجهة المسلمين قبلوا الاستسلام دونما قتال، ولقد أورد العلامة الفرنسي لوزون في كتابه: «الله في السماء»، دخول الرسول الكعبة وقضاءه على رموز الوثنية، وذلك بتحطيمه الأصنام المنتشرة حولها:

«ولما فتح محمد مكة جاء بيت الله الكعبة في احتفال وفيها

(٣٠) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص ٢٠٢.

ـــ ٣٦٠ ـــ صنماً فكان محمد يقف أمام كل صنم ثم يضربه بعصاه ويقول ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ فيهوي على الأرض تحت أقدامه »[٣١].

وكان موقف الرسول الذي ـــ اتسم بالنبل والشهامة اللذين لا نظير لهما حين أصدر عفوه العام عن المكيين ورأف بخصومه القرشيين ـــ مثار إعجاب المستشرقين وتقديرهم ، واعتبروه حدثاً فريداً في التاريخ ، إذ لم ينسق الرسول البتة وراء غريزة الانتقام ولم يعامل خصوم الأمس معاملة القوي والشعوب المغلوبة ، بل أثبت ـــ كما وصفه أعداؤه ـــ أنه «أخ كريم وابن أخ كريم » . . .

ولقد قوَّم الباحث الإسلامي مولانا محمد علي هذه الحادثة التاريخية الفريدة ، بقوله :

« إن تاريخ العالم ليعجز عن تزويدنا بنظير لهذا الصفح الكريم الذي أغدقه الرسول على أمثال أولئك المجرمين الكبار . إن الضرب على وتر المواعظ الداعية إلى الصفح والغفران لا يكلف المرء شيئاً كثيراً ، ولكن عفو المرء عن معذبيه ليحتاج إلى قدر من الشهامة عظيم ، وبخاصة حين يكون أولئك المعذبون تحت رحمته . وهذا الانفساح في مدى العطف الإنساني والعفو الكريم لا نقع عليه في حياة يسوع . فالحق أن يسوع لم تتح له الفرصة لممارسة فضيلة العفو ، ذلك بأنه لم يكتسب في أيما يوم السلطة التي تمكنه من الرد على مضطهديه »[٣٢].

---

(٣١) لوزون : الله في السماء .

(٣٢) مولانا محمد علي : حياة محمد ورسالته ، ص ٢٠٧ .

أما الباحث العسكري غلوب باشا، فقد اعتبر نصر الرسول عظيماً لأنه حققه دونما إراقة دماء، وتمكن من كسب قلوب الجميع، فكان أن برزت مزاياه كرجل دولة وسياسة...

«وهكذا تم فتح مكة دون إراقة دماء إلى حد كبير. وعلى الرغم من أن النبي كان قد عانى الاضطهاد في المدينة، وعلى الرغم من أن عدداً من ألد أعدائه كانوا لا يزالون يعيشون فيها، إلا أنه اكتسب قلوب الجميع بما أظهره من رحمة وعفو في يوم انتصاره. ولا ريب في أن هذا التسامح أو هذه الفطنة السياسية التي اتصف بها النبي كرجل دولة، كانت غريبة على العرب الذين كانت صفة الانتقام من خصالهم ومزاياهم. وقد حقق النصر الكبير بسياسته ودبلوماسيته أكثر منه بعمله العسكري. ولا ريب في أن عظمته تقوم في أنه أدرك في عصر يسوده العنف وسفك الدماء أن الأفكار أقوى من القوة والعنف»(٣٣).

وكان لموقف الرسول ﷺ من القرشيين، أن دخلوا في دين الله أفواجاً أفواجاً، فقد أسلم في الأيام العشرة الأولى ألفا قرشي... وكانت مدة مكوثه في مكة خمسة عشر يوماً أسلم فيها غالبية السكان، ولقد رأى منصفو المستشرقين بفتح مكة سلماً الرد القاطع، والدليل الساطع، على أن الإسلام ليس دين السيف وحسب، بل هو دين السلم كذلك، ومن هذه الأقوال اعتراف السير وليم موير، حين علق على هذه الحادثة التاريخية، بقوله:

«على الرغم من أن البلدة رحبت بسلطانه ترحيباً بهيجاً، فلم يكن جميع سكانها قد اعتنقوا الدين الجديد، ولم يكونوا قد اعترفوا

(٣٣) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٥٦ ـــ ١٥٧.

رسمياً بصحة دعواه النبوئية. ولعله عقد العزم على أن يسلك ههنا ذلك النهج الذي سلكه في المدينة، ويدع الناس يدخلون في الإسلام، شيئاً بعد شيء، من غير ما إكراه»[٣٤].

غزوة حنين وحصار الطائف

كان للنصر العظيم الذي حققه الرسول بفتح مكة سلماً ودخول قريش الإسلام أن أقض مضاجع القبائل المشركة القاطنة قرب مكة، ولا سيما هوازن في شمال شرقيها، وثقيف في جنوب شرقيها. فكان أن تحالفتا واتفقتا على تولية مالك بن عوف النصري قيادة الحملة الموجهة ضد المسلمين. للانقضاض على مكة وأخذها بغتة...

ولكن سرعان ما تناهى إلى مسامع الرسول ﷺ من أرصاده ما يتم من حشود ضد القوى الإسلامية فخرج هو للقائها بجيش بلغ أثني عشر ألف رجل، إذ انضم إليه ألفان من مسلمي مكة الجدد.. وتحركت القوات الإسلامية صوب الطائف، وعبرت طلائعه وادي حنين دون أن تنتبه إلى كائن الأعداء.. يقول غلوب باشا:

«وكانت كثرة المسلمين العددية وثقتهم من النصر سببين كما يبدو في إظهار ما أظهروه في هذه المعركة من افتقار إلى الاستعداد والحيطة. فلم يكد المسلمون يتحركون عند الفجر عبر وادي حنين الضيق حتى باغتهم العدو من جميع الجهات بعد أن كمن لهم في شعاب الوادي. كانت المباغتة كاملة تمام الكمال، ولم يتح لهم الوقت للثبات وتنظيم صفوفهم. وتراجعت طلائعهم فزعة لا تلوي

---

(٣٤) وليم موير: حياة محمد (نقلاً عن كتاب مولانا محمد علي، ص٢٠٨).

على شيء وسرعان ما دب الرعب في الجيش كله وراح ينهزم محاولاً الفرار من الوادي الضيق وقد سادته الفوضى»[٣٥].

ولكن موقف الرسول ﷺ البطولي حوّل الهزيمة الأكيدة إلى نصر باهر، حين تمكن بشخصيته الفذة أن يعيد المسلمين الذين فُلَّتْ إرادتهم لمباغتة الأعداء، فدفع بقوة من المسلمين عبأهم لصد هجمة المشركين، وتمكن أن يجمع حوله المسلمين الذين استطاعوا أن يردوا هوازن على أعقابها بضربة بالغة العنف، وبعدها هاجمت القوى الإسلامية مقاتلي بني ثقيف، مما أجبر قوى الشرك على الانسحاب، ثقيف إلى الطائف وهوازن نحو أوطاس.

وتعقب الرسول ﷺ بنفسه قوات ثقيف إلى مدينتهم الحصينة: الطائف، فضرب حولها الحصار مدة خمسة عشر يوماً، قرر بعدها فك الحصار والرجوع بقواته إلى مكة.. يقول غلوب باشا:

«وكان انتصار المسلمين في حنين كاملاً حتى أنهم كسبوا غنائم كثيرة بينها أعداد وفيرة من الإبل والغنم، كما أسروا عدداً ضخماً من الأسرى معظمهم من نساء هوازن وأطفالها، وعندما عاد النبي عن الطائف دون أن يتمكن من فتحها شرع يقسم الغنائم والأسلاب بين رجاله. ووصل إليه وفد من هوازن المهزومة المغلوبة على أمرها يرجوه إطلاق سراح النسوة والأطفال من الأسرى، وسرعان ما لبى النبي الطلب بما عرف عنه من دماثة وتسامح، فلقد كان ينشد من جديد في ذروة انتصاره أن يكسب الناس أكثر من نشدانه عقابهم وقصاصهم»[٣٦].

---

(٣٥) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص١٥٧ ــ ١٥٨.

(٣٦) المصدر السابق، ص١٥٩.

ودفع هذا الموقف المتسامح من أعداء الرسول ﷺ إلى أن يعلنوا إسلامهم، فأسلمت هوازن في البدء لتتبعها بعد ذلك ثقيف، وهذا ما جعل القبائل العربية تترى مسارعة إلى إعلان إسلامها، فأسلمت قبيلة طيىء... وأصبح الرسول صاحب أعظم قوة سياسية وعسكرية في جزيرة العرب.

غزوة تبوك

إن انضواء جزيرة العرب تحت لواء الإسلام، وبروز الرسول كموحد للعرب وظهوره كحاكم ديني وسياسي وعسكري، وانتشار الإسلام كعقيدة سماوية انتشاراً واسعاً،.. كل ذلك أخذ يقلق الإمبراطورية البيزنطية ـــ رغم أن الرسول كان يتعاطف مع الدولة الرومانية في قتالها ضد فارس ـــ فتحركت كوامن الغيرة الدينية والحسد لتلك الانتصارات الباهرة.. لذلك رأت بيزنطة أن تهب مسارعة إلى القضاء على هذا الخطر الجديد قبل استفحاله، وأخذ قيصر الروم يعد العدة للقيام بحملة عسكرية على الجزيرة العربية عن طريق سورية بهدف القضاء على المسلمين...

ووصلت الرسول أخبار عن تلك الحملة، وأن عدداً من القبائل المسيحية انضمت إلى الروم لقتال العرب المسلمين، ولذا سارع إلى إعداد جيش لملاقاة العدو عند الحدود الفاصلة بين الجزيرة العربية وسورية، تم تجهيزه على جناح السرعة وقوامه ٣٠ ألف مقاتل بينهم عشرة آلاف فارس، وخرج على رأس ذلك الجيش في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة. كما انضم إليه الكثير من القبائل العربية أثناء مسيرته، مما دفع الروم إلى العدول عن حرب المسلمين، كما فرّ رؤساء القبائل المسيحية حين يئسوا من وصول الحملة البيزنطية، وبعدها صالحوا الرسول، وأبدوا استعدادهم لدفع الجزية وعقد

معاهدة معه، إذ أدركوا أن قوة الإسلام جعلت دولة الروم العظمى تخشى مواجهتها.

كانت غزوة تبوك نصراً سياسياً وعسكرياً مؤزراً للرسول، إذ تم له إخضاع إمارات الحدود، وبالتالي إخراجها من دائرة النفوذ البيزنطي.

«ونظم عدداً من نقاط الارتكاز على الحدود الشمالية للجزيرة العربية التي تربطها ببلاد الشام، وذلك بعقد التحالفات مع سكان تلك المنطقة، وانضمام بعضهم إلى الثورة الإسلامية»(٣٧).

ورأى الباحث العسكري غلوب باشا أن ما هدفت إليه غزوة تبوك، هو بسط السيطرة الإسلامية حتى الحدود البيزنطية يقول:

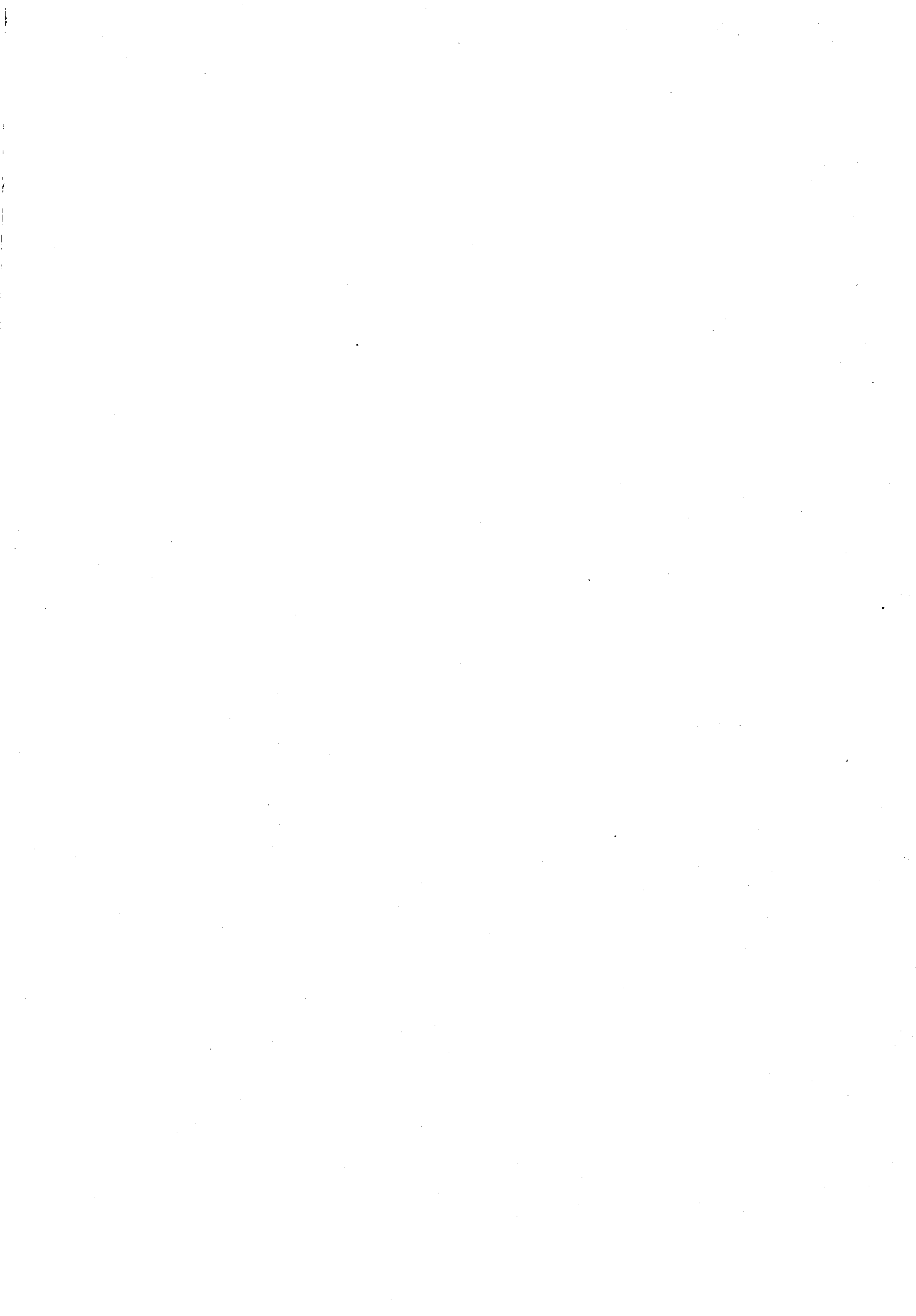
«ولا ريب في أن الهدف من هذه الحملة كان رفع الراية الإسلامية على حدود الروم، ولم يكن النبي قد نسي معركة مؤتة، ولذا فقد عزم على الثأر لها»(٣٨).

كانت العمليات العسكرية اللاحقة على تبوك مجرد سرايا وبعوث أنفذها الرسول ﷺ إلى أنحاء مختلفة من جزيرة العرب بلغت اليمن جنوباً وحدود الشام شمالاً بهدف إدخال القبائل العربية في الإسلام والدعو للدين الحنيف، كان آخرها في عهد الرسول، وتحديداً في أيامه الأخيرة تجهيزه جيش أسامة بن زيد لتثبيت السيطرة الإسلامية على القبائل العربية القاطنة على الحدود مع دولة الروم، وتحرير العرب من حكم المستعمرين البيزنطيين، فاتحاً بذلك عهداً جديداً أمام الفتوحات الإسلامية التي أرسى قواعدها قبيل وفاته عليه السلام، لنشر راية التوحيد في أصقاع المعمورة.

---

(٣٧) مصطفى طلاس: الرسول وفن الحرب، ص ٢٥١.

(٣٨) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٦١.



الفصل الثالث

سياسة الرّسول التوحيديّة



الرسول ورسالة التوحيد

إن المسيرة الكفاحية للدعوة الإسلامية، ونضال الرسول الملحمي لنشر رسالة الإسلام، ومن ثم الحروب التي خاضتها الدعوة ضد الأنظمة القبلية الوثنية، جميع هذه الأمور التي استعرضناها في الصفحات السابقة، كان هدفها نشر راية التوحيد في ربوع الجزيرة العربية...

وطبيعي، أن الرسالة لم تنتشر بالسيف وحده، بل كان النشاط العسكري مرافقاً للنشاط السياسي السلمي... وأحياناً يكون هذا النشاط تتويجاً للعمل السياسي، كما يكون العمل السياسي الدبلوماسي في بعض الحالات متمماً للفعل العسكري...

وإذا كانت الدعوة الإسلامية توحيديةً على صعيد الفكر الديني فهي بدورها توحيدية على الصعيدين السياسي والاجتماعي، إذ استطاعت عبر نضال الرسول الملحمي أن تتوج بتوحيد جزيرة العرب وصهر القبائل المتنافرة في بوتقة الإسلام كتلة واحدة متراصة.

هذا، وقد ظهرت سياسة الرسول التوحيدية مع استقراره في المدينة التي فتحها بالقرآن الكريم وحده في أعقاب الهجرة، وإرساء قاعدة الدولة

الإسلامية الأولى، ووضع أول دستور للمدينة، وهكذا أخذت تتبلور مفاهيم الأمة الإسلامية...

الأمة الإسلامية

كانت الحياة العربية قبل الإسلام تقوم أساساً على نمطية خاصة، فالقبيلة هي التنظيم الاجتماعي السياسي الذي ينظم حياة الفرد في القبيلة، فكان انتماء العربي الجاهلي انتماءً قبلياً، وليس هناك أية رابطة عملية توحد القبائل وتجمعها، بل على العكس كانت القبائل متناحرة متحاربة، وإذا ما قامت أحلاف قبلية، فلمناصرة قبيلة على أخرى، وبالتحديد كانت القبيلة العربية تشكل وحدة سياسية مستقلة.. ومن هنا كان الانقلاب الذي أحدثه الرسول ﷺ عميقاً في حياة الجزيرة العربية إذ استطاع بسياسته الكفاحية التي تمليها روح الإسلام أن يحول هذه الوحدات القبلية المستقلة ويرتقي بها على صعيد التطور الاجتماعي لتظهر في إطار الأمة الإسلامية... ويبحث المستشرق مونتجمري وات الفرق بين مفهومي القبيلة والأمة، بقوله:

«الفرق البديهي بين الأمة والقبيلة هو أن الأمة تقوم على الدين، بينما تقوم القبيلة على القرابة، ولا نجد هذه الفكرة في أية نظرية، ولكنها فكرة ضمنية كامنة»[1].

وكان التطور السياسي للأمة الإسلامية التي وضع أسسها في المدينة، ثم تطورت بإجلاء اليهود عنها، وانتشار الإسلام في جزيرة العرب، يعني فيما تعنيه الجماعة في زمن خلفاء الرسول فغدا يشمل الجماعات والأجناس والشعوب التي تعيشها في ظل «دار السلام» تمييزاً لها عن «دار الحرب»...

(١) مونتجمري وات: محمد في المدينة، ص ٣٦٤.

هذا، ويناقش المستشرق الفرنسي مارسيل بوازار في كتابه: «إنسانية الإسلام» فكرة «الأمة الإسلامية» ومغايرتها المفهوم الغربي، وعلاقة الفرد بهذه الجماعة، يقول:

«ليس لفكرة «الأمة» الإسلامية مقابل في فكر الغرب ولا في تجربته التاريخية. فالجماعة الإسلامية، وهي تجمّع من المؤمنين يؤلف بينهم رباط سياسي وديني في آن واحد، ويتمحورون حول كلام الله القدسي وتوحدهم العزة بالانتساب إلى التنزيل الأخير والحقيقي لا تطابق فكرة «الشعب» التي كانت سائدة عند مسيحيي القرون الوسطى، ولا فكرة «الأمة» الغربية التي راجت في القرن الثامن عشر. وصعوبة التوافق منبثقة عن فكرة الكائن البشري. فالإنسان يسهم، بالنسبة إلى الفكر الغربي، في الحياة الاجتماعية المقسمة إلى طبقات ومراتب بنشاطه الخارجي والفعلي، وعلى العكس من ذلك، فإن الفرد يندمج في الإسلام بالجماعة المؤمنة بالتساوي عن طريق «شهادته» الفردية واستبطان إرادته وصفاته الخاصة كمؤمن، فالنية المعلنة والجهر بالكلام شرطان من شروط الانتماء إلى المجتمع. وبصورة تلازمية يحدد الامتثال لمشيئة الله البنية الاجتماعية. وهكذا تكون النظم التأسيسية للجماعة مشروطة بالعبادة الواجبة عليها نحو الله»[٢].

كسب القبائل العربية بالمعاهدات السياسية

وإلى جانب النضال العسكري كان الرسول ﷺ يعمل على كسب القبائل العربية وإقامة المعاهدات والمواثيق بينها، وأوضح دليل على ذلك دستور المدينة، الذي وحد المسلمين واليهود في المدينة والقبائل العربية المجاورة،

---

(٢) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص ١٨٢ ــ ١٨٣.

وجعل من النبي الحاكم السياسي والإداري للمدينة، إذ خولته الوثيقة أن يكون المرجع الوحيد لحل الخلافات التي قد تنشب بين أطراف التحالف، وكان الاعتراف السياسي بقيادته اعترافاً ضمنياً بنبوته.

وكان دستور المدينة نصراً سياسياً للرسول ولرسالته التوحيدية، فقد سرَّت فيه القبائل العربية القاطنة في المدينة، حتى رغبت عدة قبائل أن تدخل في ظل وثيقة المدينة، لتتمتع بحماية السلم الإسلامي، الذي شكل قاعدة الأمة الإسلامية المقبلة القائمة على أسس دينية، يقول مونتجمري وات:

«وكانت المشكلة الأولى هي استتباب السلم بين مختلف قبائل المدينة. وكانت مشكلة ليست في المدينة فقط بل في كل شبه الجزيرة العربية. ولما نجح محمد في إقامة «السلم الإسلامي» في المدينة مع القبائل المجاورة، أرادت قبائل أخرى أن تستفيد من النظام الجديد. ولم يعارض محمد من جهة امتداد نظام السلامة الذي أقامه إذا كانت الترتيبات التفصيلية مرضية، فإن امتداده يؤدي إلى قدر أكبر من السلامة. تخيل محمد نفسه يتوسع بالأمة الإسلامية ــ أي جماعة الذين يعتنقون الإسلام أو يؤمنون بالله ــ، دون اعتناق الإسلام، وقد احتموا به أو برسوله»[٣].

وكانت التحالفات التي يعقدها الرسول ﷺ، تهدف فيما تهدف إليه إلى بسط النفوذ الإسلامي على جزيرة العرب، اعتماداً على السلم المرتكز على القوة العسكرية، وتأكيداً لحقيقة الأمة الإسلامية، بانسحاب تام مع استراتيجية الدعوة الإسلامية، في توحيدها جزيرة العرب من جهة، والتأكيد

---

(٣) مونتجمري وات: محمد في المدينة، ص ٢١٧.

من جهة ثانية على عالمية الرسالة. وانطلاقاً من هذه الحقيقة، عقد الرسول ﷺ مع قريش صلح الحديبية، ومعاهدات مع القبائل العربية الخاضعة قبلاً لنفوذ الروم...

ويرى كثير من الباحثين في الشرق والغرب، وكذلك لفيف من المستشرقين أن اهتمام الرسول بقبائل الشمال، كان من أهدافه الأساسية توجيه العرب نحو بلاد الشام إدراكاً منه لأهمية هذه المنطقة استراتيجياً لمستقبل الدعوة الإسلامية، لتكون مجالاً للفتوحات المقبلة.. وتأمينا «للسلم الإسلامي» الذي يقوّم حق التقويم القضايا الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية معاً انطلاقاً من «اعتبار رسالة محمد على أنها بناء نظام سياسي اجتماعي واقتصادي على أسس دينية»[٤].

ويبحث المفكر مونتجمري وات في مكان آخر الأهمية الاقتصادية للتجارة مع بلاد الشام بالنسبة لجزيرة العرب ولمستقبل الفتوحات الإسلامية، يقول:

«وكانت مسألة أخرى تشغل تفكير محمد. وهي أنه كان يحرّم القتال والنهب بين المسلمين، وبهذا إذا دخل عدد كبير من القبائل أو قبلت زعامة محمد لها، فكان عليه أن يبحث عن متنفس آخر لطاقاتها، وقد نظر محمد إلى المستقبل ووجد أنه يجب توجيه غرائز الغزو لدى العرب نحو الخارج، نحو المجتمعات المجاورة لشبه الجزيرة العربية، كما أدرك إلى حد ما أن نمو طريق سورية هو إعداد للتوسع»[٥].

---

(٤) المصدر السابق ص٢١٧.

(٥) المصدر السابق، ص٦٧.

هذا، وأثيرت مسألة ما إذا كان للرسول طموحاته في تحقيق الفتوحات العربية والتوسع خارج الجزيرة العربية، نشراً لرسالة الإسلام.. واستدل بعض المستشرقين من اهتمام الرسول بقبائل الشمال من جهة، أو من كتبه ورسائله الموجهة إلى الحكام والملوك في زمنه على هذا التوجه.

على حين وقف فريق آخر موقف المشكك في أن الرسول كان يطمح إلى أن يعم الإسلام البلاد المجاورة لجزيرة العرب، تأكيداً لعالمية الرسالة الإسلامية (انظر: رسل محمد ﷺ إلى الملوك وعالمية الإسلام).

هذا، وناقش الباحث العسكري محمود الدرة، ما ذهب إليه الباحثون العسكريون الغربيون والمستشرقون وردّ عليهم بما يؤكد عالمية الرسالة وطموح الرسول ﷺ إلى أن يعمّ الإسلام المعمورة وخاصة البلدان المجاورة لجزيرة العرب يقول:

> «والحقيقة هي أن محمداً قد رسم لأمته خطوط السياسة السوقية (الاستراتيجية) ساعة حصار المدينة، فضلاً عن الحركات العسكرية التمهيدية التي أمر بها باتجاه الديار الشامية، وبأحاديثه المعروفة بهذا الخصوص. كما أن رسالته كما جاء في القرآن الكريم تؤكد على أنها للعالمين جميعاً»[٦].

ومن الثابت أن الرسول في أحاديثه ورؤاه المستقبلية كان مدركاً بإيمان النبي المرسل أن رسالة الإسلام ستعم الأرض، وقناعته هذه لم تتزحزح البتة حتى في أحلك الظروف السياسية وأشدها خطورة على مستقبل الإسلام إبان موقعة الخندق أو الأحزاب حيث تجلت شخصية الرسول العظيمة ورؤاه

---

(٦) محمود الدرة: معارك العرب الكبرى، ص ١٧٢.

العملاقة مما حفر في وجدان المسلمين عميقاً ، وغدت نبوءة الفتوحات واقعاً ، حين انطلقت رايات الفتح خارج الجزيرة تأكيداً على عالمية الرسالة ، ولندع هنا للباحث الإسلامي مولانا محمد علي تحليل هذه القضية النبوءة ، يقول :

« إن التاريخ لم يدون لنا غير حادثة مفردة عن شخصية كان لها سلطان روحي وزمني أيضاً على أمة من الأمم . ومع ذلك فقد عملت مثل عامل عادي ، جنباً إلى جنب مع أتباعها في ساعة الحرج الوطني العظيم .

إنه لمن سمات شخصية الرسول المميزة أنه كان يضفي رُواءً على أيما شيء يشارك في صنعه . فحيثما وضعته أدى واجبه في كياسة عجيبة . ولئن كان ، من ناحية ، أكثر الملوك رجولة ، لقد كان — في الوقت نفسه — أكثر الرجال جلالاً ملكياً . وفيما هم يحفرون انتهوا إلى حجر صلد . وبذلوا كلهم قصارى جهدهم لتحطيمه . وهكذا اقترح على الرسول ، الذي كان قد رسم حدود الخندق بيديه الاثنتين ، أن يجيز لهم الانحراف بعض الشيء عن الخطة الأصلية ، فلم يكن منه إلا أن تناول معولاً وانهمك في أداء المهمة التي أعجزت رجاله . لقد هبط إلى جوف الخندق وراح يقرع الصخرة بعنف ، فانزاحت مطلقة في الوقت نفسه شرارة نار لم يكد الرسول يلمحها حتى صاح ، يتبعه أصحابه ، « الله أكبر » وقال إنه رأى في الشرارة أن مفاتيح قصر الملك في الشام قد آلت إليه . وضرب الصخرة كرة أخرى فانشقت ، مطلقة شرارة النار نفسها . وكرة ثانية ارتفع التكبير : « الله أكبر » ولاحظ الرسول أنه وُهب مفاتيح المملكة الفارسية . وعند الضربة الثالثة تناثرت الصخرة قطعاً وأعلن الرسول

أنه رأى مفاتيح اليمن تصبح ملك يديه، ثم أوضح قائلاً إنه، في المرة الأولى، اطلع على قصر قيصر، وفي المرة الثانية على قصر أكاسرة فارس، وفي المرة الثالثة على قصر صنعاء، وإنه أنبىء أن أتباعه سوف يمتلكون تلك البلاد كلها. إنها لظاهرة رائعة. ولقد كانت قوة جبارة، تتألف من أربعة وعشرين ألف رجل، تقف عند أبواب المدينة نفسها على أتم الاستعداد لسحق الإسلام. وكانت بلاد العرب كلها متعطشة لدماء المسلمين. وفي غمرة من سحب هذا الخطب الرهيب تلمح عين الرسول شعاعاً قصياً يؤذن بالقوة التي ستتم للإسلام في المستقبل. أليس ذلك شيئاً يتخطى أبعد طاقات الخيال البشري؟ ومن غير الرب الكلي الحكمة والكلي العلم يستطيع أن يكشف للرسول أسرار المستقبل هذه في لحظة كان الإسلام مهدداً فيها بالفناء المطلق؟»(٧).

رسل محمد ﷺ إلى الملوك وعالمية الإسلام

بعد صلح الحديبية الذي عقده الرسول محمد ﷺ مع قريش، وظهور الإسلام كقوة في جزيرة العرب، ونضوج الدعوة الإسلامية، كان قرار الرسول ﷺ أن يؤكد على عالمية الإسلام، وأنه دين الله للناس كافة، وذلك بإيفاده الرسل إلى ملوك الدول المجاورة، يدعوهم فيها إلى الإسلام، وذلك في السنة السابعة للهجرة، فحملوا له الرسائل إلى كل من هرقل الروم، وكسرى الفرس، ومقوقس مصر، ونجاشي الحبشة، وعامل كسرى في اليمن، وعامل الروم شرحبيل بن عمرو على بصرى على الحدود الشمالية لجزيرة العرب عند تخوم بلاد الشام.

(٧) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص ١٦٥ ــ ١٦٦.

هذا، وإن دلت هذه الرسائل على أمر فتلك الغاية التي كانت وراء قصد الرسول، وهي نشر العقيدة الإسلامية خارج جزيرة العرب، لأن الإسلام دين عالمي، وأنه رسول الله إلى الناس كافة. إذ اشتملت هذه الرسائل جميعها على الدعوة إلى الوحدانية، وكانت متوجة بالآية الكريمة التي تدعو أهل الكتاب إلى تحقيق ما هو مشترك بين جميع الأديان السماوية، أي عبادة الله وحده وأن لا يكون له شريك من آلهة أخرى أو بشر، تقول الآية الكريمة:

﴿قُلْ يا أهلَ الكتابِ تعالوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللَّهَ ولا نُشْرِكَ به شَيْئاً ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (س ٣، الآية ٦٤).

يقول الباحث الإسلامي مولانا محمد علي:

«والواقع أن الآية تلفت الانتباه إلى مبدأ لو اصطنع اليوم إذن لوضع حداً لجميع المنازعات الدينية، صاهراً مختلف الأنظمة في دين كوني واحد، وصاهراً البشرية كلها في أخوة كلية واحدة. إنه يقرر، ابتغاء إزالة الفروق جميعاً، أن كل ما هو مشترك بين جميع الأديان يجب أن يقبله الجميع، كأساس يبدأ به، ثم تشاد فوق الأساس جميع التفاصيل الدينية المتناغمة مع هذه الحقيقة الأساسية. وهكذا تستطيع أديان العالم كلها أن تتلاقى على أرض مشتركة وتسوي خلافاتها بطريقة حبية. والواقع أن فكرة الدين الانتقائي التي انبثقت مؤخراً تنسجم مع الحقيقة نفسها التي دعا إليها الإسلام منذ ثلاثة عشر قرناً»[٨].

---

(٨) مولانا محمد علي: حياة محمد وسيرته، ص١٩٥ ــ ١٩٦.

لقد كانت مواقف الحكام والملوك مختلفة في ردود أفعالها حين تلقت رسائل رسول الله ﷺ، يقول إتيين دينيه في كتابه: «محمد رسول الله»:

«فتلقى المنذر، ملك البحرين الرسالة فأسلم، وكذلك فعل نائب ملك اليمن. وبعث المقوقس ملك مصر بالهدايا الثمينة إلى محمد، وكان من بين تلك الهدايا جارية شابة بارعة الجمال يقال لها: مارية القبطية، فتزوجها محمد. وكان من بينها أيضاً حمار يقال له يعفور وبغلة تدعى دلدل. أما هرقل إمبراطور الرومان والنجاشي ملك الحبشة، فقد رد كل منهما الدعوة برسالة غاية في التلطف والإحترام. غير أن كسرى ملك الفرس أقسم ليعاقبن النبي على جرأته، فنزل عليه في الحال غضب الله، إذ اغتاله ابنه شيرويه، وتبوأ عرشه. ومزق الحارث بن أبي شمر رسالة النبي، فرأى ملكه يتمزق، جزاء له من الله على تمزيق رسالة محمد، وكان الحارث بن عمير الرسول الوحيد الذي استقبل استقبالاً مشيناً، ثم اغتيل عند الكرك بالبلقاء بأمر من شرحبيل الغساني حاكم تلك البلاد التي كانت تخضع للرومان»[(٩)].

هذا، وتتفاوت مواقف المستشرقين والباحثين الغربيين من مسألة حقيقة الوفود، بين التصديق والإنكار والدهشة والإعجاب، والتشكيك في صحة الأمر... رغم ثبوتها وخاصة بعد العثور على الرسالة التي وجهها الرسول ﷺ إلى المقوقس حاكم مصر، يقول الباحث العسكري غلوب باشا:

«لكن بعض المؤرخين المعاصرين أثاروا بعض الشكوك في موضوع الرسائل فليس هناك في ما حفظ عن حياة النبي ما يشير

(٩) إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص٢٦٦.

إلى أن النبي قد تصور أو توقع احتلال سورية وفارس . ولقد أدهشت الانتصارات العظيمة التي حققها العرب بعد وفاة النبي المسلمين أنفسهم ، وهي انتصارات ما كانت لتتحقق لولا أن النبي قد تنبأ بوقوعها . لكن مارية القبطية كانت من الناحية الأخرى شخصية تاريخية »(١٠) .

إلا أن ما أثار حقاً دهشة الباحثين والمستشرقين الغربيين ، أن الإسلام قد عمّ فعلاً سائر البلدان التي تم بعث الرسائل إلى حكامها ، إذ لم يمض أكثر من ثلاثين عاماً على تلك الحادثة حتى كانت تلك البلاد خاضعة للحكم الإسلامي ، ويدين معظم شعوبها بالإسلام ، مع موجة الفتوحات التي قام بها خلفاء الرسول ، مما يثبت عملياً أن الإسلام دين عالمي وأنه أرسل للناس كافة ...

هذا ، وقد ناقش الباحث الإسلامي مولانا محمد علي ، الظروف التي أحاطت بتوجيه الرسائل إلى الملوك وإيمانه العميق بالانتصار النهائي للإسلام ، وأن ضياءه سيعم المعمورة ، وأن الإسلام يمتلك القوى الذاتية للصمود ، رغم كل القوى المضادة وأنها تشير إلى نقطة هامة أخرى هي أن محمداً كان رسولاً من الله ، وهيهات أن يكون دجالاً أو صاحب عقلية منحرفة ، كما ذهب إلى ذلك بعض المستشرقين المُعادين لرسالة الإسلام ، يقول :

« إن الظروف التي أحاطت بتوجيه هذه الرسائل إلى الملوك والأمراء لتستحق شيئاً من التأمل والاعتبار . فلو أن الرسول وجهها بعد إخضاع بلاد العرب برمتها إذاً لكان في إمكان الباحث أن

---

(١٠) جان باغوت غلوب : الفتوحات العربية الكبرى ، ص ١٤٠ .

يعتبرها إجراء أوحى به الطموح. ولكن ما الظروف التي كانت سائدة فعلاً في تلك الآونة؟

كانت المدينة قد حوصرت قبل ذلك باثني عشر شهراً ليس غير، وكان ثمة أمل ضئيل في نجاة نفس مسلمة واحدة. لقد كان المسلمون، حتى في ذلك الحين أضعف من أن يشقوا طريقهم إلى مكة لأداء فريضة دينية هامة كالحج. وكان المشركون لا يزالون هم أصحاب السلطان، حتى لقد فرضوا شروط الصلح، منذ فترة يسيرة، على المسلمين. وفي كل ناحية من بلاد العرب كان الإسلام محاطاً بالأعداء. وكان تناثر المسلمين ههنا وهناك لا يغير من الموقف إلا قليلاً. ومع ذلك فإن إيمان الرسول بانتصار الإسلام النهائي لم يتزعزع لحظة واحدة، في وجه تلك الظروف المؤئسة كلها، كان الرسول واثقاً كل الثقة من أن الإسلام سوف يسود آخر الأمر، وكان في ميسوره أن يرى بعين بصيرته النافذة ذلك اليوم الذي سينير ضياؤه فيه كل زاوية من زوايا العالم. إلى هذا الحد كان إيمانه بقوة الإسلام عميق الجذور، وإن في هذا لدرساً نافعاً لبعض مسلمي العصر الحاضر الضعيفي الثقة بإمكان انتشار الإسلام في ديار الغرب، ذلك بأنهم يعتقدون بأنه ليس ثمة إمبراطورية جبارة تسنده وتدعمه. «إن الحق لا يعتمد، في بقائه وانتصاره، على القوة. إن له من القوة الذاتية ما يمكنه من الصمود». وهذه النقطة جديرة أيضاً باعتبار الناقد العادي للإسلام. أمن الممكن لدجال من الدجالين أن ينعم بمثل هذا الإيمان الراسخ بنجاحه النهائي؟

إن على أولئك النزّاعين إلى القول بأن هذه الرسائل الطموح

مردها إلى عقلية منحرفة أن يتأملوا قليلاً في النجاح العظيم الذي حظي به الإسلام بعد سنوات معدودات انقضت على توجيهها. وإذا كانت هذه الوقائع تشير إلى أن محمداً لم يكن لا دجالاً ولا معتوهاً فلم يبق إذاً غير استنتاج واحد يفرض نفسه على الناقد النزيه ـــ أعني أنه كان رسولاً من رسل الله ـــ إن هذه الرسائل لتثبت أيضاً الحقيقة القائلة بأن الرسول اعتبر الإسلام منذ البدء، ديناً عالمياً. إن النصرانية لم تدَّعِ العالمية. ويسوع نفسه لم يدَّعِ مثل هذا الوضع. لقد قال، في وضوح، إنه جاء لهداية خراف إسرائيل الضالة. بل لقد رفض أن يصلي على امرأة غير إسرائيلية. أما محمد، ـــ صلوات الله عليه ـــ، فقد أعلن على العكس منذ فجر بعثته بالذات، أنه مرسل إلى البشر كافةً. ولم تكن هذه دعوى فارغة. والحق أنه لم يدخر وسعاً لتحقيق هذا المثل الأعلى في حياته هو، فدعا مختلف الملوك إلى قبول الحق الذي جاء به الإسلام»(١١).

عام الوفود وانتشار الإسلام في جزيرة العرب

كان العام التاسع للهجرة حافلاً بأحداث ترسيخ الرسالة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية، إذ أخذت القبائل العربية البعيدة تدين بالإسلام، وتظهر للرسول ﷺ الطاعة والإذعان.. وفي هذا العام تدفقت على المدينة الوفود التي تمثل مختلف القبائل، مظهرةً رغبتها في الانضواء تحت راية الهداية الإلّهية باعتناقها طوعاً الإسلام ديناً.

ويتحدث المستشرق الروماني جيورجيو عن هذه المرحلة في حياة الرسول فيقول:

---

(١١) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص١٩٧ ـــ ١٩٩.

«ونصل هنا إلى نقطة هامة في حياة النبي ﷺ، متصلة بعام الوفود، فالمسلمون يسمون هذه السنة التاسعة «عام الوفود» أي «سنة السفراء والهيئات». فمحمد ﷺ قبل تسع سنوات من هذا التاريخ خرج من مكة كيلا يقتله المشركون، وهاجر إلى المدينة ومعه أبو بكر. وكانت الهجرة كما رأينا ذات قيمة معنوية كبيرة للمسلمين. ولم ننس أن قريشاً منحت جائزة قدرها مئة ناقة لمن يمنع محمداً عن هذه الهجرة حياً أو ميتاً. في ذلك الوقت، وقد مضى تسع سنوات على الهجرة، وفّق النبي ﷺ إلى فتح مكة، كما وفّق إلى دخول خصومه الذين كانوا يرغبون في قتله، في الإسلام، حتى عكرمة بن أبي جهل أسلم، وسقط في ميدان الجهاد شهيداً، كما أسلم أبو سفيان الذي كان قائد جيش مكة في أحد والخندق، وعيّنه النبي ﷺ حاكماً على نجران، وغدا خالد بن الوليد أحد القواد البارزين من المشركين، من أبرز قواد الإسلام، وتلقب بسيف الله. ولم يفتح محمد في هذه السنة (التاسعة) مكة وحدها، بل فتح الجزيرة كلها، وغدا الجميعُ مسلمين أو إلى جانب المسلمين. وقد انتشر الإسلام من السنة الأولى للهجرة إلى السنة العاشرة بمساحة قدرها /٨٢٢/ ألف كم٢ تقريباً»(١٢)

وينتقل المستشرق جيورجيو للحديث عن كيفية استقبال الرسول ﷺ وفود القبائل العربية، بكل بساطة وتواضع جم، وهو الحاكم الفعلي لكل جزيرة العرب يقول:

«وقد استقبل النبي في ذلك العام السفراء والممثلين عن

---

(١٢) ك. جيورجيو: نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ص ٣٦٩ ــ ٣٧٠.

القبائل في المدينة. ولكثرة هذه الاستقبالات سمي هذا العام (بعام الوفود). وكان محمد في ذلك الوقت رئيس الجزيرة العربية كلها دينياً وسياسياً وعسكرياً. ومع هذا فإن الوفود، عندما كانت تفد عليه، تراه جالساً على حصير مضفور من ورق شجر النخيل، وهذا هو أثاث المنزل كله. وعندما كان يفد الوفد يستقبله بلال المؤذن الحبشي، ويدخله غرفة النبي ﷺ. وحين تحط الوفود في المدينة كانت تنزل في بيت (رملة بنت الحارث) الواقع في محلة (النجارية)، ضيوفاً على الحكومة. وكثيراً ما كان يفيض عدد الوفود، فيضيق المنزل بهم، مما حدا بالنبي ﷺ إلى أن يأمر بأن تنصب الخيام في المسجد، لينزل فيها من لا يجد مكاناً في المنزل»[١٣].

ويقول الباحث مونتجمري وات:

«تقول الرواية التقليدية للسنتين الأخيرتين من حياة محمد إن معظم القبائل في شبه الجزيرة العربية دخلت الإسلام وتسمى السنة التاسعة للهجرة (نيسان ٦٣٠ ــ ٦٣١م) «عام الوفود» فقد أرسلت كل قبيلة وفدها إلى محمد لاعتناق مبادىء الدين الجديد»[١٤].

ويرى المفكر الإسلامي مولانا محمد علي، في عام الوفد خير ردّ على أولئك المتعصبين من أعداء الإسلام الذين لم يروا أنه انتشر إلا بحد السيف وحده... وأن السلام كان من أقوى بواعث نشره في سائر أرجاء الجزيرة العربية... وأن الرسول الذي كان يعرض نفسه على أفراد القبائل ووجوهها فلا

(١٣) المصدر السابق: ص ٣٧٠ ــ ٣٧١.

(١٤) مونتجمري وات: محمد في المدينة، ص ١١٨.

يرى سوى الإعراض عنه والسخرية به ، بله الإهانة والتعذيب قد أخذت هي تسعى إليه ، وكيف كان يستقبلها ، وأنه ــ عليه السلام ــ لم يرفع الحسام إلا دفاعاً عن حق ، فذوداً عن وجود ، وإعلاء لكلمة الله في ربوع الجزيرة العربية ، يقول :

« وكان الإسلام قد اكتسب الآن شعبية عامة ، في طول بلاد العرب وعرضها . لقد انتشر نبأ الانتصار النهائي إلى أقصى زوايا الجزيرة . ولم يكن الناسُ غافلين عما جرى ، طوال سنوات وسنوات ، بين الرسول وقريش . لقد شهدوا ، في لهفة وشوق ، مراحل الصراع كلها . لقد عرفوا كيف عذّبته قريش وعذبت أصحابه لتبشيرهم بالفضيلة وبوحدانية الله ، وكيف قامت ــ بعد هجرتهم ــ بمحاولات متعددة استمرت ثماني سنوات ، لسحق المسلمين . والواقع أن الذين شهدوا مواسم الحج السنوية حملوا هذه الأنباء إلى زوايا البلاد القصوى . وكان الناس على علم أيضاً بنبوءة الرسول القائلة بأن كل مقاومة للإسلام سوف تتلاشى آخر الأمر . وهكذا أخذت الوفود تتدفق على المدينة من كل حدب وصوب . فكان الرسول يستقبلها في حفاوة بالغة ، ويعلمها مبادىء الإسلام في لطف ليس بعده لطف . وكان يبعث مع الذين يعتنقون الإسلام بمعلم يفقههم في الدين . وهكذا تقاطرت إلى المدينة في النصف الأول من هذه السنة بالذات وفود مقبلة من مواطن قصية ، كاليمن ، وحضرموت ، والبحرين ، وعمان . والتخوم الشامية والفارسية . يالتحريف الحقائق ! إن الجهل والهوى يعزوان انتشار الإسلام إلى اصطناع السيف . على حين أن الواقع يقول إن انتشار الإسلام ظل راكداً ما بقيت حالة الحرب بين المسلمين والمشركين . فما إن أقر السلام حتى انتشر

الإسلام في كل ناحية بخطى واسعة. لقد بدا وكان قوة غير منظورة كانت تعمل على إدخال الناس في دين الله أفواجاً بعد أفواج. ولم يبعث في أيما يوم بحملة عسكرية إلى أيما بلد من تلك البلاد التي أقبلت الوفود منها. تلك هي الحقيقة التي شاءت سخرية القدر أن تحرّف إلى اليوم تحريفاً متعمداً. فلطالما ساعدت الحرية والسلام، ولسوف يظلان يساعدان إلى الأبد، على انتشار الإسلام»[١٥].

لكن علينا التوقف هنا ملياً، وبالتالي قلب الصفحة.. فمع مد الموجة الإسلامية الزاخر، كانت تتكون شيئاً فشيئاً بذور الثورة المضادة التي قادها أدعياء النبوة من أمثال الأسود العنسي في اليمن ومسلمة بن حبيب (الذي عرف باسم مسيلمة الكذاب) في اليمامة وطليحة في بني أسد، وسجاح في قبيلة تغلب، التي جاهرت جميعاً الإسلام العداء، وشكلت من ثَمَّ تحالفات بين بعض أطرافها... عساها تطفىء نور الله بادعاءاتها، وتقضي على الإسلام بظلام قواها، لكنها لم تستطع ألاّ تَغْرَقَ هي في حالك الظلام، فأُخمد أنفاس بعضها في عهد الرسول، وانتهى بعضها الآخر على يدي أبطال الإسلام في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق...

الرسول وسياسة التسامح الديني

هذا، وقد تجلت سياسة التسامح الديني في عهد الرسول عام الوفود حين استقبل وفوداً مسيحية وبعث برسالة إلى أسقف نجران.. ويتحدث الباحث الروماني ك. جيورجيو عن أوضاع أصحاب الديانات السماوية في ظل الحكم الإسلامي فيقول:

(١٥) مولانا محمد علي: ص ٢٢١.

«ومع أن الإسلام عم الجزيرة كلها في السنة التاسعة فإن محمداً لم يُكره اليهود ولا النصارى على قبول دينه، لأنهم أهل الكتاب. وقد جاء في رسالة محمد إلى أبي الحارث أسقف نجران أن وضع المسيحيين في الجزيرة بعد الإسلام تحسن كثيراً، يقول في الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم، من رسول الله ﷺ إلى أبي الحارث أسقف نجران الأكبر وقساوسته وأساقفه. أما بعد، فليعلم الأسقف الأكبر وقساوسته وأساقفته أن كنائسكم ومعابدكم وصومعاتكم ستبقى كما هي، وأنكم أحرار في عباداتكم. ولن يزاح أحد منكم عن منصبه ومقامه، ولن يبدلَ شيء. كما لم يبدل في مراسم دينكم، ما دام الأساقفة صادقين، ويعملون حسب تعاليم الدين. فمن أدى ذلك فإن له ذمة الله وذمة رسول ﷺ، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله.

تشير هذه الرسالة إلى أن المسيحيين (وكذلك اليهود) في الجزيرة أحرار في أداء شعائرهم، ولن يزاحمهم من المسلمين مزاحم. وقد قدم في السنة التاسعة وفد من مسيحيي نجران يرأسهم أبو الحارث الأسقف الأكبر، وعبد المسيح الأسقف، والأيهم رئيس القافلة، وحين أرادوا الدخول على النبي ﷺ ارتدوا ألبستهم الدينية الرسمية الكاملة، فأخذ سكان المدينة بهذه الثياب. وبعد أن زاروا النبي ﷺ سألوه أن يسمح لهم بأداء شعائرهم فطلب منهم أن يؤدوا صلواتهم في مسجد المدينة، فدخلوا واتجهوا نحو بيت المقدس، وتعبدوا هناك. لا شك أن النبي كان يحترم المسيحيين احتراماً خاصاً، لأن القرآن

الكريم ذكرهم وأكرمهم . وقد أشار الله تعالى إلى هذه النقطة في محكم كتابه في سورة المائدة (الخامسة) في الآية (٨٢) : ﴿لَتجدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوةً للذينَ آمنوا اليهودَ والذين أشركوا، وَلَتجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً للذينَ آمنوا الذينَ قالوا : إنا نصارى ذلك بأنَّ مِنْهُمْ قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ . ويقول في الآية التي بعدها : ﴿وإذا سَمِعوا ما أُنزِلَ إلى الرسولِ ترى أعيُنَهُمْ تَفيضُ من الدَّمْعِ مما عرفوا مِنَ الحقِّ يقولونَ : ربَّنا آمنَّا فاكتُبْنا مع الشاهدين﴾ ، ويقول بعدها كذلك ﴿وما لنا لا نُؤْمِنُ باللهِ وما جاءَنا من الحقِّ ونطمعُ أن يُدخِلَنا ربُّنا مع القومِ الصالحين﴾ ويقول بعدها ﴿فأثابهمُ الله بما قالوا جنَّاتٍ تَجْري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها، وذلك جزاء المحسنين﴾[١٦] .

هذا ، ويجدر القول إن سياسة التسامح الديني التي اتبعها الرسول ﷺ تجاه أصحاب الديانات الأخرى استلهاماً لروح الإسلام، غدت ـــ فيما بعد ـــ قاعدة لخلفاء الرسول ، في ظل الدولة الإسلامية العظمى التي ضمت شعوباً وأمماً مختلفة وأصحاب ديانات ظلوا يمارسون شعائرهم في ظل الحماية الإسلامية ، وكان لسياسة التسامح هذه أن حظيت باحترام وتقدير المفكرين والمستشرقين المنصفين فعقدوا المقارنة بين تسامح الإسلام وتعصب الصليبيين ، يقول المستشرق ميشون في كتابه : «تاريخ الحروب الصليبية» :

«إن الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وهو الذي أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب وحرم قتل الرهبان ـــ على الخصوص ـــ لعكوفهم على العبادات ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس ..

(١٦) ك. جيورجيو : ص ٣٧١ ـــ ٣٧٢ .

وقد ذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود عندما دخلوها »[١٧].

ويزيد الباحث نفسه في كتابه « سياحة دينية في الشرق » متحدثاً عن تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية، وكيف أن المسيحيين تعلموا الكثير من المسلمين في التسامح وحسن المعاملة، يقول:

« وإنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التعامل وفضائل حسن المعاملة، وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم، كل ذلك بفضل تعاليم نبيهم محمد »[١٨].

وكان لهذا التسامح أثره في أن يصبح الدين الإسلامي ديناً عالمياً، بدءاً من مراحله الأولى أيام الرسول في جزيرة العرب إلى أن عمَّ أصقاعاً شاسعةً، يقول المستشرق جولد تسهير:

« سار الإسلام لكي يصبح قوة عالمية على سياسة بارعة، ففي العصور الأولى لم يكن اعتناقه أمراً محتوماً فإن المؤمنين بمذاهب التوحيد أو الذين يستمدون شرائعهم من كتب منزلة كاليهود والنصارى والزرادشتية كان في وسعهم متى دفعوا ضريبة الرأس (الجزية) أن يتمتعوا بحرية الشعائر وحماية الدولة الإسلامية، ولم يكن واجب الإسلام أن ينفذ إلى أعماق أرواحهم إنما كان يقصد إلى سيادتهم الخارجية. بل لقد ذهب الإسلام في هذه السياسة إلى

---

(١٧) ميشون: تاريخ الحروب الصليبية (نقلاً عن كتاب روح الدين الإسلامي، ص ٣٨٣).

(١٨) ميشون: سياحة دينية في الشرق، ص ٣١.

حدود بعيدة، ففي الهند مثلاً كانت الشعائر القديمة تقام في الهياكل والمعابد في ظل الحكم الإسلامي»[19].

حجة الوداع

كان الإسلام يتوطد بقوة وثبات، وتطهرت البلاد من الوثنية إلى الأبد، وأدرك الرسول أنه قد أدى الرسالة، وأتم الأمانة بنشر دعوة التوحيد حين دانت له جزيرة العرب وانضوت تحت الراية الإسلامية الظافرة.

وفي حجة الوداع، التي اجتمع فيها مئة وأربعة وعشرون ألف مسلم قصدوا البيت الحرام في مكة من سائر أرجاء الجزيرة العربية، خطب فيهم الرسول خطبته الأخيرة التي عرفت باسم خطبة حجة الوداع، والتي أعلن فيها بعد أن نزل عليه الوحي الإلّهي ﴿اليوم أكملت لكم دينَكم، وأتممتُ عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلامَ ديناً﴾، أعلن أن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم...

وقال في خطبته: أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه: تعلمن أن كل مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرىءٍ من أخيه، إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم.

وقال: اللهم هل بلغت؟ فأجاب المسلمون: نعم، فقال رسول الله ﷺ «اللهم فاشهد».

أجل، لقد بلّغ الرسول رسالات ربه، وبلغ الإسلام مرحلة الكمال في

---

(١٩) جولد تسهير (نقلاً عن كتاب النظام السياسي في الإسلام، ص ٢١).

جزيرة العرب، فكانت هذه الخطبة بمثابة، إعلان ذلك النبأ العظيم، نبأ استكمال الدين على خير وجه... وكان أن تحقق ذلك الانقلاب التاريخي الكبير الذي غير مسار بلاد العرب، فحولها من مجموعة قبائل متناحرة تدين بالوثنية إلى أن تتوحد في كتلة متراصة تحت راية الإسلام الظافرة لتبدأ بعد وفاة الرسول وانتقاله إلى الرفيق الأعلى في العام الحادي عشر للهجرة (٦٣٢م) بنشر راية الإسلام خارج بلاد العرب، ليعم المناطق الشاسعة من العالم تأكيداً على أنه دين سماوي للناس كافة...

يقول المستشرق الإنجليزي سبرت و. أرنولد:

«وقبيل وفاة محمد نرى جميع أنحاء الجزيرة العربية تقريباً تدين له بالطاعة، وإذا ببلاد العرب التي لم تخضع إطلاقاً لأمير من قبل تظهر في وحدة سياسية وتخضع لإرادة حاكم مطلق. ومن تلك القبائل المتنوعة، صغيرها وكبيرها، ذات العناصر المختلفة التي قد تبلغ المائة والتي لم تنقطع عن التنازع والتناحر، خلقت رسالة محمد أمة واحدة، وقد جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل في نظام سياسي واحد، ذلك النظام الذي سرت مزاياه في سرعة تبعث على الدهش والإعجاب. وأن فكرة واحدة كبرى هي التي حققت هذه النتيجة، تلك هي مبدأ الحياة القومية في جزيرة العرب الوثنية، وهكذا كان النظام القبلي لأول مرة، وإن لم يقض عليه نهائياً (إذ كان ذلك مستحيلاً)، شيئاً ثانوياً بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية.

«وتكللت المهمة الضخمة بالنجاح، فعندما انتقل محمد إلى جوار ربه كانت السكينة ترفرف على أكبر مساحة من شبه الجزيرة

العربية، بصورة لم تكن القبائل العربية تعرفها من قبل، مع شدة تعلقها بالتدمير وأخذ الثأر. وكان الدين الإسلامي هو الذي مهد السبيل إلى هذا الائتلاف»[٢٠].

ويقول الباحث الإسلامي مولانا محمد علي:

«وبكلمة موجزة، فقد انقضت فترة الحرب ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فلم تكد تنقضي سنتان حتى لم يبق في طول جزيرة العرب المترامية الأطراف غير دين واحد ـ الإسلام ـ وبعض الجاليات اليهودية والنصرانية الضئيلة المتناثرة ههنا وههناك. لقد ترددت صيحة «الله أكبر» في كل رجا من أرجائها. يالها من ظاهرة أعجوبية، لقد أتى على الرسول عهد طاف فيه بمختلف القبائل ـ وكان ذلك في أشهر الحج ـ يدعوها إلى الإسلام، ولكن أحداً منهم لم يصغ إليه. أما الآن، فهاهي ذي القبائل نفسها تبعث إليه بوفودها وتعتبر انضواءها تحت راية الدين الجديد شرفاً لها عظيماً. فخلال سنتين اثنتين ليس غير انقضتا على انتهاء حالة الحرب وفّق الرسول لا إلى ضم بلاد العرب كلها إلى الحظيرة الإسلامية فحسب، بل وفّق في الوقت نفسه إلى إحداث تحول جبار في حياة الأمة العربية أزال جميع مفاسدها ورفعها إلى أسمى مراتب الروحانية»[٢١].

هذا، وإن الدعوة الإسلامية التي حققت النجاح في مسيرتها الكفاحية ـ فوحدت جزيرة العرب بفضل نضال الرسول الملحمي ـ

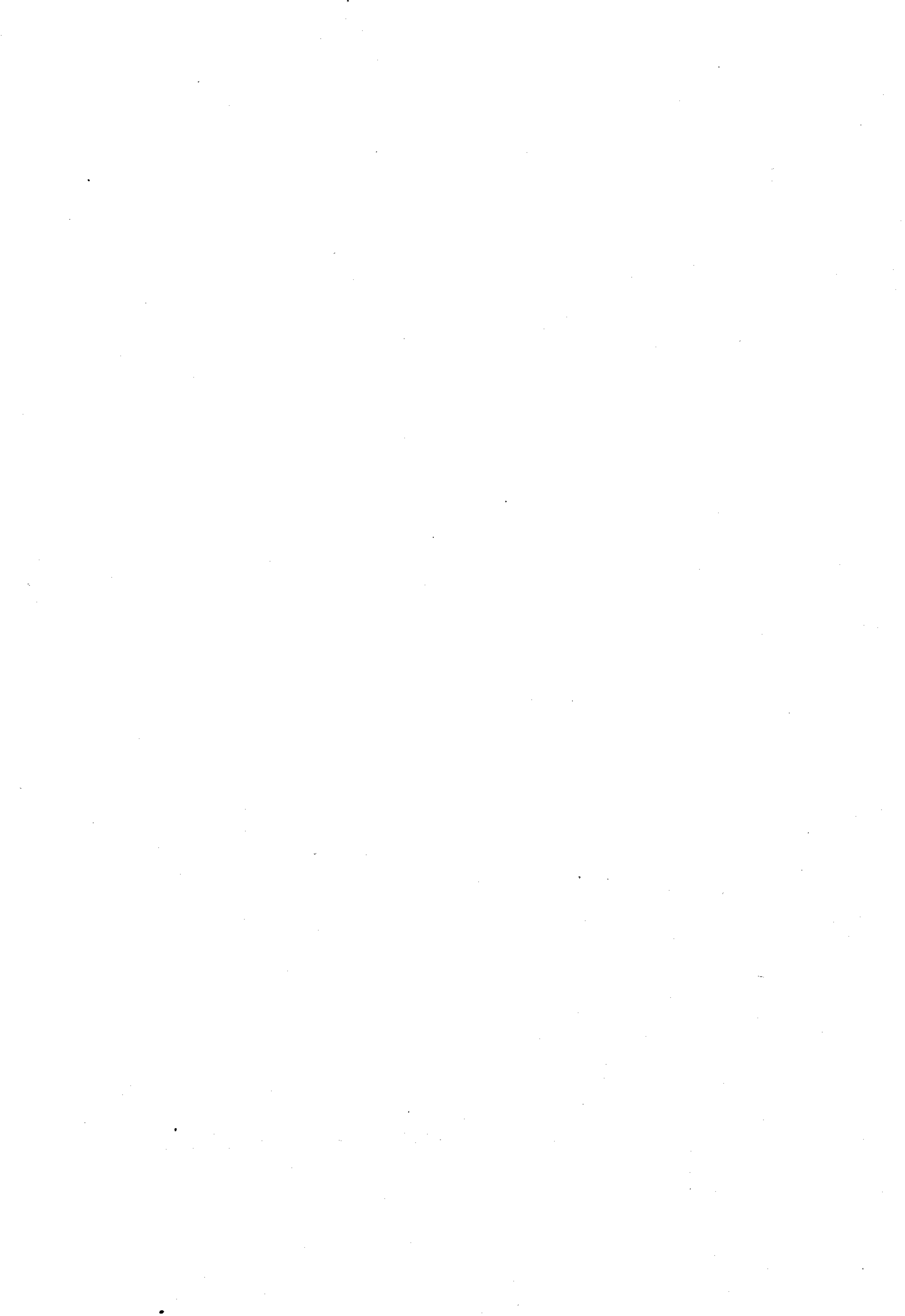
(٢٠) سبرت و. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٢١) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص ٢٣٨.

أكدت هذه الدعوة هويتها العالمية ورسالتها الإنسانية، انطلاقاً من الأسس التي وضعها الرسول مستلهماً روح الإسلام. حين خرجت هذه الدعوة في عهد خلفائه خارج حدود بلاد العرب مع رايات الفتح الإسلامي فكان أن انتشرت في أصقاع الأرض تأسيساً لدولة الإسلام الكبرى.

القسم الثاني

عبقرية الرسول ومناقبه



- عظمة الرسول وعبقريته المتكاملة .
- محمد والقيادة الدينية .
- محمد والقيادة السياسية .
- محمد والقيادة الفكرية .
- محمد والقيادة العسكرية .
- محمد والمعجزات .
- أخلاق الرسول ومناقبه .



الفصل الأوّل

عظمة الرسول وعبقريّته المتكاملة



الاستشراق بين الإنصاف والجحود

إذا كان الرسول ﷺ في عرف المسلمين سيد الرسل وإمام البشر فآراء المستشرقين والمفكرين الغربيين تتفاوت في تقويمه، وطبيعي أن تتباين وجهات نظرهم فيه عليه أفضل الصلاة والسلام، تبايناً قد يبلغ حدّ التناقض.

فمن انساق وراء التعصب الديني لا بدّ أن ينزلق إلى مهاوي الجهالة والحقد الأعمى، وكان بالتالي لعاب يراعه السم الزعاف يرسل الأحكام الطائشة الجائرة التي تنكر على الرسول رسالته، وتلصق به أبشع النعوت وتصفه بأنكر الصفات.

وإلى جانب هذه الطائفة، ظهر اتجاه معاكس تماماً، تمثّل روح الإسلام وتفهم أسس العقيدة حتى غدا مسلماً، وإن لم يعلن إسلامه، إذ انجلت له الحقائق، ودرس سجايا الرسول الإنسانية نبياً وحاكماً ومشرعاً وقائداً سياسياً وعسكرياً وبشراً يحمل في جوانحه وجوارحه كل معاني كلمة الإنسانية السامية... لذلك رأينا الكثير من المستشرقين ممن اتصفوا بالنزاهة ووضوح الرؤية يُشهرون إسلامهم، بعد أن خالط نور اليقين شغاف قلوبهم...

وبين هاتين الطائفتين توزعت المواقف والاتجاهات، فغالبية الدارسين، وإن لم تنسجم مواقفهم مع الرسالة المحمدية، قدروا الرسول ﷺ حق قدره كقائد ومفكر استطاع أن يترك بصماته ليس في محيطه العربي فحسب، وإنما على الصعيد العالمي كذلك.

وطبيعي، أن تردّ أسباب الاختلاف في المواقف الاستشراقية إلى حالات الاستشراق ومناهجه الفكرية المتأرجحة بين الجحود والإنصاف، الكره والمحبة، السخرية والاحترام، وذلك لما أدركه المستشرقون من العلاقة العضوية التي لا تنفصم بين الرسالة والرسول، وارتكاز الإسلام كعقيدة وشريعة على القرآن (كتاب الله) والسنة ـــ أحاديث الرسول وأقواله وأفعاله وتقريره...

فبعد أن فرض الإسلام نفسه عالمياً، كان طبيعياً أن تستأثر سيرة النبي ﷺ وشخصيته ومناقبه باهتمام المستشرقين والمفكرين الغربيين... يقول المفكر الفرنسي المعاصر مارسيل بوازار في كتابه «إنسانية الإسلام»، متحدثاً عن طبيعة المواقف واتجاهات المستشرقين في الغرب، بقوله:

«لقد سبق أن كُتب كل شيء عن نبي الإسلام. فأنوار التاريخ تسطع على حياته التي نعرفها في أدق تفاصيلها. والصورة التي خلّفها محمد عن نفسه تبدو، حتى وإن عمد إلى تشويهها، «علمية» في الحدود التي تكشف فيها، وهي تندمج في ظاهرة الإسلام عن مظهر من مظاهر المفهوم الديني، وتتيح إدراك عظمته الحقيقية. ولا ريب أن تقديم نبي الإسلام يتلون تلوينات دقيقة تبعاً لمواقف ثلاثة: الرغبة النابعة من الود والاحترام، أو من السخرية، في إثبات أن الإسلام هو، على الأخص، من صنع رجل، والسعي إلى اتخاذ تطوّر البيئة الاجتماعية دليلاً لتفسير ظهوره، والاعتقاد بأنه كلام

الله، ومحمد الذي يوليه المسلمون ولا ريب نوعاً من الإجلال الورع قد يكون من الخطر إساءة تأويله، هو على وجه الحصر المبشر بالكلام السرمدي ولا يتمتع في نظر المؤمنين بالأهمية التي يتمتع بها يسوع المسيح مثلاً في نظر المسيحيين.

ومع ذلك يبدو الاطلاع على حياته ضرورياً، نظراً للعلاقة الوثقى بين الرسالة والرسول، فمع أن القرآن يلحّ على طبيعة النبي البشرية البحتة، إلا أنه يجعل منه «أسوة حسنة» يقتدي بها المؤمنون»[1].

ولكن، لندع الباحثين المغرضين والمستشرقين المتعصبين جانباً، لأن مواقفهم جاءت وليدة الحقد، وما ينبى على الضغائن والأحقاد، لا يمكن أن يدخل في نطاق الفكر الجاد، ولنتمل منازع الآخرين الذين أنصفوا الرسول ورأوا بعين الحق حامل الرسالة واحداً من عظماء التاريخ فعلاً، ممن كان لوجودهم على وجه البسيطة أثر بالغ في تبديل مسار التاريخ وإحداث انعطاف عام في حياة الأمم...

أول المئة الأوائل في التاريخ

وفي عداد أولئك الذين أنصفوا الرسول ﷺ وأعطوه بعض حقه، وتمثلوا روح الإسلام، وأدركوا موضوعياً أهمية الرسول التاريخية، بعيداً عن المواقف المتزمتة أو المتعصبة معه أو ضده، يقف في الطليعة الدكتور مايكل هارت صاحب كتاب: «المائة الأوائل»، الذي يشدنا إلى أن نقف معه عند نظرته العلمية، التي وضعها لتصنيف عظماء التاريخ، ضمن سلم ترتيبي،

(١) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص ٤٠ ــ ٤١.

اختاره حسب مقاييس منطقية يمليها أولاً وأخيراً، أثر هذه الشخصية في التاريخ في مرحلتها، وفي تكوين اتجاهات المراحل التالية وديمومة هذا الأثر. وكان منطلقه الذي وضعه لنفسه يرتكز على النقاط الثلاث التالية:

١ ـ الأهمية الأولى للأشخاص الذين أثروا في التاريخ تأثيراً دائماً سواء في ذلك الشخصية المشهورة أو المغمورة أو الشريرة، المتواضعة أو المغرورة.

٢ ـ الاعتماد في تصنيفه السابق على الشخصيات التى أثرت على الصعيد العالمي وعدم الأخذ بالشخصيات التي أثـرت على الصعيد المحلي...

٣ ـ وفي تقرير مكانـة الشخص، أخـذ البـاحـث بعين الاعتبار أهمية الحركة التاريخية التي أسهم بها، رغم إدراكه أن سيرورة حركة التطور التاريخية ليست ناجمة عن عمل أفراد.. [٢].

وتبعاً لهذه المعايير العلمية التي وضعها هذا الباحث لأولئك المئة الذين اعتبر كلاً منهم من الشخصيات الرائدة حقاً في التاريخ، كان الرسول ﷺ على رأس السلم، وهكذا ليس بدعاً بالنسبة لنا نحن العرب المسلمين، أن نرى في صنيعه بادرة إنصاف عظيمة ونظرة علمية متجردة، من مفكر غربي، اضطر معها إلى تقديم التبرير والدفاع عن اختياره لأنه يقدم كتابه لأبناء جلدته من الغربيين.. فهو يقول في دراسته شخصية الرسول وأثره في التاريخ:

«إن اختياري محمداً ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ ربما أدهش كثيراً من القراء إلى حد قد يثير بعض التساؤلات، ولكن

---

(٢) مايكل هارت: المائة الأوائل، ص ٩ ـ ١٠.

في اعتقادي أن محمداً ﷺ كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي.

لقد أسس محمد ﷺ ونشر أحد أعظم الأديان في العالم، وأصبح أحد الزعماء العالميين السياسيين العظام. ففي هذه الأيام وبعد مرور ثلاثة عشر قرناً تقريباً على وفاته، لا يزال تأثيره قوياً عارماً»[٣]

وحين أجرى المؤلف مقارنة بين محمد والمسيح وجدهما متساويين في العظمة، غير أنه قدّم محمداً لكونه هو الذي قام بإرساء قواعد الدين الإسلامي ونشره بنفسه بينما نجد أن المسيح عليه السلام قدم رسالة روحية وأفكاراً أخلاقية سامية، إلاّ إن علم اللاهوت المسيحي مدينٌ للقديس بولس، وأضاف إليها قسماً كبيراً مما يؤلف العهد الجديد في الكتاب المقدس...

ويتحدث هارت في مقدمة كتابه عن مبررات تصنيف الرسول ﷺ في مرتبة أعلى من يسوع المسيح، بقوله:

«ولأن في اعتقادي أن محمداً له تأثير شخصي على صياغة الدين الإسلامي أكثر مما كان ليسوع من تأثير على الدين المسيحي»[٤].

أعظم العظماء وفوق كل عبقرية

هذا ويلتقي الدكتور مايكل هارت مع العديد من الباحثين في الشرق والغرب في تقويمه عظمة الرسول، ويتحدث المفكر السوري الأستاذ فارس

---

(٣) المصدر السابق، ص ٢٩.

(٤) المصدر السابق، ص ١٧.

الخوري، عن عظمة الرسول وعظمة الرسالة، في خطبة له ألقاها بمناسبة ذكرى عيد المولد النبوي:

«إن محمداً أعظم عظماء العالم، ولم يجد الدهر بعد بمثله والدين الذي جاء به أوفى الأديان وأتمها وأكملها»[٥].

لقد اشتملت شخصية الرسول على شمائل عظيمة وصفات نبيلة ومزايا حميدة، دفعت شاعراً لبنانياً هو الأستاذ رشيد سليم الخوري الملقب بالشاعر القروي إلى نظم القصائد في مدح الرسول الذي أشرقت شمس الهداية على يديه، فكان ذلك الفاتح الفذ الذي حول القفار القاحلة إلى مدنية مشربة بأنوار رسالة الإسلام التي لم تكن للعرب وحدهم بل للإنسانية جمعاء، يقول القروي في محاضرة له عن رسول ﷺ:

«فلا وليم شكسبير، ولا فكتور هوغو، ولا لاون تولستوي، ولا غيرهم من أمثالهم يطولون مهما اشرأبت أعناقهم إلى الدرجة السفلى من تلك المنصة العالية التي يقف عليها محمد بن عبد الله، لأنه الرجل الذي تلتقي أكمل الصفات في قلبه الكبير، وعقله الفريد ورقته المتناهية وروحه المتدفقة بشرف الإحساس وروح العاطفة»[٦].

ويتحدث البحاثة اللبناني لبيب الرياشي في كتابه: نفسية الرسول العربي، عن أثر الرسول عليه حين اطلع على سيرة حياته ودرس رسالته،

---

(٥) فارس الخوري: (نقلاً عن الإسلام والعلم الحديث ص ٦٢).

(٦) رشيد سليم الخوري: (نقلاً عن كتاب محمد عند علماء الغرب بقلم الشيخ خليل ياسين ص ١٢٩ ــ ١٣٠).

فكان أن شعر بالندم لأنه جهل سابقاً عظمة الرسول ونفسيته، وهو الإمام الأعظم، وحسب المرء أن يستنير بهديه ويعمل بسنته حتى يغدو إنساناً آخر، ولو أن العرب اليوم أدركوا الجوهر الحقيقي لسيرة سيد الرسل، لغيروا ما بأنفسهم أولاً وغيروا العالم ثانياً، يقول:

«أما لو أدرك المسلمون سيرة الرسول بجوهرها، وشرع الرسول بسنائه، وحِكَم الرسول بجلالها، وإبداع الضمائر الجديدة التي ابتدعها الرسول بجدتها الوضاءة، وعملوا بما أدركوا لكان المسلمون غير هؤلاء المسلمين، ولكان العالم غير هذا العالم ـ ثم قال ـ أما لو درس عشاق الرسول وعشاق العظماء والحكماء والمبدعين غير العرب، بطهارة وجدان وبراءة سريرة، وتحليل عبقري، حياة الرسول العربي، وسمو الرسول العربي وبراءة سريرته وأعماله وشرعه، لاستكشفوا أعظم شخصية وأقدس رسالة للتاريخ الإنساني، ولقد طالعتُ مئات المجلدات وقرأتُ حياة ألوف العظماء والرسل، ولكن مئات المجلدات وحياة ألوف العظماء والرسل ما فعلت بنفسي وأثرت في دماغي وهذبت وثقفت وأدهشت، مثلما فعلت حياة الرسول العربي العالمي، محمد بن عبد الله»[٧].

مكامن عظمته عليه السلام متعددة الجوانب

ويشير مولانا محمد علي في مقدمة كتابه حياة محمد ورسالته إلى أن لكل أمة وشعب إنسانها الكامل الأمثل، وأن صفات الكمال والعظمة تكمن في الرسول محمد لأنه لم يكن رسول أمته فقط، بل كان للإنسانية كافة. ولقد

(٧) لبيب الرياشي: نفسية الرسول العربي.

جمع في هذا الصدد أقوال عدد من المستشرقين عن مكامن عظمته المتعددة الجوانب، بقوله:

«أنا أومن، شأن كل مسلم. بأنه كان لكل أمة إنسانها الأمثل (سوبرمان)، أو الكوكب الساطع الذي أعطاها النور، والمصلح الذي ألهمها فكرات نبيلة، والرسول الذي رفع من شأنها أخلاقياً. ولكن محمداً ﷺ، هو الرسول الأعظم Par excellence لأنه ليس رسول أمة واحدة بل رسول أمم العالم كافة، ولأنه هو ــ دون غيره من الأنبياء ــ أعلن الإيمان بجميع رسل العالم جزءاً أساسياً من العقيدة التي بشر بها، وبذلك وضع الأساس لسلم سرمدي بين مختلف الأمم. ولأنه «هو أعظم المصلحين جميعاً» (بوزوورث سميث Bosworth Smith) باعتبار أنه أحدث تحولاً نحو الأفضل لم يحدث نظيره لا قبله ولا بعده، ولأنه ــ أخيراً ــ «أوفر الأنبياء والشخصيات الدينية حظاً من النجاح» «الموسوعة البريطانية، تحت مادة: «قرآن»».

إن أحكامنا على الرجال يجب أن تبنى على ما حققوه من أعمال، ولقد أنجز محمد الرسول في مدى عشرين سنة ما عجزت عن إنجازه قرون من جهود المصلحين اليهود والنصارى برغم السلطة الزمنية التي كانت تساندهم. لقد استأصل من بلد كامل تراث أجيال من الوثنية، والخرافة، وسرعة التصديق، والجهل، والبغاء، والقمار، ومعاقرة الخمر، واضطهاد الضعيف، والحرب الضروس، ومئات من الشرور الأخرى. وليس في استطاعة التاريخ أن يدلنا على أي مصلح آخر وفّق إلى إحداث تحول في مثل هذه الروعة والتمام،

وعلى مثل هذا النطاق الواسع خلال فترة في مثل هذا القِصَر. «فلم يكن الإصلاح في أي يوم من الأيام ميؤوساً منه أكثر مما كان» عند ظهور الرسول ــ كما لاحظ ميووير Muir ــ ولم يكن أكثر كمالاً منه عندما التحق بالرفيق الأعلى. وبكلمة أخرى، «كان ذلك ولادة من الظلمة إلى النور» كما يقول كارليل. وحياة في مثل هذه العظمة لا يمكن أن تكون خلواً من كمونيات Potentialities عظيمة، بنسبة مماثلة للمستقبل. إنها لا يمكن أن توحي إلى أيما قلب من القلوب بأنبل الفكرات الدائرة حول خدمة الإنسانية. وإذا كان في سمات خلقه سمة أكبر تميزاً من غيرها فتلك السمة هي حدبه على اليتيم والأرملة، ونصرته للضعيف والمسكين، وحبه للعمل والسعي من أجل إغاثة الملهوف. إنها حياة رجل عاش لله ومات في سبيل الله. «إن يكن قد قدر لإنسان على سطح هذه الأرض أن يجد الله في يوم من الأيام، وإن يكن قد قدر لإنسان أن يقف حياته لخدمة الله بدافع خيِّر وعظيم فليس من ريب في أن نبي بلاد العرب هو ذلك الرجل». (ليبونارد Leonard)»[٨].

ولكن. إن اتفقنا مع الدكتور مايكل هارت ومولانا محمد علي على النظر إلى النبي ﷺ على أنه يأتي في مقدمة عظماء التاريخ. فلا بدّ أن ندرس مواطن عظمة الرسول في المناحي التي تناولتها الدراسات الاستشراقية.

عظمة الرسول ومواهبه المختلفة

هذا، وقد درس الباحث الإنكليزي المستشرق مونتجمري وات،

(٨) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته: ص ٥ ــ ٧.

عظمة الرسول في كتابه: «محمد في المدينة»، انطلاقاً من النجاح الذي حققه على مسرح التاريخ الذي ظهر عليه، والظروف الزمانية والمكانية التي ساعدته، وهيأت المناخ الطبيعي لانتشار الإسلام في جزيرة العرب والتطور اللاحق الذي جعل منه ديناً عالمياً...

ولكن، رغم تركيزه على العوامل الزمانية والمكانية في مرحلتها التاريخية، والتي كانت مقدمة التحولات الكبيرة التي هي ابنة واقعها ومرحلتها، لم يغفل مونتجمري وات، الدور الكبير الذي اضطلع به الرسول ﷺ الذي هو في شخصيته وعظمته مزيج من السجايا الرائعة والمواهب العالية، يقول:

«ولولا هذا المزيج الرائع من الصفات المختلفة الذي نجده عند محمد لكان من غير الممكن أن يتم هذا التوسع، ولاستنفدت تلك القوى الجبارة في غارات على سورية والعراق دون أن تؤدي لنتائج دائمة. ونستطيع أن نميز ثلاث هبات مهمة أوتيها محمد، وكانت كل واحدة منها ضرورية لإتمام عمل محمد بأكمله.

لقد أوتي أولاً موهبة خاصة على رؤية المستقبل. وكان ثانياً رجل دولة حكيماً.. وكان ثالثاً رجل إدارة بارعاً....»[٩].

ويخلص مونتجمري وات إلى القول:

«كلما فكرنا في تاريخ محمد وتاريخ أوائل الإسلام، تملكنا الذهول أمام عظمة مثل هذا العمل. ولا شك أن الظروف كانت مواتية لمحمد فأتاحت له فرصاً للنجاح لم تتحها لسوى القليل من الرجال، غير أن الرجل كان على مستوى الظروف تماماً. فلو لم يكن

---

(٩) مونتجمري وات: محمد في المدينة، ص ٥١٠ ــ ٥١١.

نبياً ورجل دولة وإدارة ولو لم يضع ثقته بالله، ويقتنع بشكل ثابت بأن الله أرسله، لما كتب فصلاً مهماً في تاريخ الإنسانية . ولي أمل أن هذه الدراسة عن حياة محمد يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام، من جديد، برجل هو أعظم رجال «أبناء آدم»[١٠] .

الشخصية الثورية الانقلابية

هذا، وقد جذبت شخصية الرسول الكثير من الباحثين إلى دائرتها فأعجبوا بها عن اقتناع بعظمتها وجاذبيتها، وإيمان بتلك العبقرية الخالدة .. من ذلك ما رآه المؤرخ البريطاني تشارلس أرمان (١٨٨٦ ــ ١٩٤٠) في دراسة له عن الإسلام، أن شخصية الرسول ثورية انقلابية لم تؤثر على المستوى المحلي فحسب بل على المستوى العالمي كذلك، يقول:

«إن شخصية محمد ثورية وانقلابية، تفوق مقدرة الشخص الموهوب العادي، فلم تنتج بلاد العرب قبله ولا بعده فرداً أثر في مجموع تاريخ العالم، ويكون من المضحك حقاً الادعاء أنه نتيجة محتمة لحالة بلاد العرب الفكرية والاقتصادية في القرن السابع بعد المسيح، بل أن مبدأه الذي جاء به هو مبدأ اعتنقته أمم سرعان ما تحققت فكرته في بلاد العرب لأنها نافعة ولم يكن فيها ما يحارب لأجله غيرها من الديانات السابقة»[١١] .

أجل، إن شخصية الرسول ثورية وانقلابية، فهي ثورة في فعلها وآنية مجيئها كحدث تاريخي كوني في مرحلتها كضرورة حتمية لعالم يعج

(١٠) المصدر السابق: ص ٥١٢ .

(١١) تشارلس أرمان (نقلاً عن كتاب محمد عند علماء الغرب ص ١٥٩) .

بالمتناقضات ويتهيأ للتبديل بهدم قيم قديمة بالية وبناء عالم جديد ومجتمع متقدم . . .

لقد جمع الرسول في برديه كفاءات متعددة كنبي ملهم وقائد سياسي فذ ، ومشرع بارز ، ورجل عسكري من الطراز الأول ، كتب الأستاذ فريد وجدي في الموسوعة الفرنسية لاروس :

« ومن أعجب العجيب أن الذي أتى بكل هذه الأعمال يعني (محمداً ﷺ) كان قائداً ، مشرعاً ، قاضياً ، إماماً ، واعظاً ، خطيباً ورب أسرة ، فكانت قيادته أحسن القيادات وكان يخوض الغمرات فيكشفها عن أصحابه . وشرعه أعدل الشرايع للآن . وقضاؤه أقوم الأقضية . وكان وعظه أنفذ وعظ إلى النفوس وخطبته تأسر الألباب ، وكان في أسرته من العدل والرأفة بحيث كان يحلب شاته ، ويعين على عملهن . فإن ضنَّ ضانّ على (محمد بن عبد الله) بالرسالة فليسمح لي أن أقول إنه أرقى من الرسول »[١٢] .

المناضل الفذ

ولقد أوضحت لنا سيرة الرسول ، أي مناضل فذ هو ، والقدر الذي يتحلى به من الشجاعة والقوة مع دماثة الخلق والرقة ، وأية إنجازات استطاع أن يحققها في مرحلة وجيزة ، وقد تحدث أستاذ السامية ومحرر مجلة العالم الشرقي ، المستشرق الأسوجي سينرستن (١٨٦٦) وصاحب كتابي : « القرآن الإنجيل المحمدي » و « تاريخ حياة محمد » فقال في مؤلفه الأخير :

« إننا لم ننصف محمداً إذا أنكرنا ما هو عليه من عظيم

(١٢) محمد فريد وجدي : موسوعة لاروس الفرنسية .

الصفات وحميد المزايا، فلقد خاض محمد معركة الحياة الصحيحة في وجه الجهل والهمجية، مصراً على مبدئه، وما زال يحارب الطغاة حتى انتهى به المطاف إلى النصر المبين، فأصبحت شريعته أكمل الشرائع وهو فوق عظماء التاريخ»(١٣).

العبقرية المتكاملة

إن عبقرية الرسول، في عرف الدارسين عبقرية متفردة متكاملة، فهي تقدم صورة للإنسان الكامل والنبي والداعية ورجل الفكر والسياسة والقائد العسكري، والمصلح الاجتماعي الكبير والرجل المخلص الصادق الأمين، الذي امتلأ رجولة وحيوية...

نابليون السماء

ويتحدث المستشرق الفرنسي جان بروا في كتابه «محمد نابليون السماء» عن تلك العبقرية المتكاملة، التي ثقفت في مدرسة الحياة بقوله:

«وكان محمد نبياً ومشرعاً وسياسياً وملكاً عظيماً وخطيباً مفوهاً وقائداً خطيراً محنكاً، وإن كان لم يدخل جامعة من جامعات الرومان، ولا مدرسة من مدارس فارس، إن محمداً قد كبر اسمه واعتز بربه حتى عرف باسمه وحده دون ذكر أسرته كما عرف نابليون، وإن محمداً لنابليون السماء»(١٤).

النبي الملهم والإنسان

وكانت هذه العبقرية المتكاملة والعظمة السامية، قد اجتمعت إلى

(١٣) سينرستن تاريخ حياة محمد، ص١٨.

(١٤) جان بروا: محمد نابليون السماء (ترجمة محمد صالح البنداق) ص٥٢.

خصال حميدة، لإنسان لم يداخله الغرور البتة، بل ظل ينظر إلى ذاته على أنه واحد من أفراد تلك الأمة. يقول الأستاذ كرادي فو:

«إن محمداً كان هو النبي والملهم والمؤسس، لم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا ... ومع ذلك فلم ينظر إلى نفسه كرجل من عنصر آخر، أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين. إن شعور المساواة والإخاء الذي أسسه بين أعضاء الجمعية الإسلامية، كان يطبق تطبيقاً عملياً حتى على النبي نفسه»(١٥).

المعرفة الواسعة والمقدرة الفذة

وكان لتلك العبقرية المتكاملة التي جمعت التفكير العميق بالعمل الدؤوب وحسن الإدارة والنجاح كداعية يجتذب القلوب أن حقق للدعوة الإسلامية النجاح، يقول المستشرق الإنكليزي صموئيل زويمر (١٨٤٣ ـ ١٩٠٤) في كتابه «يسوع في إحياء الغزالي»:

«إن عبقرية محمد هي السبب في نجاحه واستطارة شأنه، يضاف إلى هذا كله معرفته العظيمة بالديانات في عهده، وقوته في اجتذاب القلوب إليه، ومقدرته في الإدارة والحرب، ولباقته في السياسة الفائقة»(١٦).

نبوغ وذكاء وحسن سياسة

هذا، وقد اتسمت عبقرية الرسول بالنبوغ والذكاء اللذين،

---

(١٥) نقلاً عن هذا هو الإسلام، ص ٨٧.

(١٦) صموئيل زويمر: يسوع في إحياء الغزالي.

امتلكهما، مقرونين بحسن السياسة، فاستطاع في فترة وجيزة أن ينشر الدعوة الإسلامية الخيرة.

يقول المستشرق برتلمي سانت هيليا في كتابه «مع الشرق»:

«كان محمد أزكى العرب في عهده وأكثرهم تقوى وديناً، وأرحبهم صدراً، وأرفقهم بأعدائه وخصوم دينه، وما استقامت إمبراطوريته الخارقة إلا بسبب تفوقه على رجال عصره، وأما الدين الذي راح يدعو إليه فقد كان خيراً عظيماً على الشعوب التي اعتنقته وآمنت به»[١٧].

رجل المثالية والخيال

أما المستشرق والمؤرخ الهولندي راينهارت دوزي (١٨٢٠ـ ١٨٨٤)، فقد سطّر في مؤلفه «مسلمو الأندلس» قائلاً:

«لعل الرسول محمداً كما كان يلقب نفسه ـ لم يكن أسمى من مواطنيه ـ ولكن المؤكد أنه لم يكن يشبههم، كان صاحب خيال، في حين أن العرب مجردون عن الخيال، وكان ذا طبيعة دينية ولم يكن العرب كذلك، وكان محمد يُقبح ما كان عليه قومه من عادات جاهلية كانوا يعكفون عليها، وكان على جانبٍ مثالي من التواضع للناس والإيمان بربه. وهذه من عوامل تقدم رسالته»[١٨].

نبي العالم والإنسان الكامل

ومن دلائل عظمة الرسول، كماله في عبقريته وصفاته، وبكمال

---

(١٧) برتلمي سانت هليليار: مع الشرق.

(١٨) راينهارت دوزي: مسلمو الأندلس.

الرسالة التي حملها للعالم أجمع يقول المستشرق الألماني الكبير، تيودور نولدكه (١٨٣٦ ــ ١٩٢٠) في كتابه: «تاريخ القرآن»:

«نزل القرآن على محمد نبي المسلمين بل نبي العالم، جاء بدين إلى العالم عظيم، وبشريعة كلها آداب وتعاليم، وحري بنا أن ننصف محمداً في الحديث عنه لأننا لم نقرأ عنه إلا كل صفات الكمال فكان جديراً بالتكريم»[١٩].

محمد القدوة والرمز

إن حياة الرسول في مواقفه الحاسمة وسلوكه العام، قد جعلت منه القدوة والرمز.. فهو رمز للحكم العادل والسياسة الدينية الصحيحة، وصاحب المنهج الاجتماعي السديد، يقول عنه الفيلسوف الإنكليزي هربرت سبنسر (١٨٢٠ ــ ١٩٣٠) في كتابه: «أصول الاجتماع»:

«فدونكم محمداً، إنه رمز للسياسة الدينية الصحيحة، وأصدق من نَهَجَ منهاجها المقدس في البشرية كافة، ولم يكن محمد إلا مثالاً للأمانة المجسمة والصدق البريء وما زال يدأب لحياة أمته ليله نهاره»[٢٠].

رسول الإنسانية الجديدة

أن يكون الإنسان القدوة والرمز، معناه أن يبلغ مرحلة الكمال، عميق الأثر في وجدان الأفراد والجماعات، يؤلف بين القلوب، ويوحد الإرادات،

---

(١٩) تيودور نولدكه: تاريخ القرآن، ص ٨٣.

(٢٠) هربرت سبنسر: أصول الاجتماع، ص ٣٧.

وأن يحترمه الغريب قبل القريب، والمسيحي قبل المسلم.. يقول الكاتب اللبناني لبيب رياشي في مؤلفه «نفسية الرسول العربي»:

«حقاً يا محمد إنك الشاعر الأعظم، حقاً إنك السوبرمان الأول العالمي، رسول الثقافة والعلم، رسول الهداية والتضحية، رسول الفلسفة الجديدة، رسول الإنسانية الجديدة»[٢١].

ويظل محمد القدوة والرمز، ليس في عهده فحسب، بل حتى عهدنا هذا وإلى يوم يبعثون.. فحري بنا كعرب ومسلمين أن نحتذي حذوه، يقول المفكر السوري الأستاذ ميشيل عفلق في كتابه: «في سبيل البعث»:

«حتى الآن كان ينظر إلى حياة الرسول محمد من الخارج، كصورة رائعة وجدت لنعجب بها ونقدسها، فعلينا أن نبدأ بالنظر إليها من الداخل، لنحياها، كل عربي في الوقت الحاضر يستطيع أن يحيا حياة الرسول العربي، ولو بنسبة الحصاة إلى الجبل والقطرة إلى البحر، طبيعي أن يعجز أي رجل مهما بلغت عظمته أن يعمل ما عمل محمد، ولكن من الطبيعي أن يستطيع أي رجل مهما ضاقت قدرته أن يكون مصغراً ضئيلاً لمحمد، ما دام ينتسب إلى الأمة التي حشدت كل قواها فأنجبت محمداً، أو بالأحرى ما دام هذا الرجل فرداً من أفراد الأمة التي حشد محمد كل قواه فأنجبها، في وقت مضى تلخصت في رجل واحد كل حياة هذه الأمة في نهضتها الجديدة تفصيلاً لحياة رجلها العظيم، كان محمد كل العرب، فليكن كل العرب اليوم محمداً»[٢٢].

---

(٢١) لبيب رياشي: نفسية الرسول العربي.

(٢٢) ميشيل عفلق: في سبيل البعث، ص ٣٥.

مؤسس سياسة غيرت مجرى التاريخ

لقد نظر منصفو المستشرقين إلى الرسول ليس كنبي عمل في إطار الجزيرة العربية فحسب، بل كواضع أسس سياسة عالمية أثرت على المسيرة التاريخية كذلك، يقول الكاتب الفرنسي المعاصر، المستشرق مارسيل بوازار في مؤلفه: «إنسانية الإسلام»:

«ولم يكن محمد على الصعيد التاريخي مبشراً بدين وحسب، بل كان كذلك مؤسس سياسة غيّرت مجرى التاريخ، وأثرت في تطور انتشار الإسلام فيما بعد على أوسع نطاق»(٢٣).

عظيم في دينه عظيم في مناقبه

أما المستشرق الفرنسي ساديو لوي (١٨٠٧ ــ ١٨٧٥) فيتحدث عن عظمة الرسول لا لكونه صاحب رسالة عالمية فقط، ورجلاً عسكرياً فاتحاً للعرب والعالم وحسب بل عن عظمته في دينه ومناقبه وحاجة الإنسانية لرجل مثله، يقول:

«لم يكن محمد نبي العرب بالرجل الفاتح للعرب فحسب بل للعالم لو أنصفه الناس، لأنه لم يأت بدين خاص بالعرب، وإن تعاليمه الجديرة بالتقدير والإعجاب تدل على أنه عظيم في دينه، عظيم في صفاته، وما أحوجنا إلى رجال للعالم أمثال محمد نبي المسلمين»(٢٤).

أمـــا المفكـــر الإنكليـــزي المستشرق بوسورث اسمث

---

(٢٣) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص ٤٢.

(٢٤) ساديو لوي: تاريخ العرب، ص ٣٧.

(١٨١٥ ــ ١٨٩٢) فقد خاطب العقل الأوروبي ، ورأى أن من الإنصاف أن ينظر إلى رسول الإسلام بمحبة واحترام ، لأنه من جهة بشّر برسالة عظيمة تحمل الخير للبشرية جمعاء ، ولكونه من جهة ثانية عظيماً في كفاءاته العالية ، وسجاياه الكريمة ، وأنّ الغرب المسيحي لا بدّ أن يقدره مستقبلاً حق التقدير ، يقول :

« إذا قدّرنا تاريخ الإسلام فنظرنا إليه من نافذة الإنصاف فإنما نقدر صاحبه الذي أسسه ووضع حجره الأساسي ، وهو ــ محمد ــ الذي لا نستطيع أن نقول في حقه إلا أنه رجل عظيم بعقله وعمله وأخلاقه وبلاغته وتدينه ، وسيحمل له المنصفون من النصارى وغيرهم الإخلاص متى عرفوه في المستقبل »[٢٥] .

لقد كانت عبقرية الرسول متعددة المزايا ، ونحن إذا تطرقنا في هذا البحث إلى مجال عظمته ومكانته التاريخية ، فلا بدّ لنا أن نستجلي معالم شخصيته القيادية ــ في مباحثنا التالية ــ دينياً وفكرياً وإدارياً وعسكرياً ..

وأخيراً ، فإن معيار عظمة الأنبياء والقادة والمصلحين يظهر في مدى الإنجازات التي حققوها على الصعيدين المحلي والعالمي ، وتظل إنجازاتهم مستمرة راسخة باسقة ، يقول غوستاف لوبون :

« إذا كانت قيمة الرجال تقدر بعظمة أعمالهم فمن المستطاع القول : إن محمداً كان من أعظم الشخصيات التي عرفها التاريخ »[٢٦] .

---

(٢٥) بوسورث اسمث : محمد والإسلام ، ص ٣٤٦ .

(٢٦) غوستاف لوبون (نقلاً عن كتاب إتيين دينيه محمد رسول الله ، ص ٣٢٥) .

أمّا الباحث الفرنسي المستشرق ديزريه بلانشيه فقد وجد في شخص النبي ﷺ مزيجاً نادراً من الكفاءات إذ حقق إنجازات عظيمة ما زالت راسخة ثابتة تقوم دليلاً قاطعاً على عظمته، يقول:

«إن النبي محمداً يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ، فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة، وهي أنه أحيا شعباً، وأنشأ امبراطوريةً، وأسس ديناً»[٢٧].

---

(٢٧) ديزريه بلانشيه: دراسات في التاريخ الديني (نقلاً عن كتاب هذا هو الإسلام ص٨٨).

الفصل الثاني





لقد كانت الهجرة إلى المدينة، مرحلة تاريخية هامة في حياة المسلمين وفي حياة رسول الإسلام، فمع قيام الدولة الإسلامية الأولى في المدينة نجمت أمام الرسول قضايا هامة فأبرزته قائداً دينياً وسياسياً وعسكرياً.. وهنا سنعالج موضوع القيادة الدينية، كصاحب دعوة ورسالة...

الرسول ﷺ وميوله الفطرية لديانة التوحيد

لقد عرفنا من دراستنا سيرة الرسول ﷺ، أنه كان لا يدين بدين قبيلته، وينأى بجانبه عن عبادة الأوثان، ولقد قاده تفكيره إلى اعتناق مبدأ الحنيفية ــ دين إبراهيم عليه السلام ــ تبعاً لميله الفطري للدين، واقترابه من معرفة الحقيقة الأزلية بوحدانية الله.

الرسول والروح الكفاحية في نشر الإسلام

حين صدع الرسول ﷺ بالرسالة، كان ذلك المناضل العنيد في سبيل نشر الدعوة الإسلامية، تحفزه تلك الروح الكفاحية العالية، في جوّ معادٍ كل العداء، لكن إيمانه بصدق نبوته وصلابة إرادته، وقوة شخصيته مكنته جميعاً من أن يكسب القلوب ويؤلف بينها فظهرت تلك المجموعة الإسلامية المناضلة، التي اقتفت نهجه حتى النهاية، فهاجرت من مكة إلى

المدينة، ومن ثم توحدت مع الأنصار في جبهة نضالية، مكنت الرسول ﷺ أخيراً من أن يبسط شرعة الإسلام التوحيدية، ويلغي عبادة الأصنام الوثنية.. يقول المفكر واشنطن ارفنج في محاضرة له ألقاها في حفلة ميلاد الرسول عام ١٩٣٦:

«لم يكن محمد محباً للدنيا قط، وقد لقي من الاستهزاء من قومه والإهانات، حتى اضطر إلى الهرب، وكانت له آراء عالية، واعتقاد حسن بربه، ويقين بشريعته فوق كل يقين، أي رسول من الرسل هو؟ ويدلنا على ذلك قوله: «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته»[١].

لقد كانت الروح النضالية، التي كافح الرسول بها بصلابة إرادة، وعزم لا يلين مثار إعجاب الباحثين من الشرق والغرب، لدرجة لم يقدر معها المفكر الفرنسي الكبير فرانسوا فولتير، رغم علمانيته، أن يكتم إعجابه بتلك الشخصية الفذة للمناضل والداعية الديني في شخص الرسول، فيقول:

«إن في نفس محمد لشيئاً عجيباً طريفاً رائعاً يحمل الإنسان على الإعجاب والتقدير، ولعمري إن الرجل وقف وحده يدعو إلى الله، ويتحمل الأذى في سبيل هذه الدعوة سنوات عديدة، وأمامه الجموع المشركة، تعمل جهدها لمعاكسته وقتل فكرته، إنه إذاً يستحق كل تقدير وتمجيد»[٢].

الطبيعة الدينية للرسول

لقد كان الرسول ﷺ أحد أبرز رجالات التاريخ من حيث الثبات على

---

(١) واشنطن ارفنج: نقلاً عن مجلة الرفيق المجلد الثالث العدد الرابع.

(٢) ف. فولتير: محمد.

المبدأ، والإخلاص في تطبيق العقيدة، وكل ذلك نابع من طبيعته الدينية وصلابة شخصيته، يقول الباحث الفرنسي المستشرق إدوار مونتيه في مؤلفه: «محمد والقرآن»:

«إن طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه المقصد، بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص، فقد كان محمد مصلحاً دينياً ذا عقيدة راسخة، ولم يقم إلا بعد أن تأمل كثيراً، وبلغ سن الكمال بهاتيك الدعوة العظيمة، التي جعلته من أسطع أنوار الإنسانية في الدين، وهو في قتاله الشرك والعادات القبيحة التي كانت عند أبناء زمنه، كان في بلاد العرب أشبه بنبي من أنبياء بني إسرائيل الذين نراهم كباراً جداً في تاريخ قومهم، ولقد جهل كثير من الناس محمداً وبخسوه حقه، ذلك لأنه من المصلحين النادرين، الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقائقها»[٣].

يؤكد هذا الباحث فكرته تلك، بوصف رسول الله ﷺ، بأنه نبي من الأنبياء يماثل في جزيرة العرب أنبياء التوراة لدى العبرانيين القدماء، كما يتطرق إلى نضاله لإخراج أمته من ضلال الوثنية والأخلاق المنحطة إلى معارج الوحدانية والصلاح، بتلك الحمية الدينية العظيمة، يقول:

«كان محمد نبياً بالمعنى الذي كان يعرفه العبرانيون القدماء، ولقد كان يدافع عن عقيدة خالصة لا صلة لها بالوثنية، وأخذ يسعى لانتشال قومه من ديانة جافة لا اعتبار لها بالمرة ليخرجهم من حالة

---

(٣) ادوار مونتيه: محمد والقرآن.

الأخلاق المنحطة كل الانحطاط، ولا يمكن أن يشك لا في إخلاصه ولا في الحمية الدينية التي كان قلبه مفعماً بها»[٤].

الهدم والبناء

كانت رسالة الإسلام، التي دعا إليها النبي ﷺ رسالة بناء، لكنه لم يشد بناءه على أسس المجتمع القديم، وإنما على أسس جديدة، ولا سبيل إلى تحقيق غاياته السامية هذه إلا بهدم أسس المجتمع القديم المبني على الوثنية، ليشيد صرح الإسلام. فلا بناء دون هدم، ولا فكر جديد دون معارضة القديم.

الإسلام جاء متمماً للرسالات السابقة

لقد جاءت رسالة الإسلام التي حملها الرسول وبشر بها في جزيرة العرب، لتتم لا لتنقض، فقد صرح الرسول مراراً بأن الرسالة الإسلامية هي متممة لما سبقها من رسالات سماوية وكذلك خاتمتها، كما أنه خاتم المرسلين. يقول الدكتور وغسطون كريستا الإيطالي في كتابه: «الكياسة الاجتماعية»:

«كان محمد يعلن أنه رسول الله تعالى، لإصلاح دين إبراهيم المطهر الذي أفسده أبناؤه، وأقام العبادة القويمة التي أنشأها ذلك النبي، ثم فسدت على مر الزمن، وليؤيد وهو ــ خاتمة الرسل ــ ما كان الله أنزله على من سلفه من الأنبياء: موسى وداود وأشعيا وعيسى.

---

(٤) ادوار مونتيه: المصدر السابق (نقلاً عن كتاب عقيدة المؤمن، ص ٢٤).

إن هذه الجدران العالية، لدليل على قوةٍ عظيمةٍ لمحمد، مثال القيادة ورمز السياسة»[٥].

الإصلاح الديني من الوثنية إلى الوحدانية

غير أن النقطة الهامة التي يقف عندها معظم الباحثين هي دور الرسول ﷺ في تحقيق نقلة نوعية من تاريخ العرب والشعوب التي دخلت فيما بعد الحظيرة الإسلامية، هي في نقلها من الوثنية إلى الوحدانية...

وإذا كان الرسول يحمل في نضاله ورسالته برنامجاً ثورياً إصلاحياً للمجتمع، أبرزه كمصلح، فإن إصلاحه هذا قد امتد حتى شمل جوانب الحياة جميعاً: دينياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً، فقام بتنظيم المجتمع على قاعدة المساواة والعدل وفي ظل الحرية الفكرية والدينية والسماحة بين الشعوب، كل ذلك في إطار أخوة إسلامية عريقة بإنسانيتها كريمة بِمُثُلها.

الإصلاح الديني انطلاقاً من أن الإسلام دين ودولة

وهنا لا بد أن نقف عند حدود جانب الإصلاح الديني، بما يحمله الإسلام كدين وعقيدة، من فعالية للتغيير إلى الأفضل والأسمى.. فعملياً كانت تلك النقلة الثورية العظيمة في مضامينها بانتقال مجتمع الجزيرة العربية من الشرك إلى الإيمان، في مجتمع الأخوة الإسلامية، يقول الكاتب الروسي ليون تولستوي في كتابه: «الإنسان والحياة»:

«إن محمداً نبي الإسلام الذي آمن به الآن أكثر من مئتي

(٥) د. وغسطون كريستا: الكياسة الاجتماعية (نقلاً عن كتاب محمد عند علماء الغرب ص١١٤).

مليون نفس، قد قام بعمل جليل، فإنه هدى الوثنيين الذين قضوا حياتهم بالحروب الأهلية وسفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية إلى معرفة الإله الواحد، وأنار أبصارهم بنور الإيمان، وأعلن أن جميع الناس متساوون أمام الله سبحانه، والحق الذي لا مراء فيه، أن محمداً قام بعمل عظيم وانقلاب كبير في العالم»[٦].

الوحدانية جوهر الإسلام

بينما يرى المفكر ميسمر أن الدور العظيم الذي اضطلع به الرسول ﷺ، هو إسقاط الضلالات التي كان العرب يؤمنون بها إلى اقتراب من الحقائق الأزلية، فكان أن انتصر جوهر الدين الإسلامي الذي هو الوحدانية، يقول ميسمر:

«وعند الفلاسفة المحققين أن الرجال أولي العظمة الذين تبقى أعمالهم على مدى الدهر، هم من أهل النباهة الكبرى الذين يجيئون لإصلاح العالم، وشفاء عصرهم من مرضه، وما فعله محمد هو أنه لما رأى ضلال الناس في معرفة الخليقة، عزم على إرشادها، وتطبيق قوانين الطبيعة على أمور العالم، بقدر ما كان معروفاً في ذلك الوقت، لذلك أعلن الوحدة الإلّهية، بدلاً من الخرافات التي مقتضاها تثليث إلّه، وجعله مركباً من الأب والأبن وروح القدس، فالوحدانية هي أساس دين الإسلام وسبب نصرة محمد»[٧].

من الوثنية الصماء إلى الوحدانية المتنورة

أما المفكر الإيرلندي الكبير برنارد شو، فقد أكبر عظمة الرسول

(٦) ليون تولستوي: الإنسان والحياة (المصدر السابق ص١٢٣).
(٧) ميسمر: الإسلام في الشرق (المصدر السابق ص١٣٧).

الدينية، في تلك النقلة الجبارة التي حققها طفرة من الوثنية الصماء إلى الوحدانية المتنورة، فكتب يقول:

«قطع محمد بعد المسيح بستمائة عام خطوةً إلى الأمام ضخمة هائلة من الوثنية الصماء الموات إلى وحدانية متنورة، بيد أنه وإن مات فاتحاً، وتخلص بذلك من أن يكون رئيساً لغرفة تعذيب عربية، وجد من المستحيل أن يشد قومه العرب إلى عقيدته الإلّهية دون ترغيبهم وتهذيبهم بوعود في النعيم للمؤمنين، ووعيد في العذاب الأليم للأشقياء الجاحدين، بعد انفصال أرواحهم عن أبدانهم، كما أنه رضي أيضاً، ولكن بعد عديد الاحتجاجات الصادقة المخلصة، بالصفات الخارقة، التي الصقتها به عقلية أتباعه الخرافية الصبيانية، وهكذا فإنه يحتاج اليوم أيضاً إلى إعادة استكشافه من جديد، والتعرف إلى طبيعته الحقيقة قبل أن يعود الإسلام كإيمان حي»[٨].

الرسول الشخصية الدينية الأوفر نجاحاً

وإذا كان التاريخ الإنساني يؤكد على أنّ المجتمعات البشرية، قد عرفت منذ نشوئها الكثير من المصلحين الدينيين والأنبياء المرسلين، فإن الإنجاز العظيم الذي حققه الرسول محمد ﷺ، لم يبلغه أيّ من أولئك السابقين من الأنبياء أو اللاحقين ــ من المصلحين ــ، وهذا ما أثار دهشة الحركة الاستشراقية، بمختلف اتجاهاتها، وقد جاء في الموسوعة البريطانية الطبعة الحادية عشرة، تحت مادة «القرآن» ما يؤكد هذه الحقيقة، ويقدم الدليل على النجاح المذهل الذي حققه في مجتمعه، بقولها:

---

(٨) برناردشو: الزنجية تبحث عن الله ص٢١٣.

«كان محمد بين شخصيات العالم الدينية جميعاً، أوفرهم حظاً من النجاح»[٩].

إن ثورية الحركة الإصلاحية التي حققها الرسول تتبدّى بالدرجة الأولى في محيطه العربي، ومن ثم انتشرت إلى الدائرة الأوسع في المحيط الإسلامي العالمي..

لقد صهر الرسول ﷺ أمته المشرذمة إلى قبائل متناحرة في أمة إسلامية، بقيت ثابتة على مدار التاريخ، مقاومة أسباب الفناء، ويتحدث الكاتب الفرنسي الكبير غوستاف لوبون عن النجاح العظيم الذي حققه الرسول، بقوله:

«فمما لا ريب فيه أن محمداً أصاب في بلاد العرب نتائجَ لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام ومنها اليهودية والنصرانية ولذلك لا ترى حداً لفضل محمد على العرب»[١٠].

الإصلاح الإسلامي وخير الدنيا والآخرة

ويتحدث الدكتور نجيب أرمنازي (١٨١٩ــ١٨٨٧) في كتابه: «الشرع الدولي في الإسلام» عن ذلك الحدث الديني العظيم بقوله:

«كان العرب لما بعث محمد فيهم على الفطرة البيضاء النقية، لم يكدرها مكدر، ولم يعبث برونقها عابث، تتطلع إلى أمر عظيم، وخطب جسيم، قد استكنت من المواهب الشريفة والقوى الكامنة،

---

(٩) الموسوعة البريطانية، مادة قرآن (نقلاً عن كتاب حياة محمد ورسالته لمولانا محمد علي، ص٢٧٨ ــ ٢٧٩).

(١٠) غوستاف لوبون (نقلاً عن روح الدين الإسلامي ص ٤٤٠).

والعزائم الشديدة ما يسمو كالنار إلى إشاعة ذكره، وتعرف خبره، واستفاضت فيها روح الحياة، وشاع في الناس نبأ حادث ديني كبير، يكون عنوان تاريخ جليل ـ «فقد ظهر الإسلام في عنفوان تلك البعثة، وأصاب بدعوته شاكلة القلوب، ودانت له العرب، فأصلح بينهم وجمع كلمتهم، وحينئذ نفروا من البادية، وانتشروا في أقطار الأرض، تنقاد لهم أعنة الأمم انقياداً يشابه المعجزات، ولما أظهر محمد دعوته قال لعشيرته الأقربين: «ما أعلم أن إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة»[11].

الإصلاح الديني والمبدأ الراسخ

أما المستشرق البريطاني جون ديفولبوت (١٨٣٢ ـ ١٩٠٢) فيتحدث عن الإصلاحات الدينية والاجتماعية الخالدة في جزيرة العرب، والمبدأ الراسخ الذي ما زالت الإنسانية تعمل به، يقول:

«هل بالإمكان إنكار فضل محمد نبي العرب الذي قام بإصلاحات غريبة وعظيمة فكانت خالدة لبلاده، فقد جعل أهلها يعبدون الله ويهجرون عبادة الأصنام (وهو الذي منع وأد البنات وحرم شرب الخمر ولعب الميسر)، وترك لأمته مبدءاً لا يزال، وعليه يعمل الملايين من الناس»[12].

ويتحدث الكاتب الإسلامي مولانا محمد علي في بحثه عن صفات

(١١) نجيب أرمنازي: الشرع الدولي في الإسلام ص٥٦.

(١٢) جون ديفولبوت: العجائب (نقلاً عن كتاب محمد عند علماء الغرب ص١٨٥).

الرسول المميزة كمصلح، وعن عظم ما قام به ﷺ في تحويل ذلك المجتمع الغارق في الجهالة، وضروب الفساد الديني والأخلاقي والاجتماعي، بقوله:

«والواقع أن أيما مصلح لم يجد قطّ شعبه غارقاً في الدرك الأسفل من الجهالة بقدر ما كان العرب غارقين عند ظهور الرسول. كانوا يجهلون المبادىء الحقّة في الدين والسياسة والحياة الاجتماعية على حد سواء. ولم يكن لديهم فنّ عظيم أو علم وافر يتباهون بهما، لا ولم يكن لهم أيّ اتصال بسائر أجزاء العالم. وكان التماسك القومي شيئاً مجهولاً لديهم، إذ كانت كل قبيلة من قبائلهم تشكل وحدة مستقلة بينها وبين زميلاتها ما صنع الحداد. وكانت اليهودية قد بذلت قصارى جهدها لإصلاحهم، ولكن على غير طائل. وكانت النصرانية أيضاً قد أخفقت في محاولات مماثلة. كذلك فشلت حركة الأحناف، التي نشأت على نحو واهن، كفشل الحركتين السابقتين، وتلاشت من غير أن تخلّف أيما أثر في المجتمع العربي. وإنما بُعث الرسول الكريم لانتشال شعب كهذا الشعب الضائع من وهدة الجهالة. فما هي غير سنوات معدودات حتى محا جميع ضروب الفساد الديني والأخلاقي والاجتماعي الراسخة الأصول في بلاد العرب، وحتى خلق تربة تلك الديار —إذا جاز التعبير— خلقاً آخر. لقد حل أصفى شكل من أشكال الوحدانية محل صنوف الخرافات وأشكال الوثنية المنحطة. فإذا بأبناء الصحراء نصف البرابرة أنفسهم يفعمون بحميّة جديدة لقضية الحق إفعاماً حملهم إلى أقاصي العالم ليؤدوا رسالة الله. وفي ما يتصل بعبادة الخالق، بزّوا أعظم الزهاد والنساك، من غير أن يرفضوا العالم أو يتخلوا عنه. فما إن يطرق الأذان مسامعهم في غمرة من حياتهم اليومية الناشطة، حتى يطرحوا همومهم الدنيوية ويسجدوا

خاشعين للرب. وكانوا ينفقون معظم لياليهم في عبادة الله. وهكذا فقد كانوا، برغم وجودهم في هذا العالم، منفصلين عن هذا العالم. وبالتالي فإن صلواتهم كان يلازمها دائماً إيمان حيّ لم يعرفه أيما ناسك معتزل في صومعته البتة»[١٣].

صلاحية الإسلام لكل الأمم

وانطلاقاً مما حققه الإسلام من إصلاح في المجتمع العربي في تلك النقلة التاريخية الرائعة، يرى المستشرق الإيطالي ميخائيل إيماري في كتابه «تاريخ المسلمين» أن الإسلام بفضل كماله صالح لكل الأمم:

«لقد جاء محمد نبي المسلمين بدين إلى جزيرة العرب يصلح أن يكون ديناً لكل الأمم لأنه دين كمال ورقي، دين دعة وثقافة، دين رعاية وعناية، ولا يسعنا أن ننقصه، وحسب محمد ثناءً عليه أنه لم يساوم ولم يقبل المساومة لحظة واحدة في موضوع رسالته»[١٤].

عالمية الرسالة الإسلامية

إن الرسالة التي حملها النبي محمد، لم تكن مطلقاً لشعب بذاته دون غيره، أو لجنس دون سواه، بل كانت رسالة عالمية،.. والرسول الكريم الذي بعثه الله كمصلح، ما انفكّ يناضل في الجزيرة العربية، حتى عمّ فضل الرسالة التي حملها فشمل الإنسانية جمعاء، وهذا ما ميزه عن سائر أصحاب الرسالات السابقة، يقول مولانا محمد علي:

«والنقطة الثانية التي تميز محمداً من سائر المصلحين الروحيين

---

(١٣) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص ٢٧٩.

(١٤) ميخائيل إيماري: تاريخ المسلمين.

العظام وأنبياء العالم تتصل بعالمية رسالته. فقد كانت رسالة كل من أولئك الأنبياء مقصورة على شعب بعينه. فقد حمل كل نبي رسالة النور والهداية إلى أمة مخصوصة أو بلد مخصوص. وليس من ريب في أن تطهير النفس البشرية كانت هي رسالة كل منهم، ولكن هذه الرسالة كانت محدودة دائماً. أما رسالة محمد فكانت كونية، ونوره كان عالمياً، ونطاق مشاركته الوجدانية كان يستغرق البشرية كلها. قال تعالى: ﴿وما أَرْسَلْناكَ إلاَّ رَحْمَةً للعالمين﴾ (١٠٧/٢١) وقال: ﴿وما أَرْسَلْناكَ إلاَّ كافَّةً للناسِ بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (٢٨/٣٤) وقال: ﴿تَبارَكَ الذي نَزّل الفُرقانَ عَلى عبدِهِ لِيكونَ للعالَمين نذيراً﴾ (١/٢٥) وقال: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ (١٥٨/٧)، والواقع أن هذه الآيات لا تعدو أن تكون قلاً من كثر نصّ فيها القرآن الكريم على أنّ الرسول قد بعث للنهوض بالجنس البشري كله. وفوق هذا، فإن القرآن الكريم يتحدث عن نفسه فيقول: ﴿وما تسألهم عليه مِنْ أجرٍ، إن هو إلاّ ذكرٌ للعالمين﴾ (١٠٤/١٢).

لقد أتى على الإنسانية حين من الدهر كانت مجزأة فيه إلى عدة «مقصورات» كتيمة، إذا جاز التعبير. كانت كل أمة منكمشة على نفسها ضمن تخوم وطنها، منعزلة كل الانعزال عن سائر الأمم. كانت وسائل المواصلات محدودة. وطبيعي أن لا يتوقع المرء في مثل هذه الأحوال اتساعاً في العقلية كبيراً. فقد كان استشراف كل أمة مقصوراً على بيئتها المباشرة، فهي تحسب نفسها الكل في الكل. وهكذا لم يكن في مستطاع الحكمة الإلّهية إلا أن

تبعث إلى كل أمة بنبيّ مستقل كيّفت رسالته وفق حاجاتها وأحوالها الخاصة. ولقد أدى هؤلاء الأنبياء المختلفون مهمتهم المخصوصة: أعني إحياء أمة بعينها. ولكنّ طاقتهم الروحية كانت، مثل حقل رسالتهم، محدودة النطاق. فكانت الشعلة تتوهج فترة من الزمان ثم تخبو شيئاً بعد شيء، حتى انطفأت آخر الأمر انطفاءً كاملاً. وعندئذ كانت الحاجة تنشأ إلى مصلح روحي ينير العصر المظلم. ومن ثم إلى بعثة نبوية إثر بعثة نبوية. ولكن بينا حققت العناية الإلٓهية مصلحة الإنسان الروحية، باختيارها الرسل حيناً بعد حين من بين مختلف الأمم، أدّى ذلك إلى نشوء انطباعة شديدة الأذى، فقد شرعت كل أمة، لجهلها بما أغدق الله على الأمم الأخرى من أفضال مماثلة، تعتقد أنها هي شعب الله المختار. وهذا ما غذّى الفكرة الضارة القائلة بالمحاباة الإلٓهية، وما رافق ذلك من شرور ملازمة. ولتقويم هذا الشعور بالتمييز العنصري، وإزالة الأحقاد التي خلقتها التخوم الجغرافية والاجتماعية وبعض الحواجز المصطنعة، ولصهر الإنسانية في كل واحد متراص، شاءت الحكمة الإلٓهية أن تبعث نبياً عالمياً ذا رسالة إلى الجنس البشري كله، نبياً لا تتخطى قوته الروحية كل تخم فحسب، بل تحتفظ فوق ذلك بفعاليتها إلى آخر الدهر أيضاً. وهكذا ما إن تمّت سلسلة الأنبياء الملّيين بظهور حلقتها الأخيرة، يسوع، الذي أرسل ـــ ونحن نستعمل هنا كلماته نفسها ـــ «إلى خراف الإسرائيليين الضالة» حتى آن الأوان لأن تشرق شمس الروحانية على الأفق الديني لتضيء العالم كله. وهكذا ظهر الرسول الذي كان «رحمةً للعالمين»، وحرّر الإنسانية من أصفاد الجهل والخرافة والفساد. وإنما كان الأنبياء السابقون أشبه

بمصابيح إلَهية كثيرة ذات ضياء يكفي هذه الحجرة أو تلك، ومن هنا مست الحاجة إلى مصابيح مختلفة تطابق مختلف المناطق الجغرافية والقومية. لقد سفحت نورها حولها، فإذا بكل ما هو واقع ضمن نطاقها مشرق، متألق. ولكن ما إن بزغت الشمس من رمال بلاد العرب حتى أمست البشرية في غير حاجة إلى تلك المصابيح. ولكن ضياء الشمس لا يمكن أن يحل محلّه أيما ضياء آخر، وهو كاف لإنارة العالم إلى يوم يبعثون»(١٥).

إنسان فوق البشر ونبي من أنبياء الله

إن الروح الكفاحية للرسول ﷺ، ونضاله الدؤوب في نشر الدعوة الإسلامية جعلته رغم بساطته المتناهية في سيرته وسلوكه وأخلاقه ومناقبه، إنساناً خارق المقدرة فوق مستوى البشر،.. لقد تناول المستشرق الفرنسي مارسيل بوازار هذه القضية، حين بحث إقامة الدولة الإسلامية الأولى بمجتمعها الجنيني في المدينة، وكيف تمكن من انتزاع اعتراف خصومه بالجماعة الإسلامية عن طريق المعاهدات، وكيف حقق النصر كنبي ملهم ورجل عسكري فذ، فيقول:

«وإذا تذكرنا أخيراً على الصعيد النفساني هشاشة السلطان الذي كان يتمتع به زعيم من زعماء العرب، والفضائل التي كان أفراد المجتمع يطالبونه بالتحلي بها، استطعنا أن نستخلص أنه لا بد أن يكون محمد الذي عرف كيف ينتزع رضا أوسع الجماهير به إنساناً

(١٥) مولانا محمد علي، ص ٢٨٠ ــ ٢٨٢.

فوق مستوى البشر حقاً، وأنه لا بد أن يكون نبياً حقيقياً من أنبياء الله»[16].

الرسول والحرية الدينية

إن دراسة الرسول مشرعاً وقائداً دينياً لا بدّ أن تقودنا إلى مناقشة الحرية الدينية،.. فالإسلام كفل الحرية الفكرية والدينية، لأصحاب الديانات السماوية الأخرى.. انطلاقاً من فحوى الآية الكريمة: ﴿لا إكراه في الدين﴾، وإن الشريعة الإسلامية قد طبقت دونما فرض على خلاف من يزعم أن الإسلام قام بحد السيف...

أجل، لقد خاض الرسول حروباً عسكرية عديدة، ولكن كان في جميعها مدافعاً، ولم يلجأ إلى السيف إلاّ حين فرض عليه.. ومن ثم دخل المسلمون في دين الله أفواجاً دونما فرض أو إكراه، وعن هذه النقطة يتحدث المستشرق الهولندي راينهارت دوزي (١٨٢٠ ــ ١٨٨٤)، في مقدمة كتابه: «ملحق وتكملة القواميس العربية»:

«إن ظاهرة دين محمد تبدو لأول وهلة لغزاً غريباً لا سيما متى علمنا أن هذا الدين الجديد لم يفرض فرضاً على أحد»[17].

الحرية الدينية والإخاء

لقد أثارت مبادىء الحرية الدينية في الإسلام فيما أثارته احترام المستشرقين المنصفين وكذلك الباحثين العرب المسيحيين الذين قدروا الأخوة المسيحية الإسلامية حق قدرها، ويتطرق الأستاذ يوسف نعيم عرافة في خطبة

(١٦) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص٤٦.

(١٧) راينهارت دوزي: في مقدمة ملحق وتكملة القواميس العربية.

له في عيد المولد النبوي عام ١٣٤٦هـ ١٩٢٧م إلى معاهدة الرسول مع أصحاب الديانات الأخرى، لا سيما المسيحيين منهم، فيقول:

«إن محمداً هو باني أساس المحبة والإخاء بيننا، فقد كان يحب المسيحيين ويحميهم، من ذلك ما قام به في السنة السادسة بعد الهجرة، حيث عاهد الرهبان خاصةً والمسيحيين عامةً، على أن يدفع عنهم الأذى، ويحمي كنائسهم وعلى أن لا يتعدى على أحد من أساقفتهم ولا يجبر أحداً على ترك دينه، وأن يمدوا بالمساعدة لإصلاح دينهم وأديرتهم، كما أن القرآن نطق بمحبة المسيحيين للمسلمين ومودتهم لهم، وإن الآية الشريفة: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أقربهم مَودَّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾، لتبعث على شد أواصر الصداقة بين الطرفين، بل حتى مع الشعب الإسرائيلي في أكثر الأوقات، إننا لنعلم أن ما أتى به الرسل موسى وعيسى ومحمد ما هو إلا لإصلاح العالم لا لإفساده وخرابه، وما الكتب الثلاثة المنزلة إلا نور صادر من بؤرة واحدة ينعكس نورها في ثلاثة أشعة، كل منها للبشر»[١٨].

عظمة الرسول وجلال نبوته

وإن من معالم عظمة الرسول الدينية، أن الرسالة التي دعا إليها وناضل في سبيل وضع أسسها في مجتمع وثني متناحر، غدا وحدة إيمانية صلبة، ولم تبق رسالة الإسلام للعرب وحدهم بل هي عالمية بظهور العالم الإسلامي وأمة الإسلام، فكان ﷺ حسب قول الباحث بوسورث اسمث في كتابه: «حياة محمد»:

---

(١٨) يوسف نعيم عرافة (نقلاً عن كتاب محمد عند علماء الغرب ص ١١٠).

«مؤسس أمة ومملكة وهداية، وهذا أمر لا مثيل له، وهو الأمي الذي لا يعرف القراءة والكتابة»[١٩].

أما القس الفرنسي لوازون، فيتحدث عن جلال الرسول وعظمته الدينية بروح من الإنصاف والتجرد:

«محمد ــ بلا التباس ولا نكران ــ من النبيين والصديقين وهو رسول الله، بل إنه نبي عظيم جليل القدر والشأن أمكنه بإرادة الله تكوين الملة الإسلامية وإخراجها إلى الوجود بما صار أهلها ينيفون على الثلثمائة مليون من النفوس، وداسوا بخيولهم سلطنة الرومان، وبرماحهم قطعوا دابر أهل الضلال إلى أن صارت ترتعد من ذكرهم فرائص الشرق والغرب»[٢٠].

عبقرية النبي واستمرارية الرسالة

ويبقى في أساس معايير عظمة رجالات التاريخ استمرارية الرسالات التي حملوها للإنسانية جمعاء، لأن الاستمرار والبقاء دلالة صلاحيتها لكل زمان ومكان، فكيف إذا اتصل الأمر برسالات السماء وحملتها من الأنبياء البررة:

يقول المؤرخ البريطاني فتلي (١٨١٥ ــ ١٨٩٠) في مقدمة كتابه: «الحياة»:

«قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطة خارقة على عقول أتباعه وعماله، ووضعت عبقريته نظاماً

(١٩) بوسورث اسمث: حياة محمد ص ٣٤٦.

(٢٠) لوازون: (الشرق ٦١ ــ ٦٢).

أساسياً دينياً سامياً سياسياً ، وما زال يحكم الملايين من البشر من أجناس مختلفة وصفات متباينة ، وإن نجاح محمد كمشرع بين أقدم الأمم الأسيوية ، وثبات نظمه على مدى أجيال طويلة ، في كل نواحي الهيكل الاجتماعي ، دليل على أن ذلك الرجل الحاذق قد كونه مزيج نادر من الكفاءات »[٢١] .

خادم الله والإنسانية

إن مسيرة الرسول ، الكفاحية ونضاله المرير لنشر رسالة الإسلام قد أدت إلى نتيجتين هامتين أولاهما : خدمة وحدانية الله بإسقاط الوثنية ، ومن ثم خدمة الإنسانية كنتيجة منطقية بانتشار رسالة الإسلام بين الشعوب العربية والإسلامية من جهة ، ولكونها رسالة عالمية من جهة أخرى (راجع بحث : عالمية الرسالة الإسلامية) فكان أن عمّ خيرها البشرية جمعاء، وقدمت الحلول المنطقية لخلاص الأمم من مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية والروحية ... ويؤكد القس دافيد بنجامين كلداني (الذي عرف باسم عبد الأحد داود بعد اعتناقه الإسلام) في مؤلفه : « محمد في الكتاب المقدس » هذه الحقيقة بأن الرسول خادم الله والإنسانية بقوله :

« إن الخدمة الجليلة العظيمة المدهشة التي قدمها محمد ﷺ لله ، ولصالح البشر ، لم يقدمها أي مخلوق من عباد الله ملكاً كان أو نبياً ، خدمته لله فإنه اقتلع جذور الوثنية من جزء كبير من الأرض ، وأما خدمته للإنسان فقد قدم له أكمل دين وأفضل شريعة لإرشاده وأمنه » .

---

(٢١) فتلي : الحياة .

ويتابع عبد الأحد داود القول:

«أقام دين الإسلام الذي وحّد في أخوة حقيقية، جميع الأمم والشعوب التي لا تشرك بالله شيئاً. إن جميع الشعوب الإسلامية تطيع رسول الله وتحبه تحترمه؛ لأنه مؤسس دعائم دينها، ولكنها لا تعبده أبداً ولا ترفعه إلى مقام التقديس والتأليه»[٢٢].

إن عالمية الرسالة الإسلامية وإنسانيتها قد جعلت من النبي محمد، رسول البشرية جمعاء وزعيم مريدي الخير للإنسانية، وذلك كما يرى المستشرق السويسري ماكس فان برشم (١٨٦٣ ــ ١٩٢١) بمعرض حديثه عن دوره التاريخي العظيم في حياة العرب والشعوب التي دخلت في الإسلام، فارتقت من وهاد الضلالة إلى معارج النور والحضارة، يقول في كتابه: «العرب في آسية»:

«إن محمداً نبي العرب من أكبر مريدي الخير للإنسانية، وإن ظهور محمد للعالم أجمع إنما هو أثر عقل عال، وإن افتخرت آسية بأبنائها فيحق لها أن تفتخر بهذا الرجل العظيم، إن من الظلم الفادح، أن نغمط حق محمد الذي جاء من بلاد العرب وإيهم، وهم على ما علمناه من الحقد البغيض قبل بعثته، ثم كيف تبدلت أحوالهم الأخلاقية والاجتماعية والدينية بعد إعلانه النبوة، وبالجملة مهما ازداد المرء اطلاعاً على سيرته ودعوته إلى كل ما يرفع من مستوى الإنسان، إنه لا يجوز أن ينسب إلى محمد ما ينقصه، ويدرك أسباب إعجاب الملايين بهذا الرجل ويعلم سبب محبتهم إياه وتعظيمهم له»[٢٣].

(٢٢) دافيد بنجامين كلداني (عبد الأحد داود): محمد في الكتاب المقدس، ص ٨٢.
(٢٣) ماكس فانبرشم: العرب في آسية.

وتلخص الموسوعة البريطانية المسيرة الكفاحية لحياة الرسول محمـد ﷺ واجتهاده في رفع راية التوحيد وعظمته عربياً وإسلامياً وعالمياً فتقول:

«إن محمداً اجتهد في الله وفي نجاة أمته، وبالأصح اجتهد في سبيل الإنسانية جمعاء»[٢٤].

(٢٤) الموسوعة البريطانية.

الفصل الثالث

محمد والقيادة السياسية



كان الرسول عليه السلام إلى جانب ميزاته المتعددة الجوانب قائداً سياسياً عظيماً ورجل دولة فذاً، في أمة تأخذ طريقها في البناء، بعد حركة هدم، والتوحد بعد تجزئه وتفرقة .. إنها مرحلة انعطاف تاريخي كبير، ليس في إطار شبه جزيرة العرب فحسب، بل انعطاف في حياة الشعوب والأمم،.. فمرحلة عظيمة كهذه تحتاج إلى قيادة سياسية عظيمة هي بحجم هذا التحول الكبير...

القائد والمشرع

لقد تجلت قيادته السياسية مع بدء مرحلة التاريخ الإسلامي أي مع الهجرة إلى المدينة، وقيام الدولة العربية الإسلامية الأولى، فكان عليه السلام القائد والحاكم والمشرع يضع خطط البناء الداخلي، والمجابهة مع العدو الخارجي، بتزامن غاية في الدقة والتنظيم:

يقول هارون ماركوس (١٨١٢ ــ ١٨٨٧):

«كان محمد زعيماً سياسياً بأسمى معاني الزعامة السياسية من معنى وسيادة، هذه كانت تتجلى في أروع المظاهر التي عرفها بنو الإنسان، وخليق بي وأنا في صدر الكلام من الزعامة السياسية أن

أدْحَضَ فرية وأردُّ بهتاناً ، لا يزالان عالقين في أذهان قاصري العقول ، الذين لا يملكون ذرة من حصافة الرأي ، وتلك الفرية وذلك البهتان هما ما يردده أولئك الأغبياء ، الذين يزعمون أن لا علاقة بين الدين والسياسة ، وأن لا رابطة تربط أحدهما بالآخر . إن من الخطأ أن يظن ظان هذا»[1] .

حكمة وبعد نظر

لقد تجلت عبقرية محمد ﷺ السياسية في بعد نظره وحكمته في حل المسائل العالقة والشائكة ، وكان يخفي سرها حتى على أقرب المقربين إليه ، حيث يذهب بعضهم إلى معارضته ومحاولة ثنيه عما عزم عليه ... من ثم يدركون بعد حين سداد رأيه وبعد نظره وليس أدل على ذلك من الميثاق الذي عقده مع قريش وعرف فيما بعد باسم «عهد الحديبية» ، الذي ظهر في بادىء الأمر وكأنه يجري لصالح قريش ، ومجحف بحق المسلمين ، لكن ما لبثت أن ظهرت خطورة هذا العهد على مشركي قريش أنفسهم فتوسلوا إلى الرسول بصلة الرحم أن يتجاوز ذلك البند الذي كان في الظاهر يجري لصالحهم : إعادة من لجأ إليه هرباً من براثنهم ، ولم يجبهم إلى ذلك إلا بعد أن طلبوه خطياً .

سداد السياسي العاقل ونورانية النبي الصادق

إن دارس سيرة الرسول ﷺ في مختلف أدوار حياته منذ أن صدع بالرسالة ، ودوره العظيم في تبديل واقع الجزيرة العربية المجزأة وتوحيد القبائل

---

(١) هارون ماركوس : حياة محمد نبي المسلمين (نقلاً عن كتاب محمد عند علماء الغرب ص ١٠٩) .

العربية، وإعلاء اسم الله في معقل الوثنية، قد دلّلت على بعد النظر لديه وسداد الرأي، يقول المستشرق الأسوجي كازانوفا (١٨٣٧ ــ ١٩٠٣) في مؤلفه: «حضارة الشرق»:

«إنّ التعقل ونضوج الفكر اللذين دل عليهما، إذ أظهر الآيات الأولى الموحاة إليه، وحسن سياسته في توحيد القبائل العربية رغم الخرافات المتأصلة، وفي تمييز ما ينبغي الإبقاء عليه من تقاليدها القديمة، كلّها أدلة على أنه كان له في الأمور نظر سديد، كان يرى الغاية ويسعى إليها بغريزة السياسي العاقل، ونورانية النبي الصادق على السواء»[٢].

رجل فكر وحكم وسلم وحرب

إن دراسة الجوانب السياسية في حياة الرسول ونمط تفكيره، تقودنا إلى أنه كان إنساناً عميق التفكير، قبل مبعثه وفي مرحلة نشر الدعوة الإسلامية في مكة، ومن ثم في مرحلة تأسيس الدولة الإسلامية الأولى، وكان دائماً يجنح للسلم إن هيئت له أسباب إقامة السلام في ربوع أرض العرب.

يقول المفكر البلجيكي هنري ماسيه (١٨٢٠ ــ ١٨٨٦) في كتابه: «حول الإسلام»:

«إذا بحثنا عن محمد إجمالياً نجده ذا مزاج عصبي، وفكر دائم التفكير، ونفس باطنها حزن، وأما مداركه فهي تمثل شخصاً يعتقد بإله واحد، وبوجود حياة أخرى، ويتصف بالرحمة الخالصة، والحزم

(٢) كازانوفا: حضارة الشرق، ص ٢٣.

في الرأي والاعتقاد، ويضاف إليه أنه رجل حكومة، وأحياناً رجل سياسة وحرب، ولكنه لم يكن ثائراً بل كان مسالماً»[٣].

الكفاءة العظيمة والقيادة الفذة

وكان الرسول ﷺ الحاكم، متميزاً حسب اعتراف المستشرقين بالكفاءة العظيمة والقيادة السياسية الفذة... وكانت صفته القيادية بارزة طاغية على سجاياه الأخرى، يقول المستشرق الايطالي البرنس كايتان في كتابه: «أديان العرب»:

«أن مزية محمد هي كفاءته العجيبة كسياسي محنك أكثر منه كنبي موحى إليه، وليس في وسع أحد فَهِمَ مُحمداً أن يحطّ من كرامته، ومن فعل ذلك فقد ظلم نفسه وظلم محمداً»[٤].

محمد الحاكم العادل والإداري البارع

وتجلت عبقرية الرسول فيما تجلت به بأنه رجل حكم وإدارة من الطراز الرفيع يحسن تدبير شؤون الرعية، بعيداً عن الأهواء، تحركه دائماً سجيتان في ذاته هما العدل والرحمة، يقودهما عقل راجح يضع الأمور في نصابها...

فالإنسان، النبي والإمام والحاكم، كان يرعى شؤون العامة ويسهر على حسن تطبيق العدل على الجميع، يقول المستشرق الألماني برتلمي سانت هيليار في كتابه: «الشرقيون وعقائدهم»:

«كان محمد رئيساً للدولة وساهراً على حياة الشعب وحريته، وكان يعاقب الأشخاص الذين يجترحون الجنايات حسب أحوال

(٣) هنري ماسيه: حول الإسلام، ص ١١.

(٤) البرنس كايتان: أديان العرب، ص ٣٤.

زمانه وأحوال تلك الجماعات الوحشية التي كان يعيش النبي بين ظهرانيها، فكان النبي داعياً إلى ديانة الإلّه الواحد، وكان في دعوته هذه لطيفاً ورحيماً حتى مع أعدائه وإن في شخصيته صفتين هما من أجلّ الصفات التي تحملها النفس البشرية وهما العدالة والرحمة»(٥).

ولقد تحدث المفكر عبد الرحمن عزام في كتابه: «بطل الأبطال» عن الرسول الحاكم وحسن سياسته وحكمته في تصريف الأمور فقال:

«صفة عظمى من صفات الرسول ﷺ، وهي مثل لرجال الدولة والسياسة والقادة في جميع ميادين الإصلاح. لعلهم كذلك واجدون فيها ما يمكنهم من النجاح، فإن محمداً بما أوتي من الأخلاق، وما وهب من حسن السياسة، وتصريف الأمور، ووضعها في نصابها، قد أوتي النجاح الذي لم يؤته أحد قبله ولا بعده.

هذه الناحية من حياته يبدو فيها محمد مثلاً عالياً لرجل الدولة، وسترون بها ميزة على من سبقه من الأنبياء والرسل والأبطال، ولقد كانت أكثر وضوحاً في المدينة حيث استلزمت الأحوال أن يكون نبي الأمة وزعيمها وقائدها، وحيث أخذ التشريع الإسلامي يتناول الحياة السياسية والاجتماعية بتوسع وتفصيل أكثر مما كان في مكة، حين كانت الدعوة لا تزال في بدايتها، متجهة بكل قوتها إلى تعريف الناس بالله، وإنذارهم حسابه وعقابه، ذلك الفرق بين مظهري الدعوة في بيئتين مختلفتين، جعل بعض كتاب الملل الأخرى

---

(٥) برتلمي سانت هيليار: الشرقيون وعقائدهم ص ٣٩.

يحاولون أن يصوروا محمداً في شخصيتين مكي ومدني يقولون هذا نبي، وهذا رجل دولة وصاحب سلطان»[٦].

ويتحدث الباحث الإنكليزي مونتجمري وات في كتابه «محمد في المدينة» عن عظمة الرسول ومواهبه التي امتاز بها، وكانت وراء نجاحه وانجازاته الكبيرة، فهو إلى جانب موهبته لرؤية المستقبل وإدراكه الواقع الاجتماعي، ذو ميزتين اثنتين هما: كونه رجل دولة حكيماً وإدارياً بارعاً، يقول:

«وكان محمد ﷺ رجل دولة حكيماً. ولم يكن هدف البناء الأساسي الذي نجده في القرآن الكريم سوى دعم التدابير السياسية الملموسة والمؤسسات الواقعية. ولقد ألححنا خلال هذا الكتاب غالباً على استراتيجية محمد السياسية البعيدة النظر وعلى إصلاحاته الاجتماعية. ولقد دل على بعد نظره في هذه المسائل الانتشارُ السريع الذي جعل من دولته الصغيرة امبراطورية، وتطبيق المؤسسات الاجتماعية على الظروف المجاورة واستمرارها خلال أكثر من ثلاثة عشر قرناً.

وكان محمد ﷺ رجل إدارة بارعاً. فكان ذا بصيرة رائعة في اختيار الرجال الذين ينتدبهم للمسائل الإدارية، إذ لن يكون للمؤسسات المتينة والسياسة الحكيمة أثر إذا كان التطبيق خاطئاً متردداً. وكانت الدولة التي أسسها محمد، أصبحت عند وفاته، مؤسسةً مزدهرةً تستطيع الصمود في وجه الصدمة التي أحدثها غياب مؤسسها، ثم إذا بها بعد فترة تتلاءم مع الوضع الجديد وتتسع بسرعة خارقة اتساعاً رائعاً»[٧].

---

(٦) عبد الرحمن عزام: بطل الأبطال، ص ٧٢.

(٧) مونتجمري وات: محمد في المدينة، ص ٥١١.

القيادة والتشريع بين مكة والمدينة

هذا، وكان للاختلاف بطبيعة واقع الحال بين مكة قبل الهجرة وفي المدينة بعدها، أن ذهب بعض المستشرقين إلى القول بأن محمّداً ﷺ كان نبياً في مكة وقائداً سياسياً ومشرعاً ورجل دولة في المدينة، وهذا ما دفع المستشرق الفرنسي بوازار إلى عرض هذه الفكرة ومناقشتها، بقوله:

«وكثيراً ما يذاع أن محمداً بيّن في المرحلة الأولى من دعوته أفكار الإسلام العقيدية الأساسية، ثم بسط في زمن لاحق طرق العبادة وإقامة الشعائر، والتشريع الاجتماعي والجزائي، وجماع الشريعة القرآنية التي قام عليها الإسلام في أوائل عهده. وبعد أن كانت دعوته عربية بشكل أساسي في مكة، غدت عالمية الطابع في المدينة. وقد أكد النقد التاريخي هذا التكهن بصورة جزئية على صعيد تسلسل الأحداث بمفهومه الدقيق. غير أن المسلم يُعَلِّل الوقائع بشكل مغاير. فليس للتنزيل بالفعل في نظره مظهران، مظهر ديني وآخر اجتماعي سياسي. بل هو يتمثله على العكس من ذلك كلاً مقدّماً بشكله الإجمالي. واعتمد الإسلام في أول أمره الأناة والإقناع، وما كان للمرحلة التشريعية أن تتحقق إلا حين تكون جنين مجتمع تضامني، وعليه يكون هذا المجتمع قد ظهر منطقياً في مرحلة تالية على مرحلة التبشير بالحياة الآخرة. وفي مكة بدأ الإسلام بإعداد الأفراد ــ المسلمين الأوائل ــ الذين كانوا بحاجة، وهم بعد أقلية مضطهدة، إلى خُلُقٍ لا إلى تشريع اجتماعي ما كانوا ليستطيعوا أن يطبقوه. وفيما بعد أقام الإسلام بالمدينة من الأفراد الذين سبق اعدادهم عن طريق الدين مجتمعاً قائماً على المساواة والتعاون وتبادل

المنافع ومزوداً بنظم أوحي بها من الله أو مستلهمة من نور هدايته . ولا يقلّل هذا التسلسل الزمني للأحداث الذي يرسم مسار ولادة المجتمع الإسلامي من طابع الدين الشمولي، بل هو على العكس يعظّم من شأنه»[8] .

وقد ناقش الباحث العربي الإسلامي عبد الرحمن عزام بعض آراء المستشرقين، ممن رأوا في الرسول نبياً في مكة، ورجل دولة في المدينة بقوله :

«لو أن الذين يظنون هذا الظن كانوا بعيدي النظر لرأوا محمداً الواعظ في مكة، هو محمداً الناسك في المدينة، الذي تتورم قدماه من كثرة الوقوف بين يدي الله، والذي يموت وهو رأس الدولة، ودرعه مرهونة عند يهودي.

بل لرأوا محمداً الذي يشيعه العبيد والصبية والسوقة في الطائف بالسخرية والحجارة ويقيمونه إذا جلس من الإعياء فيدعو الله لهم بالهداية هو محمداً الذي يناول مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة يوم الفتح ويقول: اليوم يوم بر ووفاء.

لو أن هؤلاء الذين جعلوه نبياً في مكة، ورجل دولة في المدينة لاحظوا كيف وضعت نواة الدولة في أيام المحنة، لما حسبوها من غرس يثرب بل علموا أنها نتيجة محتومة للصراع العنيف، الذي دام ثلاث عشرة سنة، ونتاج للدعوة من وقتِ أنْ قال الله عز وجل: ﴿فاصدعْ بما تؤمرُ وأعرضْ عن المشركين﴾ .

فذات الرسول التي وقفت في وجه المشركين ثلاثة عشر عاماً

---

(٨) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص ٤٥ ــ ٤٦ .

بمكة لا تعجز، ولا تهن، ولا تيأس، هي ذاته التي فاضت في المدينة على شؤون الدنيا فدلت على ما فيها من الحيوية والقوى التي جعلتها أهلاً للتغلب على كل معضلة في وقتها ومناسباتها. تلك القوى والصفات التي لم تجتمع لأحد قبله ولا بعده، جعلته من أية ناحية نظرت إليه كاملاً وأسوةً حسنةً، بل من مجموع هذه القوى والصفات يبرز للناس رسول الله سواء أكان في أيام الدعوة المجردة عن السلطة، أم في أيام الدعوة المصحوبة بالرياسة الزمنية، ذاتاً موفقة ناجحة، انصرفت إلى الله بكليتها فجعلته أمامها، ووضعت ما عداه وراءها، هو في كلتا القريتين الناسك العابد، الباكي بين يدي خالقه، وهو فيهما الزاهد، يعرض عليه أصحابه أن يوطئوا له فراشاً، فيقول: «مالي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها..» لم يغره السلطان بشيء من المظاهر، ولا خرج به عن التواضع والتياسر.

فأي تنافر يجد النقاد في حياة الرسول، ليجعلوا من شخصه شخصين وهو يكافح في مكة ولا سلطان له، ويجاهد في المدينة على رأس الدولة التي خلقها؟ لقد كان همه فيهما جميعاً إلى اللحظة الأخيرة، نشر دينه، وغايته بسط سيادة الإسلام على الشرك.

وأي تناقض يجد نقاده بين حياته في مكة، وحياته في المدينة، وهو في الأولى يتوسل بالصبر على الأذى والسخرية، ويتقي بعرف الجاهلية الموت مع أنه لا يقر ذلك العرف، ويسعى لهدمه، ويرسل المؤمنين مهاجرين إلى الحبشة، ويجادل على دينه، ويدعو إليه، ويخرج من كل كارثة برأي صائب، ويعد لكل حالة تدبيراً محكماً. وفي

الثانية يتخذ من نصرة أهلها تكأة، فيعاهد اليهود والمشركين، ويتقي الموت بدرع الدولة التي نظمها وينجو من (الأحزاب) بحسن الرأي، ويغلب المصائب بموفق التدبير؟

ثلاث عشرة سنة قضاها في فم الأسد، دون أن يستطيع الأسد أن يطبق عليه أنيابه، وعشر سنين في المدينة يحاول فيها الأسد أن يمسك بالفريسة، وفي هذه وتلك يبدي رسول الله من حسن الرأي، وبارع السياسة والصبر، وسعة الصدر والتدبير ما يوقع الأسد في شبكة الفريسة، فإذا ما انتهى إلى النصر الحاسم المعجز، وبهت الذين كفروا، قالوا: لو أنه لم يقم دولة ولم يقد جيشاً، لكان النبي الخالص من الشوائب.. لو أن الذين يأخذون على محمد أنه لم يقتصر على حياة الوعظ، وظنوا أن الأكمل له أن يقف عند الجهر بالدعوة حتى يقتل، فكروا في مصير الدعوة نفسها، لشاركونا في الإعجاب به مرشداً وواعظاً، ومنظماً وفاتحاً»[٩].

الرسول ومجتمع الحرية والعدالة والمساواة

لقد أقام الرسول كقائد سياسي، مجتمع الحرية والمساواة، بما ينسجم وروح الرسالة الإسلامية...

الرسول ومبادىء الحرية الفكرية

طبيعي أن تكون مبادىء الحرية في المجتمع الإسلامي لا تنفصم عراها عن مبادىء الحرية الدينية التي وقفنا عندها في بحث «محمد والقيادة الدينية»،

(٩) عبد الرحمن عزام: بطل الأبطال، ص ٧٢ ــ ٧٤.

فالحرية الفكرية هنا هي حرية الاعتقاد (٩)، ومن ثم الإيمان بحرية الإنسان ومحاربة العبودية ...

ولقد رأى الباحث الإسباني العلامة سان اليار في مؤلفه: «تعاليم اللغة العربية» أن مبادىء الحرية الفكرية التي دعا إليها الرسول محمد ﷺ تجاوزت أفكار الكثير من المفكرين والمصلحين بقوله:

«إن أوضح مبادىء الحرية الفكرية قد كشفت أمثال ـــ لوثير وكالفين ـــ وعاد الفضل فيها إلى رجل عربي من رجال القرن السابع، ذلك هو صاحب شريعة الإسلام»(١٠).

الحرية الإنسانية

وكان الإسلام دعوة لحرية الإنسان، والقضاء على العبودية، فأنزل الحرية الإنسانية أعلى عليين، ولذا رأيناه عليه السلام يولي عناية خاصة لتحرير الأرقاء، عن طريق إلغاء مصادر الرق أولاً، وتشجيع المؤمنين على تحرير عبيدهم، انطلاقاً من قاعدة أن من أعتق عبداً أعتق الله له بكل عضو عضواً من أعضائه من عذاب النار.

وكان الرسول في مجتمعه الإسلامي إماماً في إقرار مبدأ تحرير العبيد، حتى أن أسرى الحرب لم يعتبرهم عبيداً، وسمح لهم بدفع الفدية أو تعليم أبناء المسلمين لفك إسارهم.

هذا، وستكون لنا وقفة خاصة لدراسة الحرية في الرسالة الإسلامية.

الرسول وإقامة العدالة والمساواة

كان الرسول ﷺ كقائد سياسي ورجل حكم وإدارة بالغ الحرص على

(١٠) سان اليار: تعاليم اللغة العربية.

تطبيق المساواة على الجميع، خاصة وقد وضع نفسه على قدم المساواة مع سائر المسلمين، يقول مولانا محمد علي:

«وفي إقامة العدالة كان الرسول منصفاً حتى التوسوس. كان المسلمون وغير المسلمين، والأصدقاء والأعداء، كلهم سواء في نظره. وحتى قبل أن يبعث إلى الناس كانت أمانته وتجرّده واستقامته معروفة لدى الخاص والعام، وكان الناس يرفعون منازعاتهم إليه حتى يحكم فيها. وفي المدينة رضي الوثنيون واليهود به حكماً في منازعاتهم كلها. وعلى الرغم من حقد اليهود العميق الجذور على الإسلام فإن الرسول حكم ــ عندما عرض عليه ذات مرة نزاع بين يهودي ومسلم ــ لليهودي بصرف النظر عن أن المسلم قد ينفّر، بذلك، من الإسلام بل ربما بصرف النظر عن أن قبيلته كلها قد تنفّر بذلك من الإسلام. ولا حاجة بنا إلى تبيان أهمية خسارة كهذه بالنسبة إلى الإسلام في أيام ضعفه ومحنته تلك، فالأمر أوضح من أن يحتاج إلى بيان. وباختصار، فقد كان تجسيداً للآية القرآنية التي تقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنّكم شنآنُ قومٍ على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله، إن الله خبير بما تعملون﴾. ولقد نبّه ابنته، فاطمة، إلى أن أعمالها وحدها سوف تشفع لها يوم القيامة. وقال أيضاً: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». وفيما كان على فراش الاحتضار، قبيل وفاته بقليل، سأل كل من له عليه دين أن يتقاضاه ذلك الدين، ولكل من أساء إليه ذات يوم أن يثأر لنفسه منه.

وفي معاملاته مع الآخرين لم يكن يضع نفسه على مستوى

أرفع من غيره البتة. كان يضع نفسه على قدم المساواة مع سائر الناس. وذات يوم، وكان قد احتل في «المدينة» مقاماً أشبه بمقام الملك، وفد عليه يهودي يقتضيه ديناً ما، وخاطبه في جلافة وخشونة قائلاً إن بني هاشم لا يردّون أيما مال اقترضوه من شخص آخر. فثارت ثائرة عمر لوقاحة اليهودي، ولكن الرسول عنّفه ذاهباً إلى أن الواجب كان يقتضي عمر أن ينصح كلاً من المدين والدائن: أن ينصح المدين ـــ الرسول ـــ بردّ الدين مع الشكر، وأن ينصح الدائن بالمطالبة به بطريقة أليق. ثم دفع إلى اليهودي حقه وزيادة، فتأثر هذا الأخير تأثراً عظيماً بروح العدل والإنصاف عند الرسول، ودخل في الإسلام. وفي مناسبة أخرى وكان مع أصحابه في أجمة من الآجام، حان وقت إعداد الطعام، فعهد إلى كل امرىء في القيام بجانب من العمل، وانصرف هو نفسه إلى جمع الوقود. لقد كان برغم سلطانه الروحي والزمني يؤدي قسطه من العمل مثل رجل عادي. وكان يراعي، في معاملته خدمه، مبدأ المساواة نفسه، وقال أنس: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أفّ قط، وما قال لشيء صنعته لِمَ صنعته، ولا لشيء تركته لِمَ تركته.» ولم يبق أيما عبد على عبوديته. فما إن يؤل إليه عبد رقيق حتى يسارع إلى إعتاقه. وطوال حياته كلها لم يضرب قط خادماً أو امرأةً»[11].

القائد السياسي والحاكم الإنسان

وفي ختام بحثنا هذا، نقف عند نقطة أثيرت في أكثر من مبحث وهي أن الرسول ﷺ الذي كان نبياً ومشرعاً وإدارياً وقائداً عسكرياً، ظل إنساناً

(١١) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص ٢٧٠ ـــ ٢٧١.

بسيطاً في حياته تتسم بسائر جوانبها بطابع البساطة والنبل، يقول الباحث جيمس متشنر عارضاً جوانب من شخصية الرسول القائد السياسي والحاكم الإنسان:

«إن محمداً هذا الرجل الملهم، الذي أقام الإسلام، ولد حوالي ٥٧٠ ميلادية في قبيلة عربية تعبد الأصنام، ولد يتيماً محباً للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين. وقد أحدث محمد بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في شبه الجزيرة العربية وفي الشرق كله. فقد حطم الأصنام بيديه، وأقام ديناً يدعو إلى الله وحده، ورفع عن المرأة قيد العبودية التي فرضتها تقاليد الصحراء، ونادى بالعدالة الاجتماعية وقد عرض عليه في آخر أيامه أن يكون حاكماً بأمره، أو قديساً، ولكنه أصر على أنه ليس إلا عبداً من عباد الله أرسله إلى العالم منذراً وبشيراً»(١٢).

---

(١٢) جيمس متشنر (نقلاً عن كتاب قالوا في الإسلام بقلم حسن الشيخ خضر الظالمي ص ٥٠).

الفصل الرابع

مُحمّدٌ الدّاعِيةُ
والقيادة الفكريّة



إن الصفة القيادية للرسول بتعدد أشكالها تتجلى بتكامل تلك الشخصية فهو إلى جانب دوره الكبير الذي لعبه في إطار سيرته الحياتية كنبي وقائد سياسي وعسكري ومصلح اجتماعي كان يبرز دائماً كرجل فكر وداعية، إلى جانب ما وهب من الخيال والنبوغ والبحث، يقول المستشرق الإنكليزي المؤرخ داز (١٨١٢ ـ ١٩٠٧) في كتابه «مع الشرق والغرب»:

«إن محمداً كان مجموعة من الخيال والنبوغ والبحث: كان محمد زراعياً وطبيباً وقانونياً وقائداً، اقرأ ما جاء في أحاديثه تعرف صدق ما أقول»[١].

أجل، إن عودة إلى دراسة السنة النبوية وكتب الأحاديث والاطلاع على مواقفه المتعددة في السيرة الرشيدة لتوضح لنا أي رجل فكر كان.. وحسبنا علماً أن السنة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم.

الرسول ﷺ مفكراً

هذا، ولقد وقفنا في دراستنا السيرة الحياتية للرسول في أكثر من

---

(١) داز: مع الشرق والغرب (نقلاً عن كتاب محمد عند علماء الغرب ص ١٨٤).

محطة، لنشير إلى ميزة التفكير في حياته، فقد عرفناه قبل البعثة ذلك الإنسان الذي يبحث عن الحقيقة ويتفكر في أسرار الحياة والكون، فكان أن تكشفت له الحقائق معرية زيف الوثنية قبل أن ينزل عليه الوحي، بل استطاع بعميق فكره أن يقترب من الحقائق الأزلية، وأصبح مهيأ لأن يكون نبياً بعد نضجه الفكري.. فطبيعي أنَّ من سيكون قائداً لأمةٍ بعد إعادة خلقها من جديد، أن يكون عبقرياً في فكره ونابغة في منهجه...

وكانت الجوانب الفكرية للرسول تعتبر الركيزة الأولى لعبقريته وعظمته، بل وضعها المستشرق مونتجمري وات في مقدمة معالم تلك العبقرية الخالدة، وتميزت بكونها تجمع الحدس إلى التفكير العميق الذي يحلل الواقع ويستشرف آفاق المستقبل، يقول وات في كتابه: «محمد في المدينة»:

«لقد أوتي الرسول موهبة خاصة على رؤية المستقبل فكان للعالم العربي بفضله، أو بفضل الوحي الذي نزل عليه حسب رأي المسلمين، أساس فكري (إيديولوجي) حلت به الصعوبات الاجتماعية، وكان تكوين هذا الأساس الفكري يتطلب في الوقت نفسه حدساً ينظر في الأسباب الأساسية للاضطراب الاجتماعي في ذلك العصر، والعبقرية الضرورية للتعبير عن هذا الحدس في صورة تستطيع إثارة العرب حتى أعمق كيانهم»[٢].

وإذا كانت جوانب دراسة القيادة الفكرية عند الرسول أكثر من أن نستطيع حصرها فسنقف عند نقطة هامة في شخصيته كرجل فكر داعية، ألا وهي فصاحته عليه السلام وبلاغته...

---

(٢) مونتجمري وات: محمد في المدينة، ص ٥١٠ ــ ٥١١.

رجل فكر وعمل

وإذا كان الرسول رجل فكر كان في الوقت نفسه رجل عمل.. فلم يقف البتة عند حدود التفكير فقط، بل انتقل إلى ميدان النضال في سبيل دعم النظرية بالتطبيق، والتأكيد على وحدة فكرة الفكر والعمل...

فالرسالة الإسلامية هي دعوة يحتاج الجاهر بها إلى النضال في سبيل نشر التعاليم، إلى قوة الإقناع الفكري وصلابة النضال العملي توسلاً لبلوغ الغايات المرجوة... يقول الباحث الأسوجي المستشرق السير ماكس سايكس (١٨٧٦ـ١٩٢٧):

«إن محمداً قد استطاع بعبقريته الفذة والتعليمات الواسعة المعنى أن يجمع التفكير إلى العمل، فكانت مملكته من هذا العالم، كان نبياً ثاقب الفكر، وكان مشرعاً، وكان حاكماً بين الناس»[٣].

الداعية واكتساب الأنصار

لقد نشأت رسالة الإسلام، في جو معاد، وتطلبت روحاً كفاحية عالية، ولهجة داعية حارة تكسب القلوب في المرحلة الأولى لنشر الدعوة الإسلامية، يتحدث إتيين دينيه في كتابه: «محمد رسول الله»، عن الرسول الداعية الذي يكسب الأنصار بصدق لهجته وعمق نظرته، يقول:

«وكانت لهجة الداعي إليه، تلك اللهجة التي تسمو فوق حدود الإنسانية، وكانت نظرته التي يشع منها الضياء، تخرجهم من الظلمات إلى النور، فيسرعون إلى اعتناق الإسلام بين يديه»[٤].

---

(٣) نقلاً عن مجلة الهلال مجلد ٥، عدد ٣.

(٤) إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص ١١٧.

فصاحة الرسول وبلاغته

إذا كان حامل الرسالة يحتاج فيما يحتاجه ليؤديها بنجاح إلى الشعوب والأمم، وليؤلف بها القلوب، إلى الفصاحة في اللسان، والبلاغة في الأسلوب، والقوة في البيان، فقد عرف عن النبي محمد ﷺ أنه صاحب أسلوب رفيع، ولسان فصيح، فهو إمام البلغاء وسيد الفصحاء، بأسلوبه السهل الممتنع المعجز، وبجوامع كلمه الخالدة، ومنطقه السليم، وعباراته المشرقة.

ويتحدث دينيه عن قوة المعاني وسحر بيان الرسول ﷺ، بقوله:

«وكانت المعاني تتدفق غزيرة من ألفاظه الموجزة، التي تعبر عن مراده خير التعبير. أما سحر بيانه فكان شيئاً إلٓهياً، يغزو القلب ويأسر اللب ولا يقوى أحد على مقاومته»(٥).

أفصح من نطق بالضاد

ومن جانبهم، أدرك المستشرقون المهتمون بقضايا اللغة، ما تمتلكه العربية من ميزات تنفرد بها دون سائر اللغات، وعن فصاحة الرسول وإعجازه... يقول المستشرق الفرنسي بوستل غليوم (١٥٨١ ــ ١٦٥٤) الذي اهتم بالعربية وأبجديتها:

«اللغة العربية أفصح اللغات آداباً. وهي لغة أمة على رأسها محمد النبي العربي، وهو أفصح من نطق بالضاد، ولقد جاء بأفصح

---

(٥) المصدر السابق، ص ٣٢٦.

ما يمكن في خلال كلماته المأثورة عنه، لذلك نحترمه ونحترم لغته»[٦].

ويتابع المستشرق الفرنسي برتلمي هربلو (١٦٢٥ـ١٦٩٥) في مؤلفه «المكتبة الشرقية»، فكرة مواطنه، عن البلاغة العربية وفصاحة الرسول، بقوله:

«إن اللغة العربية لهي أعظم اللغات آداباً، وأسماها بلاغة وفصاحة، وهي لغة الضاد، ولقد تغنى محمد نبي الإسلام بما يدل على شرف هذه اللغة بقوله: «أنا أفصح من نطق بالضاد» وصحيح عنه ذلك لأن كلماته المأثورة تدل عليه»[٧].

خلود العربية وعظمة الرسول

وكان الرسول ﷺ قد أتقن العربية في بني سعد وقوّمها بلغة قريش، وأحاط بلهجات القبائل العربية، إذ بقي أثره عميقاً في لغتنا هذه، التي بلغت معارج الخلود، يقول الأستاذ الباحث اللبناني حنا خير الله، في احتفالٍ بذكرى المولد النبوي:

«يكفي النبي العربي عظمة أنه خلد اللغة العربية وقدّسها، وأوجب على جميع أتباع دينه تعلمها إلى أن قال:

إننا نعظّم ذكر من خلّد لأمتنا أعظم مجد وأشرف تاريخ وأسمى منزلة، وحفظ لغتنا مقدسة إلى أبد الدهر، لنبرهن على أننا نكرم

---

(٦) بوستيل غليوم (نقلاً عن كتاب محمد عند علماء الغرب ص ١١٤).

(٧) برتلمي هربلو: المكتبة الشرقية (المكتبة الشرقية: معجم يشتمل على فلسفة وآداب الشرق).

محمداً ــ النبي العربي ، ونحتفل بذكرى مولده المبارك ، إننا نقدر محمداً وأعمال محمد وعظمة محمد وغاية محمد »[8] .

وكان لفصاحة الرسول وبلاغته أن جعلت منه ــ إلى جانب ما تحلى به من مزايا أخرى ــ أعظم القادة والمصلحين الدينيين ، يقول صموئيل زويمر :

« إن نبي الإسلام كان ولا شك من أعظم القواد الدينيين ، ويصدق عليه القول أيضاً إنه كان مصلحاً قديراً وبليغاً فصيحاً وجندياً مغواراً »[9] .

ويقول الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (١٥٩٧ ــ ١٦٥٠) في كتابه مقالة « في المنهاج » مُعْرِباً عن إعجابه ببلاغة العربية وفصاحة الرسول وإعجاز القرآن :

« نحن والمسلمون في هذه الحياة ، ولكنهم يعملون بالرسالتين العيسوية والمحمدية ، ونحن لا نعمل بالثانية ، ولو أنصفنا لكنا معهم جنباً إلى جنب ، لأن رسالتهم فيها ما يتلاءم مع كل زمان ، وصاحب شريعتهم محمد ، الذي عجز العرب عن مباراة قرآنه وفصاحته ، بل لم يأت التاريخ برجل هو أفصح منه لساناً ، وأبلغ منطقاً ، وأعظم منه خلقاً ، وذلك دليل على ما يتمتع به نبي المسلمين من الصفات الحميدة التي أهّلته لأن يكون نبياً في آخر حلقات الأنبياء ، ولأن يعتنق دينه مئات الملايين من البشر »[10] .

---

(٨) نقلاً عن مجلة الفرقان ، مجلد ٢٧ ، ج ٣ .

(٩) صموئيل زويمر : اليسوع في إحياء الغزالي .

(١٠) رينيه ديكارت : مقالة الطريقة (ترجمة جميل صليبا) .

بلاغة المنطق وسداد الرأي

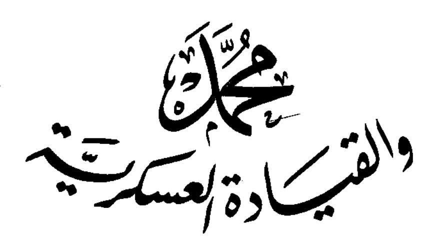
ويتحدث المستشرق الفرنسي سيلفستر دي ساسي (١٧٥٨ ـــ ١٨٣٨) في كتابه «الحياة» عن محمد الرسول المفكر، وصاحب الآراء السديدة النيرة، والمبادىء الخيرة، الذي عرف عنه:

«أنه بليغ في منطقه، رشيد في رأيه، نشيط في دعوته»[١١].

(١١) انطوان سيلفستر دي ساسي: الحياة، ص ٢٦.



الفصل الخامس





العبقرية والفداء

من خلال الدراسة التي استعرضنا فيها سيرة رسول الله، عبر المواقف الاستشراقية، ركّزنا على نقاط هامة، في حياة الرسول، الشجاعة والصبر والثبات على العقيدة، سواء تعلق الأمر بمواجهة مشركي قريش في مكة، عند بدء الدعوة واضطهاد المسلمين الأوائل، أو في العمل العظيم الذي اضطلع به وهو انتقاله من مكة إلى يثرب التي غدت المدينة، فيما عرف بالهجرة التي عدّها المستشرق الروماني ك. جيورجيو أعظم عمل فدائي قام به محمد ﷺ في سبيل الإسلام حين انفصم عن قبيلته فداء «لعقيدته» أو في القيادة العسكرية السياسية التي خاضها طوال مدة إقامته في المدينة، فكان أن صارع قوى المشركين طوال عشرة أعوام صراعاً توج بانتشار الإسلام في ربوع جزيرة العرب..

القائد العسكري اللامع والمشرع العظيم

وجدير بالذكر أن الرسول، قبل أن يصدع بالرسالة لم يكن بالرجل المحارب بل شهر بالوداعة والهدوء، لكنه غدا القائد العسكري اللامع والمشرع العظيم حين عمل على نشر الدين الإسلامي، يقول المستشرق القس دافيد

بنجامين كلداني، الذي اعتنق الإسلام وتسمى بـ عبد الأحد داود ـــ يقول في كتابه: «محمد في الكتاب المقدس»:

«وقبل أن يرسل الله محمداً بالدعوة إلى الإسلام وإزالة الوثنية، الأمر الذي حققه بنجاح، كان أهدأ وأصدق رجل في مكة. ولم يكن بالمحارب أو المشرع، ولكن بعد أن تحمل رسالة النبوة، أصبح أفصح المتكلمين وأشجع العرب، وكان يحارب الكفار وسيفه في يده، ليس لمصلحته الشخصية، ولكن من أجل مجد الله، وقضية دينه، وهو الإسلام وقد عرض الله عليه مفاتيح كنوز الأرض، ولكنه رفضها، وعندما توفي كان فقيراً»[1].

العبقرية العسكرية في وضع الخطط

لقد ظهرت عبقرية الرسول العسكرية في أخطر المعارك وأشدها هولاً، أولاً معركة بدر، حيث رتب قوى المسلمين بشكل مثلث، وكان بوَضْع مَكَّنَهُ من جعل كل جندي مسلم أن يستقبل بمفرده العدو من غير استدبار حسب رأي جيورجيو[2]، فحاز بفضل تلك العبقرية مع إيمان المسلمين العميق راية النصر، وكانت بالتالي هزيمة جيش يفُوق عدده ثلاثة أضعاف الجيش الإسلامي.

كما برزت عبقرية الرسول العسكرية في موقعة أحد، حين درس طبيعة الموقع العسكري، وتنبه لمكمن الخطر، فكان أن وضع خطة مدروسة في تشكيل الصفوف المتكاملة المتراصة، حتى لا يمكن للخصم أن يشق

---

(١) عبد الأحد داود: محمد في الكتاب المقدس ص٨٣.

(٢) ك. جيورجيو: نظرة جديدة في حياة الرسول ﷺ ص٢١٩ ـــ ٢٢٠.

الصفوف، مما مكن جيش المسلمين من مواجهة جيش العدو الذي يفوقه عددياً بأربعة أضعاف، وكانت بشائر النصر مواكبة للمسلمين لولا الخطأ الذي ارتكبه النبّالة مخالفو أوامر الرسول طمعاً في الغنائم..

النبوغ الفكري في استنباط الخطط وتنفيذها

كذلك برزت عبقرية الرسول العسكرية حين تبنى مشورة سلمان الفارسي بحفر الخندق في معركة الأحزاب، هذه الخطة التي أثارت إعجاب الباحثين العسكريين في الشرق والغرب، فالنبوغ العسكري ــ برأي جيورجيو ــ ليس في استنباط الخطط وحسب، بل في تنفيذها أيضاً [٣] ...

ولا يغرب عن البال كيف برزت شخصية القائد العسكري للرسول في أحلك الظروف وخاصة في معركة حنين، حين تمكن من تحويل الهزيمة إلى نصر، ولقد حلل الباحث العسكري محمود الدرّة، هذه الواقعة بقوله:

«ليس في حياة قادة الجيوش مواقف عصيبة وخطرة كموقفهم من هزيمة جيوشهم في ميدان المعركة، وقلائل في التاريخ هم الذين استطاعوا بفضل شخصياتهم وعزائمهم وقف تيار الهزيمة في جنودهم والحيلولة دون وقوع الكارثة والخسران. والنادر فيهم من حول الهزيمة إلى نصر. أما محمد القائد وقد تحدثنا عن موقفه في معركة أحد وتحويله تيار المعركة من هزيمة منكرة إلى انسحاب ناجح نراه في هذا الموقف في أوج عظمته ومجده العسكري الخالد، ولا نغالي إذا قلنا إنه بزَّ من كان قبله في هذا المضمار ولم يشاركه في مجده هذا أحد

---

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨٩.

قبله، حيث لم يستسلم للأمر الواقع ولم تخذله نفسه كما خذلت اثني عشر ألفاً من جنده نفوسهم»[٤].

شخصية الرسول وتحويل الهزيمة إلى نصر

ويتفق جيورجيو مع محمود الدرة بالرأي حول الدور الذي لعبته شخصية الرسول، في تحويل الهزيمة إلى نصر، والفرار إلى ثبات، فتجمع فانتصار، بقوله:

«وقد كانت صلابة محمد ﷺ وجلادته سبباً في توقف المحاربين عن هربهم.. فكان أن انتهت معركة حنين بنصر المسلمين»[٥].

أعظم القادة الدينيين

ويتحدث المستشرق الكندي الدكتور زويمر (١٨١٣ ـ ١٩٠٠) في كتابه: «الشرق وعاداته» عن جماع صفات الرسول، التي من أبرزها القيادة والجرأة إلى جانب كونه رجل فكر وإصلاح، يقول:

«إن محمداً كان ولا شك من أعظم القواد المسلمين الدينيين، ويصدق عليه القول أيضاً إنه كان مصلحاً قديراً وبليغاً فصيحاً وجريئاً مغواراً، ومفكراً عظيماً، ولا يجوز أن ننسب إليه ما ينافي هذه الصفات، وهذا قرآنه الذي عمر صدره، وتاريخه يشهدان بصحة هذا الادعاء»[٦].

---

(٤) محمود الدرة: معارك العرب الكبرى، ص ١٩٧.

(٥) جيورجيو: نظرة جديدة في حياة الرسول، ص ٣٦٤.

(٦) زويمر: الشرق وعاداته، ص ٢٧.

الدروس العسكرية المستقاة من حروب الرسول

هذا، ولقد استخلص الباحث العسكري محمود الدرة، في كتابه معارك العرب الكبرى، الدروس العسكرية في حروب الرسول ﷺ، التي نضعها بنقاط محددة.

١ ــ في تأليف وتنظيم الجيوش، فكان الرسول ﷺ أول من عبأ شعباً كاملاً في هذه الحرب الدفاعية لحماية الدعوة الإسلامية..

٢ ــ في أسلوب القتال: وَضْعُ الخطط العسكرية المناسبة واستخدامه طبيعة أرض المعركة.

٣ ــ وضع مبادىء جديدة للحرب، منها أولاً المباغتة، إذ يتحرك بكتمان وسرية وحذر، ويستخدم أسلوب التورية.. وثانياً الاستطلاع وترصد حركة الخصوم.. وثالثاً المقدرة على الحركة، فقد أثبت جيش المسلمين قدرته على السير مسافات بعيدة بسرعة فائقة مع الصبر على شظف العيش، واحتمال قسوة الطبيعة والمناخ...

٤ ــ التوفيق بين السياسة والحرب، وذلك بعقده العهود والمحالفات مع القبائل العربية والاهتمام بالجبهة الداخلية، لئلا يؤخذ المسلمون على حين غرة، ولم يكن الرسول يكتفي بالنصر العسكري بل يسعى دائماً إلى تحقيق نصر سياسي في كسب الخصوم والأعداء...

٥ ــ استخدام سلاح الدعاية، وخلق ما يسمى بالرتل أو الطابور الخامس في قلب الأعداء، ولنذكر كلمة الرسول ﷺ في وصف هذا السلاح حين قال: «نُصرت بالرعب مسيرة شهر»، مما يؤكد خطورة أسلوب الدعاية تمهيداً لتحقيق النصر العسكري في ميادين القتال، وإلى جانب الحرب الدعائية استخدام الرسول أيضاً،

الخدعة والتمويه، وهو القائل «الحرب خدعة»، وكذلك حرب الأعصاب لبلبلة صفوف الأعداء وإدخال الوهـــن في عزائم المحاربين»[٧].

هذا، وإن المعارك المديدة التي خاضها الرسول بنفسه خلال عشرة أعوام والتي بلغت تسع عشرة غزوة، وكذلك السرايا التي أنفذها، قد أثبتت مكانته العسكرية ومزاياه القيادية حتى تمكن من تحقيق النصر العظيم، ففي السنة التاسعة للهجرة كان محمد ﷺ حسب تقرير جيورجيو: «قد فتح الجزيرة العربية كلها، وغدا الجميع مسلمين أو إلى جانب المسلمين، وقد انتشر الإسلام من السنة الأولى للهجرة إلى السنة العاشرة بمساحة قدرها ٨٢٢ ألف كم٢ تقريباً»[٨].

إن الإنجاز العظيم الذي حققه الرسول كقائد عسكري ومشرع ومناضل لمحو الوثنية من جزيرة العرب، بله النصر العظيم الذي حققه في نشر الإسلام بسائر أرجاء الجزيرة العربية لم يكن سوى جانب واحد من جوانب عبقريته العسكرية، إذ وضع كذلك أساس مجابهة الدولة البيزنطية، حين قام بحملته العسكرية الأخيرة التي عرفت باسم غزوة تبوك، وكان من نتائج ثمارها أن عقد الكثير من الأمراء العرب المسيحيين المتحالفين مع الدولة البيزنطية، معاهدات معه «على عدم المهاجمة والحرب والوقوف على الحياد»...[٩] وليس هذا فقط بل صمم عملياً على غزو سورية وعقد لواء القيادة لأسامة بن زيد تنفيذاً لهذا الهدف قبل أن يلقى ربه بقليل.

---

(٧) محمود الدرة: معارك العرب الكبرى، ص ٢٣٥ ــ ٢٤٣.

(٨) ك. جيورجيو، ص ٣٧٠.

(٩) المصدر السابق، ص ٣٨١.

يقول الباحث العسكري محمود الدرة:

«وهذا جيش أسامة بن زيد الذي أمر محمد ﷺ بتكوينه كان آخر عمل يقوم به في هذا السبيل ــ تقرير حرية الدعوة للعقيدة وتحرير العالم من عبودية الطغاة المستبدين ــ ولم تنسه حتى سكرات الموت الأمر بإنفاذه والدعاء لقائده بالنصر لتحرير العرب من حكم المستعبدين ليخطوا بعد ذلك خطواتهم الحاسمة لتحطيم قوى الشر والعبودية التي كانت تخيم على العالم المعروف»[١٠].

---

(١٠) محمود الدرة، ص٢٢٦.



الفصل السادس

محمد الرسول والمعجزات

لقد ذكرت الدراسات التاريخية الإسلامية، وخاصة كتب السيرة والحديث علامات النبوة وبشائر الرسالة، نقلاً عن الرواة الأوائل الذين أكثروا من ذكرها، تعظيماً لمكانة الرسول وإعلاء لقدر الرسالة... ولقد وقف عدد من الباحثين والمفكرين العرب والمستشرقين الغربيين موقفاً نقدياً من مسألة علامات النبوة هذه...

يقول صاحب العبقريات عباس محمود العقاد في كتابه: «عبقرية محمّد» عن بشائر الرسالة:

«والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية.. يسردون ما أكده الرواة منها وما لم يؤكدوه وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه، وما أيدته الحوادث أو ناقضته، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته، ويتفرقون في الرأي والهوى بين تفسير الإيمان وتفسير العيان، وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر التي سبقت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الإسلام؟ لا موضع هنا لاختلاف.. فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر في إقناع

أحد بالرسالة يوم صدع النبي بالرسالة، أو كان ثبوت الإسلام متوقفاً عليها.

لأن الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد، لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها، ولا عرفوا أنها علامة على شيء أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة. ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا للرسالة بعد البشائر بأربعين سنة، لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه.

وقد ولد مع النبي عليه السلام، أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها، فإذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره. ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين إلا بعد عشرات السنين... يوم تأتي الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وإنكار المنكرين.

أما العلامة التي لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها فهي علامة الكون وعلامة التاريخ.

قالت حوادث الكون: لقد كانت الدنيا في حاجة إلى رسالة.

وقالت حقائق التاريخ: لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة...

ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ»[1].

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، ص٢٦ ــ ٢٧.

معجزات الرسول في المنجزات الحقيقية

وقد تحدثت كتب السيرة عن معجزات الرسول كمؤشر على دلائل النبوة، من البشائر التي هلت في يوم مولده أو يوم مبعثه من تكليم الحجر والشجر له، وأثناء قيامه بنشر الدعوة من انشقاق القمر، وتكثيره الطعام، الذي أشبع الخلق الكثير بالزاد اليسير، ونبع الماء من بين أصابعه ليسقي بها العطاش، وسواها من أحاديث دلائل النبوة التي أفرد لها الكثير من الصحائف.

وإن كنا هنا لسنا في صدد بحث هذه الحوادث ودراسة صحتها، وإن كنّا نقول إنه ليس بغريب البتة أن يكرم الله نبيه ببعض الخوارق والمعجزات.. إلاّ أن المعجزة الحية الباقية حتى يومنا هذا هي إنجازات الرسول التي كانت عملياً ضرباً من ضروب الخوارق الإنسانية حين أخرج العرب من ظلمات الجاهلية إلى حضارة الإسلام التي تشع بأنوار المدنية التي هيهات أن تنطفىء، يقول الشاعر اللبناني الكبير بشارة الخوري (١٨٨٥ــ١٩٦٨) الملقب بالأخطل الصغير في صحيفة البرق متحدثاً عن الإصلاح الديني الاجتماعي للرسول:

«إن للرسول محمد في عنفوان شبابه من المعجزات ما يقف دونه الفكر صاغراً، ولكن له وهو في أيام الدعوة ما تصغر عنده عظمة العظيم، ويبطل عنده سحر الساحر، إنه وقد أخرج أمة بأسرها من ظلمات الجاهلية إلى أضواء المدنية، إنه وقد أبدل معائب الجاهلية بمحاسن الإسلام، وإنه وقد أبطل وأد البنات، وحرم الزنى، ونقّى القلوب من العداوات، إنه وقد أذلّ لسيفه كل سيف، ولعرشه كل عرش، إنه وهو كذلك ليس في عيني أعظم منه، وهو الابن

الناشىء فقيراً، الدارج يتيماً، الحامل السعد في وجهه، والطهر في قلبه، والأمل في عينيه، والحكمة في شفتيه»[٢].

القرآن معجزة الرسول الخالدة

هذا، ولقد اتفق العلماء والعرب والمستشرقون الغربيون على أن القرآن هو المعجزة الحقة للرسول: يقـول المستشرق الإنكليـزي بوسورث اسمث (١٨١٥ ــ ١٨٩٢) في مقدمة كتابه: «الأدب في آسيا»:

«إن المعجزة الخالدة التي أداها محمد هي القرآن والحقيقة إنها لكذلك، وإذا قدرنا ظروف العصر الذي عاش فيه، واحترام أتباعه إياه احتراماً لا حد له، ووازناه بآباء الكنيسة أو بقديسي القرون الوسطى، تبين لنا أن أعظم ما هو معجز في محمد نبي المسلمين أنه لم يَدَّعِ القدرة على الإتيان بالمعجزات وما قال شيئاً إلا فعله وشاهده منه في الحال أتباعه، ولم ينسب إليه الصحابة معجزات لم يأتها أو أنكروا صدورها منه، فأي برهان أقطع من ذلك، ولقد كان محمد يذهب من آخر حياته كما ذهب من مبدأ أمره إلى أنه رسول الله حقاً، وإني أعتقد أن الفلسفة المسيحية العالية ستعترف له بذلك يوماً من الأيام»[٣].

بداهة الرسالة

ويتحـدث المستشرق الفـرنسي الفـونس إتـيين دينيـه (١٨٦١ ــ ١٩٢٩) عن حياة الرسول ﷺ الحافلة بالعظائم، بأنه ــ عليه

(٢) الأخطل الصغير، نقلاً عن مجلة العرفان، مجلد ٢٧.

(٣) بوسورث اسمث: الأدب في آسيا.

السلام ـــ لم يعتمد في نشر الرسالة الإسلامية على الخوارق والمعجزات المادية، وتلك مأثرة عظيمة له، يقول في كتابه: «محمد رسول الله»:

«والحق أننا نرى من بين جميع الأنبياء الذين أسسوا ديانات، أن محمداً هو الوحيد الذي استطاع أن يستغني عن مدد الخوارق والمعجزات المادية، معتمداً فقط على بداهة رسالته ووضوحها، وعلى بلاغة القرآن الإلهية، وإن في استغناء محمد عن مدد الخوارق والمعجزات لأكبر معجزة على الإطلاق»(٤).

حقيقة مآثر الرسول

ويتابع المفكر الفرنسي في دراسة شخصية الرسول ﷺ مبرزاً عظمته وكمالاته العليا، يقول:

«إن في مرأى المؤمنين وفي أعمالهم لصورة تلمحها منعكسة من مآثر محمد، وإذا ما كانت بالطبع باهتة قياساً إلى كمالاته العليا، فإنها لا جدال في صحتها، هذا على حين نجد قياصرة روما مع دقة تماثيلهم لا يطالعنا منهم سوى قناع مزيف لوجوههم الجامدة تحت صورة من الخيلاء، إن صورهم تظل ميتة يعجز خيالنا عن أن يلمح لها شيئاً من الحياة، وإنه لبوحي هذه الحقيقة المقررة أن قامت برؤوسنا فكرة نشر لوحات في تاريخ محمد هذا، تمثل المآثر الدينية لأتباعه، وبعض صور من حياة محمد، وبعض مدن الحجاز الذي هو وطنه»(٥).

---

(٤) ألفونس إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص ٤٩.
(٥) المصدر السابق، ص ٥٢.

ويتناول المستشرق جوستاف جرونيباوم مؤلف كتاب: «حضارة الإسلام»، القصص التي نسجتها المخيلة الشعبية والدوافع التي كانت وراء تلك القصص التي هي مستلهمة من الأعمال العظيمة والخارقة والحقيقية في حياته.. يقول جرونيباوم:

«إن انطواء حياة الرجل العظيم على قدر من الشرارة الإلٓهية أقوى بأساً مما لدى إخوانه الضعفاء لآية حافلة بالمعاني للعالم كافة!

ذلك أن رسالته تؤذن ببدء مرحلة جديدة في قصة هذا العالم.

ولا شك أن القوى التي يفك أسارها ستكون رهن إشارته، وستكون أهم أدوار مقامه في هذه الأرض موضع الترحاب أو المحاكاة من العالم الذي كان مجرد ظهوره فيه ذا أثر في خطه ومجراه!

وإن القلوب الساذجة الغفل لتروح تنسج الخوارق وشياً تحيط به حياة الرجل العظيم، غافلة عن أن هذه الخوارق تغض من شأن النصر الإنساني الذي يحرزه بطلها»[٦].

ولقد أشار جرونيباوم إلى أن عظمة محمد الحقيقة هي في كفاحه، وأن انتصاره المؤزر قد جاء عبر نضال شاق ومرير، ولم يستند إلى الخوارق والمعجزات في نشر الرسالة.. بل ذهب إلى القول بأن تلك الخوارق والمعجزات إن صحَّتْ، إنما هي انتقاص من كفاحه البطولي ونضاله الإنساني

---

(٦) جوستاف جرونيباوم (نقلاً عن مقدمة كتاب قالوا في الإسلام حسن الشيخ خضر الظالمي).

وجهده الشخصي.. لأنها مجرد أمانة تلقاها من السماء ولا يملك المرء من أمرها شيئاً..

ويذكر جرونيباوم أن الرسول كان حريصاً على التأكيد بأنه بشر صدع بأمر من الله لنشر رسالة الإسلام، يقول:

«حرص محمد مدة رسالته على أن يؤكد للناس أنه بشر، ذو طبيعة إنسانية، وأنه بفضل من الله اختير رسولاً ﷺ لله تعالى..

وفيما عدا هذه الخصوصية ـ خصوصية اختياره للرسالة ـ ليس ثمة شيء يفرق بينه وبين إخوانه من البشر.

وإن علمه بالغيب لمحدود بما يريد الله أن يعلمه إياه.

فكل ما لم يرشده إليه الوحي فأمر قد يضل فيه السبيل.

وكلما لجّ أعداؤه في تحديهم إياه بأن يثبت أقواله بإحدى المعجزات أبى ذلك. غير عابىء بسخرية الساخرين، وخيبة أمل المتشككين.. ذلك أن رسالته نفسها هي آيته، وإمارته!.

﴿وقالُوا لولا أُنزل عليه آيات من ربه؟ قلْ إنَّما الآياتُ عندَ الله، وإنّما أنا نذيرٌ مبينٌ، أوَلَمْ يَكْفِهِم أنَّا أنزلنا عليك الكتابَ يُتلى عليهم؟ إنّ في ذلكَ لرحمةً وذكرى لقوم يُؤمنون﴾ (٢٩/٥٠ ـ ٥١)[٧].

ويحلل جرونيباوم الأسباب التي دفعت كتّاب سيرة الرسول ﷺ في

---

(٧) المصدر السابق.

سياق تعظيم الرسول إلى إضفاء المعجزات والخوارق عليه تأكيداً لصورة القداسة والاحترام الماثلة في نفوس المسلمين ...، يقول:

«ولم يكد ينقضي على وفاته طويل زمن حتى ثار الخيال الشعبي متغلباً على نصوص الوحي نفسها، ومغطياً الاحتجاجات الفاترة التي أبداها ذوو الضمير الحيّ من الفقهاء ــ وراح يقص من جديد سيرة النبي واضعاً إياه في صورة الساحر القوي ــ!!.

ولقد رانت عليهم تلك الرغبة الساذجة في تعظيم البطل برفعه فوق درجة الإنسانية إلى أقصى حد مستطاع، وظاهرها على ذلك التقليد العريق الذي يؤكد من أهميته الشخصية الفذة، بما ينسب إليها من تعاون العالم الروحي كله وإياها»[٨] ....

دين الفطرة ونفي الخوارق

ويخلص المفكر ديزيريه بلانشيه مؤلف كتاب: «دراسات في التاريخ الديني» إلى الرأي القائل إن حياة الرسول ﷺ، قد خلت من الخوارق والمدهشات وإن الإسلام دين الفطرة، لم يقبل بمبدأ الخوارق، وإن معجزة الرسول الحقيقية قد استندت إلى الواقع الحي، والأرض الصلبة، وإنه لم يكن له إلاّ نبوءته ورؤاه للمستقبل، يقول:

«ومن جانب آخر ينبغي أن نذكر أن الدين الإسلامي مخالف كل المخالفة لهذه الأبراج المتشامخة التي تسقط من ضربة واحدة، لأن له قوة كامنة وصلابة ومتانة..

وفي الواقع، فبماذا يمكن أن يهاجمه النقد، أفي تاريخ محمد أنه

---

(٨) المصدر السابق.

تقريباً خال من الخوارق والمدهشات، وليس فيه تقريباً من المسلمات إلا ما في الديانة الكاثوليكية من معتقدات طاهرة نقية. فهل توجد هذه الخوارق في الشعائر والطقوس، إنك لو رجعت بالدين الإسلامي إلى قواعده الأساسية لما وجدته قد زاد على الدين الفطري إلا نبوءة محمد، وإدراكاً حقيقياً وفهماً صحيحاً لمعنى القضاء والقدر الذي يعد صفة عامة لكل الذين يدركون بقوة عقولهم، ودقة شعورهم: أنهم في احتياج شديد إلى أن يسيروا في هذه الحياة بنظام دقيق، وخطة محكمة، أكثر مما يعد عقيدة من العقائد، أو أصلاً من أصول الإيمان الخ»[٩].

المعجزة الإلّهية

أما المفكر الإنكليزي صاحب كتاب: «الأبطال»، توماس كارليل فيرى أنّ الرسول في سيرته الحياتية لم يعتمد مطلقاً على المعجزات، وإنما يذكر من يدعوهم إلى الإسلام بالمعجزة الإلّهية التي تكمن في سر الوجود المبثوث في الكون، إنها المعجزة التي تؤكد حقيقة الخالق وعظمته، يقول كارليل:

«وكان محمد إذا سئل أن يأتي بمعجزة قال: حسبكم بالكون معجزة، انظروا إلى هذه الأرض، أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته؟ هذه الأرض التي خلقها الله لكم ونهج لكم فيها سبلاً تسعون في مناكبها وتأكلون من رزقه، وهذا السحاب المسير في الآفاق لا يدرى من أين جاء وهو مسخر في السماء كل سحابة كمارد

(٩) ديزريه بلانشيه: دراسات في التاريخ الديني. (نقلاً عن كتاب هذا هو الإسلام، ص٨٨).

أسود، ثم يسح بمائه ويهضب ليحيي أرضاً مواتاً، ويخرج منها نباتاً ونخيلاً وأعناباً، أليس ذلك آية، والأنعام خلقها لكم تحول الكلأ لبناً وهي فخر لكم، والسفن ــ وكثيراً ما يذكر السفن ــ كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحتفز في سواء اليمِّ لها حادٍ من الريح، وبينا تسير إذا هي قد وقفت بغتة، وقد قبض الله الريح. معجزات والله كل هذه، وأي معجزات بعدها تريدون، ألستم أنتم معجزات؟ لقد كنتم صغاراً وقبل ذلك لم تكونوا البتة، ثم لكم جمال وقوة وعقل «ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات» وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون فتصبحون غير موجودين. «ثم وهبكم الرحمة» لقد أدهشتني جداً هذه الجملة، فإن الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة، فماذا كان يكون أمرهم! هذه من محمد نظرة نافذة إلى لباب الحقيقة، وكذلك أرى في محمد دلائل شعرية كبيرة، وآيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال، وأتبين فيه عقلاً راجحاً وعيناً بصيرة وفؤاداً صادقاً ورجلاً قوياً عبقرياً، لو شاء لكان شاعراً فحلاً أو فارساً بطلاً أو ملكاً جليلاً، أو أي صنف من أصناف البطل»[١٠].

عالمية المعجزة المحمدية

ولكن، إن أجمعت غالبية الدراسات الاستشراقية على نفي صفة الخوارق والمعجزات عن الرسول ﷺ ورأت في نضاله الملحمي معجزته الإنسانية الكبرى، فإن العلامة البريطاني المستشرق هيليار بلارن يرى في

---

(١٠) توماس كارليل: الأبطال، ص ٨١ ــ ٨٢.

مؤلفه: «فكرة الحياة» معجزة رسالة الإسلام في الإنجازات التي حققتها حين وحدت بلاد العرب، وأكدت كونيتها بخروجها من النطاق العربي إلى الصعيد العالمي، فكانت حقيقة ثابتة وحضارة مشرقة، يقول:

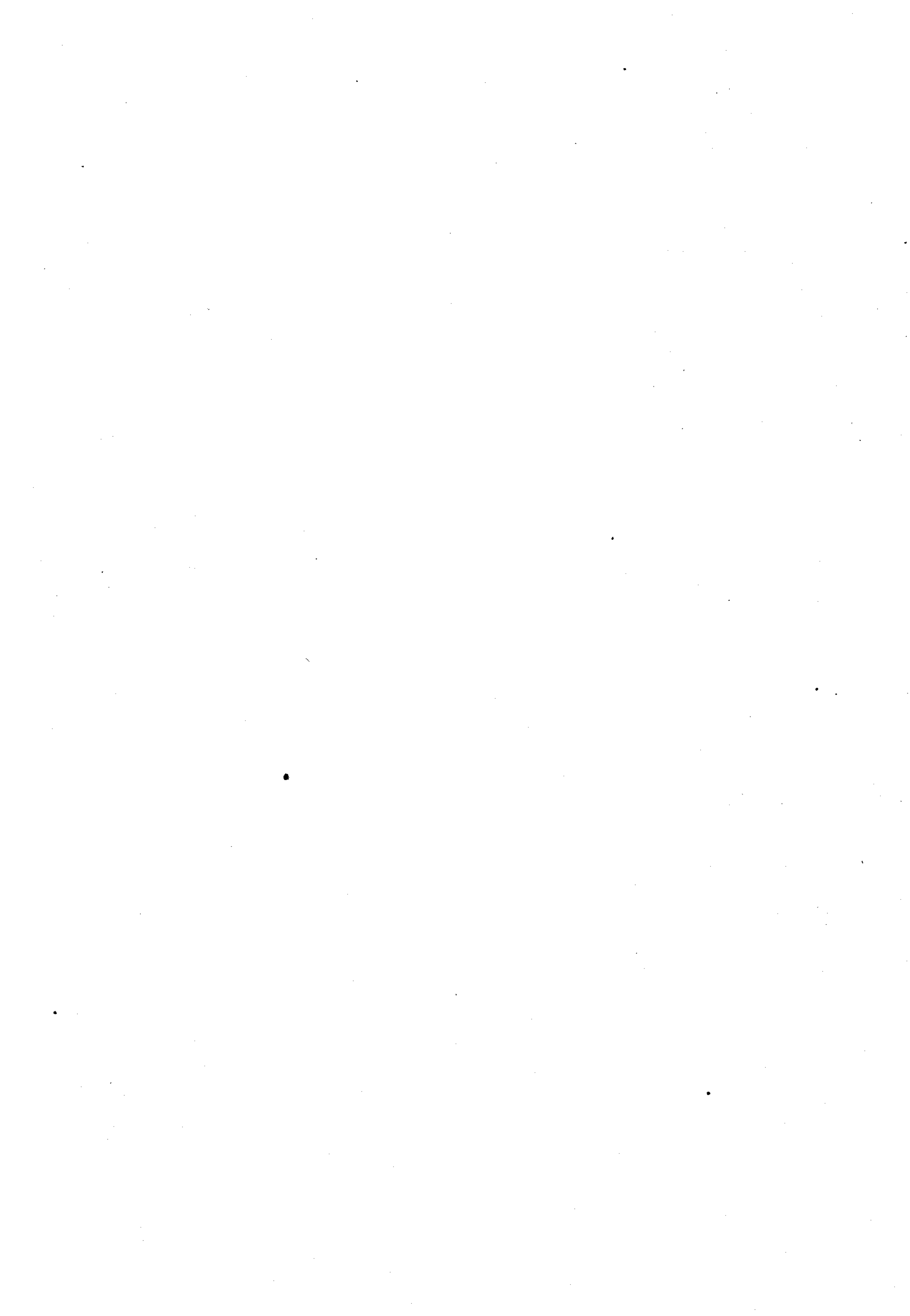
«بينما كانت مدن الإمبراطورية البيزنطية، تحتفل بانتصارات الإمبراطور هرقل على الفرس، وبينما كان الناس في سرور وجذل عظيمين، حدثت المعجزة المحمدية، حدث شيء لم يكن أحد ينتظره ولا يفطن له، حدث أمر كان أقرب إلى الهزة الأرضية أو الفيضان العام في سرعته وشدته، ووقوعه دونما سابق إنذار ولا إشارة.

لم تكن هناك أعراض سبقت هذا الحدث العظيم الضخم، ولا إمارات تدعو إلى انتظاره والتهيؤ له، ولم يكن مضى على انتصارات هرقل إلا سنوات قلائل، لمَّا مشى إلى أرض الإمبراطورية فرسان من الصحراء، ما سمع عنهم أحد شيئاً إلا ما كان يقال من أنهم جماعة يضربون أرض الصحراء على خيولهم وإبلهم طلباً للكلأ والماء، وأنهم قوم من البدو». ويمضي هيليار بلارن فيقول:

«إني أقول إن معجزة كهذه من حيث خطرها، وبعد أثرها، وعظيم نتائجها، كانت مسوقة بقوة لا يستطاع تفسيرها، وإن كان ما لدينا من المصادر والوثائق يساعدنا على تفهم الأسباب التي جعلتها أمراً واقعاً منظوراً»[11].

---

(١١) هليار بلارن: فكرة الحياة، ص ٦٣ ــ ٦٤.



الفصل السَّابع

أخلاق الرَّسُولِ وَمَنَاقِبِهِ



لقد عنيت كتب الحديث والسيرة النبوية وكذلك الدراسات التاريخية الإسلامية، بشمائل الرسول ومناقبه، ودرست بالتفصيل عاداته بل عمله اليومي، ومنها ما أفردت لها فصولاً وأقساماً للتحدث عن مناقبه، أو وضعت كتباً مستقلة تناولت فيما عرف باسم الشمائل المحمدية.. وكانت بدورها مجالاً للباحثين الغربيين والمستشرقين في دراساتهم ذلك الجانب الخَلقي والخُلقي للرسول،...

ويتحدث المستشرق ديسون عن اهتمام الباحثين الإسلاميين في سيرة الرسول، فيقول:

«ولقد راح الكتاب المسلمون يصفون نبيهم فما تركوا ناحية من صفاته وأخلاقه إلا عرّفوا بها وأشاروا إليها»[1].

كان خلقه القرآن

كانت سيرة الرسول وأخلاقه الكريمة، تعكس واقع التزامه العقيدي، فكان «خلقه القرآن» حسب قول أم المؤمنين السيدة عائشة وهذا ما يؤكد مدى التطابق ما بين سيرته الحياتية وسلوكه مع مفاهيم الشريعة الإسلامية

---

(١) ديسون: نقلاً عن كتاب الإسلام دين وعقيدة، ص ٤١.

السمحة التي حملها للبشرية، ولقد بحث المفكر الإسلامي مولانا محمد علي هذه القضية فقال:

«كانت حياته اليومية صورة صادقة للتعاليم القرآنية، لقد كان هو تجسيداً، إذا جاز التعبير، لكل ما أوصى القرآن الكريم به. وكما أن كتاب الله دستور أخلاق سامية لإنماء ملكات الإنسان المتعددة، كذلك فإن حياة الرسول معرض عملي لتلك الأخلاق كلها. وهكذا فإن لدى المسلم هادياً مزدوجاً: القرآن الكريم من الناحية النظرية، وحياة الرسول كمثل كامل»[٢].

الرسول هو القدوة الحسنة والمثل الأعلى

كان عليه الصلاة والسلام في سائر مراحل حياته القدوة الإنسانية والمثل الأعلى والنموذج الأمثل للكمال، لكل مسلم، بل منبع الهداية للبشرية جمعاء، فسيد المرسلين بخلقه العظيم إمام البشر والمعلم الأول والقدوة الحسنة، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿لقد كانَ لكُمْ في رسولِ اللّهِ أسوةٌ حسنة﴾ (الأحزاب/٢١) وعند هذه النقطة يقول الكاتب الفرنسي الكسندر دوما:

«كان محمد معجزة الشرق لما في دينه من معالم، وفي أخلاقه من سمو، وفي صفاته من محامد».

فالرسول هو القدوة الأخلاقية الحسنة، وهو القائل عن صدق: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وكان طبيعياً أن تكون سيرته ـ عليه السلام ـ كاملة ناصعة نقية، معصومة عن الآثام... هذا.. ولقد رأى المفكر الإنكليزية جون أروكس بعصمة الرسول معياراً لعظمته، يقول:

---

(٢) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص ٢٦٤.

«لم نعلم أن محمداً تسربل بأية رذيلة مدة حياته لذلك نراه عظيماً»[٣].

الجدية والبعد عن العبث واللهو

لقد كانت السمة الأساسية في أخلاق الرسول الجدية والابتعاد عن اللهو والعبث، في سائر مراحل حياته،... إذ لا يمكن أن يتم نشر رسالة الإسلام إلاّ في إطار سيرة عملية جادة، يقول توماس كارليل:

«وما كان محمد بعابث قط، ولا شاب شيئاً من قوله شائبة لعب ولهو. بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح، ومسألة فناء وبقاء. ولم يك منه إزاءها إلا الإخلاص الشديد والجد المر. فأما التلاعب بالأقوال والقضايا المنطقية والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قط. وذلك عندي أفظع الجرائم إذ ليس هو إلا رقدة القلب، ووسن العين عن الحق، وعيشة المرء في مظاهر كاذبة، وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الإنسان هو أن جميع أقواله وأعماله أكاذيب، بل إنه هو نفسه أكذوبة. ورأى خصلة المروءة والشرف ــ شعاع الله ــ متضائلاً في مثل ذلك الرجل، مضطرباً بين عوامل الحياة والموت، فهو رجل كاذب. لا أنكر أنه مصقول اللسان، مهذب حواشي الكلام، محترم في بعض الأزمان والأمكنة، لا تؤذيك بادرته، لين المس رقيق الملمس، كحمض الكربون تراه على لطفه سما نقيعاً، وموتاً ذريعاً»[٤].

(٣) جون أروكس: عظماء التاريخ، ص ٨٣.

(٤) توماس كارليل: الأبطال، ص ٨٥ ــ ٨٦.

براءة طبعه

لقد اتسمت بساطة الخلق المحمدي، في سائر مراحل حياته بابتعاده عن الرياء والتصنع، يعرف تماماً حق قدره، فكان عظيماً في وقفته الشجاعة، وإرادته الصلبة، وعزمه الذي لا يلين، ماضياً أبداً إلى ما أرسل إليه... يقول توماس كارليل:

«وإني لأحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع. ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقل الرأي، لا يعول إلا على نفسه، ولا يدعي ما ليس فيه. ولم يك متكبراً، ولكنه لم يكن ذليلاً ضَرِعاً. فهو قائم في ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراد. يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة. وكان يعرف لنفسه قدرها»(٥).

كرم الأخلاق وحسن العشرة وصحة الحكم

إن سجايا الرسول وأخلاقه التي كانت محط اهتمام الباحثين الإسلاميين، استأثرت بدورها باهتمام المستشرقين. يقول أستاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف المستشرق إدوار مونتيه (١٨٥٦ — ١٩٢٧) في كتابه: «حاضر الإسلام ومستقبله»، باحثاً جماع خصاله وجميل سجاياه ونزاهة مقاصده وصحة أحكامه وطبيعته الدينية كمصلح عظيم يدهش الفكر، ويثير مكامن الإعجاب، يقول مونتيه:

«أما محمد فكان كريم الأخلاق حسن العشرة، عذب الحديث، صحيح الحكم، صادق اللفظ، وقد كانت الصفة الغالبة

---

(٥) المصدر السابق، ص ٨٥.

عليه هي صحة الحكم، وصراحة اللفظ، والاقتناع التام بما يقبله ويقوله، إن طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه القصد، بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص، فقد كان محمد مصلحاً دينياً، ذا عقيدة راسخة ولم ينهض ــ إلا بعد أن تأمل كثيراً، وبلغ سن الكمال ــ بهاتيك الدعوة العظيمة، التي جعلته من أسطع أنوار الإنسانية، وهو في قتاله الشرك والعادات القبيحة التي كانت عند أبناء زمنه، كان في بلاد العرب أشبه بنبي من أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا كباراً جداً في تاريخ قومهم، ولقد جهل كثير من الناس محمداً وبخسوه حقه، وذلك لأنه من المصلحين الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقائقها»[٦].

البساطة في حياة الرسول

هذا، وقد درس مولانا محمد علي أخلاق الرسول وعاداته، فألِفَ البساطة والإخلاص قوام الخلق المحمدي، إذ أحب عليه السلام الفضيلة لذاتها، وكانت لديه أخلاق سامية فطرية صميمة غير مكتسبة، وليس أدل على رفيع خصاله من نهجه الحياتي في تنفيذ أعماله بيده، بعيداً عن التكلف والرياء، يتسم كل ما قام به من أعمال وحركات، وكذلك طريقة حياته ولباسه وعاداته بالبساطة...

وكانت تلك البساطة منسجمة مع طبعه الهادىء المفكر، وهذا ما استدعى انتباه المؤرخ والمستشرق الأمريكي أورينج فقال في كتابه: «الحياة والإسلام»:

(٦) مونتيه، (حاضر الإسلام ومستقبله).

«كان النبي الأخير بسيطاً خلوقاً ومفكراً عظيماً ذا آراء عالية، وإن أحاديثه القصيرة جميلة ذات معان كثيرة، فهو إذاً مقدس كريم»[٧]

القناعة والرضى ومسألة الشهرة

إن حقيقة حياة الرسول، وبساطة طبعه وسلوكه، إن دلت على شيء، فعلى تلك القناعة التي هي أقرب للزهد والتقشف، ابتعاداً عن أجواء الشهرة والجاه والسلطان التي غالباً ما تكون وراء طموح عظماء التاريخ.. غير أن الرسول محمداً ما كان البتة بطامع بجاه ولا سلطان، وإنما هدفه الأول والأخير نشر الدعوة الإسلامية وإعلاء كلمة الله، فكان أن ترك الحياة الوادعة، وعاش حياة كفاحية مريرة قاسية عرف فيها شظف العيش وقسوة الحاجة، ولقد ردّ المستشرق الإنكليزي صاحب كتاب: «الأبطال» على أولئك الذين جهدوا في اتهام الرسول ـ عليه السلام ـ بالمطامع الدنيوية التي كانت وراء دعوته، فقال:

«ويزعم المتعصبون والملحدون أن محمداً لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان. كلا وأيم الله، لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير، ابن القفار والفلوات، المتوقد المقلتين، العظيم النفس، المملوء رحمة وخيراً وحناناً وبراً وحكمة وحِجى وإربة ونهى، أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه... وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة، ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين. فبينما ترى آخرين

---

(٧) أورينج: الحياة والإسلام.

يرضون بالإصلاحات الكاذبة ويسيرون طبق الاعتبارات الباطلة، إذ ترى محمداً لم يرض أن يتلفَّع بمألوف الأكاذيب ويتوشح بمتبع الأباطيل، لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات»[8].

الزهد والتقشف والابتعاد عن الشهوات

أجل، كانت حياة بسيطة هي أقرب للزهد منها للجاه، لم تشده المطامع الدنيوية، ولم تعرف الثروة لذاته سبيلاً، فكثيراً ما أمضى لياليه على الطوى عاصباً بطنه من الجوع، وقد أثر الحصير في أطرافه من اعتكافه، وهذه الحقائق بحد ذاتها تشكل ردّاً على من يتهم الرسول بالشهوانية وحب الجاه والتعطش للسلطة،...

فالخلق المحمدي الذي هو خلق القرآن لا يحيد عن العقيدة الإسلامية.. ولقد ردّ كارليل على أولئك المتعصبين الحاقدين من المستشرقين الذين اتهموا الإسلام ورسول الإسلام بالشهوانية، فالإسلام برأيه دين ينأى عن الشهوانية، أما سيرة حياة الرسول التي اتسمت بالبساطة والزهد والتقشف، فأبعد من أن تخفى على باحث، يقول:

«وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلماً وعدواناً، وشد ما نجور ونخطيء إذا حسبناه رجلاً شهوياً، لا همّ له إلا قضاء مآربه من الملاذ، كلاّ فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أياً كانت، لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله، وكان طعامه عادة الخبز والماء، وربما تتابعت الشهور

---

(٨) توماس كارليل: الأبطال، ص ٦٨ ــ ٦٩.

ولم توقد بداره نار، وإنهم ليذكرون ــ ونعم ما يذكرون ــ أنه كان يصلح ثوبه ويرفوه بيده، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام، مجتهد في الله، قائم النهار ساهر الليل، دائب في نشر دين الله، غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفما كانت، رجل عظيم وربكم، وإلا فما كان ملاقياً من أولئك العرب الغلاظ توقيراً واحتراماً، وإكباراً وإعظاماً، وما كان ممكناً أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثاً وعشرين حجة، وهم ملتفون به، يقاتلون بين يديه، ويجاهدون حوله، لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفة، وكانوا حماة الأنوف، أباة الضيم، وعري المقادة صعاب الشكيمة، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا، فذلكم وأيم الله بطل كبير، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا، وكيف وقد كانوا أطوع له من بنانه، وظني أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيباً من طاعتهم مقدار ما ناله محمد في ثوبه المرقع بيده، فكذلك تكون العظمة، وهكذا يكون الأبطال» (٩) !.

الرسول والمرأة

هذا، وقد حاولت الأقلام الاستشراقية المغرضة أن تنفث سمومها ضد رسول الإسلام حين ألصقت فيه تهمة الشهوانية وتهالكه على النساء.. يقول مونتجمري وات في كتاب: «محمد في المدينة»:

(٩) توماس كارليل: الأبطال، ص ٨٣ ــ ٨٤.

« وهناك اتهام أوروبي مسيحي لمحمدٍ بأنه شهواني أو أنه، بلغة القرن السابع عشر، الفظة « فحَّاش مسن » غير أن هذه التهمة تسقط إذا فحصناها على ضوء الأفكار السائدة في عصر محمد. كان الفكر الإسلامي في أول ظهور الإسلام يميل إلى تضخيم شخصية النبي ورفعها فوق مستوى البشر، ويوجد حديث يقول (إن محمداً قد أُعطي من قوة الرجولة ما يجعله يستطيع أن يقسم ليلته بين جميع نسائه).

ولا شك أننا هنا بصدد حديث موضوع لأن الحديث العادي يقول بأن محمداً كان يخصص ليلة لكل واحدة من نسائه، ونستطيع على كل حال أن نحكم من وراء ذلك على موقف بعض أتباع محمد منه. كان المسلمون الأُول سيئي الظن بالعزوبية، وكانوا يعارضونها في كل مناسبة حتى الزهاد في الإسلام كانوا عادة متزوجين »[(١٠)].

هذا، ويرد إميل درمنغهم على هجوم المستشرقين الذين يتناولون حياة الرسول الخاصة، وعابوا عليه تعدد زوجاته وشبقه الجنسي، يقول:

« وإن بعضهم يعيب محمداً في كثرة ميله إلى النساء، فإنه مما لا مشاحة فيه، أن محمداً لم يكن شرهاً ولا فخوراً ولا متعصباً ولا منقاداً للمطامع، بل كان حليماً رقيق القلب عظيم الإنسانية »[(١١)].

ويناقش الباحث الفرنسي المستشرق إتيين دينيه في كتابه:

---

(١٠) مونتجمري وات: محمد في المدينة، ص ٥٠١ ـ ٥٠٢.

(١١) إميل درمنغهم: حياة محمد، ص ١٨٣.

« محمـد رسول الله » من يعيب على الرسول حبه النساء، بقوله :

« كان محمد يحب النساء، وقد عاب عليه الكثير من الأعداء ذلك. وحقاً كان محمد رجلاً بكل ما في الكلمة من معان خلقية ومادية، ورجولته امتازت بالعفة التي لا تتعارض مع أسباب اللذة البريئة المجردة من الدنس، وعلى منواله سلك العرب الذين يمتازون حتى أيامنا هذه بالعفّة والحياء الخاليتين من كل تكلف ورياء، لا كحياء المغالين في الدين وعفتهم المصطنعة المدعاة.

وإذا كان محمد قد عقد على ثلاث وعشرين زوجة فإنه لم يتصل إلا باثنتي عشرة منهن. أما الأخريات فتزوجهن لأسباب سياسية محضة، إذ كانت كل القبائل ترغب في شرف مصاهرته. وقد كثرت عليه الطلبات في شأن ذلك ويروى أن عزة أخت دحية الكلبي ماتت من شدة الفرحة عندما نبئت أن الرسول قبل الزواج بها وقد كان الرسول يعطف على النساء جميعاً وحاول في كل مناسبة إنصافهن. فحرم أول ما حرم وأد البنات، تلك العادة القبيحة القاسية التي تحدثنا عنها فيما سبق. ثم وضع حداً لتعدد الزوجات، فجعل العدد الأقصى منهن أربعاً، وزاد على ذلك أن نصح المؤمنين بالتفكير في الآية : ﴿... فانكحوا ما طاب لكم من النساء، مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة ...﴾.

ومن أحاديثه : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ... وأتبع ذلك بأن منح المرأة حق المطالبة بالطلاق إن لم يوف الرجل بواجباته الزوجية[١٢].

---

(١٢) إتيين دينيه : محمد رسول الله، ص ٣٢٨ — ٣٢٩.

« وبفضل تشريعاته الحكيمة أصبحت البنت البالغ تستشار قبل زواجها، وأصبح المهر لا يعطى للأب بل للعروس نفسها، وقد وصف أعداء الإسلام تلك السنة الحكيمة بأنها: « شراء للمرأة ». وهم لم يسمعوا، فيمْا أظن، ذلك الجواب المفحم الذي يمكن أن يرد به المسلمون عليهم حينما يقولون لهم: إن المهر في بعض الأقطار الغربية يدفعه والد البنت إلى رجلها!... وفوق ذلك، فالمسلم مكلف بسائر حاجات البيت دون أن يكون له أي حق في التصرف في مال امرأته.

ومنح الرسول المرأة كذلك حقاً في الميراث. وحقها فيه: نصف حق الذكر، وذلك لأن المرأة لا تدفع مهراً كالرجل وليست مكلفة بحاجات البيت »[١٣].

ومن جهته ناقش العقاد في كتابه « عبقرية محمد » آراء المستشرقين فيما خص علاقة الرسول بالمرأة، وفند مزاعمهم عن انسياقه وراء رغباته الجنسية ونزواته.. فالرسول برأيه هو أولاً يقيم علاقات طبيعية مع المرأة وثانياً هو طبيعي بحبه المرأة يقول:

« ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيراً على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها، هذا سواء في الفطرة ــ لا عيب فيه، وهذه النفس السوية يمكننا أن نفهمها بجلاء حين نرى أن المرأة لم تشغله عما تشغل المرأة الرجل المفرط في معرفة النساء عن مهام الأمور والقيام بالأعباء الجسام.. فمهما قال هؤلاء فلن يستطيعوا أن ينكروا

(١٣) إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص ٣٢٨ ــ ٣٢٩.

أن محمداً قد حقق ما لم يحققه بشر قبله ولا بعده، لم يشغله عن هذا شيء، لا امرأة ولا غير امرأة، فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطي الدعوة حقها، ويعطي المرأة حقها، فالعظمة رجحان وليست بنقص، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب»[١٤].

ودلت الدراسات المنصفة عن حياة الرسول أن زواجه من نسائه كان بعيداً عن الاستسلام للنزوات الجنسية والانغماس باللذة، على عكس ما ذهب إليه المستشرقون المغرضون يقول العقاد:

«قال لنا بعض المستشرقين إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية، قلنا إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط. فلا ينبغي أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء»[١٥].

إن اتخاذ الرسول تسع نساء زوجات له، كان وراءه جملة من الأسباب السياسية والاجتماعية والإنسانية والأخلاقية...

ومعروف أن خمساً من زوجاته كنّ أرامل أو مطلقات فقدن أزواجهن إما في الحرب أو بطرق أخرى.. وكان تعدد الزوجات في المجتمع الإسلامي نابعاً من الواقع الاجتماعي القائم، نتيجة للحروب الدائرة التي خلفت وراءها تفاوتاً كبيراً بين عدد الجنسين من الرجال والنساء، مما حدا بالمسلمين من الرجال للتزوج بأكثر من واحدة حماية للمجتمع الإسلامي من خطر التفكك والانحلال الخلقي.

---

(١٤) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، ص١٥٦ ــ ١٥٨.

(١٥) عن المصدر السابق، ص١٥٦.

وإلى جانب الناحية الاجتماعية الأخلاقية، كانت هناك أسباب سياسية في زواجه يقول مولانا محمد علي:

«ثم إن بعض الأسباب السياسية أفضت أيضاً إلى زواج الرسول من بعض نسائه. فزواجه من جويرية مثلاً كان نعمة عظمى على قومها. إنه لم يضع حداً لعداوة بني المصطلق المريرة فحسب، ولكنه شدّهم إلى المسلمين برباط من الصداقة قويّ أيضاً، وفوق هذا، فقد كان من النتائج المباشرة لذلك الزواج إطلاق سراح مئات الأسرى من أبناء تلك القبيلة. فهل كان غرضه من هذا الزواج شيئاً آخر غير الغرض الديني؟ وكذلك كان اليهود ألدَّ أعداء الإسلام في بلاد العرب. وقد حاول الرسول أن يتألف قلوبهم أيضاً من طريق البناء بامرأة من نبيلاتهم. ولكن حقد اليهود أثبت هذه المرة أنه أقوى من أن يتأثر بإجراءات الرسول الاسترضائية، لقد أصرّوا على عداوتهم، ولم يكفّوا في أيما يوم عن إنزال الأذى بالإسلام. ومع ذلك فقد بذل الرسول قصارى جهده لتألّفهم. وكانت ميمونة أرملة أيضاً، وكانت تنتسب إلى قبيلة معادية، برغم أن الظروف التي قادت إلى زواجها من الرسول كانت مختلفة بعض الشيء. كانت أختها قد تزوجت العباس، عم الرسول، ومن هنا لم تكد تعرض على الرسول الزواج منها حتى وجد نفسه غير قادر على الرفض»(١٦).

بل إن زواج الرسول من رملة بنت أبي سفيان ــ حسب رأي العقاد ــ كان إنسانياً سياسياً، فقد تم «بدافع النجدة الإنسانية» والأمل في

---

(١٦) مولانا محمد علي... حياة محمد ورسالته، ص ٢٦٠.

أن يكسب أبا سفيان إلى صفه «عسى أن يهديه ذلك إلى الدين». وبما يعطف في قلبه ويرضي من كبريائه»[١٧] ...

وتقدم لنا علاقة الرسول بالمرأة الصورة المتكاملة لشخصيته كنبي ورجل وإنسان، بعيداً عن الشهوانية والانسياق وراء الغريزة الجنسية، بل كان دائماً يعلي من شأن المرأة، وينظر لزوجاته بعين المحبة والاحترام.. وكان ــ عليه السلام ــ الأسوة الحسنة للمسلمين جميعاً وهو القائل: «أكمل المؤمنين أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم».

وكتب المفكر المصري واصف باشا بطرس غالي، في مؤلفه: «فروسية العرب المتوارثة» رداً على افتراءات بيرون ضد الرسول وتعصبه الفاضح:

«كان محمد يحب النساء ويفهمهن، وقد عمل جهد طاقته لتحريرهن، وربما كان ذلك بالقدوة الحسنة التي استنها إضافة للقواعد والتعاليم التي وضعها، وهو يعد بحق من أكبر أنصار المرأة، إن لم يكن عظيم الاحترام والتكريم لهن، لم يكن ذلك خاصاً منه بزوجاته، بل كان ذلك شأنه مع جميع النساء على السواء»[١٨].

ويخلص مولانا محمد علي إلى توضيح أن تعدد الزوجات في الإسلام استثناء للقاعدة، وليس قاعدة ثابتة، هدفها إصلاح المجتمع، وصون الأخلاق، وأن زواج الرسول بأكثر من واحدة جاء انسجاماً مع رسالة حياته الأخلاقية والدينية:

«ومن هنا نرى أن زيجات الرسول كلها كانت تستهدف

(١٧) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، ص٦٦.
(١٨) واصف باشا بطرس غالي: فروسية العرب المتوارثة.

غرضاً أخلاقياً باطناً. فقد نشأت في حياته ظروف لم يكن في ميسوره تجاهلها، انسجاماً منه مع رسالة حياته الأخلاقية والدينية، أن يقصر نفسه على زوجة واحدة، لقد كان خير البشرية مرهوناً بسلوك هذه السبيل، فلم يحجم عن سلوكها. وإنما قضى زهرة حياته، بل القسم الأعظم من كهولته، في كنف امرأة مفردة، مظهراً بذلك أن الزواج من واحدة هو القاعدة في الأحوال السوية. حتى إذا تهدّد الخطر طهارة النساء وعفافهن، ومسّ الأمر وضعهن الاجتماعي، لم يتقاعس عن الأخذ بالبديل الأوحد ــ أعني تعدد الزوجات ــ ولكن علينا أن لا ننسى أن ذلك كان مجرد استثناء للقاعدة قصد به مواجهة حالات شاذة، وليس القاعدة نفسها»(١٩).

ومن هنا، نجد أن التهم الاستشراقية التي تلصق بالرسول الشهوانية، تتهاوى أمام النقد، وتتساقط أمام الحقائق التاريخية.. بل إن رسالة الإسلام كانت خيراً للمرأة إذ جعلتها صنواً للرجل، وعماداً للأسرة، وأعطتها الحقوق القانونية والاقتصادية وعززت مكانتها الاجتماعية.. فرسالة الإسلام العالمية التي حملت الخير، وحققت العدالة والمساواة لأبناء المجتمع الواحد، والإخاء بين الشعوب المختلفة حريٌّ بها أن تكون حاملة الخير والعدل للمرأة، وعملت على المحافظة على عفتها، يقول الباحث والروائي الألماني ويلكي كولنز، في كتابه: «جوهرة القمر»:

«لقد جاء محمد بصيانة النساء وحثهن على العفاف، وحذّر

---

(١٩) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته، ص٢٦٣.

من السير على خلافهما، مشيراً إلى ما في هذين من النقص والخسة، وكم لمثل هذا من نظير في شريعته السامية»[٢٠].

نكرانه ذاته

وكان الرسول في سيرته الحياتية معروفاً بنكران الذات، وتضحيته بثروته في سبيل العقيدة، يقول المؤرخ الأمريكي واشنطون إرفنج:

«كان الرسول في كل تصرفاته ناكراً ذاته، رحيماً بعيداً عن التفكير في الثراء والمصالح المادية، فقد ضحى بالماديات في سبيل الروحانيات»[٢١].

وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين

إنّ الخلق المحمدي الذي هو خلق القرآن، قد طبع بالرحمة والطيبة، لا سيما وأنّ الله بعثه لينقذ البشرية من ضلالها، ويكون هاديها إلى خير سبيل، حاملاً لها الرحمة والخير... يقول المستشرق الإسباني جان ليك (١٨٢٢ــ١٨٩٧) في كتابه: «العرب» مؤكداً هذه الحقيقة:

«وحياة محمد التاريخية لا يمكن أن توصف بأحسن مما وصفها الله نفسه بألفاظ قليلة، بيَّنَ بها سبب بعث النبي (محمد) ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

وقد برهن بنفسه على أن لديه أعظم الرحمات لكل ضعيف، ولكل محتاج إلى المساعدة، كان محمد رحمةً حقيقةً لليتامى والفقراء

---

(٢٠) ويلكي كولنز: جوهرة القمر.

(٢١) واشنطون إرفنج: (نقلاً عن كتاب روح الدين الإسلامي، ص٤٣٨).

وابن السبيل والمنكوبين والضعفاء والعمال وأصحاب الكد والعناء، وإني بلهفة وشوق لأن أصلي عليه وعلى أتباعه»[٢٢].

رقته وسماحة طبعه

وإلى جانب بساطته وزهده وبعده عن الشهوات كان ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ، رقيقاً مع الآخرين يعامل أصدقاءه باحترام وتقدير، مع لين عريكة وسهولة جانب، ولطف ودماثة هي ملازمة لبطولته وشجاعته وكريم أخلاقه التي لا تعرف التصنع ولا التكلف، تلك الصفات التي اعترف بها الأعداء قبل الأصدقاء. يقول المستشرق البريطاني لين بول (١٨٥٢ ـــ ١٩١٧) في مؤلفه: «رسالة في تاريخ العرب»، متحدثاً عن سجايا الخلق المحمدي:

«إن محمداً كان يتصف بكثير من الصفات كاللطف والشجاعة، ومكارم الأخلاق، حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثر بما تطبعه هذه الصفات في نفسه، ودون أن يكون هذا الحكم صادراً عن غير ميل أو هوى، كيف لا وقد احتمل محمد عداءَ أهله وعشيرته سنوات بصبر وجلد عظيمين، ومع ذلك فقد بلغ من نبله أنه لم يكن يسحب يده من يد مصافحه حتى لو كان يصافح طفلاً، وأنه لم يمر بجماعة يوماً من الأيام رجالاً كانوا أم أطفالاً دون أن يسلم عليهم، وعلى شفتيه ابتسامة حلوة، وبنغمة جميلة كانت تكفي وحدها لتسحر سامعيها، وتجذب القلوب إلى صاحبها جذباً، وقد كان محمد غيوراً ومتحمساً، وما كانت حماسته إلا لغرض نبيل، ومعنى سامٍ، فهو لم يتحمس إلا عندما كان ذلك

---

(٢٢) جان ليك: العرب، ص ٤٣.

واجباً مفروضاً لا مفر منه، فقد كان رسولاً من الله، وكان يريد أن يؤدي رسالته على أكمل وجه، كما أنه لم ينس يوماً من الأيام كيانه أو الغرض الذي بعث من أجله، دائماً كان يعمل له ويتحمل في سبيله جميع أنواع البلايا، حتى انتهى إلى إتمام ما يريد»[٢٣].

وأما الكاتب الإنكليزي السير وليم موير فيتناول في مؤلفه: «حياة محمد» سجايا الرسول وشمائله ولين عريكته وتعامله مع الأطفال، فيقول:

«ومن صفات محمد الجليلة الجديرة بالذكر، والحريَّة بالتنويه، الرقةُ والاحترام، اللذان كان يعامل بهما أصحابه، حتى أقلهم شأناً، فالسماحة والتواضع والرأفة والرقة تغلغلت في نفسه، ورسخت محبته عند كل من حوله، وكان يكره أن يقول لا، فإن لم يمكنه أن يجيب الطالب على سؤاله، فضّل السكوت على الجواب، ولقد كان أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، وقالت عائشة رضي الله عنها «وكان إذا ساءه شيء تبينا ذلك في أسارير وجهه» ولم يمسَّ أحداً بسوء إلا في سبيل الله، ويؤثر عنه أنه كان لا يمتنع عن إجابة الدعوة من أحد مهما كان حقيراً، ولا يرفض هدية مهداة إليه مهما كانت صغيرة، وإذا جلس مع أحد أياً كان لم يرفع نحوه ركبته تشامخاً وكبراً، وكان سهلاً لين العريكة مع الأطفال، لا يأنف إذا مر بطائفة منهم يلعبون أن يقرئهم السلام، وكان يشرك غيره في طعامه»[٢٤].

(٢٣) لين بول: رسالة في تاريخ العرب (نقلاً عن كتاب روح الدين الإسلامي، ص ٤٣٨).

(٢٤) وليم موير: حياة محمد (نقلاً عن كتاب «بطل الأبطال»، عبد الرحمن عزام، ص ٤٤ ــ ٤٥).

رجاحة عقله

ويتناول الباحث والمؤرخ الفرنسي كاردفو (١٨٧٢ ـ ١٩٣٣) جانب بساطة الرسول ولين عريكته وسهولة خلقه، مقرونة برجاحة العقل واتزان التفكير، فيقول في كتابه: «العرب»:

«ومن المعروف عن ـ محمد ـ أنه مع أميته كان أرجح الناس عقلاً، وأفضلهم رأياً، دائم البشر، مطيل الصمت، لين الجانب، سهل الخلق، يكثر الذكر ويقل اللغو، يستوي عنده في الحق القريب والبعيد، والقوي والضعيف، يحب المساكين، لا يحقّر فقيراً لفقره، ولا يهاب مَلكاً لملكه، يؤلف أصحابه ولا ينفرهم، ويساير من جالسه أو قاومه، ولا يحيد عمن صافحه حتى يكون الرجل هو المنصرف، يجلس على الأرض، ويخصف النعل، ويرقع الثوب»(٢٥).

رقة قلب وأخو الإنسانية العظيم

إن رقة قلب رسول الله ﷺ، مشهودة له في سيرته الحياتية، وكان فؤاده يتفطر حزناً على إخوانه في الإنسانية للفساد الواقعين به، «والقرآن الكريم يشهد على ذلك حين يقول ﴿ولعلك باخعٌ نفسَكَ ألاّ يكونوا مؤمنين﴾ (٢٦/٣) ولقد عني عناية بالغة بمصلحة أتباعه وخيرهم».

ويتناول المفكر الإنكليزي توماس كارليل في كتابه: «الأبطال» جوانب من حياة الرسول تظهر رقة قلبه ومحبته لإصدقائه ورحمته، وأنه كان أخاً للإنسانية جمعاء، يقول:

---

(٢٥) كاردفو: العرب.

« وكانت آخر كلماته تسبيحاً وصلاةً ، صوت فؤاد يهم بين الرجاء والخوف أن يصعد إلى ربه . ولا تحسب أن شدة تدينه أزرت بفضله ، كلاًّ بل زادته فضلاً ، وقد يروى عنه مكرمات عالية ، منها قوله حين رزىء بغلامه : « العين تدمع ، والقلب يوجع ، ولا نقول ما يسخط الرب » . ولما استشهد مولاه زيد (بن حارثة) في غزوة « مؤتة » قال محمد : « لقد جاهد زيد في الله حق جهاده ، ولقد لقي الله اليوم فلا بأس عليه » ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكي على جثة أبيها ، وجدت الرجل الكهل الذي دب في رأسه المشيب يذوب قلبه دمعاً ! فقالت : « ماذا أرى ؟ » قال : « صديقاً يبكي صديقه » . مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا في محمد أخا الإنسانية الرحيم ، أخانا جميعاً الرؤوف الشفيق ، وابن أمنا الأولى وأبينا الأول »(٢٦) .

وكانت رقة قلب الرسول ورحمته وخصاله الأخرى المتّسمة بالإنسانية تنطبق على مصداقية قوله : « الخلق كلهم عيال الله » ، يقول جان ليك في كتابه : « العرب » :

« ما أجمل ما قاله المعلم العظيم (محمد ﷺ) (الخلق كلهم عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله) »(٢٧) .

أجل ، إن الرسول كان يعمل لصالح الإنسانية جمعاء بهدي من رسالة السماء ، فالخير كل الخير ما جاد به في سبيل البشر !

---

(٢٦) توماس كارليل : الأبطال ، ص ٨٤ ــ ٨٥ .

(٢٧) جان ليك : العرب ، ص ٤٣ .

محبته أصدقاءه

أما الباحث الإسلامي مولانا محمد علي فيتحدث عن جوانب الرحمة في حياة الرسول ومحبته أصدقاءه، يقول:

«وكان الرسول يحب أصحابه حباً جماً. وكان إذا ما صافح أحداً منهم لم يسحب يده إلا بعد أن يسحبها صاحبه. وكان لا يلقى الناس إلا بوجه باسم. وفي رواية عن جرير بن عبد الله أنه لم ير النبي إلا وعلى وجهه ابتسامة. وكان في بعض الأحيان يمازح أصحابه ويداعبهم مداعبات بريئة. وكان يتحدث إليهم تاركاً نفسه على سجيّتها غير مصطنع أيما تحفّظ قد يوقع في نفوسهم أنه أسمى منهم مقاماً. لا، ولم يكن ليمتدح أو يثني على نفسه البتة. وكان يحمل أولاد أصحابه بين يديه ويحتضنهم. وكانوا يوسخون ملابسه في بعض الأحيان، ولكن أيما مسحة من الاستياء لم تكن لتطيف بوجهه. وكان يكره الاغتياب ويحظّر على زائريه أن يذموا أحداً من أصحابه، إذ كان — كما قال — حسن الظن بهم جميعاً. وكان يبدأ أصحابه إذا لقيهم، بالسلام، ويبدأهم بالمصافحة أيضاً. وكان يناديهم أحياناً بأسماء التحبب تعبيراً عن مودّته لهم. وكان لا يصادقه أحد منهم إلا رعى صداقته وقدرها حق قدرها. وكان أبو بكر خليله وصفيّه حتى اللحظة الأخيرة. وكان من دأب الرسول أن يتذكر — في تأثّر غض — وفاء خديجة وإخلاصها، حتى بعد انقضاء سنوات طويلة على وفاتها. وكان زيد، عبده المعتق، شديد التعلق به إلى حدّ جعله يؤثر البقاء في كنفه على الذهاب مع أبيه إلى مسقط رأسه. وكان يتغاضى عن مناحي الضعف عند الناس ولا يلمح إليها مجرد إلماح.

وحتى إذا وقف في المسلمين خطيباً تحدّث عن الوسيلة إلى التخلص من عيب معيّن من غير أن يدع أيما امرىء يشعر أن الرسول يشير إليه »[٢٨].

رحمته بالأعداء

والحديث عن سماحة الرسول ومحبته أصدقاءه، لا بدّ أن يقود إلى موقف الرسول من الأعداء.. فالرحمة والسماحة هما سمتان طبيعيتان في جبلته تبرزان في تعامله مع أصدقائه أو أعدائه. يقول مولانا محمد علي:

« وسماحة الرسول نحو أعدائه يعز نظيرها في تاريخ العالم. فقد كان عبد الله بن أبيّ عدواً للإسلام، وكان ينفق أيامه ولياليه في وضع الخطط لإيقاع الأذى بالدين الجديد، محرِّضاً المكيين واليهود تحريضاً موصولاً على سحق المسلمين. ومع ذلك فيوم توفي عبد الله دعا الرسول ربه أن يغفر له، بل لقد قدّم رداءه إلى أهله كي يكفنوه به. والمكيون الذين أخضعوه وأصحابه، دائماً وأبداً، لأشد التعذيب بربرية منحهم عفواً عاماً. وفي إمكان المرءِ أن يتخيل المعاملة التي كان يجدر بفاتح دنيوي النزعة أن يعاملهم بها. ولكن صفح الرسول كان لا يعرف حدوداً. فقد غفر لهم ثلاثة عشر عاماً من الاضطهاد والتآمر. وكثيراً ما أطلق سراح الأسرى في سماحة بالغة، رغم أن عددهم بلغ في بعض الأحيان ستة آلاف أسير. وفي رواية عن عائشة أنه لم ينتقم في أيّما يوم من الأيام من امرىء أساء إليه. صحيح أنه أنزل العقوبة ببعض أعدائه في أحوال نادرة جداً، وفي

---

(٢٨) مولانا محمد علي: حياة محمد وسيرته، ص ٢٦٨.

فترات جدّ متباعدة. ولكن تلك الحالات كانت تنطوي كلها على خيانات بشعة قام بها أناس لم يعد الصفح يجدي في تقويمهم وإصلاحهم. والحق أن ترك أمثال هؤلاء المجرمين سالمين غانمين كان خليقاً به أن يعني استحسان الأذى والتشجيع عليه. والرسول لم يلجأ إلى العقوبة قط حيثما كان ثمة مجال لنجاح سياسة الصفح كرادع إن لم نقل كإجراء إصلاحي. ولقد أسبغ عفوه على أتباع الأديان جميعاً ــ يهود، ونصارى، ووثنيين، وغيرهم ــ إنه لم يقصر إحسانه على أتباع دينه فحسب»(٢٩).

الرحمة والعنف

غير أن موقف الرسول من الأعداء لا بدّ أن يقود عملياً، إلى مناقشة المواقف التي تفرض على القائد فرضاً فتدفعه إلى الشدة التي يراها البعض قسوة وعنفاً،.. فالرسالة الإسلامية هذه النبتة التي نشأت في مناخ عدائي لا يمكن أن تظهر كدوحة جبارة دون أن تكون على مواقف جدية في مواجهة العنف المضاد، في إطار المجابهة بين قوتين أو أحياناً القيام بأعمال رادعة تمنع تآمر الأعداء وتزيل أخطارهم المستقبلية، يقول توماس كارليل:

«ولم تخل الحروب الشديدة التي وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة، ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران. وكان محمد لا يعتذر من الأولى ولا يفتخر بالثانية. إذ كان يراها من وحي وجدانه وأوامر شعوره، ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين»(٣٠)...

---

(٢٩) مولانا محمد علي، ص ٢٦٩ ــ ٢٧٠.

(٣٠) توماس كارليل، ص ٨٥.

وطبيعي أن تتباين مواقف المستشرقين من هذه القضية، خاصة وأن الرسالة الإسلامية التي نشأت في مناخ معادٍ وعدواني بآنٍ معاً لم يكن ليتسنى لها أن تتحقق وتنتشر سلمياً، رغم أن الرسول الكريم غالباً ما تمسك بالحكمة والموعظة الحسنة، ولذا فقد أمضى ثلاثة عشر عاماً يتحمل سائر أنواع الاضطهاد، وضروب الإهانات، وأفانين التعذيب بصبر عجيب وجرأة لا حدود لها، بما ينسجم ومضمون الآية الكريمة: ﴿أدعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النحل ١٢٥).

ولكن لم يدخر الأعداء وسعاً، بل لم يَدَعوا وسيلة، إلا استخدموها من التجويع إلى حرب الحصار، ومن ثم اللجوء إلى السلاح للقضاء على الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة، وبالمقابل لم يكن بالإمكان إلاّ ردّ العنف بالعنف، وفك الحصار بضرب حصار مماثل، وغدا الجهاد فريضة إسلامية على سائر المسلمين الأوائل للذود عن حياتهم ووجودهم وعقيدتهم.

ومن العجب أن بعض المستشرقين الحاقدين ألصقوا بالرسول تهمة القسوة والجبن.. فكان أن انبرى من صفوف رجالاتهم من عرفوا حقيقة الخلق المحمدي، وطبيعة الرسالة الإسلامية السمحة ليدافعوا عن الرسول، وينافحوا عن الرسالة، مظهرين بطلان ما نفثته أقلام الحاقدين، ومن بين أولئك المنصفين الذين قدروا الرسول حق قدره المؤرخ المستشرق الفرنسي سيديو الذي أعطى الحضارة الإسلامية حقها، يقول:

«ومن التجني على حقائق التاريخ ما كان من عزو بعض الكتاب إلى محمد القسوة والجبن. فقد نسي هؤلاء أن محمداً لم يألُ جهداً في إلغاء عادة الثأر الموروثة الكريهة التي كانت ذات حظوة لدى العرب، كحظوة المبارزات بأوروبة فيما مضى. وكأن أولئك

الكتاب لم يقرأوا آيات القرآن التي قضى محمد فيها على عادة الوأد الفظيعة. وكأنهم لم يفكروا في العفو الكريم الذي أنعم به على ألد أعدائه بعد فتح مكة، ولا في الرحمة التي حبا بها كثيراً من القبائل عند ممارسة قواعد الحرب الشاقة، ولا إلى ما أبداه من أسف على بعض الأحكام الشديدة، وكأنهم لم يبصروا أن الأمة أم القبائل العربية كانت تعد الانتقام أمراً واجباً وأنها ترى من حق كل شخص أن يقتل من غير عقاب مَنْ يكون خطراً عليها ذات يوم... وكأنهم لم يعلموا أن محمداً لم يسيء استعمال ما اتفق له من السلطان العظيم، قضاء لشهوة القسوة الدنيئة، وأنه لم يأل جهداً ــ في الغالب ــ في تقويم من يجور من أصحابه، والكل يعلم أنه رفض ــ بعد غزوة بدر ــ رأي عمر بن الخطاب في قتل الأسرى، وأنه عندما حل وقت مجازاة بني قريظة ترك الحكم في مصيرهم لحليفهم القديم سعد بن معاذ، وأنه صفح عن قاتل عمه حمزة، وأنه لم يرفض ــ قط ــ ما طلب إليه من اللطف والسماح»[٣١].

ليس الإرهاب من الخلق المحمدي

هذا، وذهب بعض المستشرقين إلى أن نجاح الدعوة الإسلامية كان مردّه أسلوب الرسول الذي اتبعه في الترهيب والترغيب والإغراء باللذائذ الحسية والمتع الجنسية (الخمر والنساء)، بل التهديد بالقتل بحد السيف... غير أن الحقائق التاريخية تثبت العكس، وأن الإسلام في أول انتشاره كان مطارداً، وأن المسلمين تعرضوا لشتى أفانين الاضطهاد على يد قريش بهدف ردهم عن إيمانهم وصدهم عن سبيل الحق، ومنهم من قُتل تحت التعذيب

(٣١) سيديو: (نقلاً عن كتاب الإسلام بين الإنصاف والجحود، ص ١٣٤).

لكن دون أن يصرفهم ذلك عن إيمانهم أو الحؤول دونهم ونور الإسلام. هذا، وحين جرد الإسلام سيفه كان ذلك دفاعاً عن النفس وذوداً عن الحياض، ولا جدل في أن سائر الحركات التاريخية التي قادها الأنبياء والمصلحون، لم تكن لتقوم على السيف وحده، بل كذلك على أساس الدعوة الحقة والبناء الأمثل، ومن هنا شهقت صروح الحضارات، وبرزت معالم المدنية التي ظلت شاهداً على أعمال أولئك الأبطال ومصداقاً لصلاح رسالاتهم.

ولقد ردّ العقاد في كتابه: «عبقرية محمد» على أولئك المستشرقين الذين ادعوا أن الإسلام لم ينجح بغير الوعيد والوعود أو غير الإرهاب بالسيف والإغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر، والحور العين، بقوله:

«أي إرهاب وأي سيف؟

إن الرجل حين يقاتل من حوله إنما يقاتلهم بالمئات والألوف.. وقد كان المئات والألوف الذين دخلوا في الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحداً لسيوفهم، وكانوا يلقون عنتاً ولا يصيبون أحداً بعنت، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذاً بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين، ولا يخرجون أحداً من داره.

فهم لم يسلموا على حد السيف خوفاً من النبي الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين، ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى، ويبطلوا الإرهاب والوعيد، ولم يحملوه ليبدأوا أحداً بعدوان أو يستطيلوا على الناس بالسلطان.

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم ولم تكن كلها إلا حروب دفاع وامتناع.

أما الإغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين، فلو كان هو باعثاً للإيمان، لكان أحرى الناس أن يستجيب إلى الدعوة المحمدية هم فسقة المشركين وفجرتهم، وأصحاب الترف والثروة فيهم، ولكان طغاة قريش هم أسبق الناس إلى استدامة الحياة واستبقاء النعمة. فإن حياة النعيم بعد الموت محببة إلى المنعمين تحبيبها إلى المحرومين، بل لعلها أشهى إلى الأولين وأدنى، ولعلهم أحرص عليها وأحن، لأن الحرمان بعد التذوق والاستمرار أصعب من حرمان من لم يذق ولم يتغير عليه حال.

لم يكن أبو لهب أزهد في اللذة من عمر... ولم يكن السابقون إلى محمد أرغب في النعيم من المتخلفين عنه...»[٣٢].

وبعد أن وقفنا عند منافحة المفكر العربي عباس محمود العقاد عن الرسول ونفي ما جاء به المستشرقون من اتهامات مغرضة، ونظرات مجحفة، وأقاويل باطلة نقف عند ردّ الباحث الإنكليزي توماس كارليل على تلك الفرية التي تذهب إلى أن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف، يقول هذا الكاتب المنصف:

«ولقد قيل كثيراً في شأن نشر محمد دينه بالسيف، فإذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه، فشد ما أخطأوا وجاروا، فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف، ولكن ما هو الذي أوجد

---

(٣٢) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، ص ٣٥ ـــ ٣٦.

السيف؟ هو قوة ذلك الدين، وأنه حق. والرأي الجديد أول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد، فالذي يعتقده هو فرد ـــ فرد ضد العالم أجمع ـــ، فإذا تناول هذا الفرد سيفاً وقام في وجه الدنيا فقلّما والله يضيع. وأرى على العموم أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال، أو لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً، وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون، وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أو بأية آلة أخرى، فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم، وليس في طاقتها قط أن تقضي على ما هو خير منها، بل ما هو أحط وأدنى. فإنها حرب لا حكم فيها إلا الطبيعة ذاتها، ونعم الحكم ما أعدل وما أقسط، وما كان أعمق جذراً في الحق، وأذهب أعراقاً في الطبيعة، فذلك هو الذي ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة نامياً زاكياً وحده.

أقول الطبيعة أعدل حكم، بلى ما أعدل وما أعقل وما أرحم وما أحلم، إنك تأخذ حبوب القمح لتجعلها في بطن الأرض، وربما كانت هذه الحبوب مخلوطة بقشور وتبن وقمامة وتراب وسائر أصناف الأقذاء، ولكن لا بأس عليك من ذلك، وألق الحبوب بجميع ما يخالطها من القذى في جوف الأرض العادلة البارة فإنها لا تعطيك إلا قمحاً خالصاً نقياً، فأما القذى فإنها تبلعه في سكون وتدفنه، ولا نذكر عنه كلمة، وما هي إلا برهة حتى نرى القمح زاكياً يهتز كأنه سبائك الإبريز، والأرض الكريمة قد طوت كشحاً

على الأقذاء وأغضت ، بل إنها حولتها كذلك إلى أشياء نافعة ، ولم تشك منها شجواً ولا نصباً . وهكذا الطبيعة في جميع شؤونها ، فهي حق لا باطل ، وهي عظيمة وعادلة ورحيمة حنون ، وهي لا تشترط في الشيء إلا أن يكون صادق اللباب حر الصميم ، فإذا كان كذلك حمته وحرسته ، أو كان غير ذلك لم تحمه ولم تحرسه ، فترى لكل شيء تحميه الطبيعة روحاً من الحق ، أليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو ، وا أسفاه ، شأن كل حقيقة كبرى جاءت إلى هذه الدنيا أو تجيء فيما بعد ؟ أعني أن الحقيقة مزيج من حق وباطل نور في ظلام ، وتجيئنا الحقائق في أثواب من القضايا المنطقية ونظريات علمية من الكائنات ، لا يمكن أن تكون تامة صحيحة صائبة ، ثم لا بد من أن يجيء يوم يظهر فيه نقصها وخطأها وجوهرها فتموت وتذهب ، نعم يموت ويذهب جسم كل حقيقة ، ولكن الروح تبقى أبداً ، ويتخذ ثوباً أطهر ، وبدناً أشرف ، وما يزال يتنقل من الأثواب والأبدان ، من حسن إلى أحسن وجيد إلى أجود ، سنة الطبيعة التي لا تتبدل . نعم إن جوهر الحقيقة الكريم حي لا يموت ، وإنما النقطة الهامة والأمر الوحيد الذي يعرض في محكمة الطبيعة ومجلس قضائها هو هل هذا الروح حق وصوت من أعماق الطبيعة ؟ وليس بهامٍّ عند الطبيعة ما نسميه نقاء الشيء أو عدم نقائه ، وليس هو بالسؤال النهائي ، ليس الأمر الهام عند الطبيعة حينما تقدم إليها أنت لتصدر حكمها فيك ، هو أفيك أقذار وأكدار أم لا ؟ وإنما هو أفيك جوهر وروح صدق أم لا ؟ أو بعبارة تشبيهية ليس السؤال الهام عند الطبيعة هو أفيك قشور أم لا ؟ بل أفيك قمح ؟ أيقول بعض الناس إنه نقي ، إني أقول له : « نعم نقي ، نقي جداً ولكنك قشر ، ولكنك باطل

وأكذوبة وزور وثوب بلا روح، ومجرد اصطلاح وعادة، وما امتد بينك وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة، والواقع أنك لا نقي ولا غير نقي، وإنما أنت لا شيء والطبيعة لا تعرفك وإنها منك براء»(٣٣).

هذا، ولنا وقفة لمعالجة هذه القضية في إطار دراستنا رسالة الإسلام في التسامح الديني والأخوة الإسلامية بين الشعوب المختلفة والأجناس المتعددة...

غير أننا فيما يتعلق بنفي الإرهاب.. عن الخُلق المحمدي، أن النضال البطولي الإنساني للرسول إن دلّ على شيء فعلى عظمة النبي وقوة شخصيته، وصبره العظيم. فما أبعده عن الضعف والجبن والقسوة والإرهاب.. لقد كان قوي الشكيمة في جميع مواقفه، جمع الرحمة إلى الحزم، واللين إلى الثبات، حتى تمكن أن ينشر رسالة ربه التي صدع بها، يقول الكاتب ميخائيل طعمة في مقالة له نشرتها جريدة الكرمل التي كانت تصدر في حيفا قبل الاحتلال الصهيوني:

«لو لم يكن خلق محمد عظيماً لانقلب عليه محيطه، ولو لم يكن خلق محمد عظيماً لضعف أمام ما اعترضه من العقبات، ولرأى نفسه مضطراً إلى مجاراة محيطه، ولما قوي على إحداث ما أوجده من الانقلاب العظيم، فبدَّل الضلال بالهدى، والجهل بالعلم، والهمجية بالمدنية»(٣٤).

العفو عند المقدرة

ويقودنا مبحث رحمة الرسول بالأعداء، ونفي سمة الإرهاب عن الخلق

---

(٣٣) توماس كارليل: الأبطال، ص ٧٦ ـــ ٧٧.

(٣٤) ميخائيل طعمة: جريدة الكرمل.

المحمدي، إلى تناول جانب عملي في أخلاق الرسول، وهو عفوه عن أعدائه عند المقدرة.

يقول المستشرق البريطاني لين بول في مؤلفه: «رسالة في تاريخ العرب»:

«إن ما اتصف به (محمد) من الصبر واحتمال المكاره، والعفو عند المقدرة، لبرهان لنا واضح على أنه كان صادقاً، إذ يقول ﴿لا اكراه في الدين﴾ (٢/٢٥٦) فمحمد ذو يقين راسخ وقوة عزم هائلة»[٣٥].

ويتناول الكاتب الإسلامي مولانا محمد علي مسألة العفو في أخلاق الرسول وما تشكله من جانب هام في شخصيته، يقول:

«وكان العفو جوهرةً أخرى بالغة الإشعاع في شخصية الرسول. لقد وجدت فيه تجسّدها الكامل. ولقد أوصاه القرآن الكريم بـ «أن يأخذ بالعفو ويأمر بالعرف ويعرض عن الجاهلين».

ولقد جاءه تفسير ذلك من لدنه تعالى على هذا النحو: «صل من قطعك، وأعط من حرمك، واغفر لمن أساء إليك». والحق أن هذه الوصية لم تبق عند الرسول حرفاً ميتاً أو موعظة رخيصة. لقد عاش وفقها حتى في أحرج المواقف. وفي معركة أحد، عندما جرح وسقط على الأرض، سأله أحد الصحابة أن يستنزل اللعنة على العدو، فأجاب: «أنا لم أبعث لعّاناً للعالمين، ولكن بعثت هادياً ورحمة.. اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون». وذات مرة جذبه

---

(٣٥) لين بول: رسالة في تاريخ العرب.

بدوي طارحاً دثاره حول عنقه ، وحين سئل الرسول لِمَ لَمْ يعامله بالمثل أجاب قائلاً : إنه لا يردّ على الشرّ بالشر أبداً . وليس من ريب في أن ما أظهره عند فتح مكة من عفو كريم شيء يعزّ نظيره في تاريخ العالم كله . كان المشركون قد بذلوا كل جهد يمكن تصوره للقضاء على الإسلام واغتيال الرسول . ولكنه لم يوجّه إليهم أي كلمة تعنيف على هذه الجرائم الرهيبة كلها . لقد أسبغ عفوه الجزيل حتى على أعداء من مثل أبي سفيان الذي لم يدخر وسعاً في العمل على إيذاء الإسلام ، وعلى زوجته هند التي لم تتورّع عن مضغ كبد حمزة على نحو بربري شنيع »(٣٦) .

أما الباحث الإنكليزي وليم موير فقد تحدث عن معاملة رسول الله ﷺ أعداءه تلك المعاملة التي اتسمت بالرحمة والعفو ، حين فتحه مكة ، يقول :

« وعامل حتى ألدّ أعدائه بكل كرم وسخاء حتى مع أهل مكة ، وهم الذين ناصبوه العداء سنين طوالاً ، وامتنعوا من الدخول في طاعته ، كما ظهر حلمه وصفحه في حالتي الظفر والانتصار ، وقد دانت لطاعته القبائل التي كانت من قبل أكثر مناجزة وعداءً له »(٣٧) .

بيد أنه لا يمكننا أن نفصل مطلقاً موضوع عفو الرسول عن موضوع الدفاع والمنافحة عن دولة الإسلام ، فالرسول يبقى أبداً الحاكم والنبي والإنسان والمناضل الذي لا تلين له عريكة .

---

(٣٦) مولانا محمد علي : ٢٧٣ ـــ ٢٧٤ .

(٣٧) وليم موير : حياة محمد .

يقول مارسيل بوازار في كتابه: «إنسانية الإسلام»، موضحاً نضال الرسول ومنافحته عن المجتمع الإسلامي الجنيني، ورحمته وعفوه عند المقدرة:

«وبالرغم من قتاليَّته ومنافحته، فقد كان يعفو عند المقدرة، لكنه لم يكن ليلين أو يتسامح مع أعداء الدين. ويبدو أن مزايا النبي الثلاث، الورع والقتالية والعفو عند المقدرة، قد طبعت المجتمع الإسلامي في إبَّان قيامه، وجسدت المناخ الروحي للإسلام الاتّباعي. ولا تنفك الأحاديث الشريفة والسيرة النبوية تصوّر في الأذهان كرم الرسول وتواضعه، كما تصور استقامته ونقاءه ولطفه وحلمه. وكما يظهره التاريخ قائداً عظيماً ملء قلبه الرأفة، يصوّره كذلك رجل دولة صريحاً قوي الشكيمة (ديمقراطياً)»[٣٨].

مضاء عزيمته ﷺ وثباته على المبدأ

والحديث عن أخلاق الرسول لا بدّ أن يستدعي وقفة عند مضاء عزيمته، ووقوفه بثبات ورسوخ دفاعاً عن العقيدة، يقول توماس كارليل:

«وكان رجلاً ماضي العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد. وطالما كان يذكر يوم «تبوك» إذ أبى رجاله السير إلى موطن القتال، واحتجوا بأنه أوان الحصيد وبالحر، فقال لهم: الحصيد؟ إنه لا يلبث إلا يوماً. فماذا تتزودون للآخرة؟ والحر؟ نعم إنه حر، ولكن جهنم أشد حراً. «وربما خرج بعض كلامه تهكماً وسخرية. إذ يقول للكفار»: ستجزون يوم القيامة عن أعمالكم ويوزن لكم الجزاء، ثم لا تبخسون مثقال ذرة»[٣٩].

---

(٣٨) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص ٤٦.

(٣٩) توماس كارليل: الأبطال، ص ٨٥.

ويقول مولانا محمد علي:

«إن تراجم الرسول، التي كتبها أصدقاء له وأعداء على حد سواء، لتجمع كلها على الإعجاب بعزمه الراسخ وثباته الذي لا يتزعزع، في أشد المحن قسوة. كان اليأس والقنوط لا يعرفان إلى قلبه سبيلاً، فعلى الرغم من أن المستقبل المظلم والمقاومة العنيدة كانا يكتنفانه من أقطاره جميعاً فإن إيمانه بالنصر النهائي لم يهن لحظة واحدة. لقد عجزت أعتى عاصفة من عواصف الشدائد عن أن تزحزحه عن موقفه قيد شعرة. كان من دأبه أن يتخذ للأمر كل عدة ممكنة، وأن يصطنع للنجاح كل وسيلة متيسّرة، ثم يتوكل على الله. ولم تكن صروف الزمان وتقلّبات الأيام لتقوى على إخماد عزيمته. فلم تكد تنقضي على كارثة أحدٍ الرهيبة أربع وعشرون ساعة ليس غير حتى انطلق مطارداً العدوّ. وبكلمة، فقد كان قلبه، مهما قست المحن، متوهجاً أبداً بإيمان راسخ بأن الحق لا بدّ أن ينتصر في آخر الشوط»[٤٠].

خلوص في النية وإنصاف بالحكم وحفاظ على الذمام

هذا، وإن محمداً المناضل الصامد والنبي الملهم، والقائد السياسي والمشرع العظيم عرف عنه دائماً خلوص النية والنزاهة في الحكم والإنصاف، وحفظه الذمام، يقول المستشرق والفيلسوف الفرنسي إدوار مونتيه، في كتابه: «العرب»:

«عرف محمد بخلوص النية والملاطفة وإنصافه في الحكم

(٤٠) مولانا محمد علي: ص٢٧٦ — ٢٧٧.

ونزاهة التعبير عن الفكر والتحقق، وبالجملة كان محمد أزكى وأدين وأرحم عرب عصره، وأشدهم حفاظاً على الذمام، فقد وجههم إلى حياة لم يحلموا بها من قبل، وأسس لهم دولة زمنية ودينية لا تزال إلى اليوم»[٤١].

الصدق والأمانة

وعرف الرسول منذ نعومة أظفاره أنه الصادق الأمين، فكانت سيرته مفعمة بالاستقامة مشحونة بالإخلاص...

يقول المؤرخ الفرنسي لاتيس (١٨٤٧ ــ ١٩٠٩) في مقالة له نشرتها مجلة الهلال المصرية عن أمانة الرسول وصدقه في نضاله في سبيل نشر الرسالة، ما جعله يحقق معجزة إشادة أول دولة إسلامية:

«إن محمداً كان مشهوراً بالصدق منذ صباه، حتى كان يلقب بالأمين، وما زال يسهر لحياة دينه والعرب حتى مات، وما مات حتى أسس ديناً وأقام دولة»[٤٢].

أما المستشرق الفرنسي إميل برينغهام (١٨٥٧ ــ ١٩٢٤) فقد حاول أن يرسم صورة للرسول بالقلم، إذ تقصى سائر مراحل حياته ليس في الكتب وحسب بل من روح الحضارة التي غرسها في نفوس أتباعه، فكتب يقول في كتابه: «الشرق والإسلام»:

«إنني أردت أن أصور محمداً صورة مطابقة للواقع على قدر الإمكان كما فهمتها مما قرأتها عنه في الكتب، وكما رأيتها في أرواح

(٤١) ادوار مونتيه: العرب.

(٤٢) لاتيس (نقلاً عن مجلة الهلال، ج ٣، جزء ٨).

أتباعه الحية، إلى أن قال: فنشأ معتمداً على نفسه، يرجع إليها في الكبيرة والصغيرة، ويجهد ويعمل لكسب حياته من عرق جبينه، إذ لم يكن ذا ثروة تكفيه مؤنة السعي، فكانت ثروته عند نشأته، صدقه وأمانته ونزاهته وإخلاصه، وتلك لعمر الله أسمى الثروات وأغلاها، تلك كانت صفات محمد في وسط منحلٍّ لا يعرف أخلاقاً ولا نبلاً»(٤٣).

ويتحدث الكاتب الإنكليزي توماس كارليل عن طبع الرسول المفكر وسداد أخلاقه ويقدم صورة قلمية عنه، مظهراً مزاياه الخُلقية والخَلقية، التي ينبع منها النبل والشهامة والصدق، يقول:

«ولوحظ عليه منذ فتائه أنه كان شاباً مفكراً، وقد سماه رفقاؤه الأمين، أي رجل الصدق والوفاء، الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره، وقد لاحظوا أن ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة، وإني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت، يسكت حيث لا موجب للكلام، فإذا نطق فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة، لا يتناول غرضاً فيتركه إلا وقد أنار شبهته، وكشف ظلمته، وأبان حجته، واستثار دفينته، وهكذا يكون الكلام وإلا فلا.

«وقد رأيناه طول حياته رجلاً راسخ المبدأ، صارم العزم، بعيد الهم، كريماً براً رؤوفاً نقياً فاضلاً حراً، رجلاً شديد الجد مخلصاً، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة، جم البشر والطلاقة، حميد العشرة حلو الإيناس، بل ربما مازح وداعب. وكان على العموم تضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق، لأن من الناس من تكون

---

(٤٣) اميل برينغهام: الشرق والإسلام.

ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله، هؤلاء لا يستطيعون أن يتبسموا. وكان محمد جميل الوجه، وضيء الطلعة، حسن القامة، زاهي اللون، له عينان سوداوان تتلألآن، وإني لأحب في جبينه ذلك العرق الذي كان ينتفخ ويسود في حال غضبه (كالعرق المقوس الوارد في قصة القفازة الحمراء لوالترسكوت)، وكان هذا العرق خصيصة في بني هاشم، ولكنه كان أبين في محمد وأظهر. نعم، لقد كان هذا الرجل حاد الطبع ناري المزاج، ولكنه كان عادلاً صادق النية، كان ذكي اللب شهم الفؤاد، لوذعياً كأنما بين جنبيه مصابيح كل ليل بهيم ممتلئاً ناراً ونوراً، رجلاً عظيماً بفطرته، لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم، وهو غني عن ذلك كالشوكة استغنت عن التنقيح، فأدى عمله في الحياة وحده في أعماق الصحراء»(٤٤).

ولكن برغم ما اتصف به النبي من صفات الكمال الخلقي، كان هناك عدد من المستشرقين بدافع التعصب الأعمى والحقد الطائفي الدفين الذي هو وليد الحروب الصليبية، دأبهم تشويه صورة الرسول وتزوير الحقائق التاريخية.. فنهد لهم المستشرق الفرنسي ميسمر للرد عليهم مسفهاً تلك الأقاويل، داحضاً تلك التخرصات في كتابه: «العرب في عهد محمد»، وذهب إلى الرأي بأن كل من ينكر صدق محمد هو كاذبٌ سفيهٌ لا يتحدث بوحي من ضميره ونعما ذلك المنصف الذي يقول:

«إن من تسافه وأنكر صدق محمد فقد بتَّ بهذه المسألة دون أن يحلها، وحمل ضميره مسؤولية المكابرة، ورمى بنفسه إلى نهاية

---

(٤٤) توماس كارليل: الأبطال: ص٦٧ ــ ٦٨.

سيئة، إذ ليس من وحي الضمير الحر ما يقارفه أولئك المغرضون على محمد الذي اتصف بكل صفات الكمال»(٤٥).

هذا، ولنا وقفة متأنية مع الدراسات الاستشراقية في مبحثنا صدق الرسول وصحة الرسالة، لما لهذه القضية من أهمية، فالتشكيك بصدق الرسول يقود تلقائياً إلى زعزعة الثقة بصحة رسالة الإسلام.

عظيم في أخلاقه وسيد الأنبياء في شريعته

كان الرسول عظيماً في أخلاقه إنساناً وقائداً ونبياً، لا ينطق عن الهوى.. ويرى المندوب الفرنسي على سورية ولبنان مكسيم ويغان، أنه القدوة الحق بأخلاقه وشريعته، هذا وقد قال في خطبة له القاها في بيروت عام ١٩٢٥ بمناسبة ذكرى عيد المولد النبوي:

«مهما احتفل المسلمون بعيد ميلاد محمد فهو قليل، لأنه جاءهم بدين هو فوق الأديان، وهو في نفسه كبير، وفي أخلاقه عظيم، وفي شريعته سيد الأنبياء، فعلى المنصفين أن يحتفلوا بذكرى عظماء التاريخ، وفي طليعتهم محمد الرسول العربي القائد الأعلى لتحقيق شريعة الله على الأرض، وتركيزها في صدور الناس»(٤٦).

وإنك لعلى خلق عظيم

ليس بوسعنا هنا أن نستعرض سائر شمائل النبي محمد من جوده الذي لا حدود له، وتهذيبه الرفيع، وشجاعته النادرة، وحيائه الجم الذي يقرب من

---

(٤٥) ميسمر: العرب في عهد محمد: ترجمة فؤاد بطرس— ١٩٢٢.

(٤٦) ويغان مكسنيم: (نقلاً عن كتاب محمد عند علماء الغرب ص ١٤٤).

خفر العذارى.. وفي أسلوب تعامله مع الآخرين... إلاّ أننا ندرك من الخطوط العريضة لمناقبه أنه اجتمعت فيه سائر الصفات الحميدة، ومكارم الأخلاق، مما ينطبق عليه وصف القرآن الكريم إياه بقوله تعالى: ﴿وإنَّك لعلى خلق عظيم﴾.

محمد المثل الكامل

ويتحدث اللورد هيدلي عن أخلاق الرسول راداً تهم الافتراء والتزوير التي حاولت المساس بمصداقية أخلاقه وعصمته.

«ليس في وسع الإنسان، في الحقيقة، إلا أن يعتقد أن مدبجي وناسجي هذه الافتراءات لم يتعلموا حتى ولا أول مبادىء دينهم، وإلا لما استطاعوا أن ينشروا في جميع أنحاء العالم، تقارير معروفاً لديهم أنها محض كذب واختلاق.

إن تعاليم القرآن قد نفذت وموّرست خلال حياة محمد الذي ــ سواء في أيام تحمله الألم والاضطهاد، أو في زمن انتصاره ونجاحه ــ أظهر أشرف الصفات الخلقية التي لا يتسنى لمخلوق آخر إظهارها.

فكل صفات الصبر والثبات في عصره كانت ترى أثناء الثلاث عشرة سنة التي تألمها في مجاهداته الأولى بمكة. ولم يشعر في كل زمان هذا الجهاد بأي تزعزع في الثقة بالله، وأتم كل واجباته بشمم وحمية.

كان ﷺ، مثابراً، لا يخشى أعداءه لأنه كان يعلم بأنه

مكلف بهذه المأمورية من قبل الله. ومن كلفه بهذا العمل لن يتخلى عنه...

«وقد أثارت تلك الشجاعة التي لا تعرف الجفول ـ تلك الشجاعة التي كانت حقاً إحدى مميزاته وأوصافه العظيمة ـ إعجاب واحترام الكافرين، وأولئك الذين كانوا يشتهون قتله... ومع ذلك فقد تنبهت مشاعرنا، وازداد إعجابنا به بعد ذلك في حياته الأخيرة، أيام انتصاره بالمدينة، عندما كانت له القوة والقدرة على الانتقام، واستطاعته الأخذ بالثأر ولم يفعل، بل عفا عن كل أعدائه.

العفو والإحسان والشجاعة، ومثل هاتيك الصفات، كانت ترى منه في كل تلك المدة، حتى إن عدداً عظيماً من الكافرين اهتدوا إلى الإسلام عند رؤية ذلك.

عفا بلا قيد ولا شرط عن كل هؤلاء الذين اضطهدوه وعذبوه، آوى إليه كل الذين كانوا قد نفوه من مكة، وأغنى فقراءهم وعفا عن ألد أعدائه، عندما كانت حياتهم في قبضة يده وتحت رحمته...!

تلك الأخلاق الربانية التي أظهرها النبي الكريم، اقنعت العرب بأن حائزها يجب أن لا يكون إلا من لدن الله، وأن يكون رجلاً على الصراط المستقيم حقّاً، وكراهيتهم المتأصلة في نفوسهم، حولتها تلك الأخلاق الشريفة إلى محبة وصداقة متينة.

محمد المثل الكامل....

ونحن نعتبر أن نبي بلاد العرب الكريم، ذو أخلاق متينة،

وشخصية حقيقية، وزنت واختبرت في كل خطوة من خطا حياته ولم ير فيها أقل نقص قطّ.

وبما أننا في احتياج إلى نموذج كامل يفي بحاجاتنا في خطوات الحياة، فحياة النبي المقدس تسد تلك الحاجة. حياة محمد كمرآة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقي، والسخاء والكرم، والشجاعة والإقدام، والصبر والحلم، والوداعة والعفو، وباقي الأخلاق الجوهرية التي تكوّن الإنسانية.

نرى ذلك فيها بألوان وضاءة.. خذ أي وجه من وجوه الآداب تتأكد بأنك تجده موضحاً في إحدى حوادث حياته.

ومحمد وصل إلى أعظم قوة، وأتى إليه مقاوموه ووجدوا منه شفقة لا تُجارى، وكان ذلك سبباً في هدايتهم»[٤٧] ...!

كتلة فضائل مجسمة لا نظير لها

وفي الختام نرى أن ما ذهب إليه المستشرق الإنكليزي السير وليم موير في كتابه: «حياة محمد» هو خير ما يمكن أن نختم به النظرة الاستشراقية المنصفة لأخلاق الرسول وشمائله، إذ يقول:

«وباختصار فإنه مهما ندرس حياة النبي محمد ﷺ نجدها على الدوام عبارة عن كتلة فضائل مجسمة مع نقاء سريرة وخلق عظيم، وستبقى تلك الفضائل عديمة النظير على الإطلاق في جميع الأزمان: في الماضي وفي الحاضر والمستقبل»[٤٨].

---

(٤٧) اللورد هيدلي: (نقلاً عن إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص ٢٥ ـــ ٢٧).

(٤٨) وليم موير: حياة محمد.



القسم الثالث

الرسول ورسالة الإسلام



ـ صدق الرسول وصحة الرسالة .
ـ الرسول ورسالة الإصلاح .
ـ الرسالة الإسلامية .



الباب الأوّل

صدق الرسول وصحّة الرسالة



إذا كانت سيرة حياة الرسول ورسالة الإسلام، قد أثارتا ذاك الاهتمام البالغ على صعيد الحركة الاستشراقية، باتجاهيها المنصف العادل والجاحد الجائر، فذلك للدور التاريخي البالغ الخطورة الذي لعبته رسالة الإسلام وما زالت تلعبه، وما يمكن لها أن تقوم به في سبيل مستقبل الإنسان وصلاح الإنسانية.

قيام الدولة الإسلامية وبدء الصراع الديني بين المسيحية والإسلام

فمنذ أن صدع الرسول الكريم برسالة الإسلام، وشرع ينشر الدعوة، وقعت المجابهة ما بين الدولة الإسلامية والدولة المسيحية البيزنطية.... وترك مناخ الصراع هذا أثره على المرحلة اللاحقة في وقوع المجابهة المباشرة في أرض الإسلام إبان الحروب الصليبية، وامتدت مع ظهور أوروبة البرجوازية، وانتشار حركة الاستشراق التي كانت بادىء ذي بدء جزءاً من المشروع الاستعماري الغربي... ومن ثم وقوع الشرق في براثن الغرب، مما خلق مناخ عدم الثقة ما بين الشرق المسلم والغرب المسيحي، وما زالت آثاره ملموسة حتى اليوم.

الاستشراق الأداة الفكرية للإمبريالية ما بين الشرق والغرب

وإن كنا لسنا في معرض دراسة تاريخية لحركة الاستشراق، فلا مندوحة

لنا من القول، إن مناخ المجابهة ما بين الشرق والغرب غالباً ما جعل الاستشراق أداة في هذا الصراع، فتكشفت المواقف المعادية للرسول محمد ولرسالة الإسلام في محاولة التشكيك بصدق الرسول لتطعن من ثم بمصداقية الرسالة.

الكنيسة المسيحية معقل الهجوم على الإسلام

ولكن علينا أن نؤكد حقيقة أن العداء الإسلامي المسيحي لم يكن وليد المرحلة الاستعمارية للغرب بل كان سابقاً عليه، منذ أن ظهر الإسلام كدين عالمي، بعد انتشاره في مختلف بلدان العالم، وضم في إطاره شعوباً وقبائل وأجناساً مختلفة في ظل الأُخوة الإسلامية والتعايش بين مختلف الأديان بفضل التسامح الديني الإسلامي.

لقد كانت الكنيسة المسيحية في القرون الوسطى المعقل الأساسي للهجوم على النبي العربي ـــ عليه السلام ـــ وعلى رسالة الإسلام، فكان دورها الأول تغذية روح العداء، وإثارة الأحقاد الدينية، وإذكاء روح التعصب الأعمى بذريعة أن الرسول ﷺ عدو المسيح، وأن الإسلام ينقض المسيحية، ضاربة عرض الحائط بالحقائق الثابتة التي نادى بها الإسلام، وهي أنه جاء ليتمم لا لينقض، ناهيك باعترافه بسائر أنبياء التوراة، وأنه أحل المسيح ـــ عليه السلام ـــ منزلةً رفيعةً وكذلك والدته مريم البتول.

ورغم مواقف الإسلام الإيجابية من الشعوب والمعتقدات المسيحية، فإن الإسلام ورسول الإسلام ظلاً موضع الهجوم الشرس والعنيف. ويبسط المستشرق الإنكليزي مونتجمري وات فكرته بدراسة الأحقاد المسيحية الموجهة ضد الإسلام بقوله:

«ليس بين كبار رجال العالم رجل كثر شانئوه كمحمد. ومن الصعب فهم السبب الذي دعا إلى ذلك. فلقد كان الإسلام خلال قرون عدة العدو الأكبر للمسيحية، ولم تكن المسيحية، في الحقيقة، على اتصال مباشر بأية دولة أخرى منظمة توازي الإسلام في القوة. فلقد هوجمت الإمبراطورية البيزنطية بعد أن فقدت مقاطعاتها في سورية ومصر في آسية الصغرى وافريقية، بينما كانت أوروبة الغربية مهددة في إسبانية وصقلية.

وأخذت الدعاية الكبرى في العصور الوسطى، حتى قبل أن توحد الحرب الصليبية اهتمام المسيحيين حول طرد العرب من الأرض المقدسة، تعمل على إقرار فكرة (العدو الأكبر) في الأذهان، ولو كانت تلك الدعاية خالية من كل موضوعية».

«وأصبح محمد «ماهومد» (أمير الظلمات) حتى إذا ما حل القرن الحادي عشر كان للأفكار الخرافية المتعلقة بالإسلام والمسلمين والقائمة في أذهان الصليبيين تأثير يؤسف له: فلقد أنذر الصليبيون بأن ينتظروا أسوأ الأمور من الأعداء، ولما وجدوا بين هؤلاء الأعداء كثيراً من المحاربين الفرسان شعروا بالريبة من السلطات الدينية المسيحية. ولهذا حاول بطرس الراهب أن يعالج هذا الوضع بإذاعة معلومات أصدق عن محمد والديانة التي يدعو لها. وقد حدث فيما بعد تطور كبير في هذا السبيل ولا سيما منذ قرنين من الزمن، وإن ظل كثير من الأوهام عالقاً في الأذهان»(١).

---

(١) مونتجمري وات: محمد في المدينة، ص٤٩٣ ــ ٤٩٤.

النقد الاستشراقي لمواقف الكنيسة المتعنتة

ومع تكون الوعي لدى المفكرين الغربيين، بعد تحررهم من سيطرة الكنيسة ومن أساليبها الدعائية المضللة، اتجه الاستشراق إلى دراسة المواقف العدائية للكنيسة، ووضعها تحت مجهر النقد بأقلام غربية منصفة. فقد ناقش الكاتب الإيرلندي برنارد شو بحيادية المفكر وموضوعية العالم مواقف الكنيسة المسيحية من الإسلام في القرون الوسطى، وأظهر أنها لم تصدر إلاّ عن التعصب الذميم، وردّ على فرية أن محمداً عدو المسيح، وجُل ما عمله أنه أسقط الوثنية ونادى بوحدانية الله سبحانه وتعالى، فكان بذلك المنقذ والمحرر، يقول:

«لقد طبع رجال الكنيسة في القرون الوسطى دين الإسلام بطابع أسود حالك، إما جهلاً وإما تعصباً، إنهم كانوا في الحقيقة مسوقين بعامل بغض محمد ودينه، فعندهم أن محمداً كان عدواً للمسيح. ولقد درستُ سيرة محمد الرجل العجيب، وفي رأيي أنه بعيد جداً من أن يكون عدواً للمسيح. إنما ينبغي أن يدعى منقذ البشرية»[٢].

وما هو إلا بشر يوحى إليه، ونفي تهمة الألوهية عن محمد

ويذهب الباحث الإنكليزي الكولونيل بودلي في كتابه: «حياة محمد» إلى أن كثيراً من المستشرقين والكتاب الغربيين قد وقعوا في شرك التعصب، الذميم بسبب انجرافهم بتيار ترويج الأباطيل والسخافات عن الإسلام منذ الحروب الصليبية جراء (أنهم لم يفهموا محمداً وشريعته)، التي هي الدعوة إلى

(٢) برناردشو. (نقلاً عن كتاب محمد عند علماء الغرب، ص١٠٧).

السلام والتسليم لإرادة الله ووحدانيته. كما كتب بودلي في دفاعه عن الرسول والرسالة مجاهراً بقوله:

«إن من أعظم الكبائر في نظر الإسلام الشرك بالله...، وإن محمداً لم يدَّعِ لنفسه صفة إلٓهية، وكثيراً ما صرح بأنه بشر يوحى إليه، وأن السبب في سرعة انتشار الإسلام عن غيره من الأديان، وهو عدم ادعاء النبي صفة إلٓهية، وعدم دعوته إلى عبادة شخصه، وكذلك تسليم القرآن بصحة الديانات المنزلة من قبل»[٣].

هذا، ولكثرة ما نجم عن منصفي المفكرين الغربيين تبدلت كثيراً لهجة المستشرقين المعادين للإسلام، ولم يعد بالمستطاع إخفاء الحقائق التاريخية الملموسة، والاسترسال بتلك اللهجة العدائية القديمة، والسباحة ضد التيار... وكانت النتيجة أن أخضعت الدراسات القديمة المشحونة بالتزوير والتدليس للنقد وفندت أكاذيبها.

وبدوره يفند المستشرق هنري دي كاستري في كتابه: «الإسلام خواطر وسوانح» تهمة الألوهية عن محمد، بقوله:

«وذهبوا إلى أن محمداً وضع دينه بادعائه الألوهية. ومن المستغرب قولهم: إن محمداً الذي هو عدو الأصنام ومبيد الأوثان، كان يدعو الناس لعبادته في صورة وثن من ذهب. بل لقد أغرق خيالهم في الضلال. فذهبوا إلى أبعد من ذلك.

وذهبوا إلى صورة «ماهومت» كانت تصنع من أنفس الأحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق إتقان»[٤].

(٣) بودلي: (نقلاً عن مجلة الأزهر الصادرة في أيار عام ١٩٥٢).

(٤) هنري دي كاستري: الإسلام خواطر وسوانح.

ومن ثم يخلص إلى القول :

ولقد أطلنا القول في تلك الأضاليل، لأن تاريخ إسكندر★ المذكور لم يزلها، ولأنها تركت أثراً في الأذهان وصل إلى أهل هذه الأيام، وتشبعت به أفكارهم في النبي وكتابه».

محمد والحقيقة التاريخية

وكان فيمن تصدى للأقلام المغرضة المستشرقة الإيطالية لورا فكشيا فاليري (١٨٣٩ ــ ١٨٩٧) التي طفقت تدافع ــ في القرن التاسع عشر ــ عن الرسول العربي، وتفند الأكاذيب التي كانت تشاع عنه في القرون الوسطى، والتي لم تعد تمتلك القوة لتضليل العقول في عصر العلم والمعرفة، والدراسات التاريخية والاجتماعية والدينية والفلسفية المقارنة، وسلم العديد من المستشرقين بصحة الرسالة الإسلامية وعظمتها، وظهورها كانقلاب غير وجه العالم، وأثر على سيرورة الحياة الإنسانية، ولم يتردد الكثير من المستشرقين أن رفعوا عقيرتهم إيماناً بالإسلام، والجهر بأن الرسول محمداً ﷺ خاتم الأنبياء، ولا يسعنا في هذا الصدد إلا أن ننقل ما كتبته تلك الإيطالية الدارجة في أرض البابوية بكتابها: «الأديان»:

«إنه مما لا شك فيه أن وصف (محمد) بتلك الأكاذيب التي كانوا يشيعونها في القرون الوسطى عنه وعن ديانته، قد خفت كثيراً في هذا العصر، وصاروا ينشدون الحقيقة التاريخية عن محمد،

★ ألف القسيس: (اسكندر دويون) كتاباً عام ١٢٥٨م عن محمد، وكان الناس يعدونه تاريخاً صحيحاً للرسول مع أنه ليس كذلك.

وعن الإسلام الذي قلب وجه العالم، وإن جماعة من المستشرقين يؤيدون رسالة محمد، ويقولون إنه خاتم الرسل»[٥].

هذا، ووقـــف المستشرق السويسري حنـــا دا قنبرت (١٨٢٦ ــ ١٩١٢) مواقف نبيلة في دفاعه عن الرسول بعد دراسته الوثائق التاريخية لاستنباط الحقائق الثابتة فيما يتعلق بمناقبه، فأكد في كتابه: «محمد والإسلام»، عظمة الرسول:

«إنه كلما ازداد الباحث تنقيباً في الحقائق التاريخية الوثيقة المصادر فيما يخص الشمائل المحمدية، ازداد احتقاراً لأعدائه الذين أشرعوا أسنة الطعن في محمد قبل أن يعرفوه، ونسبوا إليه ما لا يجوز أن ينسب إلى رجل حقير فضلاً عن رجل كمحمد الذي يحدثنا التاريخ عنه أنه رجل عظيم»[٦].

شهرة الرسول في أوروبة عهد القرون الوسطى

ومهما يكن أثر الكنيسة البالغ في تشكيل اتجاهات الرأي العام الأوروبي المعادي أساساً للإسلام، كان اسم الرسول معروفاً جيداً في أوروبة ــ القرون الوسطى ــ، وبأنه نبي مرسل جاء ليتمم الرسالات السابقة، وقد ورد في الموسوعة الفرنسية الكبرى ما يؤكد هذه الحقيقة بما ترجمته:

«كان اسم محمد معروفاً في أوروبة في القرون الوسطى بأنه نبي، وأنه خاتم النبيين، وقد جاء ليتم التعاليم السابقة»[٧].

---

(٥) لورا فكشيا فاليري: الأديان ص ٩٦، (نقلاً عن ترجمته الفرنسية).

(٦) حنا دا قنبرت: محمد والإسلام.

(٧) الموسوعة الفرنسية الكبرى، ص ١١٧٤.

وإذا كان الرسول معروفاً في أوروبة بأنه نبي صدع بالرسالة، يظل الاتجاه العام السائد معادياً للرسول وللرسالة، بسبب تلك الأحقاد الدينية التي أعمت الأبصار وغشت على البصائر، وبالتالي فما انفك ذلك الحقد الدفين يفعل فعله نتيجة الرواسب الفكرية التاريخية التي لم يستطع العقل الأوروبي أن يتحرر منها، إضافة إلى عوامل أخرى سببها الجشع البرجوازي في السيطرة على بلاد الشرق لنهب خيراته. فكانت تظهر بين الفينة والفينة النوازع القديمة التي تحاول تكذيب الرسول واتهامه بالدجل والتزوير الخداع، وتتهمه بالجنون والصرع ليسهل الطعن في الرسالة الإسلامية تعامياً عن الحقيقة الساطعة لعظمة الرسول وعظمة الرسالة.

صحة الرسالة وصدق الرسول

لقد كان لكتاب الأبطال الذي ألفه توماس كارليل أثره البالغ على حركة الاستشراق، فكان لاقتناعه بصحة رسالة الإسلام وصدق الرسول، ما حمل الكثير من المفكرين على إعادة حساباتهم، وتخلي آخرين عن غلوائهم وتعصبهم الديني... **لقد** قدر كارليل الرسولَ حق قدره، وعرف مكامنَ عظمته، ونواحي عبقريته، فكان أن خلص إلى ما مُؤداه: آن الأوان لبعض مفكري الغرب أن يدركوا صحة رسالة الإسلام، التي لولا اعتمادها على الصدق، واشتمالها على الخير والعظمة والقوة، لما استمرت تاريخياً، ولما استطاعت أن تنشىء أمة وتبني حضارة، فكانت سراجاً وهاجاً أضاء العالم الغارق في ظلماته، وأنار السبيل أمام البشرية لإخراجها من دياجير الظلمة إلى ساطع الأنوار...

يقول الباحث الإنكليزي مونتجمري وات في كتابه: «محمد في

مكة»، دارساً صورة الوعي النبوي عند محمد، متطرقاً لأثر كارليل على وعي الغرب وإدراكه الحقيقة المحمدية، ومواقف الكتاب الغربيين السابقة، يقول:

«منذ أن قام كارليل بدراسته عن محمد في كتابه (الأبطال وعبادة البطل) أدرك الغرب أن هناك أسباباً وجيهة للاقتناع بصدق محمد. إذ أن عزيمته في تحمل الاضطهاد من أجل عقيدته، والخلق السامي للرجال الذين آمنوا به، وكان لهم بمثابة القائد، وأخيراً عظمة عمله في منجزاته الأخيرة، كل ذلك يشهد على استقامته التي لا تتزعزع. فاتهام محمد بأنه (دجال) يثير من المشاكل أكثر مما يحل. ومع ذلك فليس هناك شخصية كبيرة في التاريخ حظّ من قدرها في الغرب كمحمد. فقد أظهر الكتّاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عن محمد، وكلما ظهر أي تفسير نقدي لواقعة من الوقائع ممكناً قبلوه»[٨].

ويتحدث مونتجمري وات في مكان آخر مفنداً الاتهامات التي وجهت إلى الرسول وجلّها اتهامات تمس صميم أخلاقه، يقول:

«من الضروري في العالم الحديث حيث تتزايد الاتصالات الوثيقة بين المسيحيين والمسلمين، أن يحاول كل منهما الوصول إلى نظرة موضوعية عن خلق محمد. فلقد كان التشهير الذي لقيه الكتاب الأوروبيين يتبعه غالباً تعظيم رومانطيقي لشخصيته، وهو تعظيم قام به غيرهم من الأوروبيين والمسلمين، وهدف الدراسة التي تقوم بها أن تعمل على تكوين موقف واقعي من الانتقادات المتعلقة بالأخلاق، وكان موضوعها محمداً وقد خلفتها لنا القرون الوسطى.

---

(٨) مونتجمري وات: محمد في مكة، ص ٩٤.

وتدور هذه الانتقادات حول ثلاث مسائل رئيسية: الخداع، الشهوانية، عدم الوفاء.

«لقد نفى كارليل منذ أكثر من مئة سنة تهمة الخداع، ومن ثم جعل العلماء يرفضونها أكثر فأكثر، ومع ذلك لا تزال، في بعض الأحيان، يتهم بها محمد.

وأقصى ما يصل إليه هذا الرأي القول بأن محمداً لم يكن يؤمن بما يوحى إليه، وأنه لم يتلق الوحي من مصدر خارجي عنه بل أنه ألف الآيات عن قصد ثم أعلنها للناس بصورة خدع بها الناس وجعلهم يتبعونه فضمن لنفسه بذلك من السلطة ما يرضي طموحه وحبه للمتعة.

ومثل هذه النظرة للأمور غير معقولة. وذلك لأنها لا تفسر لنا بصورة مرضية لماذا كان محمدٌ، في الفترة المكية، مستعداً لتحمل جميع صنوف الحرمان ولماذا فاز باحترام رجال شديدي الذكاء ذوي أخلاق مستقيمة.

كما أن ذلك لا يجعلنا نفهم كيف نجح في تأسيس ديانة عالمية أنجبت رجالاً قداستهم واضحة للعيان، لا يفسر كل ذلك بصورة مرضية إلا إذا افترضنا صدق محمد أي أن نعتقد بأنه كان مقتنعاً حقاً بأن القرآن ليس ثمرة خياله بل أن كل ما نزل عليه كان من الله فهو بذلك حق»(٩).

وإذا كانت تهمتا الشهوانية وعدم الوفاء ليس مجال بحثهما هنا،...

---

(٩) المصدر السابق.

وسبق لنا أن رددناهما في دراستنا أخلاق الرسول ومناقبه، فإن قضية «الخداع» تهمة خطيرة هدفها التشكيك بصدق الرسول، وبالتالي بصحة الرسالة، وأن الصوت الذي كان يسمعه هو صوت الوحي، يتابع مونتجمري وات قوله دارساً آراء الرسول ومواقفه وتفريقه بين ما هو وحي إلهي، وما هو آراؤه الخاصة، بقوله:

«ومهما كانت طريقته، على كل حال، فقد كانت لديه وسيلة ما، بدون شك، لمعرفة ما إذا كان الوحي الذي ينزل عليه هو من عند الله حقاً. ويعني القول بأنه كان صادقاً، إنه إذا كان ينظر للكلام الذي يسمعه على أنه نازل من عند الله، فذلك لأنه كان يعتقد ذلك حقاً، ولا يخلط بينه وبين أفكاره الشخصية.

ليست هناك أسباب كامنة لاعتبار محمد دجالاً بل هناك على العكس أسباب قوية تؤكد صدقه. ونستطيع في مثل هذه الحالة الخاصة أن نبلغ درجةً عاليةً من اليقين»(١٠).

سقوط أدلة اتهام رسول الله

ومن جانبه أكّد المستشرق السويسري جون وانتبورت في كتابه: «محمد والقرآن»، أن الدراسات التاريخية تسقط كل الأكاذيب التي أشاعها أعداء الإسلام من جهة، وتؤكد من جهة أخرى عظمة الرسول محمد ﷺ ومكانته التاريخية، من عظمة الرسالة التي حملها للبشرية، يقول:

«بقدر ما نرى صفة محمد الحقيقية بعين البصيرة والتروي في المصادر التاريخية الصحيحة، بقدر ما نرى من ضعف البرهان

---

(١٠) المصدر السابق.

وسقوط الأدلة لتأييد أقوال الهجو الشديد، والطعن القبيح الذي اندفن على رأسه، وانهار عليه من أفواه المغرضين، والذين جهلوا حقيقة محمد ومكانته، ذلك الرجل العظيم عند كل من درس صفاته العظيمة، كيف لا وقد جاء بشرع لا يسعنا أن نتهمه فيه»[(١١)].

ما كان محمد مشعوذاً ولا ساحراً

أما العلامة والمستشرق الألماني كارل هينرش بيكر (١٨٧٦ ــ ١٩٣٧) مؤسس مجلة العالم الإسلامي، الذي شهر عنه محبته عالمي العروبة والإسلام، فقد وقف موقفاً نزيهاً في الدفاع عن النبي محمد ﷺ مسخفاً من اتهمه بالسحر والدجل، ورأى بالرسول رجلاً عظيماً، جديراً بكل محبة وتجلة وتعظيم للمبادىء السامية التي نشرها، والتي هي قمينة بأن تتبع، يقول في كتابه: «الشرقيون»:

«لقد أخطأ من قال إن نبي العرب دجال أو ساحر لأنه لم يفهم مبدأه السامي، إن محمداً جدير بالتقدير، ومبدؤه حري بالاتباع، وليس لنا أن نحكم قبل أن نعلم، وإن محمداً خير رجل جاء إلى العالم بدين الهدى والكمال، كما أننا لا نرى أن الديانة الإسلامية بعيدة عن الديانة المسيحية»[(١٢)].

ويتحدث المستشرق والمؤرخ الروسي العلامة جان ميكائيليس (١٧١٧ ــ ١٧٩١) في كتابه «العرب في آسية» باللهجة نفسها التي تكلم بها كارل هينرش بيكر، في دحض مزاعم الشعوذة والسحر التي ألصقها

---

(١١) جوان واتنبرت: محمد والقرآن.

(١٢) كارل هينرش بيكر: الشرقيون.

بالرسول المستشرقون المتعصبون، وشدد على أهمية الرسالة التي حملها للناس، فكانت لصلاح الإنسانية ومتمشية وروح المجتمعات في كل العصور، يقول:

«لم يكن محمدٌ نبيُّ العرب المشعوذ ولا الساحر، كما اتهمه السفهاء في عهده، وإنما كان رجلاً ذا حنكة وإدارة وبطولة وقيادة وأخلاق وعقيدة، فلقد دعا لدينه بكل صفات الكمال، وأتى للعرب بما رفع فيه شأنهم، ولم نعرف عن دينه إلا ما يتلاءم مع العصور مهما تطورت، ومن يتهم محمداً ودينه بخلاف هذا فإنه ضال عن الطريقة المثلى، وحري بكل الشعوب أن تأخذ بتعاليمه»(١٣).

هذا، ولقد انتقد المستشرق الفرنسي إتيين دينيه المستشرق مرجليوث الذي ذهب أبعد مذهب في الإغراب حين اعتبر أن الباعث على بعثة الرسول إنما هي أعمال الشعوذة، فقد عرف خدع الحواة وحيل الرومانيين ومارسها بدقة:

دفع تهمة الصرع والهستيريا عن الرسول

هذا، وقد ذهب بعض الحاقدين على الدين الإسلامي في معرض هجومهم على الرسول محمد، إلى اتهامه بالصرع والجنون للتشكيك بالدين الإسلامي ككل، وأن ما جاء به ليس وحي الله أو لا يعدو حالة من حالات صرع تنتابه....، ووقف المفكر ر.ف. بودلي موقفاً مفنداً هذه الترهات والأراجيف، دافعاً هذه الادعاءات المغرضة بالنظرة العلمية الدقيقة والواعية، يقول في كتابه: «الرسول، حياة محمد»:

«يذكر الأطباء أن المصاب بالصرع، لا يفيق منه إلا وقد

---

(١٣) جان ميكائيليس: العرب في آسية.

ذخر عقله بأفكار لامعة، وأنه لا يصاب بالصرع من كان في مثل الصحة التي يتمتع بها محمد حتى قبل مماته بأسبوع واحد، وما كان الصرع يجعل من أحد نبياً أو مشرعاً، وما رفع الصرع أحداً إلى مركز التقدير والسلطان يوماً، وكان من تنتابه مثل هذه الحالات في الأزمنة الغابرة يعتبر مجنوناً أو به مس من الجن، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد»[14]

لقد كان في رأس من افترى هذه الفرية الخبيثة على الرسول المستشرق نولدكه، حين اعتبر (أن نوبات الصرع هي من عوامل بعثة النبي محمد ورسالته) ولكن المستشرق دوغويه يعتقد أن هذا بعيد الاحتمال، ويعلل ذلك بأن الحافظة في المصروعين تكون معطلة، على أن حافظة محمد كانت غاية في الجودة كلما هبط عليه الوحي.

أما المستشرق اسبرنغر، فقد ذهب في كتابه: «حياة محمد وعمله» إلى أن عوامل البعثة كانت نوبات هستيريا اشتهرت باسم شوتلاين، ولكن سنوك هر غرنجه، يرى ضحالة هذه الآراء وأسسها الواهية، فيقول:

«يجب أن نقر بأن قيمة محمد إنما هي ما يميزه عن سائر الهستيريين»[15].

ولقد رد كل من ول ديورانت، ومونتجمري وات، وهنري دي كاستري وسواهم إصابة الرسول بنوبات الصرع والهستيريا، يقول ول ديورانت في كتابه: «قصة الحضارة»:

---

(١٤) ر.ف بودلي: الرسول حياة محمد.

(١٥) سنوك هرغرنجه: (نقلاً عن العرب في الشرق).

«ولكننا لا نسمع أنه عض في خلالها لسانه أو حدث ارتخاء في عضلاته كما يحدث عادة في نوبات الصرع. وليس في تاريخ محمد ما يدل على انحطاط قوة العقل التي يؤدي إليها الصرع عادة، بل نراه على العكس يزداد ذهنه صفاء، ويزداد قدرة على التفكير، وثقة بالنفس، وقوة في الجسم والروح والزعامة، كلما تقدمت به السن حتى بلغ الستين من العمر. وقصارى القول إنا لا نجد دليلاً قاطعاً على أن ما كان يحدث للنبي كان من قبيل الصرع. ومهما يكن ذلك الدليل فإنه لا يقنع أي مسلم متمسك بدينه»[١٦].

أما مونتجمري وات فإنه يقول في كتابه: «محمد في مكة»:

«وليست طبيعة التجارب التي من هذا النوع ــ يجب الإلحاح على ذلك ــ مهمةً بالنسبة للفقيه المسلم والمسيحي، والتأكيد بأن رؤى محمد كانت أوهاماً، كما قال البعض، هو إصدار حكم فقهي دون الاطلاع الكافي على ما حدث، وبالتالي التدليل على جهل مؤلم بالعلم، والرأي السليم لمؤلفين كـ بولين (Ponlain) ولعلم الفقه الصوفي الذي يمثلونه.

إن معرفة ما إذا كانت الرؤى خارجة أو خيالية أو عقلية لا يكون معياراً للحكم على حقيقتها أو صحتها.

ولا شك أن التجارب (الخارجية) أكثر تأثيراً فيمن يهتم بها ولكن التجارب العقلية أسمى، لأن العقل أسمى من الحس.

وللمشكلة أهمية أساسية بالنسبة للأشخاص الذين يدرسون

(١٦) ول ديورانت: قصة الحضارة، ج١٣، ص٢٦.

علم النفس الديني، ومن المفيد، ولا شك، مقارنة تجارب محمد بتجارب القديسين والمتصوفين المسيحيين.

أما بالنسبة للفقيه والمؤرخ فإن الشيء الرئيسي هو أن محمداً قد ميّز ما يوحى إليه وبين أفكاره الخاصة. وكذلك فليس للمظاهر الجسدية لتلقي الوحي أية أهمية بالنسبة للفقه، وإن كانت مهمة من الناحية التاريخية. ولقد أكد أعداء الإسلام غالباً أن محمداً كان مصاباً بالصرع، وأن تجاربه الدينية لهذا لا قيمة لها. ولكن الأعراض الموصوفة لا تشبه أعراض الصرع لأن هذا النقص يؤدي إلى تخاذل جسدي وعقلي، بينما ظل محمد حتى آخر حياته مالكاً لقواه العقلية، حتى ولو أمكن إدعاء ذلك فإن الحجة تظل مناقضة لكل رأي سليم إذ لم تقم إلا على الجهل والوهم، لأن المظاهر الجسدية الملازمة لا تثبت ولا تنفي قط بنفسها التجربة الدينية»[١٧].

ويرد الكونت هنري دي كاستري في كتابه: «خواطر وسوانح» على أولئك الذين أعماهم التعصب عن رؤية الحقيقة، بقوله:

«ومن ذلك الحين ــ أي البعثة ــ أخذت شفتاه تنطلقان بألفاظ بعضها أشد قوة وأبعد مرمى من بعض، والأفكار تتدفق من فمه على الدوام إلى أن يقف لسانه ولا يطيعه الصوت، ولا يجد من الألفاظ ما يعبر به عن فكر قد ارتفع عن مدارك الإنسان، وسما عن أن يترجمه قلم أو لسان. وكانت تلك الانفعالات تظهر على وجهه بادية، فظن بعضهم أنَّ به جنة، وهو رأي باطل، لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين، ولم يشاهد عليه قبل ذلك أي اعتلال في الجسم أو

(١٧) مونتجمري وات: محمد في مكة، ص ١٠٠ ــ ١٠١.

اضطراب في القوة المادية، وليس من الناس من عرف الناس جميعاً أحواله في حياته كلها مثل النبي ﷺ، فلقد وصل المحدثون عنه أنهم كانوا يعدون الشعر الأبيض في لحيته، ولو أنه كان مريضاً لما أخفي مرضه، لأن المرض في مثل تلك الأحوال يعتبر أمراً سماوياً عند الشرقيين. وليست حالة محمد ﷺ في انفعالاته وتأثراته بحالة ذي جنة، بل كانت مثل التي قال نبي بني إسرائيل في وصفها: لقد شعرت بأن قلبي انكسر بين أضلعي. وارتعشت مني العظام. فصرت كالنشوان، لما قام بي من الشعور عند سماع صوت الله وأقواله المقدسة»[١٨].

ليس للكذب قوة الصدق

أما الشاعر الفرنسي الكبير، الفونس دي لا مارتين (١٧٩٠ ـ ١٨٦٩) الذي زار الشرق، وترك كتاباً عن رحلته عنوانه: «السفر إلى الشرق» تحدث فيه عن البلاد الإسلامية، وبحث في القيم التي نادى بها الإسلام، ودرس بقلب الشاعر وعقل المفكر صدق دعوته، فكان أن نافح عنه ضد من يرسل الترهات عن الخداع والنفاق.. فالكذب لن يستطيع الصمود طويلاً، وما كان بمقدور أي إنسان أن يحقق ما حققه رسول الله إلا بالصدق والصدق وحده. ترفده قدرة فكر ثاقب، وصلابة في الموقف، مكنه من أن ينقل أمته من الجاهلية الوثنية إلى نور الإسلام القائم على وحدانية الله كعقيدة، وحضارة رائعة في مجتمع إسلامي متسم بالتسامح والعدالة

(١٨) هنري دي كاستري: خواطر وسوانح (نقلاً عن كتاب إتيين دينيه محمد رسول الله، ص ١٧).

والإخاء بين المسلمين ، يقول لامارتين في سياق دفاعه عن صدق دعوة رسول الله :

«أترون أن محمداً كان أخا خداع وتدليس ، وصاحب باطل ومين ، كلا بعدما وعينا تاريخه ، ودرسنا حياته ، فإن الخداع والمين والباطل والتدليس كل أولئك من نفاق العقيدة ، كما أنه ليس للكذب قوة الصدق» إلى أن قال :

«إن حياة محمد وقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته ، وجاهلية شعبه ، وشهامته وجرأته وبأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان ، وثباته وتقبله سخرية الساخرين ، وحميته في نشر رسالته وحروبه التي كان جيشه فيها أقل نفراً من عدوه ، ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالظفر ، وتطلعه إلى إعلاء الكلمة وتأسيس العقيدة ، ونجواه التي لا تنقطع مع الله ، كل هذا لأعظم دليل على أنه لم يكن يضمر خداعاً ، أو يعيش على باطل أو مين ، بل كان وراءها عقيدة صادقة ، ويقين مضيء في قلبه ، وهذا اليقين الذي ملأ روحه هو الذي وهبه القوة ، على أن يرد الحياة فكرة عظيمة ، وحجة قائمة ومبدأ مزدوجاً ، وهو وحدانية الله سبحانه»(١٩)

وأمام إنكار بعض المستشرقين نبوة الرسول محمد ﷺ ، يقف المستشرق الفرنسي القس لوازون في كتابه : «الشرق» ، مؤكداً أن محمداً نبي مرسل من الله ، حمل رسالة الإسلام رسالة الحياة ...

«إن محمداً بلا التباس ولا نكران كان من النبيين والصديقين ،

---

(١٩) لامارتين : رحلة إلى الشرق ، ص ٨٤ .

وهو رسول الله القادر على كل شيء، بل إنه نبي جليل القدر، ومهما تحدثنا عنه فليس بالكثير في حقه، لأنه جاء إلى العالم بدين جمع فيه كل ما يصلح للحياة»[٢٠].

إن دراسة سيرة رسول الله ﷺ تؤكد أنه نبي صادق في دعوته ليس بدجال ولا مزور، وأن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، يقول المستشرق الألماني ديسون (١٨١٧ ــ   ) في كتابه: «الحياة والشرائع»:

«وليس يزعم أحد اليوم أن محمداً راح يزور ديناً، وأنه كاذب في دعواه، أفّاك في دعوته إذا عرفَ محمداً ودرس سيرته، وأشرف على ما يتمتع به دينه من تشريعات تصلح أن تظل مع الزمن مهما طال، وكل من يكتب عن محمد ودينه ما لا يجوز، فإنما هو من قلة التدبر وضعف الاطلاع»[٢١].

وتحدث المستشرق الألماني دي تريسي فردريك (١٨٢١ ــ ١٩٠٣) في أحد مؤلفاته: «مقولات أرسطاطاليس» عن عظمة الإسلام الدين السماوي، مؤكداً صدق الرسول، وأن من يقول غير ذلك مكابر يقلب الحقائق، ومتهم بالبلادة الذهنية، بل الحق الصراح يتهم نفسه بنفسه، يقول هذا الإنسان المنصف:

«إننا لو أنصفنا الإسلام لاتبعنا ما عنده من تعاليم وأحكام، لأن الكثير منها ليس في غيره، وقد زاده محمد نمواً وعظمةً، بحسن عنايته وعظيم إرادته، ويظهر من محمد أن دعوته لهذا الدين لم تكن

---

(٢٠) لوازون: الشرق، ص ٦١.

(٢١) ديسون: الحياة والشرائع.

إلا عن سبب سماوي، إننا نقول هذا لو أنصفناه فيما دعا إليه ونادى به، وإن من أتهم محمداً بالكذب فليُتْهِم نفسه بالوهن والبلادة وعدم الوقوف على ما صدع به من حقائق»[٢٢].

هذا، وقد وقفنا عند دراستنا سيرة الرسول وأخلاقه، أنه كان على خلق عظيم، وأن الصدق والأمانة والإخلاص من أبرز جوانب سجاياه ومناقبه ... لأن من يضطلع برسالة إنسانية عالمية كالإسلام لا يمكن إلا أن يكون صادقاً أميناً مخلصاً .. ويرى الباحث الأستاذ ولز، أن أسطع دليل على صدق الرسول يتمثل بإيمان أقرب المقربين إليه برسالة الإسلام حيث بشرهم بها، يقول:

«قد أجمعوا على أن أنصع الأدلة على صدقه كون أهله (أي النبي ﷺ) وأقرب الناس إليه أول من آمن به، فقد كانوا مطلعين على جميع أسراره، ولو ارتابوا في صدقه لما آمنوا به»[٢٣].

يقول المفكر اللبناني شبلي شميل (١٨٦٠ــ١٩١٧) في إحدى مقالاته التي نشرها في مجلة المقتطف:

«لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغي لما يظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خداعٌ مزور، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير»[٢٤].

---

(٢٢) ديتريسي فردريك: مقولات أرسطاطاليس، ص٥٦.

(٢٣) ولز (نقلاً عن كتاب النبي الحق).

(٢٤) شبلي شميل، مجلة المقتطف مجلد ٧، عدد ٦.

أما المستشرق الأسوجي كازانوفا (١٨٣٧ ــ ١٩٠٣) فقد كتب في مؤلفه: «حضارة الشرق»، يقول:

«يهمني أن أجهر أولاً بأنني لا أسلّم أصلاً بكل نظرية يفهم منها الريب بصدق محمد، وأن سيرة النبي العربي من بدايتها إلى نهايتها تدل على أنه ثبت رصين أمين، لا مناص من الإقرار بأن محمداً كان على ذكاء عظيم»(٢٥).

حقيقة الوحي

وذهب المستشرق الأسوجي رودلف دوتوراك (١٨٥٢ ــ ١٩٢٠) أستاذ اللغات الشرقية في جامعة براغ، الذي ترجم حياة أبي فراس الحمداني ودرس شعره، في مؤلفه هذا، إلى تأكيد صدق النبوة، ونزول الوحي على النبي محمد ﷺ من السماء، بالشريعة الإسلامية التي هي خلاصة الكمال الفكري، يقول:

«ومما لا ريب فيه، أن محمداً نبي العرب كان يتحدث إلى الناس عنَ وحي من السماء، لأنه أتى إلى العالم بدعوة من ورائها المعجزات والآيات، وهي أعظم شاهد على مدعاه، ولا يجوز لنا أن نفند آراءه، بعد أن كانت آيات الصدق بادية عليها، فهو نبي حق، وأولى به أن يتبع، ولا يجوز لمن لم يعرف شريعته أن يتحدث عنها بالسوء، لأنها مجموعة كمالات إلى الناس عامة»(٢٦).

ويؤكد المستشرق الفرنسي الكونت هنري دي كاستري

---

(٢٥) كازانوفا: حضارة الشرق، ج ١، ص ٢٣.

(٢٦) رودولف دوتوراك في مقدمة ترجمته حياة أبي فراس.

(١٨٥٣ ــ ١٩١٥) في كتابه: «الإسلام» أن صدق الرسول نابع من صحة رسالته وعمق اقتناعه بها، يقول:

«ولسنا نحتاج في إثبات صدق (محمد) إلى أكثر من إثبات أنه كان مقتنعاً بصحة رسالته وحقيقة نبوته. أما الغرض من تلك الرسالة بالأصل، فهو إقامة إله واحد مقام عبادة الأوثان التي كانت عليها قبيلته مدة ظهوره»(٢٧).

ويتابع الكونت هنري دي كاستري تأكيد صدق الرسول وصحة الرسالة، بأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وبأنه كان يتلقى الوحي من السماء، ويرد على المتقولين على الرسول بأنه أخذ فكرة التوحيد من مطالعته التوراة والإنجيل، كما يؤكد حقيقة أن الآيات القرآنية لا يمكن أن تكون من صنع البشر، يقول:

«ما كان يقرأ ولا يكتب، بل كان كما وصف نفسه مراراً ــ نبياً أمياً ــ وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه. ولا شك أنه يستحيل على رجل في الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس، لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان، على أن القراءة والكتابة كانت معدومة في ذلك الحين من تلك الأقطار. ولم يكن بمكة قارىء أو كاتب سوى رجل واحد ذكره جارسين دي تاسي في كتابه الذي طبعه سنة ١٨٧٤، كذلك من الخطأ ــ مع معرفة أخلاق الشرقيين ــ أن يستدل على معرفة النبي للقراءة والكتابة باختيار السيدة خديجة (رضي الله عنها)، إياه لمتاجرها في الشام، ولم تكن لتعهد إليه بأعمالها إن كان جاهلاً غير متعلم، فإنا نشاهد بين

---

(٢٧) هنري دي كاستري: الإسلام، ص ١٥٢.

تجار كل قوم غير العرب وكلاء لا يقرأون ولا يكتبون، وهم في الغالب أكثرهم أمانة وصدقاً.

أما فكرة التوحيد: فيستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي ﷺ من مطالعته التوراة والإنجيل، إذ لو قرأ تلك الكتب لردها، لاحتوائها على مذهب التثليث، وهو مناقض لفطرته، مخالف لوجدانه منذ خلقه، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته، وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته.

أما صدق الرسول وسمو رسالته، فقد أخذ كثير من رجال الكنيسة، ومن رجال الاستعمار يشككون فيهما، ورغم الوضوح الصارخ في صدق الرسول وفي سمو الرسالة الإسلامية، فإن رجال الدين من المسيحيين ورجال الاستعمار لا يزالون يبدئون ويعيدون في ترداد التشكيك، إلى هؤلاء وأولئك يقول الكونت:

والعقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنىً»[٢٨].

آخر الرسل

أما المفكر لوثروب ستودارد، فقد رأى بثاقب بصيرته أن محمداً آخر

(٢٨) هنري دي كاستري: الإسلام، ص ١٥٢ (نقلاً عن مقدمة كتاب محمد رسول الله لإتيين رينيه، ص ١٦).

الرسل وأنه جاء مقفياً على آثارهم، وأن القرآن جاء مصدقاً للتوراة والإنجيل معاً:

«فالاعتقاد كل الاعتقاد بأنه لا إله إلا الله. وبأن محمداً رسوله من لدنه، كما أنزل في القرآن أن محمداً قد جاء بالقرآن مصدقاً للتوراة والإنجيل. وأنه خاتم النبيين. بعث من قبله موسى وعيسى»[٢٩].

أما المستشرق الفرنسي دي سلان ماك غوين (١٨١٠ ـــ ١٨٧٩)، الذي وضع فهرس المخطوطات الشرقية، وترجمة لمقدمة ابن خلدون، تناول فيها الرسول العربي في إطاره التاريخي، والشريعة الإسلامية السمحاء، فوجده متقدماً على أقرانه من الرسل، ووجد الإسلام يتميز عن باقي الشرائع، يقول:

«إن العرب أمة تمتاز بكثير من الصفات، ولها دين جامع شامل، لا يعيبه إلا من يجهله، وصاحب دينهم محمد الفقير، وقبل أن نعرف الدين يجب أن نعرف من أتى به، وحقاً أقول ليس كمحمد في سلسلة الأنبياء، ولا كشريعته في سلسلة الشرائع، ولا نبالغ إذا قلنا إن محمداً خير من أتى بشريعة، ولقد وقف في وجه الطغاة من قريش، حتى أتم ما أراد، وبلغ منتهى الطريق الذي سلكه وعمل له، وإذا به وبشريعته يتمتعان بذكر عاطر وحديث حسن، وليس باستطاعتنا أن نثير عليهما غبار الانتقاص»[٣٠].

ورأى المستشرق الألماني الدكتور وايل (١٨١٨ ـــ ١٨٨٩) أستاذ

---

(٢٩) لوثروب ستودارد: (نقلاً عن كتاب الإسلام مبدأ وعقيدة، ص ٤٤).

(٣٠) دي سلان ماك غوين (في مقدمة الترجمة الفرنسية لمقدمة ابن خلدون).

اللغات الشرقية ومدرس العربية والسريانية في جامعة باريس، ومترجم أطباق الذهب إلى الفرنسية، رأى في الرسول العربي مصلحاً كبيراً، عظيماً في شخصه، كبيراً في دعوته، قميناً بالاحترام والتقدير، وكل من تحامل عليه جاهل قدره، يقول في كتابه: «تاريخ الخلفاء»:

«إن محمداً يستحق كل إعجابنا وتقديرنا كمصلح عظيم، بل ويستحق أن يطلق عليه لقب النبي، وألا يصغى إلى أقوال المغرضين وأراء المتعصبين، فإن محمداً عظيم في دينه وفي شخصيته، وكل من تحامل على محمد فقد جهله وغمطه حقه»[٣١].

بينما وجد غوستاف الثالث الأسوجي (١٧٤٦ ــ ١٧٩٢) أن الإسلام دين حري أن يُتّبع لبساطته كدين، وسماحته كشريعة، يقول في كتابه: «الإسلام في الحجاز»:

«إن الأساس للدين الإسلامي بسيط جداً وهو ــ لا إله إلا الله ــ وأن محمداً هو الذي أتى بهذه الحقيقة، ولا يوجد في هذه الحقيقة ما يصادم ويخالف علوم العصر الحالي، فحري بهذا الدين أن يُتّبع»[٣٢].

وقد درس بعض المستشرقين الإسلام فوجدوا ألاّ تعارض بينه وبين المسيحية، يقول الدكتور ويلسن اليوغسلافي (١٨١٥ ــ ١٨٨٧) في إحدى محاضراته:

«إننا إذا لم نعتبر محمداً نبياً، فلن نستطيع أن ننكر أنه مرسل من الله، ذلك أنه ليس هناك غيره قد راح يفسر المسيحية الأولى

---

(٣١) د. وايل: تاريخ الخلفاء.

(٣٢) غوستاف الثالث: الإسلام في الحجاز.

تفسيراً رائعاً صادقاً، وأن دينه الذي جاء به لا يعارض الديانة المسيحية، وكل ما جاء به حسن»[٣٣].

ويتحدث المستشرق الكندي جيبون (١٧٧٣ــ١٨٢٧) في كتابه: «محمد في الشرق» عن النبي محمد ورسالة الإسلام، فيدفع كل الشكوك والظنون والأقاويل التي تدور حول صدق الرسول والرسالة، ويعتبر أن أي اتهام يوجه إلى هذا الدين هو من قبيل الجهل أو التعصب يقول:

«إن دين محمد خالٍ من الشكوك والظنون، والقرآن أكبر دليل على وحدانية الله، بعد أن نهى محمد عن عبادة الأصنام والكواكب. وبالجملة فدين محمد أكبر من أن تدرك عقولنا الحالية أسراره، ومن يتهم محمداً أو دينه فإنما ذلك من سوء التدبير أو بدافع العصبية، وخير ما في الإنسان أن يكون معتدلاً في آرائه، ومستقيماً في تصرفاته»[٣٤].

بينما دعا المستشرق الإسباني إريك بنتام (١٨١٥ــ١٨٨٧) في كتابه: «الحياة» إلى وقوف المسيحيين والمسلمين على صعيد واحد، وفي خندق واحد، ونبذ العصبية العمياء والأطماع، وذلك لتأكيده أن المسلمين عميقو الإيمان، وأن الإسلام دين الأخلاق السامية الرشيدة، يقول:

«إن الإسلام وتعاليم الرسول الكريم ــ محمد ــ قد تأصلت في نفوس المسلمين، وخلقت فيهم مناعة ضد قبول المذاهب الدينية المسيحية، وإن الخلاف الجوهري بينها وبين الإسلام يعود إلى أنه لا يرضى أن يشرك مع ربه أحد، وأن دين الإسلام هو دين الوداعة

---

(٣٣) ويلسن (نقلاً عن كتاب محمد عند علماء الغرب ص٩٧).

(٣٤) جيبون: محمد في الشرق، ص١٧.

والوفاق والصدق والأمانة، وكل ما جاء به لا تنكره الأذواق السليمة، والعقول الناضجة لذلك فإننا لو أنصفنا أنفسنا لوحّدنا صفوفنا مع المسلمين، ولنبذنا ما بنا من عصبية عمياء خلقها لنا ذوو الأطماع، وسنَّها لنا من دفعت به شهواته، وفي النفس ما فيها من التأثر البالغ من تلكم الفوارق التي أثبتها الدين»[٣٥].

ولا نعدو الحق والحقيقة إن قلنا أن موقف المستشرقين المنافحين عن الإسلام نابع من احترامهم البالغ لشخصية الرسول الذي استطاع أن ينقل العرب من واقعهم المتخلف، ويوحدهم في أمة عظيمة أشادت حضارة عظيمة... وأن الكثير منهم آمنوا بصدق الدعوة الإسلامية كدعوة سماوية، وأن محمداً خاتم الرسل والأنبياء، وأنه يتمم رسالة عيسى بن مريم عليه السلام، لذا فإنهم دعوا إلى الانفتاح على الإسلام وتفهم شرائعه السمحة الصالحة لكل زمان ومكان... ونبذ العصبية المقيتة وليدة القرون الوسطى، التي وضعت الغرب تجاه الشرق في حروب صليبية دامية.

ولا نستغرب البتة إذا علمنا أن طائفة من المستشرقين لم تقف عند حدود الدفاع عن الإسلام، بل اعتنقت الديانة الإسلامية، عن قناعة وإيمان بصدق الرسالة المحمدية وعظمتها، لأنها أكثر تجاوباً من بقية الديانات السماوية مع قضايا الإنسان الروحية والفكرية ومسائل المجتمعات البشرية... وفي هذا المنطلق يقول العلامة وأستاذ علوم الكيمياء والفلك الفرنسي لوزون (١٧٨٦ ــ ١٨٣٧) في كتابه: «الله في السماء»، مقارناً ما بين الديانتين السماويتين الموسوية والمحمدية (الإسلام) وفرق مابينهما من الانضواء العرقي، والسماحة العالمية:

---

(٣٥) اريك بنتام: الحياة.

«وليس محمد نبي العرب وحدهم، بل هو أفضل نبي قال بوحدانية الله، وإن دين موسى وإن كان من الأديان التي أساسها الوحدانية إلا أنه كان قومياً محضاً وخاصاً ببني إسرائيل، وأما محمد فقد نشر دينه بقاعدتيه الأساسيتين وهما الوحدانية والبعث، وقد أعلنه لعموم البشر في أنحاء المسكونة، وإنه لعمل عظيم يتعلق بالإنسانية جملةً وتفصيلاً عند من يدرك معنى رسالة محمد الذي اعتنق مبدأه، وعمل على رسالته أربعمئة مليون من الناس. فرسول كهذا الرسول يجدر باتباع رسالته، والمبادرة إلى اعتناق دعوته، إذ أنها دعوة شريفة، قوامها معرفة الخالق، والحث على الخير، والردع عن المنكر، بل كان ما جاء به يرمي إلى الصلاح والإصلاح، والصلاح أنشودة المؤمن، هذا هو الدين الذي أدعو إليه جميع النصارى»[٣٦].

أما الشاعر الفرنسي الكبير الفونس دي لا مارتين فقد أكد في مؤلفه: «رحلة إلى الشرق» صدق الرسول وصحة الرسالة، وكشف عن جوانب من عظمة النبي محمد ودين الإسلام، يقول:

«إن محمداً فوق البشر ودون الإله، فهو رسول بحكم العقل، ودلالات المعجزات تعضد ذلك، وإن اللغز الذي حله محمد في دعوته فكشف فيها عن القيم الروحية، ثم قدمها لأمة العرب ديناً سماوياً، وسرعان ما اعتنقوه، هو أعلى ما رسمه الخالق لبني البشر»[٣٧].

---

(٣٦) لوزون: الله في السماء.

(٣٧) لامارتين: رحلة إلى الشرق، ص ٤٧.

هذا، وفي ختام مبحثنا عن الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، نرى أن أقوال الباحث الإنكليزي توماس كارليل عن صدق الرسول والرسالة، بما حوته من دفاع حار، وعقلانية واعية، وشاعرية جميلة، تشكل خير رد على مختلف أراجيف وادعاءات الباحثين والمستشرقين المغرضين، وأنارت السبيل أمام كل ناشد معرفة:

«لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر، أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خداع مزور، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مئتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والإحصار أكذوبة وخدعة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بله ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث، وأضلولة كان أولى بها أن لا تخلق.

فوا أسفاه ما أسوأ مثل هذا الزعم، وما أضعف أهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة. وبعد، فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما في علوم الكائنات، أن لا يصدق شيئاً البتة من أقوال أولئك السفهاء، فإنها نتائج جيل كفر، وعصر جحود وإلحاد، وهي دليل على خبث القلوب، وفساد الضمائر، وموت الأرواح في حياة الأبدان، ولعل العالم لم ير قط رأياً أكفر من هذا وألأم، وهل رأيتم قط معشر الإخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً وينشره؟.

عجباً والله ! إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب ، فهو إذا لم يكن عليماً بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذي يبنيه ببيت ، وإنما هو تل من الأنقاض ، وكثيب من أخلاط المواد . نعم ، وليس جديراً أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم كأنه لم يكن . وإني لأعلم أنه على المرء أن يسير في جميع أمره طبق قوانين الطبيعة ، وإلا أبت أن تجيب طلبه وتعطيه بغيته .

كذبٌ والله ما يذيعه أولئك الكفار ، وإن زخرفوه حتى خيلوه حقاً ، وزور وباطل وإن زينوه حتى أوهموه صدقاً ، ومحنة والله ومصاب أن ينخدع الناس شعوباً وأمماً بهذه الأضاليل ، وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل . وإنما كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة ، يحتال لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة ، ويحيق مصابها بالغير لا به ، وأي مصاب وأبيكم ؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنسية وأشباهها من الفتن والمحن تصيح بملء أفواهها : « هذه الأوراق كاذبة » . أما الرجل الكبير خاصة ، فإني أقول عنه يقيناً إنه من المحال أن يكون كاذباً ، فإني أرى الصدق أساسه وأساس كل ما به من فضل ومحمدة ، وعندي أنه ما من رجل كبير ، ميرابو أو نابليون أو بارنز ، أو كرمويل ، كفء للقيام بعمل ما ، إلا وكان الصدق والإخلاص وحب الخير أول باعثاته على محاولة ما يحاول ، أعني أنه رجل صادق النية ، جاد مخلص قبل كل شيء ، بل أقول : إن الإخلاص ــ الإخلاص الحر العميق الكبير ــ هو أول خواص

الرجل العظيم كيفما كان. لا أريد إخلاص ذلك الرجل الذي لا يبرح يفتخر للناس بإخلاصه، كلاًّ فإن هذا حقير جداً وأيم والله، هذا إخلاص سطحي وقح، وهو على الغالب غرور وفتنة، إنما إخلاص الرجل الكبير هو مما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه، كلا، ولا يشعر به بل لأحسب أنه ربما شعر من نفسه بعـدم إخلاص، إذ أين ذاك الذي يستطيع أن يلزم منهج الحق يومـاً واحداً؟.

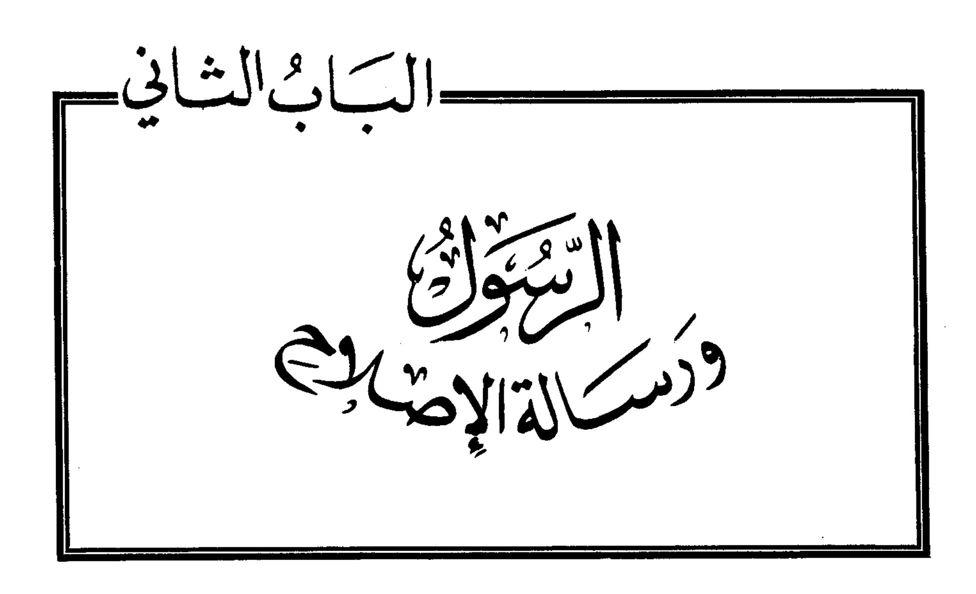
نعم إن الرجل الكبير لا يفخر بإخـلاصه قط، بل هو لا يسأل نفسه أهي مخلصة أو بعبارة أخرى أقول إن إخلاصه غير متوقف على إرادته، فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء أراد أم لم يرد، فهو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله، حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباهر مهما حاول. هكذا خلق الله ذهنه، وخلقة ذهنه على هذه الصورة هي أولى أسباب عظمته، وهو يرى الكون مدهشاً ومخيفاً وحقاً كالموت وحقاً كالحياة، وهذه الحقيقة لا تفارقه أبداً وإن فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخبطوا في غياهب الضلال والعماية، بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونصب عينيه، كأنها مكتوبة بحروف من اللهب لا شك فيها ولا ريب. ها هي، ها هي، فاعرفوا هداكم الله أن هذه أولى صفات العظيم، وهذا وحده الجوهري وتعريفه، وقد توجد هذه في الرجل الصغير فهي جديرة أن توجد في نفس كل إنسان خلقه الله، ولكنها من لوازم الرجل العظيم، ولا يكون الرجل عظيماً إلا بها.

«مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلاً أصلياً صافي الجوهر،

كريم العنصر، فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة إلينا. فقد نسميه شاعراً أو نبياً أو إلهاً، وسواء هذا أو ذاك أو ذلك فقد نعلم أن قوله ليس بمأخوذ من رجل غيره، ولكنه صادر من لباب حقائق الأشياء. نعم، هو يرى باطن كل شيء لا يحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات، وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات وسخيف الأوهام والآراء، وكيف..؟ وإن الحقيقة تسطع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها، ثم إذا نظرت إلى كلمات العظيم شاعراً كان أو فيلسوفاً أو نبياً أو فارساً أو ملكاً، ألا تراها ضرباً من الوحي؟ والرجل العظيم في نظري مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون، فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء، وقد دل الله على وجوده بعدة آيات، أرى أن أحدثها وأجدَّها هو الرجل العظيم الذي علمه الله العلم والحكمة، فوجب علينا أن نصغي إليه قبل كل شيء...

وعلى ذلك فلسنا نعدّ محمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية، أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان، أو غير ذلك من الحقائر والصغائر. وما الرسالة التي أداها إلا حق صراح، وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول. كلا، ما محمد بالكاذب ولا الملفق، وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطَّر عنها قلب الطبيعة، فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع. ذلك أمر الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين»[٣٨].

(٣٨) توماس كارليل: الأبطال، ص ٥٨ ــ ٦١.


الباب الثاني
الرسول
ورسالة الإصلاح



في مبحث الرسول والقيادة الدينية، تناولنا الإصلاح الديني الذي قام به ﷺ بنقل جزيرة العرب من الوثنية إلى الوحدانية... وفي مبحثنا هذا سنتناول جوانب أخرى من الإصلاح وخاصة ما يتعلق منها بجانبها الاجتماعي.

الإسلام والانقلاب الاجتماعي

لقد كانت الدعوة الإسلامية التي حملها النبي العربي ﷺ انقلاباً اجتماعياً دكّ أسس المجتمع القديم، المحكوم حسب الأعراف القبلية، فكانت معجزة الحركة الإصلاحية الكبرى ماثلة في توحيد شتات القبائل وصهرها بتلك الكتلة الإنسانية المتراصة في وحدة اجتماعية جديدة، وكانت من العمق في أبعادها الإنسانية إعجازاً حقاً وصفه السير وليم موير في كتابه: «حياة محمد» بقوله:

«لم يكن الإصلاح أعسر ولا أبعد منالاً منه وقت ظهور محمد، ولا نعلم نجاحاً وإصلاحاً تم كالذي تركه عند وفاته»[1].

عظمة الإصلاح في صلاح المجتمع

إن عظمة الإصلاح الإسلامي في تحقيقه الخير كل الخير للمجتمع

(١) وليم موير: حياة محمد (نقلاً عن كتاب عبد الرحمن عزام، بطل الأبطال، ص ١١).

العربي في شبه الجزيرة أولاً، والشعوب الإسلامية ثانياً، تمثل منارة خير وهدى للإنسانية جمعاء...

وقد بحث المستشرق الفرنسي العلامة كاردي فو (١٨٦٨ ــ ١٩٢٥) في مؤلفه: «مفكرو الإسلام» في طبيعة ذلك الإصلاح والإنجاز الذي حققه حين نقل العرب من الجاهلية إلى مشارق أنوار رسالة الإسلام فكانت رسالة الرقي والحضارة والتمدين، يقول كاردي فو:

«لقد كان العرب في جاهليتهم يرتكبون الجرائم، ويفعلون المنكرات، ويتخبطون في ضلالاتهم، حتى جاء رجل منهم اسمه ــ محمد ــ فحاربهم لاستئصال هذه العادات الموبوءة، ودعاهم إلى دين جديد ومبادىء قويمة، فوحد صفوفهم وأصلح أمورهم وإذا بالعرب أمة لها شأنها ولها كيانها حضارةً وثقافةً، وتم لمحمد ما كان يريده منهم من استماع أقواله واتخاذ آرائه، وإذا دين محمد في طليعة الأديان السماوية رقياً وعظمةً وحضارةً»(٢).

دين الحق والخير

أما الباحث الإنكليزي المستشرق روبرت اسميث (١٨٥٦ ــ ١٩٠١) فتحدث بدوره عن الواقع الاجتماعي لعرب الجاهلية الذين اتسموا بفظاظة الطبع، وخشونة الخلق، يعيشون حياة القبلية المتناحرة، ديدنهم الغزو والنهب والقتل، فكان الإسلام رسالة خير جاءت لإصلاح مجتمع فاسد، قال هذا الباحث:

«لقد كان العرب قبل الإسلام على جانب من الغلظة

(٢) كاردي فو: مفكرو الإسلام.

والخشونة، ويعيشون عن طريق الغزو، وقد نزعت الرحمة من صدورهم، وكانوا يعبدون الأصنام، ولكل قبيلة صنم حتى جمعوا في كعبتهم ثلاثمئة وستين صنماً، وجاء ـ محمد ﷺ في أواخر القرن السادس فدعاهم إلى الإسلام، وأعلن أنه لا يجوز أن تتخذوا أصنامكم أرباباً من دون الله، وكان محمد على خلق عظيم فاتبعوه بعد أن لاقى منهم الأذى، حيث دعاهم إلى دينه القويم وعرفوا أنه دين لا يصادم الخير والإنسانية وأنه جاء لصلاح المجتمع»(٣).

ويبحث المستشرق إدوار لين بدوره، واقع الحياة الجاهلية وما حوته من عادات مخالفة للشرائع السماوية، يقول:

«إننا لا ننكر أن العرب وإن كانت الأمية هي الغالبة فيهم، إلا أنهم على جانب من الذكاء، وأن أحدهم يجيد نظم الشعر ونثر الكلام، وهو أمي عاش في البادية، وأن لهم عادات قبل الإسلام يعكفون عليها، من عبادة الأصنام، ووأد البنات، والغزو وغير ذلك، ولكن جاء الإسلام بواسطة محمد النبي العربي فمنعهم من ذلك، وما زال يدعوهم إلى دينه وهو عبادة الله حتى أحاطوا به وصدقوه، وتركوا ما كان لديهم من عادات تأباها الشرائع السماوية»(٤).

الرسول أعظم المحسنين للبشرية

وأما الباحث الفرنسي إدوار مونتيه فعدّ رسول الإسلام أعظم المحسنين للبشرية، حين أنهى مسألة الأضاحي البشرية، ووأد البنات وسواها من العادات الذميمة، يقول:

---

(٣) روبرت اسميث: أحوال العرب قبل الإسلام وبعده، ص ١٧ ــ ١٨.

(٤) ادوار لين: أخلاق وعادات المصريين المعاصرين، ص ٤٣.

«لقد منع محمد الذبائح البشرية ووأد البنات والخمر والميسر، وكان لهذه الإصلاحات تأثير غير متناه في الخلق، بحيث يجب أن يعد محمد في صف أعاظم المحسنين للبشرية وأن الانقياد لإرادة الله تتجلى في محمد والقرآن بقوة لا تعرفها النصرانية»[٥].

هذا، ولقد حقق الإسلام للمرأة قفزة نوعية في شأنها الاجتماعي الحقوقي، متقدمة على واقع المرأة في الأنظمة الغربية، يقول غوستاف لوبون:

«والإسلام قد رفع حال المرأة الاجتماعية وشأنها رفعاً عظيماً، بدلاً من خفضهما، خلافاً للمزاعم المكررة على غير هدى، والقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية أحسن مما في أكثر قوانيننا الأوروبية»[٦].

المعلم الأكبر والمصلح الأعظم

كان الرسول المعلم الأكبر والمصلح الأعظم لأبناء العروبة، علمهم الحياة، فأصلح شؤونهم بعد فساد، ووحد كلمتهم بعد تفرقة، يقول المستشرق الهولندي وث (١٨١٤ ــ ١٨٩٩) في كتابه: «محمد والقرآن»:

«لقد جاء قرآن العرب على لسان نبيهم محمد العظيم، وعلمهم كيف يعيشون في هذه الحياة، وقد وحد صفوفهم وجمع كلمتهم وأدّبهم حتى لا ترى أمة من الأمم أحسن منهم، وبالنهاية اعتمدوه في كل أمورهم، وكان يتلقى الوحي من ربه الذي يوحي إليه، ثم ينقله إلى الناس، بعد أن يكتبه له الكتاب الذين انتدبهم لذلك»[٧].

---

(٥) ادوار مونتيه: حاضر الإسلام ومستقبله.

(٦) غوستاف لوبون: (نقلاً عن الإسلام بين الإنصاف والجحود).

(٧) وث: محمد والقرآن، ص ٧٨.

جوانب الإصلاح المتعددة

إن الحركة الإصلاحية التي قام بها الرسول متعددة الجوانب، اجتماعياً وسياسياً ودينياً وثقافياً وحضارياً، لقد كان العهد الإسلامي الذي بدأ مع إقامة أول دولة إسلامية بقيادته في المدينة، فاتحة عهد جديد: عهد علم ونور وخروج من الجهل والظلمات، يقول الدكتور ماركس:

«هذا النبي الذي افتتح برسالته عصر العلم والنور والمعرفة لا بد أن تدون أقواله وأفعاله على طريقة علمية خاصة، وبما أن هذه التعاليم التي قال بها (يعني النبي محمد) هي وحي الله المنزل ورسالته، فقد كان عليه أن يمحو ما تراكم على الرسالات السابقة من التبديل والتحوير، وما أدخله عليها الجهل من سخافات لا يعول عليها عاقل»[٨].

عظمة الإصلاح الإسلامي

إن عظمة الإصلاح الذي حققه الرسول، أنه تم في مدة وجيزة، يبتدىء مع السنة الأولى للهجرة حتى وفاته في السنة العاشرة منها، فكان إنجازه إعجازياً خلال هذا العقد الذي أمضاه مناضلاً حتى لقائه الرفيق الأعلى، يتحدث بندلي عن سعة هذا الإصلاح وعمقه يقول:

«إننا لو بحثنا عما تم على يد النبي الأمي محمد من الإصلاح، لما استطعنا أن ننكر أنه أنجز أكثر وعوده، وحقق قسماً كبيراً من أمانيه، ولو قدر له أن يعيش أكثر مما عاش، لكان الإصلاح الذي أدخله على حياة الأمة العربية أتم وأوسع، ومع ذلك فإن عمله الذي

(٨) دكتور ماركس: (نقلاً عن كتاب الإسلام مبدأ وعقيدة، ص ٤٠).

عمله في هذه السنين القلائل التي قضاها في المدينة بين الحروب والمنافسات الشخصية والدسائس والحرب والمكر والنفاق لهو شيء عظيم لا ينكره إلا مكابر عنيد أو متعصب أعمى»[٩].

المسألة الاجتماعية في الإسلام

لقد تناول الإسلام مختلف شؤون الحياة الاجتماعية، آخذاً بعين الاعتبار صلاح الإنسان ورقيه، فكان أن نظر إلى موضوع المساواة والإخاء، ونظمه في إطار حقوق وواجبات، يقول ليورودتن:

«وقد وجدتُ في الإسلام حلَّ المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طراً، الأولى في قول القرآن: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾، والثانية، فرض الزكاة، وتخويل الفقراء حق أخذها إذا امتنع الأغنياء من دفعها طوعاً»[١٠].

إن اهتمام الرسالة الإسلامية بالقضايا الاجتماعية وإيجاد الحلول الناجعة للمشاكل القائمة، وتحقيق إصلاح المجتمع وصلاحه ترتبط بالإسلام ليس مجرد دين وحسب، بل لكونه ديناً ودولةً، فمن جهة، نظم علاقة الإنسان بخالقه عن طريق العبادات التي أكدت على مبدأ الوحدانية، ومن جهة ثانية نظّم الحياة الاجتماعية الإنسانية في إطار نظام سياسي أقامه، وتنظيم اجتماعي أوجده، ناهضين على أركان الشورى الإسلامية والعدالة والمساواة والحرية، يقول الدكتور شاخت:

«إن الإسلام يعني أكثر من دين، إنه يمثل نظريات قانونية،

---

(٩) بندلي جوزي: الجاهلية والإسلام، ص٢٣.

(١٠) ليورودتن: (نقلاً عن كتاب قالوا في الإسلام ص٢١٧).

وسياسية. وجملة القول إنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معاً»[١١].

والعلاقة بين الدين والنظام الإسلاميين علاقة عضوية، مؤسسة على وحدة متماسكة لا تنفصم عراها، وقد غدت مرتكزاً للتفكير الإسلامي، يقول الدكتور فتز جيرالد:

«ليس الإسلام ديناً فحسب، ولكنه نظام سياسي أيضاً، ورغم أنه ظهر في العهد الأخير بعض أفراد المسلمين ممن يصفون أنفسهم بأنهم عصريون يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين، فإن صرح التفكير الإسلامي كله قد بني على أساس أن الجانبين متلازمان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر»[١٢].

هذا، وحقق الإسلام المساواة الاجتماعية، دفعاً للظلم ومحاربته، والقضاء على الفقر، انطلاقاً من مبدأ الأخوة الإسلامية الذي ينص على أن المسلمين أخوة، وهم جميعاً متساوون في الحقوق والواجبات...

وكان أن كفل مبدأ المساواة تحقيق العدالة الاجتماعية الإسلامية في إطار هيئة منظمة مشتركة ترمي إلى إحقاق الحق، وإقامة العدل، ورفع مستوى الإنسان وإعلاء شأنه،...

لقد عزز الإسلام الروح الجماعية، فكانت أساساً في تكوين الفكر الاجتماعي الإسلامي، الذي يقف على طرفي نقيض من الاتجاهات الفكرية السائدة في الغرب بمختلف مشاربها.. وكان لهذه الروح الجماعية التي عززت التسامي أن حققت للمسلمين تلك الوثبة العالمية الكبرى..

(١١) شاخت: (نقلاً عن كتاب النظام السياسي في الإسلام، ص ١٤).
(١٢) المصدر السابق، ص ١٤.

فالإسلام كدين ودولة حقق صلاح المجتمع الإنساني، يقول الباحث الإنكليزي المستشرق مونتجمري وات:

«ويمكن اعتبار رسالة محمد على أنها بناء نظام سياسي اجتماعي واقتصادي على أسس دينية»[١٣].

الرسول وإحياء الأخلاق الحميدة والفضائل الحسنة

ويتحدث المفكر الإنكليزي المستشرق السير وليم موير، عن الإنجاز العظيم الذي حققه النبي ﷺ، فاستطاع تبديل القيم القديمة المهترئة بقيم جديدة فاضلة في تلك المرحلة الوجيزة يقول:

«امتاز محمد بوضوح كلامه، ويسر دينه، وأنه أتم من الأعمال ما أدهش الألباب، لم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق الحسنة، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد»[١٤].

كما حلل رئيس وزراء الهند السابق جواهر لال نهرو، كيف أن محمداً خلق أمة، بحركته الإصلاحية، وأقام برسالته مدنية زاهرة وحضارة راقية، ليخلص إلى القول:

«كان محمد واثقاً بنفسه ورسالته. وقد هيأ بهذه الثقة وهذا الإيمان لأمته أسباب القوة والعزة والمنعة»[١٥].

---

(١٣) مونتجمري وات: محمد في المدينة، ص٢١٧.

(١٤) وليم موير: حياة محمد، ص٣١.

(١٥) نقلاً عن كتاب التكامل في الإسلام، ج٣، ص٣٥.

بداية عصر النور والعلم والمعرفة

لقد افتتح الرسول حسب رأي العديد من المستشرقين عهداً جديداً، وعصراً للنور والعلم والمعرفة، فكان نضاله حين صدع بالوحي، لنشر رسالات ربه، لإزالة ما تراكم في ذلك المجتمع القبلي الوثني من معتقدات بالية، وأنماط اجتماعية متخلفة، بل وأن يزيل ما تراكم على الرسالات السماوية السابقة ما لحق بها من تبديل وتحوير، وما أدخله الجهلاء من خرافات وسخافات يدحضها العقل، ولا تثبت أمام الحقائق.. وهذا ما دفع بالمفكر الفرنسي الكبير أحد عمالقة فلاسفة الاجتماع العلامة غوستاف لوبون (١٨٤١ ــ ١٩٣١) إلى أن يدعو أبناء عصره إلى الاقتداء بالرسول الكريم، واعتناق دعوته لأن فيها صلاح المجتمعات الإنسانية، يقول في كتابه: «الحضارة الإسلامية»:

«إنني لا أدعو إلى بدعة محدثة، ولا إلى ضلالة مستهجنة، بل إلى دين عربي قديم أوحاه الله إلى نبيه محمد فكان أميناً على بث دعوته بين قبائل رحّل تلهّت بعبادة الأحجار والأصنام، وتلذذت بترهات الجاهلية، فجمع صفوفهم بعد أن كانت مبعثرة، ووحد كلمتهم بعد أن كانت متفرقة، ووجه أنظارهم لعبادة الخالق، فكان خير البرية على الإطلاق حسباً ونسباً وزعامةً ونبوةً، هذا هو محمد الذي اعتنق شريعته أربعمئة مليون مسلم، منتشرين في أنحاء المعمورة، يرتلون قرآناً عربياً مبيناً ــ إلى أن قال ــ:

فرسول كهذا جدير باتباع رسالته، والمبادرة إلى اعتناق دعوته، إذ أنها دعوة شريفة، قوامها معرفة الخالق، والحض على الخير

والردع عن المنكر، بل كل ما جاء فيها يرمي إلى الصلاح والإصلاح، والصلاح أنشودة المؤمن، وهو الذي أدعو إليه جميع النصارى»[١٦].

الروح الإصلاحي الإسلامي والمجتمعات المعاصرة

ومن هذا المنطلق، دعا رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت الدكتور بيردج عام ١٩٢٣ في ذكرى المولد النبوي، إلى استيعاب مبادىء الرسالة الإسلامية، لإصلاح المجتمعات المتخلفة بقوله:

«إنكم تجتمعون اليوم محتفلين بمولد مصلح عظيم، ألا وهو النبي محمد، فهل لكم أن تتشربوا من روح الإصلاح الذي يحمله محمد، فتخرجوا لإصلاح مجتمع ملؤه الجهل والاضطراب»[١٧].

رؤية شعرية للإصلاح الإسلامي

أمّا الشاعر الألماني الكبير غوتيه فقد كتب في مقدمته كتاب المحمديات لـ «ديسون» عن الإصلاح الذي قام به الرسول بلغة الشاعر، يقول:

«أنظر إلى ينبوع الجبل يضطرب مليئاً صافياً، كأنما هو شعاع دري فوق السحب، أرضعت ملائكة الخير طفولته في مهده يوم كان بين أفلاق الصخور المعشوشبة، إنه ينحدر من السحابة فتياً نقياً، ثم يتنزى منها جذلانَ فرحاً، إنه يسير في الأخاديد الوعرة، جارفاً أمامه من ألوان الحصباء ما لا يحصى، ساحباً في إثره أخوات من العيون الثرّارة، كأنما هو مرشدها الأمين، وأما في الوادي

(١٦) غوستاف لوبون: الحضارة الإسلامية، ص ٦٧.

(١٧) نقلاً عن مجلة العرفان، مجلد ٣٣، عدد ٧.

فالرياحين تنبثق عند قدميه، والمروج تحيا من أنفاسه، لا يثنيه الوادي الظليل، ولا الرياحين التي تطوق ساقيه، وتحاول أن تَسْبيه وتستهويه بلحاظها الفواتن..

وها هو العباب طامياً زاخراً، ترفده الروافد فيخلع في مجراه على الأمصار أسماءها، وتنشأ عند أقدامه المدن، بيد أنه لا يني، فلا يبرح هادراً يندفع، لا يثنيه ثانٍ، مخلفاً وراءه المنائر، والصروح نتاج خصبه وإنتاجه، ذلك هو محمد بن عبد الله»[١٨].

فضل الرسول على العرب

لقد أثار موضوع فضل الرسول على العرب، اهتمام المستشرقين، فهو الذي وحد الجزيرة العربية لأول مرة في التاريخ في ظل حكم عربي إسلامي، متنور نقل العرب من الجاهلية إلى الحضارة والمدنية، يقول الباحث الروسي آرلونوف في مجلة الثقافة الروسية، في مقالة النبي محمد جاء فيها:

«في شبه جزيرة العرب المجاورة لفلسطين ظهرت ديانة أساسها الاعتراف بوحدانية الله، وهذه الديانة تعرف بالمحمدية أو كما يسميها أتباعها الإسلام، وقد انتشرت هذه الديانة انتشاراً سريعاً، ومؤسس هذه الديانة هو العربي محمد، وقد قضى على عادات قومه الوثنية، ووحد قبائل العرب، وأثار أفكارهم وأبصارهم بمعرفة الإلآه الواحد، وهذّب أخلاقهم ولين طباعهم وقلوبهم وجعلها مستعدة للرقي والتقدم، ومنعهم من سفك الدماء ووأد البنات، وهذه الأعمال العظيمة التي قام بها محمد تدل على أنه من المصلحين العظام، وعلى

---

(١٨) ديسون: المحمديات.

أن في نفسه قوة فوق قوة البشر ، فكان ذا فكر نير ، وبصيرة وقادة ، واشتهر بدماثة الأخلاق ، ولين العريكة ، والتواضع وحسن المعاملة مع الناس ، قضى محمد أربعين سنة مع الناس بسلام وطمأنينة ، وكان جميع أقاربه يحبونه حباً جماً ، وأهل مدينته يحترمونه احتراماً عظيماً ، لما عليه من المبادىء القويمة ، والأخلاق الكريمة ، وشرف النفس ، والنزاهة »(١٩) .

وهكذا فإن فضل الرسول محمد ﷺ على العرب لا حدّ له ، إذ أخرجهم من الجاهلية إلى أنوار الإسلام ، يقول المستشرق الإيرلندي المستر هربرت وايل في كتابه : « المعلم الأكبر » :

« بعد ستمئة سنة من ظهور المسيح ظهر محمد فأزال كل الأوهام ، وحرم عبادة الأصنام ، وكان يلقبه الناس بالأمين ، لما كان عليه من الصدق والأمانة وهو الذي أرشد أهل الضلال إلى الصراط المستقيم »(٢٠) .

ويتحدث الباحث الأمريكي جورج دي تولدز (١٨١٥ ـ ١٨٩٧) في كتابه : « الحياة » ، عن فضل الرسول على العرب حين نقلهم من الهمجية إلى المدنية ، وعن دور الرسالة في تبديل أخلاق عرب الجاهلية ، حين عمر ضياء الحق والإيمان قلوبهم ، يقول :

« إن من الظلم الفادح أن نغمط حق محمد ، والعرب على ما علمناهم من التوحش قبل بعثته ، ثم كيف تبدلت الحالة بعد

---

(١٩) الثقافة الروسية ، ج ٧ ، عدد ٩ .

(٢٠) هربرت وايل : المعلم الأكبر ، ص ١٧ .

إعلان نبوته، وما أورثه الديانة الإسلامية من النور في قلوب الملايين من الذين اعتنقوها بكل شوق وإعجاب من الفضائل، لذا فإن الشك في بعثة محمد إنما هو شك في القدرة الإلّهية التي تشمل الكائنات جمعاء»[٢١].

لقد كان توحيد الجزيرة العربية حدثاً تاريخياً هاماً وإعجازاً أسطورياً، فكان بكلمة خلق شعب جديد، وبعث أمة عظيمة، ووضع أسس حضارة الدولة الإسلامية العظمى القادمة،.. ورغم كل ذلك ظل الرسول ذلك الإنسان البسيط، لم تأخذه نشوة العظمة أو تبهره أنوار الشهرة، هدفه أولاً وآخراً صلاح شعبه وخير الإنسانية، تقول الشاعرة الإنكليزية اللايدي إيفلين كوبرلد في كتابها: «الأخلاق»:

«لعمري لقد استطاع محمد القيام بالمعجزات والعجائب، لما تمكن من حمل هذه الأمة العربية الشديدة العنيدة على نبذ الأصنام، وقبول الوحدانية الإلّهية، ولقد كان محمد شاكراً حامداً إذ وفق إلى خلق العرب خلقاً جديداً، ونقلهم من الظلمات إلى النور، ومع ذلك كان محمد سيد جزيرة العرب، وزعيم قبائلهم، فإنه لم يفكر في هذه، ولا راح يعمل لاستثمارها، بل ظل عُلى حاله، مكتفياً بأنه رسول الله، وأنه خادم المسلمين، ينظف بيته بنفسه، ويصلح حذاءه بيده، كريماً باراً كأنه الريح السارية، لا يقصده فقير أو بائس إلا تفضل عليه بما لديه، وكان يعمل في سبيل الله والإنسانية»[٢٢].

---

(٢١) جورج دي تولدز: الحياة.

(٢٢) ايفلين كوبرلد: الأخلاق ص٦٦.

المؤسس الأول لرابطة العروبة

كان فضل الرسول على العرب من العمق وبعد الأثر لا يحصره زمان أو يحده مكان، عاشته أمة الإسلام وما زالت وسيظل باقياً خالداً.. يقول الباحث السوري قسطاكي حمصي (١٨٥٨ ـ ١٩٤١) في مقالة له نشرتها مجلة الفتح القاهرية عام ١٩٣٠:

«إذا كان سيد قريش نبي المسلمين ومؤسس دينهم، فهو أيضاً نبي العرب ومؤسس جامعتهم القومية، وكما أنه من الحمق والمكابرة أن ننكر أن ما لسيد قريش من بعيد الأثر في توحيد اللهجات العربية، وقتل العصبيات الفرعية في نفوس القبائل، بعد أن أنهكها القتال في قتال الصحراء، وتناحر ملوكها في الشام والعراق تناحراً طال أمد الحماية الرومانية والفارسية في البلدين الشقيقين حتى الفتح الإسلامي. فمن الخطل أن ننكر ما للرسول العربي الكريم وخلفائه من يد على الشرق، في إثارة تلك الحماسة والبطولة النادرة المتدفقة في صدور أولئك الصيد الميامين، الذين كانوا قابعين في حزون الجزيرة وبطاحها، في سبيل الفتح، والمنافحة لتحرير الشرق من رق الرومان وأسر الفرس.

إن سيد قريش هو المنقذ الأكبر للعرب من فوضى الجاهلية، وواضع حجر الزاوية في صرح نهضتهم الجبارة المتأصلة في تربة الخلود»[٢٣].

---

(٢٣) مجلة الفتح القاهرية، عام ١٩٣٠.

واضع أسس الدولة الإسلامية العظمى

أما المفكر والفيلسوف الفرنسي الكبير غوستاف لوبون (١٨٤١ ـ ١٩٣١) فيقول في كتابه: «الآراء والمعتقدات»:

«لقد اعتنقت قبائل البدو في جزيرة العرب ديناً أتى به أمي، فأقامت بفضل هذا الدين في أقل من خمسين سنة دولة عظيمة كدولة الإسكندر وزينت جيدها بقلادة من المباني الفخمة التي هي آية في الإعجاز...

ينشأ من المعتقد القومي يقين لا يزعزعه شيء، ومن مثل هذا اليقين تشتق أكثر حوادث التاريخ أهمية، فقد أيقن محمد أن الله أمره بالدعوة إلى دين جديد أوحي به إليه لتجديد العالم فاستطاع بفضل يقينه أن يقلب الدنيا»[٢٤].

جاذبية الرسول

ولم يكن توحيد الجزيرة العربية بالقوة والسيف والبطش كما ذهب عدد من المستشرقين المغرضين، بل وضع الرسول القوة حيث هي ضرورة، بينما استخدم الحب واللين والتسامح عندما يقتضي الأمر، فكان لجميل سجاياه الأثر العميق في جذب القبائل العربية إلى دائرة الإسلام... يقول المستشرق والمفكر الإيرلندي لويس توماس (١٨٠٧ ـ ١٨٨٧) في مؤلفه: «الحضارة في الشرق»:

«لا توجد أسرة في الجزيرة العربية لا تسمي أحد أبنائها محمداً

---

(٢٤) غوستاف لوبون: الآراء والمعتقدات، ص ٦.

باسم محمد النبي ، وفي العالم ينتشر اسم محمد أكثر من انتشار بطرس ويوحنا ، لقد كان محمد أول من وحَّد بين قبائل الجزيرة وشعوبها ، وجمع كلمتها تحت راية واحدة ، وقد كان ظهوره حين الحاجة إليه ، ولقد جمع كلمة العرب لا بالقوة والشدة بل بكلام جذاب ، أخذ منهم كُل مأخذ ، وتبعوه وصدقوه ، وقد فاق فتى مكة غيره من الرسل ، بصفات لم تكن معروفة لديهم ، وكان يجمع بين القلوب المتفرقة فتشعر كلها بشعور قلب واحد »[٢٥] .

ومن هذا المنطلق يتحدث المستشرق الأمريكي اندرا وليامس في كتابه : « أمريكي في البلاد العربية » :

« قد يكون اسم محمد أكثر الأسماء شيوعاً في العالم ، وأشهر من حمل هذا الاسم على الإطلاق عربي أبصر النور في قرية نائية من أرض الجزيرة العربية هي مكة عام ٥٧١ للميلاد ، إليه أوحى الله كلمته فأجراها في كتاب ، ونشرها بين الناس ، ودعا أصحابه للإيمان بالإله الواحد رباً ، وبمحمد بن عبد الله رسولاً ، وبالعمل الصالح ، والنهي عن المنكر قبلةً ومصلّى ، آذنت حياته بمغيب في الثالثة والثلاثين بعد الستمئة من الميلاد ، تاركاً لقومه ديناً جديداً ، وكتاباً منزلاً ، ورسالةً ضخمة لنشر الدين ، وإقامة الحضارة ، ولقد دعا محمد في عهده إلى أخوية جديدة ، أخوية المسلم لأخيه المسلم ، لا فرق بين أول وآخر ، سواء أكان أميراً أم عبداً إلا بالعمل الصالح والخير والإحسان ، ثم أرسل قومه بعد هذا لغزو العالم ، وتوحيد الأرض في صعيد واحد ، فإذا انقضت سنوات بعد وفاته ، وجدنا الإسلام

(٢٥) لويس توماس : الحضارة في الشرق ، ص ١٢ .

ينتقل من نصر إلى نصر، ومن فتح إلى فتح، وإذا هو يضم العالم المعروف في عهده إلى سلطانه، وإذا به يجمع بين الشرق والغرب»[٢٦].

(٢٦) اندرا وليامس: أمريكي في البلاد العربية (تعريب عمر أبو النصر).



البَابُ الثالث

عَالمِيَّةُ الرِّسَالَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

ـ الرسالة الإسلامية : نوعيتها وسر انتشارها .
ـ الأخوة الإسلامية بين الأجناس والشعوب .
ـ رسالة الإسلام ومستقبل الإنسانية .

الفصل الأوّل

الرسالة الإسلاميّة
نوعيتها وسرّ انتشارها



هوية الرسالة العالمية

لقد كان أثر الرسالة الإسلامية عميقاً في جزيرة العرب التي تحققت وحدتها العملية في المرحلة الأخيرة من حياة الرسول، ومع اكتمال الدين الإسلامي... هذا، وإن الثورة الكبيرة التي حدثت فيها لم تقف عند تلك الحدود، بل سرعان ما خرجت ألوية الدعوة الإسلامية، لتشمل سائر بلاد العرب ثم العالم الإسلامي، لتؤكد هويتها العالمية ورسالتها الإنسانية.. فالإسلام ليس دين العرب وحسب، بل هو لسائر الشعوب والأمم... يتحدث الباحث الفرنسي المستشرق إتيين دينيه عن وثبة الإسلام، بقوله:

«عندما رفع الله إليه مؤسس الإسلام العبقري، كان هذا الدين القويم قد تم تنظيمه نهائياً، وبكل دقة، حتى في أقل تفاصيله شأناً.

وكانت جنود الله قد أخضعت بلاد العرب كلها، وبدأت في مهاجمة إمبراطورية القياصرة الضخمة بالشام. وقد أثار القلق الطبيعي المؤقت، عقب موت القائد الملهم، بعض الفتن العارضة، إلا أن الإسلام كان قد بلغ من تماسك بنائه، ومن حرارة إيمان أهله،

ما جعله يبهر العالم بوثبته الهائلة التي لا نظن أن لها في سجلات التاريخ مثيلاً.

ففي أقل من مئة عام، ورغم قلة عددهم، استطاع العرب الأمجاد ــ وقد اندفعوا، لأول مرة في تاريخهم، خارج حدود جزيرتهم المحرومة من مواهب النعم ــ أن يستولوا على أغلب بقاع العالم المتحضر القديم: من الهند إلى الأندلس»[1].

الفتح الإسلامي ونشر روح الحضارة

أمّا المؤرخ الفرنسي المستشرق سيديو فإنه رأى في انتشار رسالة الإسلام ليس مجرد توسع إقليمي، بل نشر روح الحضارة والمدنية يقول:

«وبعد ظهور محمد ﷺ الذي جعل قبائل العرب أمة واحدة، تقصد مقصداً واحداً ظهرت للعيان أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر تاج في إسبانية إلى نهر الغانج في الهند، ورفعت على منار الإشادة أعلام التمدين في أقطار الأرض أيام كانت أوروبة مظلمة بجهالات أهلها في القرون المتوسطة»[2].

ســر جاذبية الإسلام

هذا، ولقد أثارت مسألة ولادة الإسلام ومن ثم انتشاره بتلك الوثبة العملاقة اهتمام المستشرقين الغربيين، فكان أن طرحت التساؤلات عن سرّ جاذبية الإسلام وهويته وقوته وانطلاقته العظيمة تلك.. يقول روجيه غارودي في كتابه: «ما يعد به الإسلام»:

---

(١) إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص ٣٣٥.

(٢) سيديو: خلاصة تاريخ العرب ص ٥٤.

«إن ولادة الإسلام وانتشاره يطرحان قضية نوعية خاصة إذ لا يجوز الاكتفاء بالإشارة إلى أن الجزيرة العربيـة بحاضرتيها مكـة والمدينة ، كانت نقطة التقاء الطرق التجارية الكبرى والقوافل المتوجهة من الشرق إلى الغرب ، ومن أوروبة والشرق الأدنى إلى الهند والصين ، ومن البحر المتوسط إلى المحيط الهندي ، لأن الاكتفاء بهذه الإشارة قد يفهم منه أنه بفضل وقوع الجزيرة العربية على مفترق طرق الحضارات قد تم تمازج الأديان والثقافات التي لم يكن الإسلام إلا محصلةً لها ومبشراً بها ، بل إنه خلافاً لهذا فقد انطلق من مكة والمدينة وشبه الجزيرة العربية بصحاريها وواحاتها ، وراح يشع على مدى قرون ، عقيدةً واحدةً وروحاً جماعيةً مشتركةً سينجم عنها ثقافة نوعية أغنت الثقافات الأخرى وجددتها وذلك عبر ثلاث قارات من الهند إلى إسبانية ، ومن آسية الوسطى إلى قلب إفريقية . وظاهرة الانتشار هذه لا تشبهها أية ظاهرة أخرى سابقة أو لاحقة ، نعني هجرة الموجات البدوية العديدة من أقاصي آسية ، والغزوات الأوروبية الكبرى على أمريكة وإفريقية ، هذه الغزوات التي تتمتع بتفوق عسكري مطلق ، قوامه المدفع والبندقية أولاً والرشاش ثانياً .

ولم تكن الجزيرة العربية غزيرة السكان ، ولم يكن العـرب يملكون ما يملكه الفرس والبيزنطيون من أسلحة وفنون حربية . وهكذا فالإمبراطورية العربية لم تقم إذاً على أساس من علاقات (القوة) التي تؤمن لها تفوقاً ساحقاً .

زد على ذلك أنه ليس بالإمكان تطبيق هذه الأطروحة أو تلك من مقولات (ماركسية) مطلقة مختزلة على الظاهرة الإسلامية ، هذه

الأطروحة التي تفسر حركة التاريخ وثوراته وتحولاته بالمستوى التقني والعلاقات الاقتصادية وصراع الطبقات الناجم عنها»[٣].

لقد شغلت قضية انتشار الإسلام وقوة وثبته أفكار العظماء، ومنهم نابليون الذي سُحر ــ كرجل عسكري ــ بالفتوحات العربية الإسلامية، وكان يرى وراءها قوة سرية كامنة في نشأة الإسلام وقوته الذاتية، وانتهى إلى النتيجة القائلة:

«إنه، إذا طرحنا جانباً الظروف العرضية التي تأتي بالعجائب، فلا بد أن يكون في نشأة الإسلام سر لا نعلمه، وأن هناك علة أولى مجهولة جعلت الإسلام ينتصر بشكل عجيب على المسيحية، وربما كانت هذه العلة الأولى المجهولة: أن هؤلاء القوم، الذي وثبوا فجأة من أعماق الصحارى أمة قوية، ومواهب عبقرية وحماس لا يقهر، أو ربما كانت هذه العلة شيئاً آخر من هذا القبيل»[٤].

رسالة الإسلام النوعية

إلاّ أن روجيه غارودي، حاول أن يضع يده على السرّ، الذي وجده كامناً في رسالة الإسلام النوعية، وأن تفسيره لا يمكن أن يتم خارج إطار الإسلام نفسه، أو بمعزل عن تفهم العقيدة والروح الجماعية في الإسلام، ويخلص إلى القول:

---

(٣) روجيه غارودي ما يعد به الإسلام، ص ٤٢ ــ ٤٣.

(٤) مذكرات سانت هيلين، ج ٣، ص ١٨٣، (نقلاً عن كتاب إتيين دينيه محمد رسول الله، ص ٣٣٥ ــ ٣٣٦).

«ولكن إذا لم تكن مُسلماً ولم تنظر إلى القرآن على أنه كتاب منزل من الله على محمد فمن المتعذر عليك كمؤرخ أن تنظر إلى تفجر ذلك الينبوع الحياتي الذي راح يزعزع العالم على أنه حقيقة دامغة، وذلك دون الخوض في تبسيطات الفلسفة الوضعية وأحكامها السابقة.

إن التسليم بهذه الحقيقة الأساسية لا يُلْزِمنا الاستغناء عن اللجوء إلى التفسير، وإنما يدعونا سلفاً بكل بساطة إلى أن لا نستثني هذا البعد الحياتي أو ذاك، من حركة الولادة والنمو التي تمارسها الإنسانية في مسيرتها التاريخية.

«وفي كل تاريخ مفعم بالإنسانية تلعب (الغايات) والأهداف دوراً فاعلاً لا يقل عن دور (الأسباب)»[٥].

ومن هنا نجد أن انتشار الإسلام حدث بفعل قوته الذاتية، ولم ينجم عن أسباب خارجية، أو حصراً بالنشاط العسكري للمسلمين، يقول غارودي:

«إذاً لا يمكن تفسير ظاهرة انتشار الإسلام بعوامل خارجية كالضعف البالغ أو الانحلال الذي انتاب الإمبراطوريات المهزومة (الإمبراطورية الرومانية الشرقية وإمبراطورية الفرس الساسانية وإمبراطورية الفيزيغوت في إسبانية) كما لا يمكن تفسيرها بعوامل عسكرية صرفة».

«ولكن الأسباب العميقة لذلك الانتشار العاصف أسباب

---

(٥) روجيه غارودي: ص٤٣ ــ ٤٤.

(داخلية) تتصل بجوهر الإسلام وروحه، فعشية موت النبي وعلى مدى اثنتي عشرة سنة (من ٦٣٣ ــ ٦٤٥م) تمت سيطرة العرب على فلسطين وسورية وما بين النهرين ومصر. ولم تقف في وجه الموجة الأولى إلا الحواجز الطبيعية كسلسلة جبال طوروس في آسية الوسطى، وجبال شرقي إيران، وصحارى ليبية والنوبة في الغرب»[٦].

رسالة تحرير لا استعباد

كان نضال المسلمين الملحمي في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر رسالة الخير والإنسانية لسائر أبناء البشر، هذه الرسالة التي لم تقتصر على الجانب الديني، وإقامة العبادات والشعائر فقط، وإنما عملت اجتماعياً على تحقيق المساواة والأخوة، وناضلت بروح من التسامح لا تعرف الأحقاد الطائفية الدينية.. فكانت رسالة تحرير للشعوب لا استعباد، وكانت الشعوب تستقبل المسلمين استقبال المحررين، ويتابع غارودي بحث قضية سرّ انتشار الإسلام وقوة جاذبيته، بقوله:

«وهكذا وفي كل مرة تتم فيها هزيمة الطبقة المسيطرة المكروهة من شعبها كان العرب يستقبلون على أنهم محررون من قبل ضحايا الإرهاب الاجتماعي أو السياسي أو الاضطهاد الديني.

كان انتصار العرب تحريراً وتخليصاً، فلقد حرروا المسيحيين القائلين بطبيعة واحدة للمسيح المتهمين بالهرطقة من قبل الإمبراطورية البيزنطية، كما حرروا النساطرة في بلاد الفرس، وقبائل

---

(٦) المصدر السابق، ص ٥٩ ــ ٦٠.

البربر التي كانت قد تبنت مذهب الأسقف (دونات) والتي استعدى عليها القديس أوغسطين، إمبراطور رومة ليبطش بها، لأنها مارقة في نظره، كما كان انتصار العرب تحريراً لليهود والنصارى الأريوسيين وأتباع بريسيليان في إسبانية من اضطهاد (الأكليروس) المتعصب، كما كان تحريراً للفلاحين الأقباط في مصر الذين كانوا يعانون من ابتزاز كبار ملاكي الأراضي في بيزنطة»[٧].

الفتح الإسلامي والحريات الدينية

ومن جانبه، أكد فلاسكو إيفانيز في كتابه: «في ظل الكاتدرائية» أن ظاهرة انتشار الإسلام لم تأخذ طابع الاستعمار ولا سمة الغزو، يقول:

«إن إسبانية المستعبدة من قبل ملوك لاهوتيين، وأساقفة شرسين، قد فتحت ذراعيها للفاتحين.. وفي مدى عامين استولى العرب على بلاد استغرق استرجاعها سبعة قرون. ولم تكن القضية قضية غزو أو اجتياح بحد السيف وإنما هي مسألة مجتمع جديد تترسخ جذوره القوية في جميع الاتجاهات. أما مبدأ حرية ممارسة الشعائر ــ وهو حجر الزاوية لعظمة كل أمة ــ فكان العرب حريصين على تطبيقه، ففي كل المدن التي حكموها كانت كنيسة المسيحيين تقوم إلى جانب معبد اليهود»[٨].

الديناميكية الداخلية لرسالة الإسلام

وهذا، ويمكن أن نعزو سر انتشار الإسلام ــ لأسباب جديدة، عالجها

(٧) المصدر السابق، ص ٦١.

(٨) فلاسكو إيفانيز: في ظل الكاتدرائية (السابق، ص ٦٤).

المستشرقون والباحثون الغربيون ـــ هي ديناميكية الإسلام الداخلية، المتحققة بفضل وحدة وتوازن وانسجام وتماسك لحمة الإسلام كعقيدة وشريعة والتقاء الروحي بالمادي، فكان أن تملّكت الرسالة قوة الاندفاع والانتشار إلى جانب امتلاكها قدرة الثبات والصمود، فالقادر على الانتشار يجب أن يكون قادراً على الوقوف أمام التفكك بفضل اللحمة الداخلية...

ووحدة الإسلام الداخلية وتماسكه، واندماج الفرد في حياة الجماعة وخلق الأخوة الإسلامية، قد مدت الرسالة بتلك القدرة العجيبة على اقتراح المعجزات، رسوخاً في البقاء كنظام متماسك رغم كل أسباب التمزق، ورغم انقسام العالم الإسلامي. يقول مارسيل بوازار:

«لقد كان الدين حافزاً فعالاً على تأليف كيان متميز لم تصدعه صروف الدهر، ولا الاحتكاك بمختلف الحضارات على مر العصور.. ولقد تمكن المجتمع الإسلامي الذي قام على الدين من الصمود في وجه التفكك السياسي، ولم تتأثر الروابط الدينية على الحدود والتخوم بين الدول كبير التأثير»[٩]...

هذا، وإذا كان لاتساع رقعة الإمبراطوريات العالمية التي ظهرت تاريخياً، الدلالة العملية على عظمتها، فيجب ألاّ يحجب عنا ذلك الفرق الشاسع بين إمبراطوريات كبرى قامت على أساس التوسع الاستعماري فحسب، وأخرى قامت أساساً دفاعاً عن وجود، ونشراً لعقيدة.. فها هي الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى تزول تحت ضربات حركات التحرر الوطنية، وتظهر في البلدان المستعمرة أمم جديدة، ودول فتية مستقلة..

---

(٩) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص ٧٣ ـــ ٧٤.

وأسطع مثال على ذلك، الإمبراطورية البريطانية التي قيل الكثير عن عظمتها واتساع رقعتها، وأن الشمس لا تغيب عنها، فكان مصيرها أن زالت مع كل الإمبراطوريات القديمة... بينما الإسلام ــ وإن لم تعد تجمعه دولة إسلامية واحدة ــ فما زال قائماً وراسخاً رغم القرون العديدة، حقيقة تاريخية ثابتة في الدول الإسلامية، بما يؤكد أن شمسه الساطعة لن تغيب أبداً...

الرسالة والوحدة الداخلية المتماسكة

لقد رأى عدد من المفكرين الغربيين أن الوحدة الداخلية للإسلام القائمة على التوازن والانسجام وتماسك اللحمة، كعقيدة وشريعة، والتقاء الروحي بالمادي، قد منح الرسالة الإسلامية القوة الذاتية للصمود أمام عوامل التفكك وانهيار المجتمع الإسلامي، وكانت وراء انتشار الإسلام ووثبته العالمية الفذّة.

تقدمية الرسالة القرآنية

وكان لتقدمية التعاليم الإسلامية إلى جانب العوامل الأخرى سرّ جاذبية الإسلام وخصيصة انتشاره السريع، يقول بوازار:

«لقد أظهرت الرسالة القرآنية وتعاليم النبي أنها تقدمية بشكل جوهري. وتفسر هذه الخصائص انتشار الإسلام السريع بصورة خارقة خلال القرون الأولى من تاريخه»[١٠].

كما اعتبر المستشرق الفرنسي هليار بلوك انتشار رسالة الإسلام معجزة

---

(١٠) المصدر السابق، ص ٧٤.

حملت للإنسانية الخير والعطاء، ونادت بالمثل العليا، يقول في كتابه: «محمد والقرآن»:

«إني أقول إن معجزة كهذه من حيث خطرها وبعد أثرها، وعظيم نتائجها، كانت مسوقة بقوة لا يستطاع تفسيرها، وإن كان ما لدينا من المصادر والوثائق يساعدنا على تفهم الأسباب التي جعلتها أمراً واقعاً منظوراً.

كانت الحركة دينية، ما في ذلك شك، فلم يخرج العرب من جزيرتهم للنهب والسلب، وإنما خرجوا لنشر الدين الجديد الذي جاء به محمد، والتبشير بالمثل العليا التي نادى بها محمد، والصفات الجليلة التي دعا إليها محمد»[11].

---

(١١) هليار بلوك: محمد والقرآن.

الفصل الثاني

الأخوّة الإسلاميّة
بين الأجناس والشعوب



لا تفرقة عرقية أو جنسية في الإسلام

لقد سبق أن نوهنا في مبحث المساواة في الإسلام بالقول إن الرسالة حرصت على إقامة قواعد المساواة والإخاء في الدولة الإسلامية دونما أي نظر للعرق أو الجنس أو الشعوب والقوميات المختلفة، ودونما تفريق بين أصحاب الديانات المتباينة أو اختلاف بين مسلم وذميٍّ...

الأخوة الإسلامية وسرّ انتشار الرسالة

وبدهي أن يبحث المستشرقون قضية الأُخوة الإسلامية والنزعة الإنسانية في الإسلام، وأنها كانت وراء جاذبية انتشاره، ولقد تناول المؤرخ الإيطالي كايتاني في كتابه: «حوليات الإسلام» كيف أن معاقل المسيحية في الشرق قد تهاوت أمام المدّ الإسلامي، بسبب تلك الجاذبية وسطوع مبادئه، يقول:

«لما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد المسيحية، التي اختلطت بالغش والزيف، وتمزقت بسبب الانقسامات الداخلية، وتزعزعت عقائدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من هذه الشكوك، نقول إنه لم تعد تلك المسيحية قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي

بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدّم مزايا جليلةً إلى جانب مبادئه الواضحة التي لا تقبل الجدل، وحينئذ تركَ الشرقُ المسيحَ، وارتمى في أحضان العرب. ولا عجب فقد منح الإسلام العبد رجاءً، والإنسانية إخاءً، ووهب الناس إدراكاً للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية»[1].

أثر الأخوة الإسلامية على الشعوب

وكان لهذه الأخوة الإسلامية أثرها على باقي الشعوب، وحفرت عميقاً في وجدانها هذه النزعة الإنسانية الخيرة التي ترفض التقسيم العرقي أو الطبقي... ويتحدث جواهر لال نهرو زعيم الهند الراحل، وباني نهضتها الحديثة، عن هذا الجانب بقوله:

«إن نظرية الأخوة الإسلامية، والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها، ويعيشون فيها، أثرت في أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً. وكان أكثر خضوعاً لهذا التأثير البؤساء الذين حرم عليهم المجتمع الهندي المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية»[2].

الإخاء والمساواة

إن الأخوة الإسلامية وقفت دائماً بالمرصاد ضد النزعة العرقية، فلا فرق بين عربي وأعجمي، أو أبيض وأسود، فالجميع سواسية كأسنان المشط، ويعاملون على قدم المساواة، يقول المستشرق والمؤرخ بودلي:

---

(١) كايتاني: حوليات الإسلام نقلاً عن كتاب الإسلام والحياة، ص٦٧.

(٢) جواهر لال نهرو: نقلاً عن كتاب النظام السياسي في الإسلام، ص ٢٢٠.

«وليس هناك أي عائق لوني للمسلم فلا يهم أكان المؤمن أبيض أو أسود أو أصفر، فالجميع يعاملون على قدم المساواة»[٣].

الإخاء وفلسفته الاجتماعية في الإسلام

انطلاقاً من فلسفة الإسلام الاجتماعية التي تعلي كل ما هو في صالح المجموع وتقدمه على مصلحة الفرد، والصالح العام للإنسانية فوق المصلحة العرقية، تأكيداً على مبدأ الإخاء الإنساني، يقول المفكر برج:

«إن مبدأ الإخاء الإنساني هو أساس فلسفة الأخلاق الاجتماعية في الإسلام»[٤].

وتأسيساً على مبدأ الأخوة الإنسانية بين الأجناس والشعوب، حقق الإسلام واقعياً لا نظرياً عملية توحيد مختلف الأجناس في ظل المساواة والعدل الإسلاميين، يقول برج مؤكداً:

«إنه ليس هناك من مجتمع آخر سجل له التاريخ من النجاح كما سجل للإسلام في توحيد الأجناس الإنسانية المختلفة، مع التسوية بينها في المكانة والعمل وتهيئة الفرص للنجاح في هذه الحياة»[٥].

ويتحدث المفكر الإنكليزي موير عن الرسالة الإسلامية وفق عقيدتها، فيقول:

«ومن عقيدة الإسلام أن الإنسان أخو الإنسان»[٦].

---

(٣) بودلي: حياة محمد (نقلاً عن كتاب قالوا في الإسلام ص١٣٧).

(٤) (٥) برج: نقلاً عن التكامل في الإسلام، ج٢، ص١٠١.

(٦) وليم موير: نقلاً عن مجلة الهلال المجلد ٤، الجزء٧.

ولادة المبدأ الديمقراطي الجديد

إن تلك الأخوة الإسلامية كانت جزءاً من الرسالة الخيرة وقاعدة لولادة مبدأ جديد، مبدأ الديمقراطية.. ويتحدث جواهر لال نهرو عن نضال الرسول محمد ﷺ في نشر رسالته التي حولت القبائل العربية المتناحرة إلى أمة عظيمة ضمت شعوباً شتى وأجناساً مختلفة، وأعراقاً متباينة، كان الجميع فيها يعاملون على قدم المساواة تضمهم راية الأخوة، ويوحدهم مبدأ الديمقراطية في ظل تلك الحضارة الإسلامية الإنسانية الزاهرة، يقول في كتابه: «لمحات من تاريخ العالم»:

«كان محمد واثقاً بنفسه ورسالته، وقد هيأ بهذه الثقة وهذا الإيمان لأمته أسباب القوة والعزة والمنعة، وحوّلها من سكان صحراء إلى سادة يفتحون نصف العالم المعروف في زمانهم، كانت ثقة العرب وإيمانهم عظيمين، وقد أضاف الإسلام إليها رسالة الأخوة والمساواة والعدل بين جميع المسلمين، وهكذا ولد في العالم مبدأ ديمقراطي جديد، فوثب الشعب العربي بنشاط فائق أدهش العالم، وقلبه رأساً على عقب. وإن قصة انتشار العرب في آسية وإفريقية وأوروبة، والحضارة الراقية، والمدنية الزاهرة التي قدموها للعالم هي أعجوبة من أعجوبات التاريخ»[٧].

النزوع الديمقراطي وإزالة الفوارق الجنسية والقومية

لقد نجح الإسلام بفضل هذه الأخوة والروح الديمقراطية في إزالة الفوارق في الجنس واللون، ولم تعد الشعوب المغلوبة التي دخلت حظيرة

---

(٧) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم، ص٢٦.

الإسلام، تشعر أنها شعوب مقهورة، بل تشعر بحريتها وكرامتها في ظل الأخوة الإسلامية، يقول الباحث الأمريكي، وأحد كبار رجالات الخارجية الأمريكية السابقين فيليب إيرلاند:

«يبدو من النظرة الأولى أنه توجد ظروف ملائمة جداً للديمقراطية في داخل الإسلام. فإن الإسلام كان أعظم الديانات توفيقاً في إزالة فوارق الجنس واللون والقومية»[٨].

أصالة النظام الإسلامي

ويعود موقف الإسلام المتسامح من الشعوب والأجناس إلى نظرته للإنسان بشكل عام، فجميع البشر عيال الله في إطار من المساواة والإنسانية، الموجهة بالعناية الإلٓهية. فالإسلام عقيدةً وشريعةً، ديناً ودولةً لا ينفصم فيه الروحي عن الزمني، لذا اكتسب طابع العمومية، وغدا شمولياً عالمياً إنسانياً، للإنسان مكانته الرفيعة في المنظور الإسلامي... هذا، وإن كان للجماعة الإسلامية قوانينها وحقوقها، فقد سوّى بينها الإسلام بتسامحه ونظرته العميقة للشعوب الأخرى، فكان للإنسان إنسانيته، ولذا حفظ مكانتها في المجتمع الإسلامي، في إطار من النظم والدساتير،.. يقول الباحث الفرنسي مارسيل بوازار:

«وينبغي أن يحتفظ لغير المؤمنين بوضع خاص في مجتمع قائم بشكل أساسي على الدين. ومع ذلك فليس شأن الأجنبي كشأن «العدو» في المدينة القديمة. وتتمثل أصالة النظام الإسلامي بالنظر إلى ما كان سائداً في العصور الإغريقية والرومانية في شمولية الوحي

---

(٨) نقلاً عن الإسلام بين الإنصاف والجحود، ص ٢٨.

وإرشادية الدين. ويتمثل تفوقه في هذا المضمار على اليهودية والمسيحية في تقبّله الديانات التوحيدية السابقة، التي يصدقها الإسلام. ولكنه يتجاوزها في الوقت نفسه إلى جانب توكيده على الوحدة الجوهرية للأديان السماوية.

فالنسبية إذن قاعدة مقبولة في حقل التشريع. حين يتعدى الأمر التوكيد الجوهري لعالمية القانون الإلّهي. وإليك إحدى أهم مساهمات الإسلام في تأليف مفهوم عالمي حديث: التسامح وهو واجب ديني وأمر شرعي. والقرآن واضح في الإشارة إليه: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه. فاحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً ولكن ليبلوكم في ما آتاكم، فاستبقوا الخيرات﴾.

وترتسم في هذا الإطار العام ثلاث فئات من غير المسلمين. فهناك أولاً المشرك المدعو للدخول في الدين الجديد دون أن يتخذ بحقه تدبير طرد، وليس أمامه نظرياً إذا ناصب الإسلام والمسلمين العداء إلا أن يختار بين اعتناق الدين والقتال حتى الموت. وهناك ثانياً المعتنق لدين توحيدي القاطن خارج العالم الإسلامي (الحربي). ولكن في وسعه أن يقيم مؤقتاً فيه تبعاً لإجراء في غاية البساطة. ويبدو هذا النموذج الثاني أقرب إلى فكرة «الأجنبي» حسب المذهب الحديث. وتضم الفئة الثالثة أخيراً الموحدين الذين «تحميهم» الجماعة الإسلامية. وكثيراً ما لجأت الكتابات الغربية إلى عملية تعميم مفرطة في التبسيط فاعتبرت هؤلاء «المحميين» بمثابة

«مواطنين من الدرجة الثانية». والواقع أن هؤلاء القوم كانوا أجانب خاضعين لقوانينهم الخاصة. و «محميين» بالمعنى الفعلي للفظة، لأنهم مقيمون جغرافياً في المجال الخاضع سياسياً وثقافياً للإسلام. وكانوا يؤلفون أقليات دينية متناسقة تكفل أوضاعها نظم قانونية ملزمة إلزاماً شديداً للأغلبية المسلمة لأنها جزء من التنزيل»[٩].

التعايش الأخـوي

إن الإسلام قدّم نفسه كعقيدة دينية وشريعة ظهرت في إطار تنظيم اجتماعي تبلور في الدولة الإسلامية عبر سائر المراحـل التاريخيـة السابقـة واللاحقة، سابقاً إلى تحقيق فكرة التعايش بين الشعوب والأجناس والأديان، وإن نظرة واحدة لأول دستور مكتوب في تاريخ البشرية، وأقصد به دستور المدينة يقدم لنا القوانين السائدة في أول دولة إسلامية قامت بعد الهجرة وحققت التعايش بين المسلمين واليهود والقبائل العربية التي لم تكن تعتنق الإسلام، ومن ثم تطورت جوانب هذا التعايش مع قيام الدولة الإسلامية التي ضمت شعوباً وأمماً مختلفة، حققت بينها الانسجام والعدل والمساواة، بعيداً عن العصبية العرقية أو الاستعلاء الديني. يقول مارسيل بوازار:

«وقد فتح الإسلام الباب للتعايش على الصعيد الاجتماعي والعرقي حين اعترف بصدق الرسالات الإلٓهية المنزلة من قبل على بعض الشعوب، وجعل المسلمين منحدرين من نسل مشترك هم اليهود والنصارى عبر إبراهيم. لكنه بدا أنه يرفض الحوار في الوقت ذاته على الصعيد اللاهوتي حين ربط التنزيل القرآني بما جاء في

(٩) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص١٨٣ ــ ١٨٤.

الكتاب المقدس وأزال من العقيدة كل ما اعتبر زيفاً مخالفاً للتوحيد بالمعنى الدقيق للكلمة. وأتاح منطق تعاليمه القوي وبساطة عقيدته، وما يرافقها من تسامح أتاح كل هذا للشعوب التي فتح بلادها حريةً دينية تفوق بكثير تلك التي أتاحتها الدول المسيحية نفسها، ولا سيما في حوض المتوسط الشرقي، حيث كانت تحارب بقسوة الهرطقات التي غالباً ما كانت تتخذ شكل المطالبة القومية. وبهذا لا تغطّي «الجماعة الإسلامية» رقعة «دار الإسلام» فالفكرة الأولى تتخذ طابع الموافقة الدينية، وتتضمن الثانية بنية سياسية ودينية معاً تضم غير المسلمين تبعاً لإجراء محدد.

ويتيح التوحيد لكل إنسان شرف الاندماج في الجنس البشري دون حصر ولا مراعاة خاصة. وتستتبع وحدة الرسالات احترام معتنقي التنزيلات السابقة، في حين أن اعتناق الإسلام يحقق للفرد في موازاة ذلك، مكان بلوغ الدرجة القصوى من الكمال بالانخراط في مجتمع المؤمنين. وبالفعل فإن شهادة أن «لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» التي ينخرط بها الفرد، ويشارك مشاركة تامة في الأمة الإسلامية تتضمن اعترافاً مزدوجاً: الاعتراف بوحدانية الله، والاعتراف بأن النبي محمداً رسولٌ من الله. وتبقى القيمة الجوهرية هي هي لجميع الناس بوصفهم أناساً. ومع هذا فإن شعور المسلم بالدعوة الربانية أسمى موضوعياً من شعور أي إنسان آخر لأنه يتّبع أمر الله:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً

وقبائلَ لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقـاكم إن الله عليم خبير﴾ (١٣/٤٩)[١٠].

المجتمع الإنساني المنفتح

إن أصالة الإسلام وعالميته، تجاوزتا المواقف العملية للعقائد والديانات السابقة، حين قدم نموذجاً عملياً في إطار نظامه، فلم تبق الرسالة مجرد تعاليم راقية بل ظهرت كحقيقة تاريخية ثابتة متطورة، وكمجتمع إنساني منفتح على الجميع، دون مساس بالصالح العام، فكان أن ظهرت فيه أقليات عرقية ودينية، أوجد لها الإسلام الحلول قديماً، بينما كانت المجتمعات الأوروبية غارقة في ظلام القرون الوسطى... يقول مارسيل بوازار:

«وبالرغم من كون هذا المجتمع مفتوحاً للجميع، فإنه ليس في مكنة الجماعة أن تقبل الذين رفضوا مقدماتها الأساسية. أي الإسلام، بصورة أعضاء كاملين. إلا أنه ليس ما يمنع المؤمنين من إقامة علاقات صداقة مع غير المسلمين. ما دامت هذه الروابط لا تشكل خطراً على الجماعة. وفي وسع الموحدين غير المسلمين القاطنين في قلب وسلطة زعيمهم الديني المسؤول تجاه السلطات الإسلامية. وقد تألفت «أمم» من نوع معيّن، واتّحدت، وخضعت لنظامها الديني الخاص. وانخرطت في البنيـة الاجتماعيـة الفوقيـة للمجتمع الإسلامي الذي يحميها.

وتعني كلمة (الذمة) في أصل وضعها حسب المعجمات العربية، الإيمان والعهد، والميثاق، فالقضية إذاً قضية عقد تسمح

(١٠) المصدر السابق، ص ١٨٤ ـــ ١٨٥.

الجماعة الإسلامية بموجبه للأقوام الموحدة الخاضعة لها أن تحتفظ بدينها بكفالة الإسلام، لقاء دفع ضريبة تعويضية واحترام بعض موجبات حددتها الشريعة بدقة. ويستمد مبدأ الجزية أساسه من القرآن، أما طرق تطبيقها فقد وضعت فيما بعد، ولا سيما خلال حقبة الفتوحات.

وليس طابع معاهدة الحماية (الذمة) التشريعي قابلاً للمقارنة أو المماثلة بأفكار المذهب التشريعي الغربي الرائجة. أضف إلى ذلك أن المؤسسة تطورت بتطور تاريخ الإمبراطورية الإسلامية، بتأثير النقول الخارجية وما نتج عنها من تطور بنى العالم الإسلامي نحو نوع من العلمانية. وإنه ليكفي أن نستخرج خطوط النظام العامة الكبرى من ركام كثير التشويش من الأحداث التاريخية، والآراء التشريعية، والعلاقات بين الأحداث، لنبيّن كيف حاول الإسلام منذ القرن السابع للميلاد أن يقدم حلاً لمشكلة الأقليات فريداً في نوعه. والمقابلات القانونية التاريخية خطرة، لأن المؤسسات القديمة نتاج مفاهيم بعيدة جداً في الأغلب عن تطلعاتنا أو إنجازاتنا الحديثة.

وتستحق جماعة غير المسلمين على أرض الإسلام أن تُتناول بالتحليل، لأنه ثبت أنها نهج لا مثيل له، في الوقت الذي كان فيه الغرب على أهبة الخروج من العصور الوسطى وإدراك ضرورة وضع الأنظمة المحددة للعلاقات مع الغرباء»[11].

الإسلام وصياغة القوانين الدولية

هذا، وقد رأى ماسنيون أن نظرة المجتمع الإسلامي إلى الأقليات

---

(١١) المصدر السابق، ص ١٨٦ ــ ١٨٧.

العرقية القاطنة في كنفه قد لعبت دوراً بالغاً في صياغة القوانين الدولية، إذ شكلت هذه التنظيمات القانونية الخاصة والإلزامية، حسب رأي المفكر الفرنسي «إلى تكوين جنين قانوني دولي عام لدى فقهاء المسلمين قبل أن يفكر بذلك غروتيوس في العالم المسيحي بزمن»(١٢).

العدل واحترام الإنسان وشخصنة التشريع

ولكن لا يخفى أن بعض المستشرقين الغربيين قد نظروا إلى موقف التسامح الإسلامي، موقفاً بعيداً عن روحه أي «محصلة حالة الحرب المستمرة المفترضة بين الإسلام والعالم الخارجي»، بينما نظر آخرون إلى أن الفتح الإسلامي شكل من أشكال الاستعمار، وأن غير المسلمين في المجتمع الإسلامي هم مواطنون من الدرجة الثانية... على حين رأى المستشرقون المنصفون أمثال بوازار، أن موقف المسلمين من غير المسلمين أملته ثلاثة اعتبارات ناجمة عن طبيعة الإسلام وخاصة به وهي: «العدل واحترام الإنسان عبر الضيف الغريب وشخصنة التشريع» كما ردّ هذا المفكر على ادعاءات البعض الآخر، «بأن الذميين ــ في المجتمع الإسلامي لم يكونوا يشكلون فئة أدنى على الصعيد الاجتماعي البحت «ويذكر الباحث» أن عدداً كبيراً من أهل الكتاب قد لعبوا دوراً أساسياً من الطراز الأول في التاريخ الإسلامي».

لا إكراه في الدين

ويتابع الباحث الفرنسي بوازار عرضه مظاهر التسامح الإسلامي، إذ كفلت الشريعة حماية الأقوام المفتوحة بلادهم، دون أن تمسّ حقوقهم

---

(١٢) ماسينيون: احترام الشخصية الإنسانية في الإسلام، ص ٤٥٠.

وأوضاعهم، رغم ظهور بعض التجاوزات الطفيفة بين الفينة والأخرى، ويخلص إلى القول:

«ويظهر أن الإسلام يتراءى أكثر تسامحاً كلما قوي واشتدّ على الصعيدين الداخلي والخارجي. وينمّ نص الآية القرآنية التي تمنع الإكراه على اعتناق الدين عن تأكيد لا يتزعزع. وقوة الأمة توفّر للمؤمن ألا يخشى اليهودي ولا المسيحي، وأن يحترم بالتالي شخصهما ودينهما ومؤسساتهما. وقد استوحت الجماعة الإسلامية أثناء الموجة الأولى لانتشارها في الأرض استيحاء كبيراً الترتيبات التحررية التي أغدقها النبي وخلفاؤه. وقد أهمل معظم القيود التي جدّت بالتدريج، ولم يرجع إليها بشكل منظم إلا تبعاً لظروف خاصة جداً»[١٣].

ومنذ البدء أكد الإسلام أنه دين عالمي حضاري صالح لكل الأجناس، ولمختلف الشعوب، يقول المؤرخ والمستشرق الإسباني ريتين في كتابه: «التاريخ الخاص لسورية ولبنان»:

«دين محمد قد أكد منذ الساعة الأولى لظهوره وفي حياة النبي ﷺ أنه دين عام. فإذا كان صالحاً لكل جنس كان صالحاً بالضرورة لكل عقل، ولكل درجةٍ من درجات الحضارة»[١٤].

تجربة الإسلام التاريخية ومستقبل الإنسانية

ويتوسع المستشرق البريطاني جب في تناول جانبٍ كالمساواة التي أقامها الإسلام بين مختلف الشعوب في تلك التجربة الإنسانية الفذة، التي

---

(١٣) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص ٢٠٢.

(١٤) ريتين: (نقلاً عن كتاب الإسلام مبدأ وعقيدة، ص ٤٧).

جمعت في بوتقة الإسلام شعوباً مختلفة وأجناساً متباينة، وأن هذه التجربة التاريخية الكبرى يمكن أن تخدم الإنسانية مستقبلاً في تحقيق الإخاء بين الشعوب، وكسر الجليد بين الشرق والغرب، وينتهي إلى القناعة بضرورة تشكيل موقف موحد ما بين الإسلام والغرب لخدمة الإنسانية، يقول في كتابه: «اتجاه الإسلام»:

«وكذلك كم قام الإسلام بخدمات أخرى أسداها للإنسانية وله ماضٍ بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها، وليس هنالك مجتمع آخر له ما للإسلام من ماضٍ كله نجاح في جمع كلمةِ مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط واحد، في الحقوق والواجبات، وقد برهنت الطوائف الإسلامية في إفريقية والهند والهند الشرقية والجماعات الصغيرة منهم في الصين واليابان، على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها، وإذا ما أريد إحلال التعاون محمل الخلاف بين المجتمعات في الشرق والغرب فإن وساطة الإسلام ضرورية لا غنى عنها، فهو وحده الكفيل بحل المشكلة التي تواجه أوروبة في علاقاتها مع الشرق، فإذا اتحدا عظُم الأمل في أن تكون النتيجة سلاماً، وأما إذا رفضت أوروبة معاونة الإسلام وألقت بنفسها في أحضان خصومه فلن تكون العاقبة إلا نكبة لهما معاً»[١٥].

وبكلمة فإن الإسلام وحده القادر على تحقيق الإخاء الإنساني والمساواة بين سائر الشعوب، يقول:

«ما زال في مستطاع الإسلام أن يقدم للإنسانية خدمة

(١٥) المصدر السابق، ص ٤٨.

جليلة ، فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح مثله نجاحاً باهراً في تأليف هذه الأجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة أساسها المساواة »[١٦] .

(١٦) نقلاً عن مجلة الذكرى ، عدد ٢ ، دورة ١ ، ص ٤٢ .

الفصل الثالث

رسالة الإسلام ومُستقبل الإنسانيَة



جليلة، فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح مثله نجاحاً باهراً في تأليف هذه الأجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة أساسها المساواة»[١٦].

الدور العالمي لرسالة الإسلام

إن الأخوة الإسلامية بين الشعوب والأجناس المختلفة، وعالمية الديانة الإسلامية الناجمة عن كونها ديانة تبشر بالسلام والصداقة بين الشعوب حققت للإسلام إمكانية الانتشار الواسع، وستمكنه من أن يكون له دوره العالمي في صنع مستقبل الإنسانية، لقد جاء في مجلة العالم الإسلامي التي يرأس تحريرها مؤسسها القس البريطاني صموئيل زويمر، في الكلمة التي ألقاها جورج بروك عضو البرلمان البريطاني في جمعية المسلمين في مدينته بردفورد بإنجلترة، قوله:

«إنه يستطيع أن يرد الاهتمام بالدين الإسلامي إلى أنه دين عالمي بطبيعته، ثم قال: إن الإسلام دين السلام والمحبة بين البشر، وإنه يلعب دوراً خطيراً الآن في شؤون العالم، وإني أعتقد أن خطره وتأثيره في مستقبل العالم سيزداد جيلاً بعد جيل»[١].

الإسلام دين الإنسانية

ولقد بحث المستشرق ديسون سرّ عالمية الإسلام فتوصل إلى أن مفتاح

(١) مجلة العالم الإسلامي العدد ٧، السنة الخامسة، نقلاً عن مجلة الأزهر العدد الرابع، عام ١٩٥٢، ص ١٠٥.

ذلك يكمن في أنه دين الإنسانية جمعاء، وليس مقصوراً على شعب دون آخر، يقول:

«ذلك أن الإسلام لم يكن ديناً للعرب فحسب، وإنما هو دين الإنسانية من أقصى الأرض إلى أقصاها»[٢].

أما الباحث جورج رو فينظر إلى عالمية الإسلام في ابتعادها عن الشكلية وأداء الشعائر، يقول:

«ليس الإسلام مجرد شكل، ولا هو مجرد شعائر دينية تتفاوت درجات أصحابها في العمل بها. ولكن الوصف المميز للإسلام هو أنه دين عالمي معمول به أكثر من أي دين غيره»[٣]....

نحو نظام عالمي جديد

ومع إفلاس الحضارة الغربية التي أثارت حربين عالميتين، وظهور العالم الثالث كقوة ما بين المعسكرين الشرقي والغربي، شُرع بالتفكير جدياً بخلق نظام عالمي جديد، ووجد كثير من المفكرين والمستشرقين في الغرب أن النظام الإسلامي هو خشبة خلاص البشرية، وأنه يقدم السبيل الصحيح كمنظومة اجتماعية سياسية، واقتصادية روحية، يقول المفكر الإيرلندي برناردشو:

«إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد ﷺ، هذا النبي الذي وضع دينه دائماً موضع الاحترام والإجلال، فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات، خالد خلود الأبد، وإني أرى كثيراً من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بينة، وسيجد هذا

---

(٢) ديسون، نقلاً عن كتاب الإسلام مبدأ وعقيدة، ص ٤٨.

(٣) جورج رو: نقلاً عن مجلة الذكرى، عدد ٢ دورة ١، ص ٤٢.

الدين مجاله الفسيح في القارة الأوروبية بعد هذه الحرب، وإذا أراد العالم النجاة من شروره فعليه بهذا الدين، إنه دين التعاون والسلام والعدالة في ظل شريعة محكمة لم تدع أمراً من أمور الدنيا إلا رسمته ووزنته بميزان لا يخطىء أبداً»[٤].

الإسلام والمشروع الحضاري الإنساني المتكامل

إن الإسلام في القرن العشرين، أخذ يظهر كقوة عالمية يستمد قوته، ليس من القدرة العسكرية الاقتصادية، التي تحمل مخاطر إشعال الحرائق والحروب تنافساً على الثروة، وفرضاً لمبدأ الهيمنة، بل كمقدِّمٍ لمشروع حضاري إنساني متكامل، حاملاً الخلاص للعالم، والنجاة للإنسانية المهددة بالانهيار الروحي والتشويه الإنساني، وانحطاط القيم الثقافية والحضارية... يقول المفكر الفرنسي مارسيل بوازار في كتابه: «إنسانية الإسلام»:

«وتسمح ديمومة القناعة الدينية بالتشديد على صلاح الإسلام للزمن الراهن عن طريق أمثلة مستقاة من الحقبة المعاصرة ومن الماضي. وقد احتفظنا من القانون الإسلامي بما اعتبرناه ثابتاً لا يتحوّل، لا بوصفه قواعد ابتدعها أو استنتجها الفقهاء، إنما بوصفه تعبيراً عن إجراء روحي مرتبط بحضارة خاصة. وجوهر القانون وهبته الإرادة الإلهية، فهو من هذه الناحية، وبصورة عامة جداً، مثالي وثابت. وهكذا اهتم التفكير القانوني الإسلامي بالمحافظة على النظام المجتمعي أكثر من اهتمامه ببناء مجتمع. وراح يتطور مع نموّ المجتمع، وأكسبه مظهره الذمي مِراناً كبيراً. ولم يعمل المظهر القانوني

---

(٤) برناردشو: نقلاً عن مجلة الذكرى، عدد ٧، دورة ١، ص ٢٢.

على عكس صورة عن الواقع بالتطابق مع الأحـداث، بل كان مفروضاً فيه على العكس أن يوجهها بوصفه علماً نظرياً مرتبطاً بجوهر القانون ـــ الوحي ـــ وخاضعاً له، كما أن الأغصان جزء من الشجرة. وقد كان من الممكن أن تتلافى الواقعية العملية الممارسة في حدود الأطر التي فرضها نظام أسمى اقتصار القانون على مَثَلٍ أعلى مجرد أو على نمط سلوك لا يمكن بلوغه، وباختصار، بدا لنا أن روح القانون الإسلامي أصلح لبحثنا من طريقة تطبيقه»[٥].

ويتابع الباحث فكرته، فيقول:

«ويبرز الإسلام بمجمله مجدداً من خلال مظهره التقليدي في النقاش الدائر حول مختلف مفاهيم الإنسانية في المستقبل. وتعتمد حركيته على استقامة المسلمين طوال القرون وعلى محاولة لردّ الاعتبار تاريخياً إلى المجتمع الإسلامي»[٦].

صلاحية الإسلام في تقديم الحلول الناجعة لمشاكل الإنسانية

هذا، وإن صلاحية الإسلام وعالميته تستمد قدرتها من أنه يقدّم الحلّ الناجع للإنسانية، من القلق والضياع والخوف على المصير، كما يعطي نموذجاً للحياة الاجتماعية الأفضل، تقول الباحثة الإيطالية لورافيتشافا لبرى:

«إن الناس ليتلهفون على دين يتفق وحاجاتهم ومصالحهم الدنيوية، ولا يكون قاصراً على إرضاء مشاعرهـم وإحساساتهم، ويريدون أن يكون هذا الدين وسيلة لأمنهم وطمأنينتهم وسعادتهم في

(٥) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص ٤٢٢.

(٦) المصدر السابق، ص ٤٢٣.

الدنيا والآخرة، وليس هناك من دين تتوفر فيه هذه المزايا كلها بشكل رائع سوى الإسلام، إذ أنه ليس مجرد دين فحسب، بل إن فيه حياة للناس، لأنه يعلمهم كيف يحسنون التفكير والكلام، ويحضهم على فعل الخير وصالح الأعمال، ولذلك سرعان ما شق طريقه إلى القلوب والأفهام»(٧).

صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان

فالإسلام الذي هو دين عام حسب قول المستشرق الفرنسي إتيين دينيه «صالح لكل زمان ومكان، فهو دين الإنسانية ودين المستقبل»(٨).

ولقد أكدت التجارب التاريخية القديمة مدى ثباته وصلاحيته، يقول الدكتور ف.ف. بارتولد:

«لقد أثبت الإسلام خلال مئات السنين والأعوام مقدرته على البقاء، وضرب المثل الأعلى في الإخاء والمساواة»(٩).

ومن هذا المدلول يذهب المستشرق الإنجليزي صموئيل مارغوليوث (١٨٦٨ ــ ١٩٤٠) ــ الذي تحدث عن رسالة الإسلام في يوم مولد الرسول ــ إلى أنها رسالة حضارية تحمل في ذاتها طابع صلاحية البقاء والاستمرار:

«إن يوم ميلاد محمد ليوم عزيز على العالم لا على العرب فقط، لأنه لم يولد إلا لأمر عظيم، ألا وهو رسالته التي بلّغها للعالم فاعتنقها

(٧) لورا فيتشا فاليبري: مجلة الذكرى، عدد ٧، دورة ١، ص ٢٣.

(٨) إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص ٣٤٥.

(٩) ف.ف بارتولد: نقلاً عن مجلة الذكرى، العدد ٣، الدورة ١، ص ٦٤.

قوم وتركها آخرون ، وهي طافحة بالحضارة والتعاليم التي تخدم البشرية وتوليها زمام الحياة ، ولكنها رسالة أخذت بها أمة جهلت ما فيها ، وخير ما فيها طابع صلاحية البقاء مع الزمن مهما طال وامتد »[١٠] .

لا جمود في رسالة الإسلام

ورسالة الإسلام التي لا تعرف الجمود وتدفع المجتمع الإسلامي إلى التقدم كفيلة في عصرنا الراهن بإصدار أحكام تتفق وروح العصر ، وبما يكفل للدول المتخلفة النهوض ، وللإنسانية التقدم ، يقول الباحث الأمريكي وأستاذ الفلسفة في جامعة هارفرد الدكتور هوكنج :

« وأحياناً يتساءل البعض عما إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة ، وإصدار أحكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية ؟

فالجواب عن هذه المسألة ، هو أن في نظام الإسلام كل استعداد داخلي للنمو ، بل هو من حيث قابليته للتطور يفضل كثيراً النظم المماثلة ... وإني أشعر بكوني على حق ، أقدر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض »[١١] .

قابلية الإسلام للتطور واستيعاب احتياجات العصر

ويلتقي الدكتور ازيكو بالتوخين مع الدكتور هوكنج حول قابلية الإسلام للتطور والتمشي مع مقتضيات العصر الراهن والحاجات المستجدة بما

---

(١٠) صموئيل مارغوليوث : تاريخ سوريا ولبنان (نقلاً عن كتاب محمد عند علماء الغرب ص ١٢٨) .

(١١) هوكنج (نقلاً عن كتاب الشيوعية والدين الإسلامي ، ص ٥٧) .

يمتلكه من قوة مرونة كانت سر تفوقه كشريعة على الشرائع الأوروبية، يقول بالتوخين:

«إن الإسلام يتمشى مع مقتضيات الحاجات الظاهرة فهو يستطيع أن يتطور دون أن يتضاءل خلال القرون، ويبقى محتفظاً بكل مالديه من قوة الحياة والمرونة. فهو الذي أعطى العالم أرسخ الشرائع ثباتاً، وشريعةً تفوق كثيراً الشرائع الأوروبية»(١٢).

ويتحدث المستشرق الفرنسي مارسيل بوازار في كتابه: «إنسانية الإسلام»، عن القانون الإسلامي وعالميته وأنه قابل «للتطبيق»:

«ويبقى القانون الإسلامي في أيامنا أحد الأنظمة القانونية الكبرى. إذ أنه ينظم العلاقات بين حوالي سبعمائة مليون نسمة. ويُستلهم لإنشاء القواعد الدستورية في عدة بلدان. وتكبح القناعة الدينية جماح الوسط الاجتماعي برمته. والتصوّر الذي يفرضه التنزيل ماثل بشكل خاص في الجماهير الشعبية التي تزداد أهميتها السياسية في موازاة تطورّ بعض الصيغ الديمقراطية. فكل حركة من الحركات يشتد تلونها بالدين بازدياد نفاذها إلى الجماهير. فهذه الجماهير تقدم الانفعالات بالنظام الاجتماعي والتعبير عنه، كما تقدم في كثير من الأحيان مادّته بالذات. ويشكّل الدين عنصراً حيوياً مؤثراً في العلاقات بين الأفراد والزمر والأمم، تزداد فعاليته تدريجاً على ما يبدو، وتؤكد الظاهرة، وتدعم قابلية القانون الإسلامي للتطبيق، وتسهم في الوقت نفسه مرونته ومطاوعته»(١٣).

---

(١٢) ازيكو بالتوخين: (نقلاً عن كتاب قالوا في الإسلام ص١٢٧).

(١٣) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ص٤٢٦.

أصالة النظام الإسلامي ومرونته في استيعاب التحولات الاجتماعية

لقد ربط الإسلام الروحي بالدنيوي، وعمل على توجيه السلوك الفردي لصالح الجماعة، وإقامة المؤسسات العامة التي تسعى لصالح خير المجتمع، وكان للقانون الإسلامي الذي يستمد أصوله من الدين الإسلامي المندمج به في وحدة عضوية أثره على إقامة صرح الحضارة، ذات السمات العالمية، وكان التشريع الإسلامي البعيد عن الجمود رغم تخرصات الكثير من المستشرقين، والذي تحمل ذاتيته قوة التطور والتحوّل لما يمتلكه من مرونة في استيعاب التحولات الاجتماعية، قد ثبتت مكانته العالية ورفعة شأنه، ومن هنا ظهر الإسلام في مرحلتنا المعاصرة كشريعة عالمية إنسانية، كحل أمثل من الحلول المشتركة التي تطرحها فكرة مستقبل الإنسان والمجتمع، يقول بوازار:

« ويعود الإسلام بصورة إجمالية إلى الظهور في العالم المعاصر بوصفه أحد الحلول للمشكلات التي يطرحها مصير الإنسان والمجتمع، ويخلق التطور السياسي الداخلي للدول حلولاً وتغييرات خاصة. ولقد تأكد أن جميع الانتفاضات التي ساورت البلدان الإسلامية في عشرات السنين الأخيرة كانت إسلامية بصورة حقيقية، مهما تكن صبغة الأزياء التي ألبستها ولا تزال هذه الحركات جادة في استلهام الماضي المجتمعي.

وأصالة النظام الإسلامي الأولى في مفهومه للإنسان الاجتماعي الذي يعارض في آن معاً الشيوعية التي تلاشي الفرد في الجماعة، والليبرالية التي تعادي ما بين الفرد والمجتمع. ويكفل التضامن بين أفراد المجتمع احترام حقوق الإنسان داخل الزمرة وفي الخارج، لأنه معتبر أحد رعايا القانون الدولي. ويضع الإسلام روحيته في مقابل

المادية الوضعية التي تسلخ عن الإنسان إنسانيته، حائلاً بذلك دون أن تصبح الدولة يوماً «الإله الآلة» الذي عرفه الغرب، والذي تجهد الدول المزعوم أنها «اشتراكية» في فرضه. ويحول المعنى الجازم للمسؤولية الفردية ـ وهي أحد عوامل التحرر الهامة ـ دون أن يتخلى الإنسان عن شخصه للزمرة الفائقة القدرة: ويوجه الإخلاص أول ما يوجه لمثل الدين العليا لا للمؤسسات الحكومية. وترسيخ غايات الإنسان المترفّعة عن الدنيا ينزع إلى إخضاع الدولة للقانون بدلاً من إخضاع الفرد للجهاز السياسي. وفي نظام فكري مماثل ينادي الإسلام على المستوى الدولي بالتعاون بين الشعوب أكثر مما ينادي بالاكتفاء الذاتي للأمم، وينادي مذهبه القانوني باختصار: بالاستقامة، والعالمية السلمية، والواقعية، والاعتدال، وكلها فضائل متوافقة مع طبيعة الإنسان الروحية»[١٤].

ومن هنا تظهر أفضلية الرسالة الإسلامية على سواها من الرسالات السابقة على لسان المستشرقين والمفكرين الأوروبيين المنصفين، ومن هذا الاتجاه يدلي المستشرق الفرنسي شانليه في حديث عن رسالة الإسلام بقوله:

«إن رسالة محمد هي أفضل الرسالات التي جاء بها الأنبياء قبله، لأنها جاءت إلى الشعوب نقية من كل عيب، وخالية من كل نقص، بل إنه يوجد فيها من التعاليم القيمة مالا يوجد في غيرها من الديانات»[١٥].

بينما تحدث المفكر بارتلمي سانت هيلر بإعجاب عن الرسول محمد ﷺ وعن الرسالة الإسلامية بقوله:

(١٤) بوازار، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢.

(١٥) شانليه: المقتطف المجلد ٣، عدد ٧.

«وقد كان دينه الذي دعا الناس إلى اعتقاده، جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته»[16].

انتصار الإسلام مستقبلاً لصلاح الإنسانية وخير العالم

وتحدث الفيلسوف الإيرلندي برناردشو بنظره الثاقب، عن مستقبل الإسلام وانتصاره انطلاقاً من صلاحيته للحياة، وملاءمته للحضارة الصحيحة، وأن بالإسلام ـ مستقبلاً ـ صلاح الإنسانية وخير العالم، يقول:

«إني أعتقد أن الديانة المحمدية هي الديانة الوحيدة التي تكون حائزة لجميع الشرايط اللازمة وتكون موافقة لشتى مراحل الحياة»[17].

ويقول في مكان آخر:

«لا تمضي مائة عام، حتى تكون أوروبة ـ ولا سيما إنجلترة ـ قد أيقنت بملاءمة الإسلام للحضارة الصحيحة»[18].

ويتحدث بمكان آخر وبالمعنى ذاته:

«لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوروبة غداً»[19].

ويخلص إلى القول:

---

(١٦) بارتلمي: (نقلاً عن كتاب محمد عند علماء الغرب).

(١٧) (١٨) برناردشو: نقلاً عن كتاب الإسلام في ضوء التشيع، ج ١، ص ١٩٧.

(١٩) برناردشو: (نقلاً عن كتاب التكامل في الإسلام ج ٢، ص ١٧٠.

«لن ينتعش العالم من كبوته، إلا إذا أخذ بتعاليم الديانة الإسلامية، ولا بد أنه منتهٍ إلى هذه النتيجة، في نحو قرنين من الزمان»[٢٠].

أمّا المفكر أرثر هاملتون، فيرى بدوره:

«لو توخى الناس الحق لعلموا أن الدين الإسلامي هو الحل الوحيد لمشاكل الإنسانية»[٢١].

الخيار الإسلامي

وتناول المستشرق النمسوي ليبولد فايس الذي اعتنق الإسلام وعرف باسم محمد أسد، في كتابه: «الإسلام على مفترق الطرق» موضوع روح الإسلام الذي جاء لخير البشر جميعاً ولصالح الإنسانية قاطبة، فنبي الإسلام قد بعثه الله «رحمة للعالمين» والإسلام اليوم يقدم لنا حلاً للمعضلة الإنسانية ولقضايا البشر، إنه خيار يبرز على المستوى العالمي إلى جانب الخيارات الأخرى كعقيدة دينية ونظام اجتماعي سياسي، وحين تعقد المقارنة ما بين الخيار الإسلامي والخيارات الأخرى تظهر أرجحية الإسلام على ما سواه، كرسالة عالمية تحمل الحلول العملية لقضايا الإنسان، يقول محمد أسد:

«نحن نعدّ الإسلام أسمى من سائر النظم المدنية، لأنه يشمل الحياة بأسرها: إنه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة، وبالنفس والجسد، وبالفرد والمجتمع، إنه لا يهتم فقط لما في الطبيعة الإنسانية من وجود الإمكان إلى السمو، بل يهتم أيضاً لما فيها من قيود طبيعية.

(٢٠) برناردشو: (نقلاً عن كتاب قالوا في الإسلام ص ١٣٥).

(٢١) أرثر هاملتون: المصدر السابق، ص ١٤٨.

إنه لا يحملنا على طلب المحال، ولكنه يهدينا إلى أن نستفيد أحسن الاستفادة مما فينا من استعداد، وإلى أن نصل إلى مستوى أسمى من الحقيقة ــ حيث لا شقاق ولا عداء بين الرأي وبين العمل. إنه ليس سبيلاً بين السبل، ولكنه السبيل، وإن الرجل الذي جاء بهذه التعاليم ليس هادياً من الهداة، ولكنه الهادي. فاتّباعه في كل ما فعل وما أمر اتّباع للإسلام عينه، وأما اطّراح سنته فهو اطّراح لحقيقة الإسلام»[٢٢].

مهمة الإسلام التاريخية

ويردّ محمد أسد على ادعاءات المفكرين الغربيين من المستشرقين وعلى الباحثين العرب المتنصلين من الدين، الذين يرون أن الدين الإسلامي فقد صلاحية استمراره، وأنه لا فائدة ترجى منه، لأنه استنفد مهمته التاريخية، وقدّم للعالم وللإنسانية كل ما ينتظر منه أن يقدمه، لا سيما وإن الدول الإسلامية اليوم تعيش حالة التخلف والتبعية، يقول مناقشاً روح الحضارات، وتقدم الثقافات، وحوار المدنيات:

«يخبرنا التاريخ أن جميع الثقافات الإنسانية وجميع المدنيات أجسام عضوية تشبه الكائنات الحية، إنها تمرّ في جميع أدوار الحياة العضوية التي يجب أن تمر بها: إنها تولد ثم تشب وتنضج ثم يدركها البلى في آخر الأمر. فالثقافات، كالنبات الذي يذوي ثم يستحيل تراباً، تموت في أواخر أيامها وتفسح المجال لثقافات أخر ولدت حديثاً»[٢٣].

(٢٢) ليوبولد فايس (محمد أسد): الإسلام على مفترق الطرق، ص ١٠٢ ــ ١٠٣.
(٢٣) المصدر السابق، ص ١٠٤، (ترجمة د. عمر فروخ).

ويتابع المستشرق النمسوي المسلم عرض فكرته هذه ليرى مدى صلاحيتها فإذا ما بحث الإسلام، كثقافة إسلامية لعبت دوراً حضارياً عظيماً، ليرى إلى أين تسير، هل تمضي إلى أمام أم تتراجع إلى الخلف... وإذا ما انطلقنا من القناعة بأن الإسلام شرع سنّه الله لنا، أيكون التخلف بسبب هذا الشرع الإلهي، أم التخلف في المسلمين أنفسهم، إذ دلل الإسلام في جميع مراحله على أنه بنى صرحاً اجتماعياً مؤسساً بروح الإخاء الإنساني، عازماً على تحقيق طموحات الإنسان وعاملاً على رفع شأنه، يقول:

«أهذه إذاً حال الإسلام، ربما ظهرت كذلك عند إلقاء أول نظرة سطحية. مما لا شك فيه أن الثقافة الإسلامية شهدت نهضة مجيدة وعهداً من الازدهار، وكان لها من القوة ما يلهم الرجال جلائل الأعمال وأنواع التضحية، ولقد غيرت معالم الشعوب وخلقت دولاً جديدة، ثم سكنت وركدت وأصبحت كلمة جوفاء، وها نحن أولاء اليوم نشهد انحطاطها التام وانحلالها، ولكن هل هذا كل ما في الأمر؟

إذا كنا نعتقد أن الإسلام ليس مدنية بين المدنيات الأخر، وليس نتاجاً بسيطاً لآراء البشر وجهودهم، بل هو شرعٌ سنّه الله لتعمل به الشعوب في كل مكان وزمان، فإن الموقف يتبدل تماماً. ولكن إذا كانت الثقافة الإسلامية في اعتقادنا نتيجة لاتباعنا شرعاً منزلاً فإننا حينئذ لا نستطيع أبداً أن نقول بأنها كسائر الثقافات خاضعة لمرور الزمن ومقيدة بقوانين الحياة العضوية ثم إن ما يظهر انحلالاً في الإسلام ليس في الحقيقة إلا موتاً وخلاء يحلان في قلوبنا التي بلغ من خمولها وكسلها أنها لا تستمع إلى الصوت الأزلي. ثم

ليس ثمة علامة ظاهرة تدل على أن الإنسانية ـــ مع نموها الحاضر ـــ قد استطاعت أن تشب عن الإسلام، بل إنها لم تستطع أن تخلق نظاماً خلقياً أحسن من ذلك الذي جاء به الإسلام. إنها لم تستطع أن تبني فكرة الإخاء الإنساني على أساس عملي ما كما استطاع الإسلام أن يفعل حينما أتى بفكرة القومية العليا: «الأمة». إنها لم تستطع أن تشيد صرحاً اجتماعياً يتضاءل التصادم والاحتكار بين أهله فعلاً على مثال ما تم في النظام الاجتماعي في الإسلام. إنها لم تستطع أن ترفع قدر الإنسان ولا أن تزيد في شعوره بالأمن ولا في رجائه الروحي ولا سعادته»[٢٤].

أفضلية المنهاج الإسلامي

وتعود أفضلية الإسلام كنظام اجتماعي متكامل، لأن الإسلام كعقيدة وشريعة قد جاء كاملاً، فهو كامل بذاته لا يحتاج إلى إصلاح من داخله، بل أن يكون الإصلاح في طريقة تطبيقه، والتمسك بروحه، وذلك بأن يُنظر إلى الإسلام على أنه المقياس الذي يحكم به على العالم وعلى العقائد الحديثة والنظم المدنية، لا أن يخضع الإسلام للمقاييس الفعلية الأجنبية الغربية.. وأن أية مقارنة ما بين المنهاج الإسلامي والمناهج الغربية الأخرى تظهر جلياً مدى أهمية الهدى الإسلامي، يقول محمد أسد:

«ففي جميع هذه الأمور نرى الجنس البشري في كل ما وصل إليه مقصراً كثيراً عما تضمنه المنهاج الإسلامي. فأين ما يبرر القول إذاً بأن الإسلام قد ذهبت أيامه؟ أذلك لأن أسسه دينية خالصة، والاتجاه الديني زي غير شائع اليوم، ولكن إذا رأينا أن نظاماً بني على

(٢٤) المصدر السابق، ص ١٠٥.

الدين قد استطاع أن يقدم منهاجاً عملياً للحياة أتم وأمتن وأصلح للمزاج النفساني في الإنسان من كل شيء آخر يمكن للعقل البشري أن يأتي به من طريق الإصلاح والاقتراح، أفلا يكون هذا نفسه حجة بالغة في ميزان الاستشراق الديني؟

لقد تأيد الإسلام ــ ولدينا جميع الأدلة على ذلك ــ بما وصل إليه الإنسان من أنواع الإنتاج الإنساني، لأن الإسلام كشف عنها وأشار إليها على أنها مستحبة قبل أن يصل إليها الناس بزمن طويل.

ولقد تأيد أيضاً على السواء بما وقع أثناء التطور الإنساني من قصور وأخطاء وعثرات لأنه كان قد رفع الصوت عالياً بالتحذير منها قبل أن تتحقق البشرية أن هذه أخطاء. وإذا صرفنا النظر عن الاعتقاد الديني، نجد من وجهة نظر عقلية محض، كل تشويق إلى أن نتبع الهدى الإسلامي بصورة عملية وبثقة تامة»[٢٥].

إسلام المستقبل ودور المسلمين في العلاقات الدولية

إن طبيعة الإسلام العالمية وصلاحيته لكل زمان ومكان، ومقدرته على الصمود أمام صروف الدهر، وامتلاكه بذرة التطور والتقدم والمرونة والانسجام، إن جميع هذه الأمور التي هي السمات الأساسية للإسلام والقوة الكامنة وراء انتشاره، وإنشائه حضارة إنسانية كبرى، كل هذه الأمور لا تنفي مطلقاً الدور الإنساني الذي يمكن للمسلمين أن يلعبوه.... فالإسلام الذي هو خشبة خلاص المسلمين من تخلفهم، وخلاص الإنسانية

(٢٥) المصدر السابق، ص١٠٦.

من قيودها لتحررها من العبثية والقلق والفردية والانهزامية، يطرح أمام المسلمين مهمة كبرى لتحديد موقع الإسلام في العلاقات الدولية، يقول بوازار:

«والحاصل أن إسلام المستقبل ودوره في العلاقات الدولية رهن بما يصنعه بهما المسلمون أنفسهم. ويقدّم التنزيل في هذا السياق ثقة مطمئنة وحافزاً قوياً في وقت معاً»(٢٦).

ويستشهد المستشرق الفرنسي بأقوال محمد عبده لتأكيد مقولته، فيتابع فكرته:

«وبالفعل فإن الإسلام ـ حسب قول محمد عبده ـ لم يغفل الحديث عن فضيلة واحدة من الفضائل الرئيسية. ولا أهمل إنعاش مصدر واحد من مصادر عمل الخير. ولا تغاضى عن تحديد قانون واحد من قوانين النظام، فقد هيأ للإنسان الذي بلغ سن الرشد أن يتحرر فكره ويستقل عقله في أبحاثه، فينشأ عن هذا الاستقلال وذاك التحرر تفتح ملكاته الطبيعية، وتيقظ إرادته، وانطلاقه على طريق الجهد. ومن يقرأ القرآن كما يجب أن يقرأ يجد فيه من هذه الناحية كنوزاً لا تفنى وغناءً لا حد له»(٢٧).

ميزات الإسلام ورسالته العالمية

وأخيراً نختتم دراستنا عن الرسول ورسالة الإسلام في الدراسات

---

(٢٦) بوازار: إنسانية الإسلام، ص ٣٨٩.

(٢٧) محمد عبده: الرسالات، ص ١٢٢، (نقلاً عن المصدر السابق، ص ٣٨٩).

الاستشراقية المنصفة بما جاء به إتيين دينيه في كتابه: «محمد رسول الله» إذ يتحدث عن مميزات الرسالة وعالميتها ودورها الممكن في المستقبل يقول:

«وهناك شيء مهم، وهو انتفاء الواسطة بين العبد وربه، وهذا هو الذي وجدته العقول العملية في الإسلام، لخلوه من الأسرار وعبادة القديسين، ولا حاجة به إلى الهياكل والمعابد لأن الأرض كلها مسجد لله، وفوق ذلك قد يجد بعض أهل مذهب الاعتقاد بالله دون غيره من العصريين المتحيرين في التعبير عما يخالج نفوسهم من التطلع، قد يجدون في الإسلام المذهب النقي للاعتقاد بالله، فيجدون فيه أبدع وأسمى أعمال العبادة، وما يمكن أن يتخيله من معنى ألفاظ الدعاء. ثم نزيدك شاهداً آخر، وهو قول شرفيس: «الإسلام يحقق أبلغ معنى لفضيلة الإيثار على النفس بأقل بحث فيها من الوجهة النظرية». وقد حصل في فرنسا وفي بلاد أخرى من أوروبة وإفريقية وآسية دخول أشخاص في الإسلام فرادى، وربما كان ذلك مصداقاً لهذا الحديث النبوي الذي معناه «قد يؤيد الله هذا الدين بالغرباء منه».

ومن مميزات الإسلام الأصيلة ملاءمته لجميع الأجناس البشرية، فلم يكن العرب وحدهم هم الذين اتبعوا الإسلام، بل كان من ضمنهم من هو من فارس كسلمان الفارسي، وبعضهم من النصارى كورقة، وبعضهم من اليهود كمخيريق وعبد الله بن سلام، وبعضهم من الأحباش كبلال وغيرهم، وجاء في القرآن الكريم: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ (٢٤/٢٧).

فدين الرسول محمد عليه السلام، قد أكد، من الساعة

الأولى لظهوره، وفي حياة النبي عليه السلام، أنه دين عام صالح لكل زمان ومكان. وإذا كان صالحاً بالضرورة لكل جنس كان صالحاً بالضرورة لكل عقل، إذ هو دين الفطرة، والفطرة لا تختلف في إنسان عن آخر. وهو لكل هذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة، وهو على ما فيه من تسامح وبساطة، سواء بالنظر لمذهب الصوفية يؤدي للعالم هداية وتوفيقاً، سواء في ذلك الأوروبي المتحضر والزنجي الأسود، من غير أن يعوق حرية الفكر عن أحدهما، ثم يزيد على ذلك بالنسبة للزنجي انتشاله من عبادة الأوثان.

ثم هو لا يعوق الرجل العملي الذي يرى حياته في العمل، ويعتبر الوقت من ذهب، كالرجل الإنجليزي وكذلك لا يعوق الرجل الصوفي والشرقي المتأمل في بدائع الصنع، ويأخذ بيد الغربي المأخوذ بسحر الفن والخيال. وليس هذا فحسب، بل هو يستولي على لب الطبيب العصري أيضاً، بل فيه من الطهارة المتكررة في اليوم والليلة، وتناسق حركات المصلي في الركوع والسجود، وما فيها من نماء للجسم، وإفادة للصحة الجسمية والنفسية.

«وعلى هذا فليس من الجرأة إذاً، أن نظن أنه إذا هدأت الزوبعة المروعة القائمة ضد الإسلام، وضمن هو الاحترام لكل الشعوب والديانات، أنه سيرى مستقبلاً حافلاً بأعظم الآمال وأعلاها شأناً. فإذا ما دخل في الحضارة الأوروبية بفضل اشتراكه العظيم في الحوادث، فسيتضح سناه الحقيقي، وستعرف الأمم المختلفة حقيقته التي حجبت عنهم زمناً، وسيمد الكل يده لمحالفته، متنافسين في ذلك، لأن قيمته قد خبروها، وعرفوا ما يستكن فيه من

وسائل القوة التي لا حد لها ولا نفاد... ولو نهض أتباع محمد عليه السلام وأفاقوا من سباتهم العميق لرجع لهم عزهم السالف، وتاريخهم المجيد، وصاروا أمة لا تعرف الجور في معاملتها لكل رعاياها، لا فرق بين مسلم ومسيحي ويهودي، وتبوؤوا مكانهم الذي يليق بمجدهم»[28].

(28) إتيين دينيه: محمد رسول الله، ص ٣٦٢ ــ ٣٦٣.



الفهارس العامة*

— فهرس الأعلام.
— فهرس الكتب.
— فهرس المجلات والدوريات.
— فهرس القبائل والشعوب...
— فهرس الأمكنة والمواقع.
— فهرس المعارك والوقائع والأحداث.
— فهرس الديانات والمذاهب.

---

* لم ترد في هذه الفهارس الكلمات التالية لكثرة ورودها في الكتاب:
— محمد ﷺ (في فهرس الأعلام).
— المسلمون (في فهرس الأقوام.. وأصحاب المذاهب).
— الإسلام (في فهرس الديانات والمذاهب).



فهـرس الأعـلام

الألف

إبراهيم (عليه السلام) (أبو الأنبياء)، ٦٠، ٦٣، ٦٤، ٧٦، ٢٦٣، ٢٦٦، ٤٥٧،

أحمد بن حنبل، الإمام، (٧٨٠ـ ٨٥٥) صاحب مذهب، محدث له «المسند». ٧٦، ٩٤.

الأخطل الصغير.. انظر: الخوري، بشارة.

أرخبرت، رجل دين. ١٩.

أرفنج، واشنطون، (١٧٨٣ـ ١٨٥٩). «كاتب أمريكي من مؤلفاته «احتلال غرناطة»، ١٢٧، ١٢٩، ٢٦٤، ٣٥٠.

آرلونوف، باحث روسي، ٤٢٧.

أرمان، تشارلس، (١٨٨٦ـ ١٩٤٠)، مؤرخ ومستشرق بريطاني، ٢٥١.

أرمنازي، نجيب، (١٨٩٧ـ ١٩٦٨) باحث عربي ورجل حقوقي وسياسي سوري. من مؤلفاته «الشرع الدولي في الإسلام»، ٢٧٠، ٢٧١.

أرنولد، سبرت و. توماس، (١٨٦٤ـ ١٩٣٠)، مستشرق انكليزي. من مؤلفاته: «الدعوة إلى الإسلام»، أو «دعوة الإسلام»، ٢٣١، ٢٣٢.

أروكس، جون، مفكر انكليزي. من مؤلفاته: «عظماء التاريخ»، ٣٣٦، ٣٣٧.

أسامة بن زيد، (ت٦٧٣م)، صحابي، ٣١٦، ٣١٧.

اشبرنغر، مستشرق ألماني. من مؤلفاته: «حياة محمد وعمله»، ٣٩٦.

اسحق، ابن، (ت ٧٦٨)، من أصحاب السير ومن أقدم مؤرخي العرب له «السيرة النبوية»، ٨٠، ١٣٨.

الإسكندر المكدوني (٣٥٦ـ ٣٢٣ق.م)، ملك مقدونيا وفاتح كبير، ١٧٤، ٤٣١.

اسماعيل بن إبراهيم الخليل «رأس السلالة العربية الثالثة المعروفة بالمستعربة»، ٤٨، ٧٥.

اسمث، بوسورث (١٨١٥ــ١٨٩٢)، مفكر ومستشرق انكليزي. من مؤلفاته: «محمد والإسلام»، و«حياة محمد» و«الأدب في آسية»، ٢٤٨، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٧٨، ٢٧٩، ٣٢٤.
اسميث، روبرت، (١٨٥٦ــ١٩٠١)، مستشرق وباحث انكليزي. من مؤلفاته: «أحوال العرب قبل الإسلام وبعده، ٤١٨، ٤١٩.
الأسود العنسي (عيهلة بن كعب)، من أدعياء النبوة ٢٢٧.
أشعيا (النبي)، ٢٦٦.
أفريمان، .أ.أ، مستشرق وباحث تاريخي. من مؤلفاته: «تاريخ العرب»، ١٦٦.
الفانز، الفرد، مستشرق وباحث بلجيكي. من مؤلفاته: «علم النفس» ٨٦، ٨٧.
أم كلثوم: انظر كلثوم.
آمنة بنت وهب بن عبد مناف (أم الرسول ﷺ)، ٧٥، ٨١.
أمية بن أبي الصلت (ت ٦٢٦)، شاعر جاهلي حكيم، أدرك الإسلام ولم يسلم، ٦٢، ٦٣.
أنس بن مالك (٦١٢ــ٧١٢)، صحابي من رواة الحديث، ٢٩٧.
أورنيبج، مستشرق أمريكي. من مؤلفاته: «الحياة والإسلام»، ٣٣٩، ٣٤٠.
إيرلاند، فيليب، (١٩٠٤ــ   )، مستشرق وباحث أميركي، من مؤلفاته: «الإسلام في العالم الحديث، ٤٥٥.
إيفانيز، فلاسكو، باحث. من مؤلفاته: «في ظل الكاتدرائية»، ٤٤٥.
إيماري، ميخائيل، (١٨٠٦ــ ١٨٨٩)، مستشرق إيطالي. من مؤلفاته: «تاريخ المسلمين» و«المكتبة الصقلية» و«تاريخ العرب في صقلية»، ١٢٦، ٢٧٣.
الأيهم الغساني، (أحد ملوك الشام في الجاهلية)، ٢٢٨.

الباء

بارت، رودي، مستشرق ألماني. من مؤلفاته: «الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية»، ١١، ١٥، ٢٨، ٢٩.
بارتولد، (١٨٦٩ــ١٩٣٠)، مستشرق روسي، من مؤلفاته: «تاريخ دراسة الشرق في أوروبة وروسيا»، ٤٧٢ و«علماء النهضة الإسلامية»، ٤٧١.
بارنز، هاري ألمر، (١٨٨٩ــ   )، مؤرخ وباحث أمريكي، ٤١٢.
باكون، روجير، (١٢١٤ــ١٢٩٤)، عالم وفيلسوف انكليزي، ٢١.
بالتوخين، أزيكو، ٤٧٢، ٤٧٣.
بايرون، دون، (١٨٣٩ــ١٩٠٠)،

باحث أرجنتيني. من مؤلفاته: «أتح لنفسك فرصة»، ٩٢.
بتكين، التر، (١٨٣٣-١٩٠٧)، مستشرق يوغسلافي. من مؤلفاته: «الحياة تبدأ بالأربعين»، ١١٥.
بحيرا، الراهب جرجيس، ٧٣، ٨٣، ٨٤، ٨٦.
البخاري، (٨٠٩-٨٦٩)، الواضع الحقيقي لعلم الحديث. من مؤلفاته: «الجامع الصحيح» و«التاريخ الكبير»، ٧٦، ١٣٨.
بديل بن ورقاء ٢٠٠.
برج، ٤٥٤.
برنار، (القديس)، ٢٠.
برنكهام، إميل، (١٨٥٧-١٩٢٤)، من مؤلفاته: «الشرق والإسلام» ٣٦٩-٣٧٠.
بروا، جان، مستشرق فرنسي. من مؤلفاته: «محمد نابليون السماء»، ١٦٥، ٢٥٣.
بروك، جورج، مفكر انكليزي معاصر وعضو البرلمان البريطاني، ٤٦٧.
بروكلمان، كارل، (١٨٦٨-١٩٥٦)، مستشرق ألماني. من مؤلفاته: «تاريخ الشعوب الإسلامية» و«تاريخ الأدب العربي»، ١٠٨-١١٠، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨.
البزار، أحمد بن عمرو، ت ٩٠٩، حافظ من علماء الحديث. له «البحر الزاخر» و«مسند البزار»، ٧٦.
بصير، أبو، صحابي، ١٩٩.
بطرس الراهب، (المبجل) (١٠٩٤-١١٥٦)، ٢٠، ٣٨٥.
بكر، (أبو)، الصديق، صحابي، الخليفة الإسلامي الأول، ٨٦، ١٢٣، ١٣٢، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٥٨، ١٩٤، ٢٠٠، ٢٢٤، ٢٢٧، ٣٥٥.
بلارون، هيليار، مستشرق بريطاني. من مؤلفاته: «فكرة الحياة»، ٣٣٠، ٣٣١.
بلال بن رباح، ت ٦٤٠، صحابي مؤذن الرسول، ١٢٣، ٢٢٥، ٤٨٣.
بلانشيه، ديزيرية، باحث فرنسي. من مؤلفاته: «دراسات في التاريخ الديني»، ٢٦٠، ٣٢٨، ٣٢٩.
بلوش، مارك، ١٧.
بلوك، هيليار، مستشرق فرنسي. من مؤلفاته: «محمد والقرآن»، ٤٤٧-٤٤٨.
بنتام، إريك، (١٨١٥-١٨٨٧)، مستشرق إسباني. من مؤلفاته: «الحياة»، ٤٠٨، ٤٠٩.
بوازار، مارسيل، مستشرق فرنسي معاصر. من مؤلفاته: «إنسانية الإسلام»، ٨٩، ١٥٩، ١٦٠، ٢١٣، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٨، ٢٧٦، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٦٧،

٤٤٦، ٤٤٧، ٤٥٥ ـ ٤٥٧، ٤٥٩، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧٣، ٤٧٥، ٤٨٢.

بودلي، ر.ف، مستشرق ومؤرخ انكليزي معاصر. من مؤلفاته: «حياة محمد»، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٥٢، ٤٥٣.

بوكاي، موريس، مستشرق فرنسي معاصر. من مؤلفاته: «دراسة في الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة»، ٢٢، ٢٣.

بول، لين، (١٨٥٢ ـ ١٩١٧)، مستشرق بريطاني. من مؤلفاته: «رسالة في تاريخ العرب»، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٦٥.

بولس، (القديس)، (من حواريي المسيح عليه السلام)، ٢٤٥.

بولين، مستشرق ألماني من القرن التاسع عشر، له دراسة عن المتنبي، ٣٩٧.

بيرتن، ريتشارد، ١٤.

بيردج، أحد رؤساء الجامعة الأميريكية في بيروت، ٤٢٦.

البيهقي، أحمد بن الحسين، (٩٩٤ ـ ١٠٦٦). من أئمة الحديث وأصحاب السنن. من مؤلفاته: «السُنن الكبرى»، ٧٦، ٨٠، ٨٦، ٩٤.

بيكر، كارل هينرش، (١٨٧٦ ـ ١٩٣٧)، مستشرق ألماني. من مؤلفاته: «الشرقيون» ٣٩٤.

التاء

الترمذي، (٨١٥ ـ ٨٩٢)، أحد أصحاب السنن. له «الجامع» أو «السنن»، ٧٦.

تولستوي، ليون، (١٨٢٨ ـ ١٩١٠)، كاتب روسي. من مؤلفاته: «الإنسان والحياة» و«الحرب والسلم»، ٢٤٦، ٢٦٧.

توماس، لويس، (١٨٠٧ ـ ١٨٨٧)، مستشرق إيرلندي. من مؤلفاته: «الحضارة في الشرق»، ٤٣١، ٤٣٢.

الجيم

جب، هاملتون الكسندر روسكين، (١٨٩٥ ـ)، مستشرق بريطاني. من مؤلفاته: «اتجاه الإسلام» و«إلى أين يسير الإسلام» و«المجتمع الإسلامي والغرب»، ٤٦٣ ـ ٤٦٥.

جبريل (عليه السلام)، ١٠٨، ١١٢، ١١٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٩.

جرجيس، انظر بحيرا (الراهب).

جروينباوم، جوستاف فون، (١٩٠٩ ـ). من مؤلفاته: «حضارة الإسلام» و«التفسير الحديث للإسلام» و«الإسلام في العصر الوسيط»، ٣٢٦، ٣٢٧.

جرير بن عبد الله، صحابي، ٣٥٥.
جرينيه، كرسيتان سنوك، (١٨٥٧ ــ ١٩٣٦)، باحث ومستشرق هولندي. من مؤلفاته: «مكة في النصف الأخير من القرن التاسع عشر» و«دراسات في أصول الفقه الإسلامي»، ٣٥.
جعفر بن أبي طالب، (ت ٦٢٩)، صحابي هاشمي أخو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ١٣٣، ١٩٨.
جعيط، هشام، باحث إسلامي معاصر. من مؤلفاته: «أوروبة والإسلام»، ١٧، ١٩ ــ ٢١، ٢٣، ٢٤.
جهل، (أبو)، عمرو بن هشام، (ت ٦٢٤)، من قادة مشركي قريش، ١٤٩.
جواد علي، (الدكتور محمد) (١٩٠٧ ــ ١٩٨٧)، باحث ومؤرخ عراقي. من مؤلفاته: «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، ٥٤ ــ ٥٦، ٥٩، ٦٢.
جوزي، بندلي، (١٨٦٨ ــ ١٩٤٥)، مستشرق سوفياتي من أصل فلسطيني. من مؤلفاته: «الجاهلية والإسلام» و«الحركات الفكرية في الإسلام»، ٤٢١، ٤٢٢.
جولد تسهير، اجنتس، (١٨٥٠ ــ ١٩٢١)، مستشرق مجري. من مؤلفاته: «العقيدة والشريعة في الإسلام» و«دراسات إسلامية»، ١٢٨، ٢٣٠، ٢٣١.
جونز، سير وليم، (١٧٤٦ ــ ١٧٩٤)، مستشرق انكليزي، ترجم عدداً من الكتب العربية إلى الانكليزية، ١٣.
جويرية، (زوجة رسول الله ﷺ)، بنت الحارث (ت ٦٢٧)، ٣٤٧.
جيب، هاملتون الكسندر روسكين.. انظر: جب، هاملتون.
جيبون، (١٧٧٣ ــ ١٨٢٧)، مستشرق كندي. من مؤلفاته: «محمد في الشرق»، ١٨، ٤٠٨.
جيرالد، فتنر، ٤٢٣.
جيلمان، أرثر، مستشرق أسوجي. من مؤلفاته: «الشرق»، ٩٥.
جينو، رينيه، (عبد الواحد يحيى)، مستشرق. من مؤلفاته: «الشرق والغرب» و«أزمة العالم الحديث».
جيورجيو، كونستانس، (١٩١٦ ــ)، مستشرق روماني معاصر. من مؤلفاته: «نظرة جديدة في سيرة رسول الله»، ٧٧، ٨٢، ١٣١، ١٣٢، ١٤٣ ــ ١٤٥، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٨، ١٧٩ ــ ١٨١، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٨٩، ١٩١، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧ ــ ٢٢٩، ٣١١، ٣١٤، ٣١٦.

الحاء

الحارث (**أبو**)، أسقف نجران، ٢٢٨ .
الحارث بن أبي شمر الغساني، (ت ٦٣٠)، من أمراء غسان في أطراف الشام، ٢٢٠ .
الحارث بن عمير، (ت ٦٢٩)، صحابي، ٢٢٠ .
الحاكم النيسابوري (**محمد بن عبد الله**) (٩٣٣ ــ ١٠١٤)، من علماء الحديث. من مؤلفاته: «المستدرك على الصحيحين» و«معرفة علوم الحديث»، ٧٦ .
حبان، ابن (**محمد**)، (ت ٩٦٥)، محدث له «الصحيح» أو «كتاب التقاسيم والأنواع»، ٧٦ .
حليمة السعدية، (ت بعد ٦٣٠) (مرضعة الرسول ﷺ)، ٧٩، ٨٠ .
حمزة بن عبد المطلب، (٥٥٦ ــ ٦٢٥)، (عم الرسول ﷺ) صحابي وأحد صناديد قريش وسادتهم في الجاهلية والإسلام، ١٣٤، ١٣٩ ــ ١٤١، ٣٥٩، ٣٦٦ .
حمصي، قسطاكي، (١٨٥٨ ــ ١٩٤١)، باحث سوري، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، ٤٣٠ .
حنبل، ابن. انظر أحمد بن حنبل.

الخاء

خالد بن الوليد، (ت ٦٤٢)، (صحابي) من أشهر قادة العرب، ١٧٨، ١٨٠، ١٩٨، ٢٢٤ .
خديجة بنت خويلد (أم المؤمنين) (ت ٦٢٠)، ٧٣، ٨٥ ــ ٩٢، ١٠٧، ١١٢ ــ ١١٤، ١٢٣، ١٤٢، ١٤٣، ٤٠٤ .
الخوري، بشارة = **الأخطل الصغير** (١٨٨٥ ــ ١٩٦٨)، شاعر لبناني، ٣٢٣ .
الخوري، رشيد سليم (الشاعر القروي)، ٢٤٦ .
الخوري، فارس (١٨٧٩ ــ ١٩٦٢)، مفكر وسياسي سوري، ٢٤٥، ٢٤٦ .
خير الله، حنا، باحث لبناني، ٣٠٥ .

الدال

داز (١٨١٢ ــ ١٩٠٧)، مستشرق ومؤرخ انكليزي. من مؤلفاته: «مع الشرق والغرب»، ٣٠١ .
دافنبرت، حنا (١٨٢٦ ــ ١٩١٢)، مستشرق سويسري. من مؤلفاته: «محمد والإسلام»، ٣٨٩ .
دانتي، أشهر شعراء إيطالية. من مؤلفاته: «الكوميدية الإلهية»، ٢٥ .
داود، (النبي) (ت ٩٧٢ ق.م) يعد من

أعظم الأبطال القوميين عند العبرانيين، ٢٦٦.
دتاسي، جرسان، مستشرق فرنسي، ٩١.
دحية الكلبي، (ت ٦٧٠)، صحابي، ٣٤٤.
الدرة، محمود، باحث عسكري عراقي معاصر. من مؤلفاته: «معارك العرب الكبرى»، ١٧٦، ١٨٣، ٢١٦، ٣١٣ — ٣١٧.
درمنغهم، إميل، مستشرق من مؤلفاته: حياة محمد ٣٤٣.
دوبرون انكتيل، مستشرق، ١٣.
دوتوراك، رودلف، (١٨٥٢ — ١٩٢٠)، مستشرق أسوجي. مترجم حياة أبي فراس الحمداني.
دوجا، جوستاف، (١٨٢٤ — ١٨٩٤)، مستشرق فرنسي. من مؤلفاته: «تاريخ المستشرقين في أوروبة من القرن الثاني عشر حتى القرن التاسع عشر، ١٥.
دوزي، رينهارت، (١٨٢٠ — ١٨٨٤)، مستشرق ومؤرخ هولندي. من مؤلفاته: «ملحق وتكملة القواميس العربية» و«عرب إسبانية» أو «مسلمو الأندلس» و«تاريخ الدول الإسلامية في الأندلس والمغرب»، ٥١، ٢٥٥، ٢٧٧.
دوغويه، مستشرق، ٣٩٦.
دوفيك، كادا، (١٨٠٥ — ١٨٧٧)، مستشرق. من مؤلفاته: «مفكرو الإسلام»، ٩٦.
دوما، الكسندر، (١٨٠٢ — ١٨٧٠)، كاتب وروائي فرنسي، ٣٢٦.
دويون، القس اسكندر، مستشرق، صاحب كتاب: «تاريخ الإسكندر».
دي أورلياك، جربر، (٩٤٠ — ١٠٠٣)، راهب ومستشرق فرنسي، ١٥.
دي تريسي، فردريك، (١٨٢١ — ١٩٠٣)، باحث ألماني نشر وحقق عدداً من المؤلفات العربية كما ترجم إلى الألمانية عن العربية: «مقولات أرسطاطاليس»، ٤٠١، ٤٠٢.
دي تولدز، جورج، (١٨١٥ — ١٨٩٧)، باحث أمريكي. من مؤلفاته: «الحياة»، ٤٢٨، ٤٢٩.
دي توليد، مارك، ٢٠.
دي ساسي، انطوان سيلفستر (١٧٥٨ — ١٨٣٨)، مستشرق فرنسي. من مؤلفاته: «الحياة»، ٣٠٧.
دي كاستيري (هنري)، مستشرق معاصر. من مؤلفاته: «الإسلام خواطر وسوانح»، ٣٥، ٣٨٧، ٣٩٦، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٤.
دي كوي، نيكولا، ٢٠.
دير بيلو، مستشرق. من مؤلفاته: «المكتبة الشرقية»، ٢٤.

ديسو، (١٨٦٨ــ١٩٥٨)، مستشرق فرنسي. من آثاره: «المدخل لتاريخ الأديان» و«عرب سورية قبل الإسلام»، ٣٣٥.
ديسون، مستشرق ألماني. من مؤلفاته: «الحياة والشرائع» و«المحمديات»، ٤٠١، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٦٧، ٤٦٨.
ديفولبوت، جون، (١٨٣٢ــ١٩٠٢)، مستشرق بريطاني. من مؤلفاته: «العجائب»، ٢٧١.
ديكارت، رينيه، (١٥٩٧ــ١٦٥٠)، فيلسوف فرنسي. من مؤلفاته: «في المنهاج» و«مقالة الطريقة»، ٣٠٦.
دينية، اتيين= ناصر الدين، (١٨٦١ــ ١٩٢٩)، مستشرق فرنسي معاصر. من مؤلفاته: «أشعة خاصة بنور الإسلام» و«محمد رسول الله» و«الشرق في نظرة الغرب»، ٣٣ــ٣٦، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٥، ٩٠، ١١٨، ١١٩، ١٢٣، ١٣١، ١٤٣ــ١٤٥، ١٤٩، ٢٢٠، ٢٥٩، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٧٥، ٣٩٥، ٣٩٩، ٤٠٥، ٤٣٩ــ٤٤٢، ٤٧١، ٤٨٣، ٤٨٥.
ديورانت، ول، مستشرق وباحث أمريكي. من مؤلفاته: «قصة الحضارة»، ٤٦، ٣٩٦، ٣٩٧.
ديون، اسكندر: من طلائع المستشرقين له تاريخ عرف باسمه ووضع كتاباً عن محمد ﷺ عام ١٢٥٨م، ٣٨٨.

الذال

الذهبي، (١٢٧٤ــ١٣٤٨)، محقق ومؤرخ، ٧٦.

الراء

راهويه (ابن)، (اسحق بن إبراهيم) من كبار الحفاظ من تصانيفه «المسند»، ٨٠.
رقية، (بنت الرسول ﷺ) (ت ٦٢٤)، ٩٠.
رملة بنت الحارث، ٢٢٥.
رملة بنت أبي سفيان، (٥٩٦ــ٦٦٤) (من أزواج النبي ﷺ)، ٣٤٧.
رو، جورج، باحث، ٤٦٨.
رودتن، ليو، باحث، ٤٢٢.
رودنسون، مستشرق. من مؤلفاته: «تراث الإسلام»، ٣٠.
الرياشي، لبيب، (١٨٨٩ــ١٩٦٦)، باحث لبناني. من مؤلفاته: «فلسفة الدين الإسلامي» و«نفسية الرسول العربي». ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٧.
ريكولدو، ٢٠.
ريتين، مستشرق ومؤرخ إسباني. من

مؤلفاته: «التاريخ الخاص لسورية ولبنان»، ٤٦٢.

الزاي

زويمر، صموئيل، (١٨٤٣ ــ ١٩٠٤)، مستشرق انكليزي، رئيس تحرير مجلة العالم الإسلامي. من مؤلفاته: «يسوع في إحياء الغزالي»، ٢٥٤، ٣٠٦، ٤٦٨.

زقزوق، محمود حمدي، باحث مصري معاصر. من مؤلفاته: «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري»، ١١، ١٣، ١٦.

زيد بن الحارثة، (ت ٦٢٩)، صحابي، ١٢٣، ١٤٨، ١٩٧، ١٩٨، ٣٥٤، ٣٥٥.

زيد بن عمرو بن نفيل، (ت ٦٠٦)، أحد حكماء الجاهلية، ٦٢ ــ ٦٤.

زينب (بنت الرسول ﷺ) (ت ٦٣٠)، ٩٠.

السين

ساديو (لوي)، انظر: سيديو، لوي.

سادزن، مستشرق. من مؤلفاته: «نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى»، ٢٧.

سان إليار، مستشرق إسباني. من مؤلفاته: «تعاليم اللغة العربية»، ٢٩٥.

سانت هيليار، بارتيلمي، مستشرق ألماني. من مؤلفاته: «الشرقيون وعقائدهم» و«مع الشرق»، ٢٥٥، ٢٨٨، ٢٨٩، ٤٧٥، ٤٧٦.

سايكس، السير ماكس، (١٨٧٦ ــ ١٩٢٧)، مستشرق أسوجي، ٣٠٣.

سبنسر، هربرت، (١٨٢٠ ــ ١٩٠٣)، فيلسوف انكليزي. من مؤلفاته: «أصول الاجتماع»، ٢٥٦.

ستودارد (لوثروب)، مستشرق. من مؤلفاته: «حاضر العالم الإسلامي»، ترجمة الأستاذ عجاج نويهض وعلق عليه الأمير شكيب أرسلان، ٤٠٥، ٤٠٦.

سجاح، (من أدعياء النبوة) (ت ٦٧٥)، ٢٢٧.

سرجياس. انظر: بخيرا الراهب.

سعد (ابن)، محمد، (٧٨٤ ــ ٨٤٥) مؤرخ ثقة. من مؤلفاته: «طبقات الصحابة»، ٧٦، ٨٦.

سعد بن معاذ، (ت ٦٢٦) صحابي، ١٨٩، ٣٥٩.

سعيد، ادوارد، مستشرق أمريكي معاصر من أصل عربي. من مؤلفاته: «الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء»، ١٢، ١٣، ١٩.

سفيان، أبو = **صخر بن حرب**، (ت ٦٥٢)، ١٧١، ١٧٨، ١٨٦، ٢٠٠، ٢٢٤، ٣٤٨، ٣٦٦.

سكوت، والتر، (١٧٧١ — ١٨٣٢)، كاتب وروائي بريطاني، ٣٧١.

سل، كالــون، (١٨١١ — ١٨٧٣)، مستشرق انكليزي. من مؤلفاته: «الشرقيون» و«حياة محمد»، ٦٤.

سلفستر الثاني، (البابا)، ١٥.

سلمان الفارسي، صحابي (ت ٦٥٥)، ١٨٥، ٣١٣، ٤٨٤.

سنوك هر غرنجه (كرسيتان)، انظر غرنجه.

سهيل بن عمرو، (ت ٦٣٩) صحابي، ١٩٣، ١٩٤.

سيديو، لوي بيير، (١٨٠٧ — ١٨٧٥)، مستشرق ومؤرخ فرنسي. من مؤلفاتــه: «تاريخ العرب العــام» أو «خلاصة تاريخ العرب»، ٩٣، ١٤٩، ١٥٠، ٢٥٨، ٣٥٨، ٣٥٩، ٤٤٠.

سيسلاس، مؤرخ روماني، ٤٨.

سينرستـــــن، (ت ١٨٦٦)، مستشرق أسوجي. من مؤلفاته: «تاريخ حياة محمد». «القرآن: الانجيل المحمــدي»، ٢٥٢، ٢٥٣.

الشين

شاخت، جوزيف، (١٩٠٢ —)، باحث ألماني حقق ونشر عدداً من الكتب العربية، ساهم في «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث»، ٤٢٢، ٤٢٣.

شارلمان، ملك فرنسة، (٧٤٢ — ٨١٤)، ٣٦٢.

الشاعر القروي، انظر الخوري، رشيد سليم.

شانليه، مستشرق فرنسي، ٤٧٥.

شبرنكر، مستشرق ألماني، ٦٢.

شرحبيل بن عمرو الغساني، (عامل الروم على بصرى)، ٢١٨، ٢٢٠.

شرفيس، كرسيتـــان، مستشرق اعتنــق الإسلام، ٣٤.

شفـاب، ريمون، مستشرق. من مؤلفاتـه: «النهضة الشرقية»، ١٣.

شكسبير، وليم، (١٥٦٤ — ١٦١٦)، أعظم الكتاب والمسرحيين الإنكليز، ٢٤٦.

شليغل، فردريك، ١٤.

شميـــــل، شبلي، (١٨٦٠ — ١٩١٧)، باحث لبناني.

شو، جورج برنـــــارد، (١٨٥٦ — ١٩٥٠)، مستشرق ومفكر إيرلندي. من مؤلفاته: «الزنجية تبحث عن الله»، ٢٦٨، ٢٦٩، ٣٨٦، ٤٦٩، ٤٧٦، ٤٧٧.

شيرويه، ملك الفرس، ٢٢٠.

الصاد

صالح، (النبي) من بني ثمود، ٦٥.

صفية بنت حيي، (ت ٦٧٠)، أم المؤمنين، ١٩٦.

الطاء

طالب، أبو، (عم الرسول ﷺ)، ٨٣، ٨٥، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٠، ١٤١ـــ١٤٣، ١٤٨.

الطاهر، (ابن الرسول ﷺ)، ٩٠.

الطبراني، سليمان بن أحمد، (٨٧٣ـــ٩٧١)، من كبار المحدثين له معاجمه الثلاثة في الحديث، ٧٦، ٨٠.

الطبري، محمد بن جرير، (٨٣٩ـــ٩٢٣)، مؤرخ ومفسر، ١٣٧، ١٣٨.

طعمة، ميخائيل، باحث فلسطيني، ٣٦٤.

طلاس، مصطفى، باحث عربي ورجل دولة سوري معاصر. من مؤلفاته: «الرسول العربي وفن الحرب»، ١٧٠، ٢٠٧.

طليحة بن خويلد الأسدي، (ت ٦٤٢)، من أدعياء النبوة، ٢٢٧.

الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود، (٧٥٠ـــ٨١٩)، محدث له «المسند» أو «مسند الطيالسي»، ٩٤.

الطيب، (ابن الرسول ﷺ)، ٩٠.

الظاء

الظالمي، حسن الشيخ خضر، باحث إسلامي معاصر. من مؤلفاته: «قالوا في الإسلام»، ٢٩٨، ٣٢٦.

العين

عائشة بنت أبي بكر الصديق، (٦٠٣ـــ٦٧٨)، (أم المؤمنين)، ٧٧، ١١٣، ١٤٥، ٣٥٢، ٣٥٦.

العباس بن عبد المطلب، (٥٧٣ـــ٦٥٣)، صحابي (عم الرسول ﷺ)، ٣٤٧.

عبد الأحد، داود. انظر: كلداني (دافيد بنجامين).

عبد الله بن أبي، (ابن سلول) (ت ٦٣٠) (رأس المنافقين في المدينة)، ١٦٢، ١٩٣، ١٨٢، ١٩٤، ٣٥٦.

عبد الله بن جبير، صحابي (ت ٦٢٥)، ١٧٥، ١٨٠.

عبد الله بن جحش، (ت ٦٢٥) صحابي، ٦٣.

عبد الله بن رواحة، (ت ٦٢٩) صحابي، ١٩٨.
عبد الله بن سلام، صحابي (ت ٦٦٣)، ٤٨٣.
عبد الله بن سهيل بن عمرو، صحابي، ١٩٤.
عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، (٥٤٤ـ٥٧١) (والد الرسول ﷺ)، ٧٥، ٨١.
عبد الرحمن بن عوف، (٥٨٠ـ٦٥٢)، صحابي جليل، ١٩٤.
عبد المسيح، الأسقف، ٢٢٨.
عبد المطلب بن هاشم بن مناف، (٥٠٠ـ٥٧٩)، زعيم قريش في الجاهلية وجد النبي ﷺ، ٧٧، ٩٧.
عبد الواحد يحيى، انظر: جينو (رينيه).
عثمان بن الحويرث، ٦٣.
عثمان بن طلحة، (ت ٦٢٢)، صحابي ٢٩٢.
عثمان بن عفان، (٥٧٤ـ٦٥٥)، الخليفة الثالث بعد رسول الله ﷺ، ١٩٢، ١٩٤.
عثمان بن مظعون، (ت ٦٢٤) صحابي، ١٣٢.
عدي بن زيد العبادي، (ت حوالي ٥٩٠)، ٦٣.
عرافة، **يوسف نعيم**، باحث عربي، ٢٧٧، ٢٧٨.
العرباض بن سارية، صحابي، ٧٦.
عزّى: أعظم أصنام قريش، ٦٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٨.
عزام، **عبد الرحمن**، باحث إسلامي معاصر. من مؤلفاته: «بطل الأبطال»، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢ـ٢٩٤، ٣٥٢، ٤١٧.
عزة، أخت دحية الكلبي، ٣٤٤.
عساكر، (ابن) **علي بن الحسن**، (١١٠٥ـ١١٧٦)، مؤرخ ومحدث. له «تاريخ دمشق»، ٨٦.
عفلق، **ميشيل**، مفكر سوري معاصر. من مؤلفاته: «في سبيل البعث»، ٢٥٧.
العقاد، **عباس محمود**، (١٨٩٩ـ١٩٦٤)، باحث عربي إسلامي. من مؤلفاته: «عبقرية محمد»، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٥٥، ٣٤٦ـ٣٤٨، ٣٦٠، ٣٦١.
العقيقي، **نجيب**. من مؤلفاته: «المستشرقون»، ١٥.
عكرمة بن أبي جهل، (ت ٦٣٤)، صحابي، من أبطال قريش في الجاهلية والإسلام، ٢٢٤.
علي بن أبي طالب، (٦٠٠ـ٦٦١) رابع الخلفاء الراشدين وابن عم النبي ﷺ وصهره، ١٢٣، ١٢٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٨٩، ١٩٤، ١٩٦، ٢٠٠.

عمارة بن الوليد، ١٣٣ .

عمر بن الخطـــاب، (٥٨١ــ٦٤٤) صحابي، الخليفة الإسلامي الثاني، ١٣٤، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٩٤، ٢٠٠، ٢٩٧، ٣٥٩، ٣٦١.

عمرو بن العاص، (صحابي)، (٥٧٥ــ ٦٦٣)، ١٣٣، ١٩٨.

عيسى (عليه السلام)، انظر : المسيح .

الغين

غارودي، روجيـه، (رجــاء غارودي)، باحث وفيلسوف، ومستشرق فرنسي معاصر . من مؤلفاته : «ما يعد به الإسلام»، «حوار الحضارات»، ٣٥، ٣٨، ٤٤٠ــ ٤٤٥ .

غالي واصف باشا، بطرس، مفكر مصري . من مؤلفاته : «فروسيـة العرب المتوارثـة»، ١٢٢، ٣٤٨ .

الغرانيق العلى (اللات، العزى، مناة) أصنام جاهلية، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩ .

غرنجه، سنـــوك هر (كرسيتـــــان)، (١٨٥٧ــ١٩٣٦)، مستشرق هولندي. من مؤلفاته : «الإسلام وتاريخه» و«الشريعة الإسلامية»، ٣٩٦ .

غروثيوس، ٤٦١ .

غروسيـه، رينيــه، مستشرق فرنسي. من مؤلفاته : «الحروب الصليبية»، و«مدنيات الشرق»، ١١٧ .

غلوب باشا، انظر : غلوب، جان باغوت .

غلوب، جان باغوت، غلــوب باشا، (١٨٩٧ــ)، مستشرق وباحث، وعسكــري انكليـــزي. من مؤلفاتـــه : «الفتوحـات العربيـــة الـــكبرى»، ٨٨، ١١١ــ١١٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٠، ١٤٨، ١٦١، ١٦٢، ١٧٠ــ١٧٣، ١٧٦ــ١٧٧، ١٨٢ــ١٨٤، ١٨٦، ١٩٢، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٢٠، ٢٢١ .

غليـوم، بوستيـل، (١٥٨١ــ١٦٥٤)، مستشرق فرنسي، ٣٠٤ .

غوتيه، يوهان فولفغانغ فون، (١٧٤٩ــ ١٨٣٢)، شاعـر ألماني. من مؤلفاتـــه : «الديـوان الغـربي الشرقي»، «آلام فرتـر»، ٨٤، ٤٢٦ .

غوستـــاف الثـــالث الأسوجـــــي، (١٧٤٦ــ١٧٩٢)، مستشرق أسوجي. من مؤلفاته : «الإسلام في الحجاز»، ٤٠٧ .

غيبون : انظر : جيبون .

الفاء

فاطمة بنت محمد ﷺ، فاطمة الزهـراء،

(٦٠٥ ــ ٦٣٢)، بنت رسول ﷺ، ٩٠، ٢٩٦.
فالـــيري، لورافكشيـــا، (١٨٣٩ ــ ١٨٩٧)، مستشرقة إيطالية، درست التاريخ الإسلامي قديماً وحديثاً. من مؤلفـــاتها: «الأديان» و«الدفاع عن الإسلام»، ٣٨٨، ٣٨٩، ٤٧٠، ٤٧١.
فان برشم، ماكس، (١٨٦٣ ــ ١٩٢١)، مستشرق سويسري وأستاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف، له دراسات في الآثار الإسلامية. من مؤلفاته: «العرب في آسية»، ٢٨١.
فايس، ليوبولد (محمد أسد)، مستشرق نمسوي. من مؤلفاته: «الإسلام على مفترق الطـــــرق»، ٢٥ ــ ٣٠، ٣٥، ٣٧، ٤٧٨ ــ ٤٨٠.
فت، بيتر يوهانس.. انظر: وث، بيتر يوهانس، ١١٠، ١٣٧.
فتلي، (١٨١٥ ــ ١٨٩٠)، مؤرخ ومفكر بريطـاني. من مؤلفاتـه: «الحيـاة» ٢٧٩، ٢٨٠.
فونييه، مستشرق فرنسي من آثاره: «الجواهر والصياغة المصريـة» نشره المعهـد الفـرنسي بالقاهرة (عام ١٩٠٧)، ١٧.
فروخ، عمر، باحث لبنـاني معـــاصر، ١٠٩، ١١٠، ١٣٧.
فولتير، فرانسوا، (١٦٩٤ ــ ١٧٧٨)، مفكـر فرنسي. من مؤلفاتـه الاستشراقيـة: «محمد»، ٢٦٤.
فيتري، جاك، ٢٠.
فيصل بن حسين بن عليّ (الملك)، (١٨٨٥ ــ ١٩٣٣)، ١٧٠.
فيل، جوتهولد، انظر: ويل جوتهولد.
فيلـــيب، المكـــدوني، (٣٨٢ ــ ٣٣٦ ق.م)، ملك مكدونيا وسيد بلاد الإغريق ووالد الإسكندر، ١٧٤.

القاف

القاسم، ابن الرسول ﷺ، ٩٠.
قس بن ساعدة الأيـــادي، (ت حوالي ٦٠٠)، خطـيب العـرب وشاعرهـم وحكيمهم، ٦٣.
قصي، أحد أجداد النبي ﷺ وسيد قريش في عصره، ٤٧.

الكاف

كاردفو، (١٨٧٢ ــ ١٩٣٣)، مستشرق، ومؤرخ فرنسي، من مؤلفاتـه: «العرب»، ٢٥٤، ٣٥٣.
كاردي، فو، (١٨٦٨ ــ ١٩٢٥)، مستشرق فرنسي عني بالرياضيات والفلسفة

والتاريخ. من مؤلفاته: «مفكرو الإسلام»، ٤١٨.
كارليل، توماس، (١٧٩٥ــ١٨٨١)، مؤلف ومستشرق انكليزي. من مؤلفاته: «الأبطال»، ٤٨، ٤٩، ٥٧، ٦٨، ٨١، ٨٤، ٨٧، ٨٨، ٩٦ــ٩٨، ١٠٦ــ١٠٨، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٧، ١٦٤، ١٦٥، ٢٤٩، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٦١ــ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٩٠ــ٣٩٢، ٤١١ــ٤١٤.
كازانوفا، (١٨٣٧ــ١٩٠٣)، مستشرق أسوجي. من مؤلفاته: «حضارة الشرق»، ٢٨٧، ٤٠٣.
كاتيان، البرنس، مستشرق إيطالي. من مؤلفاته: «أديان العرب»، ٢٨٨.
كاتياني، ليونيه، (١٨٦٩ــ١٩٢٦)، مستشرق ومؤرخ إيطالي. من مؤلفاته: «حوليات الإسلام» أو «تاريخ الإسلام»، ٢٨٨، ٤٥١، ٤٥٢.
كرمويل أوليفر، (١٥٩٩ــ١٦٥٨)، رجل عسكري وسياسي أقام في انكلترة جمهورية برئاسته، ٤١٢.
كرو، جان تورنون، (١٨٦٧ــ١٩٢٤)، مستشرق فرنسي. من مؤلفاته: «العرب»، ١٠٥، ١٠٦.
كريستا، وغسطون، مفكر إيطالي. من مؤلفاته: «الكياسة الاجتماعية»، ٢٦٦، ٢٦٧.
كريل، لودولف، (١٨٢٥ــ١٩٠١)، مستشرق ألماني. من مؤلفاته: «حياة محمد ودعوته»، ٥٤.
كسرى، ملك الفرس، ٢١٨، ٢٢٠.
أم كلثوم، (ت ٦٣٠)، بنت الرسول ﷺ، ٩٠.
كلداني، دافيد بنجامين، أو عبد الأحد داود، من مؤلفاته: «محمد في الكتاب المقدس»، ٣٥، ٢٨٠، ٢٨١، ٣١٢.
كوبرلد، ايفلين، شاعرة انكليزية. من مؤلفاتها: «الأخلاق»، ٤٢٩.
كولنز، ويلكي، (١٨٢٤ــ١٨٩٩)، روائي وباحث انكليزي. من مؤلفاته: «جوهرة القمر»، ٣٥٠.
كومت، أوغست، (١٧٩٨ــ١٨٥٧)، فيلسوف فرنسي صاحب الفلسفة الوضعية، ٣٤.
كيتون، مستشرق، ١٩.

اللام

اللات (صنم)، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٨.
لاتيس، (١٨٤٧ــ١٩٠٩)، مؤرخ ومستشرق فرنسي، ٣٦٩.

لامارتين، (١٧٩٠ ــ ١٨٦٩)، شاعر فرنسي، وباحث. من مؤلفاته: «رحلة إلى الشرق»، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤١٠.
لامنس، هنري، (١٨٦٢ ــ ١٩٣٧)، مستشرق بلجيكي. من مؤلفاته: «عهد الإسلام»، ٨٨، ٩٥، ١١٤، ١١٥.
لاندو، روم، مستشرق وباحث ومؤرخ وناقد فني انكليزي. من مؤلفاته: «الإسلام والعرب» و«الفن العربي» و«فلسفة ابن عربي»، ١١٠، ١١١.
لهب، أبو، عبد العزى بن عبد المطلب، عم الرسول ﷺ، ومن قادة مشركي قريش، ١٤١، ١٤٣، ٣٦١.
لوازون، الـقس، (١٧٨٦ ــ ١٨٣٧)، مستشرق فرنسي. من مؤلفاته: «الله في السماء» و«الشرق»، ٧٥، ٧٦، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٧٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٩، ٤١٠.
لوبون، غوستاف، (١٨٤١ ــ ١٩٣١)، مستشرق فرنسي. من مؤلفاته: «الحضارة الإسلامية» و«الآراء والمعتقدات»، ٢٠، ٢٥٩، ٢٧٠، ٤٢٠، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٣١.
لورنس، توماس إدوارد، (١٨٨٨ ــ ١٩٣٥)، باحث بريطاني. من مؤلفاته: «أعمدة الحكمة السبعة» و«ثورة في الصحراء»، ١٧٠.
لول، ريمون، (١٢٣٦ ــ ١٣١٥)، فيلسوف إسباني عني بالثقافة الإسلامية، ٢٠.
ليك، جان، (١٨٢٢ ــ ١٨٩٧)، مستشرق إسباني. من مؤلفاته: «العرب»، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٤.
لين، إدوارد وليم، (١٨٠١ ــ ١٨٧٦)، من مؤلفاته: «أخلاق وعادات المصريين المعاصرين»، ١٤، ٤١٩.
ليونارد، ٢٤٩.

الميم

مارتان، ريمون، ٢٠.
مارغوليوت، صموئيل، (١٨٦٨ ــ ١٩٤٠)، مستشرق إنكليزي. من مؤلفاته: «تاريخ سورية ولبنان» و«نشأة الإسلام»، ٤٧١، ٤٧٢.
ماركس، ٤٢١.
ماركوس، هارون، (١٨١٢ ــ ١٨٨٧). من مؤلفاته: «حياة محمد نبي المسلمين»، ٢٨٥، ٢٨٦.
مارية القبطية، (ت ٦٣٧) زوجة النبي ﷺ، ٢٢٠، ٢٢١.
ماسينيون، لويس، (١٨٨٣ ــ ١٩٦٢)، مستشرق فرنسي. من مؤلفاته: «احترام الشخصية الإنسانية في الإسلام» و«أخبار

الحلاج» و«المعجم الفني للتصوف الإسلامي»، ٤٦١، ٤٦٢.
ماسيه، هنري، (١٨٢٠ـ١٨٨٦)، مفكر ومستشرق بلجيكي. من مؤلفاته: «حول الإسلام»، ٢٨٧، ٢٨٨.
ماك غوين، دي سلان، (١٨١٠ـ١٨٧٩)، مستشرق فرنسي. من مؤلفاته: «فهرس المخطوطات الشرقية»، ومترجم مقدمة ابن خلدون إلى الفرنسية، ٤٠٦.
ماكس، (١٧٩٥ـ١٨٦٨)، مستشرق أمريكي. من مؤلفاته: «عظماء الشرق»، ١٥٨.
مايرهوف، ماكس، (١٨١٥ـ١٨٨٧)، مستشرق روسي. من مؤلفاته: «العالم الإسلامي»، ١١٥، ١١٦.
متشنر، جيمس، مستشرق، ٢٩٨.
محمد عبده، (١٨٤٥ـ١٩٠٥)، من قادة الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث. من مؤلفاته: «الرسالات»، ١٠٩، ٤٨٣.
محمود بن مسلمة، ١٩٤.
مخيرق، (ت ٦٢٥) صحابي، ٤٨٣.
مرجليوث، دافيد صموئيل، (١٨٥٨ـ١٩٤٠)، مستشرق انكليزي، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق، له العديد من المؤلفات عن الإسلام والمسلمين، ٣٩٥.
مسلمة بن حبيب = مسيلمة الكذاب، (ت ٦٣٣)، من أدعياء النبوة، ٢٢٧.
المسيح = يسوع، ٢٤، ٧٦ـ٧٨، ٨٦، ٢٠٢، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٥١، ٢٦٦، ٣٤٦، ٣٨٤، ٣٨٦، ٤٠٦، ٤٠٩، ٤٢٨، ٤٥٢.
المسيح الدجال، ١٧.
مسيلمة الكذاب، انظر مسلمة بن حبيب.
مقوقس، (ملك مصر)، ٢١٨، ٢٢٠.
مكرز بن حفص، (ت ٦٢٤)، ١٩٤.
المنذر، (ملك البحرين)، (ت ٦٣٣)، ٢٢٠.
منذر، (ابن) محمد بن إبراهيم، (٨٥٦ـ٩٣١)، حافظ، مصنف، له «المبسوط» في الفقه.
المهدي، (المنتظر)، ٣٧.
موسى، (النبي)، ١١٤، ٢٠١، ٢٦٦، ٤٠٦.
مولانا محمد علي، باحث إسلامي هندي. من مؤلفاته: «حياة محمد ورسالته»، ٥٩، ٦٨، ٦٩، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٩، ١٤١، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢١٧ـ٢١٩، ٢٢١ـ٢٢٣، ٢٢٥ـ٢٢٧، ٢٣٣، ٢٤٧ـ٢٤٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٣٦،

٣٤٧ــ٣٤٩، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٨.

مولـلــر، أغسطينـــوس، (١٨٤٨ ــ ١٨٩٢). مستشرق ألماني. من مؤلفاته: «الإسلام»، نشر عدداً من المخطوطات العربية. ٩٤.

مونتجمري وات. انظر: وات، مونتجمري.

مونتية، إدوار، (١٨٥٦ــ١٩٢٧). من مؤلفاته: «حاضر الإسلام ومستقبله» و«العرب» و«ترجمة القرآن إلى الفرنسية»، ١١٧، ١١٨، ٢٦٥، ٢٦٦، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٦٨، ٣٦٩، ٤٢٠.

مويـــر، وليم، (١٨١٩ــ١٩١٥)، مستشرق إيرلندي. من مؤلفاته: «حياة محمد» و«الإسلام»، ٥٣، ٥٩، ٦٦، ٦٧، ٩٢، ٩٣، ١٣٨، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٤٩، ٣٥٢، ٣٦٦، ٣٧٥، ٤١٧، ٤٢٤، ٤٥٣.

ميرابو، (١٧٤٩ــ١٧٩١)، سياسي وثائر فرنسي، ٤١٢.

ميسرة، خادم السيدة خديجة أم المؤمنين، ٧٦، ٨٦، ٨٧.

ميسمر، مستشرق فرنسي. من مؤلفاته: «العرب في عهد محمد» و«الإسلام في الشرق»، ٢٦٨، ٣٧١، ٣٧٢.

ميشو، مستشرق فرنسي من القرن التاسع عشر. من مؤلفاتـــه: «تاريخ الحروب الصليبية» (عام ١٨٣٦) و«سياحة دينية في الشرق»، ٢٢٩، ٢٣٠.

ميكائيلس، جان، (١٧١٧ــ١٧٩١)، مستشرق روسي. من مؤلفاته: «العرب في آسية»، ٣٩٤، ٣٩٥.

ميمونة بنت الحارث، (ت ٦٧١) زوجة الرسول ﷺ، ٣٤٧.

النون

نابليـون بونابــرت، (١٧٦٩ــ١٨٢١) امبراطور فرنسة وقائد عسكري كبير، ٣١، ٢٥٣، ٤١٢، ٤٤٢.

ناصر الدين. انظر: دينيه، اتيين.

النجاشي، (ملك الحبشة)، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ٢١٨، ٢٢٠.

نسطور، (الراهب)، ٧٣، ٨٦.

نعيم، أبـــو، أحمد بن عبـــد الله، (٩٤٨ــ١٠٣٨)، حافظ ومؤرخ له «حلية الأولياء» و«معرفة الصحابة»، ٧٦، ٨٦، ٩٤.

نهرو، جواهر لال، (١٨٨٩ــ١٩٦٤)، سياسي وباحث هندي. من مؤلفاتـه: «لمحات في تاريخ العالم»، ٤٢٤، ٤٥٢، ٤٥٤.

نوفاليس، (١٧٧٢ــ١٨٠١)، شاعر ألماني، ١٠٨.

نولدكه، تيودور، (١٨٣٦ — ١٩٣٠). مستشرق ألماني. من مؤلفاته: «تاريخ القرآن» و«تاريخ الفرس والعرب» و«دراسات في الشعر العربي القديم»، ٦٢، ٢٥٦، ٣٩٦.
نيلسن، وتلف، مستشرق، ٥٤.

الهاء

هاجر، (زوج إبراهيم وأم إسماعيل عليهما السلام)، ٤٨.
هارت، مايكل، باحث أمريكي معاصر. من مؤلفاته: «المائة الأوائل»، ٢٤٣ — ٢٤٥، ٢٤٩.
هاملتون، آرثر، (باحث انكليزي)، ٤٧٨.
هربلو، برتلمي، (١٦٢٥ — ١٦٩٥)، مستشرق فرنسي. من مؤلفاته: «المكتبة الشرقية»، ٣٠٥.
هرقل، (امبراطور الروم)، ٢١٨، ٢٢٠، ٣٣١.
هريرة، أبو (عبد الرحمن بن صخر)، (ت ٦٧٧) صحابي، من أكبر رواة الحديث، ٧٦.
هند بنت عتبة، (ت ٦٣٥)، زوج أبي سفيان وأم الخليفة الأموي الأول معاوية.
هوار، كليمان، (١٨٥٤ — ١٩٢٧)، مستشرق فرنسي، أستاذ اللغات الشرقية في باريس. من مؤلفاته: «تاريخ العرب»، ٩١.
هود، (النبي)، ٩٥.
هوغو، فيكتور، (١٨٠٢ — ١٨٨٥)، روائي ومسرحي، كاتب فرنسي كبير. من مؤلفاته الاستشراقية: «الشرقيون»، ١٤، ٢٤٦.
هوكنج، باحث أمريكي في جامعة هارفرد، ٤٧٢.
الهيثمي، علي بن أبي بكر، (١٣٣٥ — ١٤٠٥)، حافظ. من مؤلفاته: «مجمع الزوائد»، ٧٦، ٨٠، ٩٤.
هيدلي، اللورد، مستشرق انكليزي صاحب المجلة الإسلامية. من مؤلفاته: «الإسلام»، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٧٣، ٣٧٥.
هيكل (محمد حسين)، (١٨٨٨ — ١٩٥٦)، باحث إسلامي. من مؤلفاته: «حياة محمد»، ١٣٨، ١٣٩.

الواو

وات، مونتجمري، مستشرق انكليزي معاصر وعميد قسم الدراسات العربية في جبمعة أدنبرة. من مؤلفاته: «محمد في مكة» و«محمد في المدينة»، ٨٩، ٩٠، ١٧٥، ١٨٤، ١٨٧، ٢١٢، ٢١٤،

٢١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٩٠ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ــ ٣٩٣ ، ٣٩٦ ــ ٣٩٨ ، ٤٢٤ .

الواقدي، (٧٤٧ ــ ٨٢٢)، مؤرخ وراوية في الحديث. من مؤلفاته: «التاريخ والمغازي والبعث»، ١٣٧ ، ١٣٨ .

وانتبورت، جون، مستشرق سويسري. من مؤلفاته: «محمد والقرآن»، ٣٩٣ .

وايل، جوتهولد، (١٨١٨ ــ ١٨٨٩)، مستشرق ألماني. من مؤلفاته: «تاريخ الخلفاء» و«تاريخ الشعوب الإسلامية»، ٤٠٦ ، ٤٠٧ .

وايل، هربرت، مستشرق إيرلندي. من مؤلفاته: «المعلم الأكبر»، ٤٢٨ .

وت بيتر يوهانس، (١٨١٤ ــ ١٨٩٩)، مستشرق هولندي. من مؤلفاته: «محمد والقرآن»، ٤٢٠ .

وجدي، محمد فريد، (١٨٧٨ ــ ١٩٥٤)، باحث إسلامي. من مؤلفاته: «دائرة معارف القرن العشرين»، ٢٥٢ .

ورقة بن نوفل، بن أسد بن عبد العزى بن قصي، (ت ٦١١) حكيم جاهلي، أدرك أوائل عصر النبوة، ٦٣ ، ١١٤ ، ٤٨٣ .

ولز، مستشرق انكليزي. صنف عام ١٨٩١ تاريخ الأدب التركي، ٤٠٢ .

ولفنسون، إسرائيل، مستشرق ألماني قدم له الدكتور طه حسين (عام ١٩٢٧). من مؤلفاته: «تاريخ العرب واليهود في بلاد العرب»، ١٧٦ ، ١٨٣ .

ولهوزن، يوليوس، (١٨٤٤ ــ ١٩١٨)، مستشرق ألماني. من مؤلفاته: «بقايا الوثنية العربية» و«دين العرب في الجاهلية» و«تاريخ الدولة الأموية»، ٥٤ ، ٥٥ .

وليامس، أندرا. مستشرق أمريكي. من مؤلفاته: «أمريكي في البلاد العربية»، ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

ويغان، مكسيم. (المندوب الفرنسي على سورية ولبنان)، ٣٧٢ .

ويلسن، (١٨١٥ ــ ١٨٨٧)، مستشرق يوغسلافي، ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

الياء

ياسين خليل، باحث إسلامي معاصر. من مؤلفاته: «محمد عند علماء الغرب»، ٢٤٦ .

ياقوت الحموي، (١١٧٨ ــ ١٢٢٨)، أديب موسوعي. من مؤلفاته: «الأصنام» و«معجم البلدان»، ٥٤ .

يان، فلوتن، (١٨٠٧ ــ ١٨٧٩)،

مستشرق هولنـــدي. من مؤلفاتـــه: «الفصول»، ١٦٢.

يعقوب بن سفيان، (ت ٨٩٠)، حافظ من علماء الحديث له «التاريخ الكبير»، ٨٦.

يعلى (أبو)، أحمد بن علي، (ت ٩١٩)، حافظ من علماء الحديث له «المعجم» و«المسند الكبير» و«المسند الصغير»، ٨٠.

فهـرس الكتـب

ويحتوي عنوان الكتاب و(المؤلف)

الألف

الأبطال (توماس كارليل)، ٤٩، ٥٧، ٦٨، ٨١، ٨٤، ٨٧، ٨٨، ٩٦ ـ ٩٨، ١٠٦ ـ ١٠٨، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٠، ١٤٣، ١٥٧، ١٦٤، ١٦٥، ٣٢٩ ـ ٣٣٠، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٠ ـ ٣٤٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٦١ ـ ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٧١، ٣٨٩، ٤١٤.

اتجاه الإسلام (جب)، ٤٦٤.

أتح لنفسك فرصة (بايرون)، ٩٢.

احترام الشخصية الإنسانية في الإسلام (ماسينيون)، ٤٦٠، ٤٦١.

أحوال العرب قبل الإسلام وبعده (روبرت سميث)، ٤١٩.

الأخلاق (ايفلين كوبرلد)، ٤٢٩.

أخلاق وعادات المصريين المعاصرين (إدوار لين)، ٤١٩.

الأدب في آسية (بوسورث سمث)، ٣٢٤.

الأديان (بورافكشيا فاليري)، ٣٨٨، ٣٨٩.

أديان العرب (البرنس كاتياني)، ٢٨٨.

الآراء والمعتقدات (غوستاف لوبون)، ٤٣١.

أزمة العالم الحديث (رينيه جينو)، ٣٥.

الاستشراق : المعرفة، السلطة، الإنشاء (ادوارد سعيد)، ١٢، ١٤، ١٨، ١٩.

الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (محمود حمدي زقزوق)، ١١، ١٤، ١٥، ١٦، ٢٧.

الإسلام (أغسطينوس موللر)، ٩٤.

الإسلام (اللورد هيدلي)، ٣٥.

الإسلام (وليم موير)، ٩٢، ٩٣.

الإسلام بين الأنصاف والجحود، ٣٥٩، ٤٢٠، ٤٥٥.

الإسلام خواطر وسوانح (هنري دي

كاستري)، ٣٥، ٣٨٧، ٣٩٩، ٤٠٤.
الإسلام دين وعقيدة، ٣٣٥.
الإسلام على مفترق الطرق (ليوبولد فايس)، ٢٥، ٢٧ـ٣٠، ٣٦، ٣٧، ٣٧٩، ٤٨٠.
الإسلام في الحجاز (غوستاف الثالث الأسوجي)، ٤٠٧.
الإسلام في الشرق (ميسمر)، ٢٦٨.
الإسلام في ضوء التشيع، ٤٧٦.
الإسلام مبدأ وعقيدة، ٤٨، ٤٢١، ٤٦٢، ٤٦٨.
الإسلام والحياة، ٤٥٢.
الإسلام والعرب (روم لاندو)، ١١١.
الإسلام والعلم الحديث، ٢٤٦.
أشعة خاصة بنور الإسلام (اتيين دينيه)، ٣٣، ٣٤.
الأصنام (ياقوت الحموي)، ٥٤.
أصول الاجتماع (هربرت سبنسر)، ٢٥٦.
أغنية رولان، ١٩.
الله في السماء (لوزون)، ٢٠١، ٢٠٢، ٤٠٩، ٤١٠.
أمريكي في البلاد العربية (أندرا وليامس)، ٤٣٢، ٤٣٣.
الإنجيل= العهد الجديد، ٢٢، ١٠٨، ١٠٩، ١١٤، ٢٤٥، ٤٠٤ـ٤٠٦.
انجيل يوحنا، ٧٧.
الإنسان والحياة (ليون تولستوي)، ٢٦٧، ٢٦٨.
إنسانية الإسلام (بوازار مارسيل) ٨٩، ١٥٩، ١٦٠، ٢١٣، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٨، ٢٧٦، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٦٧، ٤٤٦، ٤٥٧، ٤٦٢، ٤٧٠، ٤٧٣، ٤٨٢.
أوروبة والإسلام (هشام جعيط)، ١٧، ١٩، ٢٣، ٢٤.

الباء

بطل الأبطال (عبد الرحمن عزام)، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٤، ٣٥٢، ٤١٧.
بقايا الوثنية العربية (ولهوزن)، ٥٤.

التاء

تاريخ اسكندر (اسكندر ديون)، ٣٨٨.
تاريخ الحروب الصليبية (ميشون)، ٢٢٩، ٢٣٠.
تاريخ حياة محمد (سيزستن)، ٢٥٢، ٢٥٣.
التاريخ الخاص لسورية ولبنان (ريتين)، ٤٦٢.
تاريخ الخلفاء (وايل)، ٤٠٧.

تاريخ الدول الإسلامية في الأندلس والمغرب (رينهارت دوزي)، ٥١.
تاريخ سورية ولبنان (صموئيل مارغوليوث)، ٤٧٣.
تاريخ الشعوب الإسلامية (كارل بروكلمان)، ١٠٨، ١٠٩، ١٣٥، ١٣٨.
تاريخ العرب (أ.أ. أفريمان)، ١٦٦.
تاريخ العرب (سيديو)، ٤٣، ١٤٩، ١٥٠، ٢٥٨، ٣٥٩، ٤٤٠.
تاريخ العرب (كليمان هوار)، ٩١.
تاريخ العرب واليهود في بلاد العرب (إسرائيل ولغنسون)، ١٧٦، ١٨٣.
تاريخ القرآن (تيودور نولدكه)، ٢٥٦.
تاريخ المستشرقين في أوروبة (جوستاف دوجا) ١٥.
تاريخ المسلمين (إيماري ميخائيل)، ١٢٦.
تراث الإسلام (رودونسون)، ٣٠.
تعاليم اللغة العربية (سان اليار)، ٢٩٥.
التكامل في الإسلام، ٤٢٤، ٤٥٣، ٤٧٦.
التوراة = العهد القديم، ١٣، ٢٢، ١٠٩، ١١٠، ٣٨٤، ٤٠٤ ــ ٤٠٦.

الجيم

الجاهلية والإسلام (بندلي جوزي)، ٤٢٢.
جوهرة القمر (ويلكي كولنر)، ٣٤٩، ٣٥٠.

الحاء

حاضر الإسلام ومستقبله (إدوار مونتيه)، ٣٣٨، ٣٣٩، ٤١٩، ٤٢٠.
الحج إلى بيت الله الحرام (اتيين دينيه)، ٣٤.
الحروب الصليبية (رينيه غروسيه)، ١١٧.
حضارة الإسلام (جوستاف جرونيباوم)، ٣٢٦.
الحضارة الإسلامية (غوستاف لوبون)، ٤٢٥، ٤٢٦.
حضارة الشرق (كازانوفا)، ٢٨٧، ٤٠٣.
الحضارة في الشرق (لويس توماس)، ٤٣١، ٤٣٢.
حوار الحضارات (روجيه غارودي)، ٣٥.
حول الإسلام (هنري ماسيه)، ٢٨٧، ٢٨٨.
حوليات الإسلام (كاتياني)، ٤٥١، ٤٥٢.
الحياة (إريك بنتام)، ٤٠٨، ٤٠٩.
الحياة (جورج دي تولدز)، ٤٢٨، ٤٢٩.
الحياة (سلفستر دي ساسي)، ٣٠٧.
الحياة (فتلي)، ٢٧٩، ٢٨٠.
الحياة تبدأ بالأربعين (التربتكين)، ١١٥.

حياة محمد (إميل درمنغهم)، ٣٤٣.
حياة محمد (بودلي)، ٣٨٦، ٤٥٣.
حياة محمد (بوسورث اسمث)، ٢٧٨، ٢٧٩.
حياة محمد (كالون سال)، ٦٤.
حياة محمد (محمد حسين هيكل)، ١٣٩.
حياة محمد (وليم موير)، ٥٣، ٦٦، ٦٧، ٩٣، ٢٠٤، ٣٥٢، ٣٦٦، ٣٧٥، ٤١٧، ٤٢٤.
حياة محمد نبي المسلمين (هارون ماركوس)، ٢٨٦.
حياة محمد ورسالته (مولانا محمد علي)، ٥٩، ٦٩، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٠، ١٤١، ١٩٠، ١٩٥، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٣٣، ٢٤٧ـ٢٤٩، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٩٧، ٣٣٦، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٦، ٣٦٧.
الحياة والإسلام (أورينج)، ٣٣٩، ٣٤٠.
الحياة والشرائع (ديسون)، ٤٠١.

الخاء

خلاصة تاريخ العرب (سيديو)، انظر: تاريخ العرب.

الدال

الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية (رودي بارت)، ١١، ٢٩.
دراسات في التاريخ الديني (ديزريه بلانشيه)، ٢٦٠، ٣٢٨، ٣٢٩.
الدعوة إلى الإسلام (أرنولد)، ٢٣٣.
الديوان الغربي الشرقي (غوته)، ١٤.

الراء

رحلة إلى الشرق (لامارتين)، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤١٠.
الرسالات (محمد عبده)، ٤٨٣.
رسالة في تاريخ العرب (لين بول)، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٦٥.
الرسول، حياة محمد (ر.ف. بودلي)، ٣٩٥، ٣٩٦.
الرسول العربي وفن الحرب (مصطفى طلاس)، ١٧٠، ٢٠٧.
روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة، ١.٢٧، ١٢٩، ٢٣٠، ٢٧٠، ٣٥٠.

الزاي

الزنجية تبحث عن الله (برناردشو)، ٢٦٩.

السين

سياحة دينية في الشرق (ميشون)، ٢٣٠.
سيرة ابن هشام، ١٩٤.

الشين

الشرع الدولي في الإسلام (نجيب ارمنازي)، ٢٧٠، ٢٧١.

الشرق (أرثر جيلمان)، ٩٥.

الشرق (القس لوازون)، ٢٧٩، ٤٠٠، ٤٠١.

الشرق والإسلام (إميل برنكهام)، ٣٦٩، ٣٧٠.

الشرق وعاداته (الدكتور زويمر)، ٢١٤.

الشرق والغرب (رينيه جينو)، ٣٥.

الشرقيون (فيكتور هوغو)، ١٤.

الشرقيون (كارل هينرش بيكر)، ٣٩٤.

الشرقيون (كالون سال)، ٩٤.

الشرقيون وعقائدهم (سانت هيليار)، ٢٨٨، ٢٨٩.

الشيوعية والدين الإسلامي، ٤٧٣.

العين

العالم الإسلامي (ماكس مايرهوف)، ١١٥ ـ ١١٦.

عبقرية محمد (عباس محمود العقاد)، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٦٠، ٣٦١.

العجائب (جون ديفولبوت)، ٢٧١.

العرب (إدوار مونتيه)، ٣٦٨، ٣٦٩.

العرب (جان تورنون كرو)، ١٠٥، ١٠٦.

العرب (جان ليك)، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٤.

العرب (كاردفو)، ٣٥٣.

عرب إسبانية (رينهارت دوزي)، ٥١.

العرب في آسية (جان ميكائيلس)، ٣٩٤، ٣٩٥.

العرب في آسية (ماكس فان برشم)، ٢٨١.

العرب في الشرق، ٣٩٦.

العرب في عهد محمد (ميسمر)، ٣٧١، ٣٧٢.

عظماء التاريخ (جون أروكس)، ٣٣٧.

عظماء الشرق (ماكس)، ١٥٨.

عقيدة المؤمن، ٢٦٦.

العقيدة والشريعة في الإسلام (جولدتسهير)، ١٢٨.

علم النفس (ألفرد الفانز)، ٨٦، ٨٧.

عهد الإسلام (هنري لامنس)، ٨٨، ٩٥، ١١٤، ١١٥.

العهد الجديد (انظر: الإنجيل).

العهد القديم: (انظر: التوراة).

الفاء

الفتوحات العربية الكبرى (بان باغوت غلوب)، ٨٨، ١١١، ١١٢، ١٣٥،

١٣٦، ١٤٠، ١٤٨، ١٦١، ١٦٢، ١٦٦، ١٧١ــ١٧٣، ١٧٧، ١٨٢ــ ١٨٤، ١٨٦، ١٩٢، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٢٠، ٢٢١.
فروسية العرب المتوارثة (واصف باشا بطرس غالي)، ٣٤٨.
الفصول (فلوتن يان)، ١٦٢.
فكرة الحياة (هيليار بلارن)، ٣٣١.
فهرس المخطوطات الشرقية (دي سلان ماك غوين)، ٤٠٦.
في سبيل البعث (ميشيل عفلق)، ٢٥٧.
في ظل الكاتدرائية (فلاسكو ايفانيز)، ٤٤٥.
في المنهاج (رينيه ديكارت)، ٣٠٦.

القاف

قالوا في الإسلام (حسن الشيخ خضر الظالمي)، ٢٩٨، ٣٢٦، ٤٢٢، ٤٥٣، ٤٧٣، ٤٧٧.
قاموس الأكاديمية الفرنسية، ١٦.
القرآن الكريم، ١٥، ٢٠، ٢٢، ٥١، ١٠٩، ١١٠، ١١٨، ١١٩، ٢٤٢، ٢٤٩، ٢٦٩، ٢٧٠، ٣٠١، ٣٢٥، ٣٣٦، ٣٥٣، ٣٥٩، ٤٠٥، ٤٢٠، ٤٤٣.
القرآن الإنجيل المحمدي (سيزستن)، ٢٥٢.
قصة الحضارة (وول ديورانت)، ٤٦، ٣٩٦، ٣٩٧.

الكاف

الكتاب المقدس، ٤٥٨.
الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة (موريس بوكاي)، ٢٢، ٢٣.
الكوميدية الإلهية (دانتي)، ٢٥.
الكياسة الاجتماعية (وغسطون كريستا)، ٢٦٦، ٢٦٧.

اللام

لمحات من تاريخ العالم (نهرو)، ٤٥٤.

الميم

ما يعد به الإسلام (روجيه غارودي)، ٣٥، ٤٤٠ــ ٤٤٢.
المائة الأوائل (مايكل هارت)، ٢٤٣ــ٢٤٥.
محمد (فرانسوا فولتير)، ٢٦٤.
محمد رسول الله (إتيين دينيه)، ٣٤، ٣٦،

٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٥، ٩٠، ١١٩، ١٢٤، ١٣١، ١٤٥، ١٤٩، ٢٢٠، ٢٥٩، ٣٠٣، ٣٢٥، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٧٥، ٤٠٥، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٧١، ٤٨٣، ٤٨٥.

محمد عند علماء الغرب (الشيخ خليل ياسين)، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٨، ٢٨٦، ٣٠١، ٣٠٥، ٣٧٢، ٤٠٨، ٤٧٢، ٤٧٦.

محمد في الشرق (جيبون)، ٤٠٨.

محمد في الكتاب المقدس (دافيد بنجامين كلداني)، ٢٨٠، ٢٨١، ٣١١، ٣١٢.

محمد في المدينة (مونتجمري وات)، ١٧٥، ١٨٤، ١٨٧، ٢١٢، ٢١٤، ٢٢٥، ٢٥٠، ٢٩٠، ٣٠٢، ٣٤٣، ٣٨٥، ٤٢٤.

محمد في مكة (مونتجمري وات)، ٨٩، ٩٠، ١٣٢، ٣٩١.

محمد نابليون السماء (جان بروا)، ٢٥٣.

محمد والإسلام (بوسورث اسميث)، ٢٥٨، ٢٥٩.

محمد والإسلام (حنا داقنبرت)، ٣٨٩.

محمد والقرآن (إدوار مونتيه)، ٢٦٥.

محمد والقرآن (هيليار بلوك)، ٤٤٧، ٤٤٨.

محمد والقرآن (جون وانتبرت)، ٣٩٣.

محمد والقرآن (وث)، ٤٢٠.

المحمديات (ديسون)، ٤٢٦، ٤٢٧.

مدنيات الشرق (رينيه غروسيه)، ١١٧.

المدنية الشرقية (إدوار مونتيه)، ١١٧.

مذكرات سانت هيلين (نابليون)، ٤٤٢.

المستشرقون (نجيب العقيقي)، ١٥.

مسلمو الأندلس (راينهارت دوزي)، ٢٥٥.

مع الشرق (برتلمي سانت هيليار)، ٢٥٥.

مع الشرق والغرب (داز)، ٣٠١.

معارك العرب الكبرى (محمود الدرة)، ١٧٦، ١٨٣، ٢١٦، ٣١٤ـ٣١٧.

المعلم الأكبر (هربرت وايل)، ٤٢٨.

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (د. جواد علي)، ٥٥، ٥٦، ٥٨ـ٦٢.

مفكرو الإسلام (كادا دوفيك)، ٩٦.

مفكرو الإسلام (كار دي فو)، ٤١٨.

مقالة الطريقة (رينيه ديكارت)، ٣٠٦.

مقولات أرسطاطاليس (فردريك دي تريبي)، ٤٠١، ٤٠٢.

المكتبة الشرقية (دير بيلو)، ٢٤.

المكتبة الشرقية (برتلمي هربلو)، ٣٠٥.

ملخص وتكملة القواميس العربية (راينهارت دوزي)، ٢٧٧.

الموسوعة البريطانية، ٢٤٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٨٢.

الموسوعة الفرنسية الكبرى، ٣٨٩.

موسوعة لاروس الفرنسية، ٢٥٢.

الموسوعة الميسرة، ٤٧.

النون

النبي الحق، ٤٠٢ .

النظام السياسي في الإسلام، ٢٣١ ، ٤٢٣ ، ٤٥٢ .

نظرة جديدة في سيرة رسول الله (ك. جيورجيو)، ٧٧، ١٣١، ١٤٤، ١٤٥، ١٧٤، ١٧٩، ١٨٦، ١٨٨، ١٩١، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٩، ٢٢٤، ٢٢٩، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٦ .

نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى (ساذرن)، ٢٧ .

نفسية الرسول العربي (لبيب الرياشي)، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٧ .

النهضة الشرقية (ريمون شفاب)، ١٣ .

الهاء

هذا هو الإسلام، ٩١، ٢٥٤، ٢٦٠، ٣٢٩ .

الواو

وثائق كليني، ١٩ .

الوحي المحمدي (إدوار مونتيه)، ١١٨ .

الياء

يسوع في إحياء الغزالي (صموئيل زويمر)، ٢٥٤، ٣٠٦ .

فهرس المجلات والدوريات

الأزهر (مجلة)، ٣٨٧، ٤٦٧ .

البرق (صحيفة)، ٣٢٣ .

الثقافة الروسية (مجلة)، ٤٢٧ .

الذكرى (مجلة)، ٣٣، ٤٦٥، ٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧٢ .

الرفيق (مجلة)، ٢٦٤ .

العالم الإسلامي (مجلة)، ٤٦٧ .

العرفان (مجلة)، ٣٢٤، ٤٢٦ .

الفرقان (مجلة)، ٣٠٦ .

الكرمل (صحيفة)، ٣٦٤ .

المجلة الإسلامية (مجلة انكليزية)، ٣٦ .

المقتطف (مجلة)، ٧٦، ٤٠٢، ٤٧٦ .

الهلال (مجلة)، ٣٠٣، ٣٦٩، ٤٥٣ .

فهرس القبائل والشعوب وأصحاب المذاهب

الألف

الأتراك، ١٧٠ .
الأحباش، ٥٩، ١٣٢، ٤٨٣ .
الأحزاب (قوى)، ١٨٦ــ١٨٨، ١٩٤، ٢٩٤ .
الأحناف = الحنفاء، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٤ .
الأريوسيون (النصارى)، ٤٤٥ .
أسد (بنو)، (قبيلة)، ٤٧، ٢٢٧ .
إسرائيل (بنو)، ٧٧، ٢٢٣، ٢٧٥، ٢٧٨، ٣٩٩، ٤١٠ .
الإسلامية (الشعوب)، ٢٨١ .
الأقباط، ٤٤٥ .
أمية (بنو)، ٤٧ .
الأنصار، ١٤٧، ١٦٠، ١٦٣، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ٢٦٤ .
أهل الكتاب، ٤٦٢ .
الأوربيون، ٢٢، ٢٨، ٣٩١ .
الأوس، ١٤٧، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٨٩ .

الباء

البربر، ٤٤٤ .
بكر (بنو) قبيلة، ٢٠٠ .
البيزنطيون، ٥٨، ١٩٨، ٤٤١ .

التاء

تغلب (قبيلة)، ٢٢٧ .
تميم (بنو)، ٤٧ .

الثاء

ثقيف (قبيلة)، ١٤٦، ٢٠٤ــ٢٠٦ .
ثمود (قبيلة)، ٦٥ .

الجيم

جمح (بنو)، ٤٧ .

الحاء

حمير، ٩٨ .

الحنفاء = الأحناف، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٤ .

الخاء

خزاعة (قبيلة)، ٢٠٠ .

الخزرج، ١٤٧، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣ .

خيبر (قبيلة يهودية)، ١٨٥، ١٩١، ١٩٦ .

الراء

الروم، الرومان، ٥٨، ٨٥، ١٩٨، ٢٠٦، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٥٣، ٢٧٩، ٣٣٨، ٤٣٠ .

الزاي

زهرة (بنو)، ٤٧ .

السين

السريان، ٦٢ .

السكون (شعب)، ٣٦٢ .

سليم، بنو (قبيلة)، ١٧٧ .

سهم (بنو)، ٤٧ .

الشين

شيبة (بنو)، ٩٤ .

الصاد

الصابئة، ٦٢ .

الصليبيون، ٢٣٠، ٣٨٥ .

الطاء

طيء (قبيلة)، ٢٠٦ .

العين

عاد (قبيلة)، ٦٥ .

العجم: انظر: الفرس .

عدنان، ٩٨١ .

عدي (بنو)، ٤٧ .
العرب (الأمة)، ٦٤، ٢٣٣، ٤٢١، ٤٢٩ .
العربية (الشعوب)، ٢٨٠ .

الغين

غطفان (قبيلة)، ١٧٧، ١٨٥، ١٩٥ .

الفاء

الفرس (العجم)، ٢١٨، ٢٢٠، ٣٣١، ٣٣٨، ٤٣٠، ٤٤١ .

القاف

القرشيون، ١٧٥، ١٩٠ـــ١٩٢، ٢٠١، ٢٠٣ .
قريش (قبيلة)، ٤٣، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥٢، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٨١، ٨٢، ٩٥، ٩٦، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٩ـــ١٤٤، ١٤٦ـــ١٤٩، ١٦٣ـــ١٦٦، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٧، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٣ـــ١٩٥، ١٩٨ـــ٢٠٠، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٦٨، ٣٠٥، ٣١١، ٣٥٩، ٣٦١، ٤٠٦، ٤٣٠، ٤٥٧ .
قريظة (قبيلة يهودية)، ١٦٣، ١٨٥، ١٨٧، ١٩٠، ١٩٥، ٣٩٥ .
قينقاع (قبيلة يهودية)، ١٦٣، ١٧٥، ١٨٢ـــ١٨٤ .

الميم

مخزوم (بنو)، ٤٧ .
المسيحيون = النصارى، ١٠٩، ١١٢، ٢٢٨ـــ٢٣٠، ٢٤٤، ٢٥٩، ٣٥٧، ٣٨٥، ٣٩١، ٤١٠، ٤٢٦، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٨٤ .
المصطلق (بنو)، ٣٤٧ .
المكيون، ١٦٠، ١٧٥، ١٨٧، ١٩٥، ٢٠٢، ٣٠٦ .
المنافقون، ١٦٣، ١٩٥ .
المهاجرون، ١٦٠، ١٦٣، ١٧٢، ١٧٣ .

النون

النساطرة، ٤٤٤ .
النصارى . انظر : المسيحيون .
النصارى الأريوسيون، ٤٤٥ .
النصرانية (الجالية)، ٢٣٣ .

النضير (قبيلة يهودية)، ١٦٣، ١٨٢، ١٨٤، ١٩٥.
نوفل (بنو)، ٤٧.

الهاء

هاشم (بنو)، ٤٦، ٤٧، ٨١، ١٢٥، ١٤٠ـــ١٤٤، ١٤٦، ١٤٨، ٢٩٧، ٣٧١.
الهندوس، ٤٥٣.
هوازن (قبيلة)، ٢٠٤ـــ٢٠٦.

الياء

اليهود، ٥٨، ٧٦، ٨٣، ٩٧، ١٠٩، ١١٢، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٤ـــ١٩٦، ٢١٢، ٢١٣، ٢٢٨ـــ٢٣٠، ٢٩٦، ٣٥٦، ٣٥٧، ٤٤٠، ٤٥٧، ٤٨٣.
اليهودية (الجالية)، ٢٣٣.
اليونان (شعب)، ٨٥، ٩٧.

فهرس الأمكنة والمواقع

الممالك، الدول، البلدان، المدن، الجامعات

الألف

أحد (جبل)، ١٧٨، ١٧٩.

الأرض المقدسة، ٣٨٥.

إسبانية، ١٧، ١٨، ٣٨٥، ٤٤٥.

الإسلام (أمة)، انظر: الإسلامية (أمة).

الإسلام (دولة)، انظر: الإسلامية (دولة).

الإسلامي (العالم)، ١٢، ١٣، ٢٧٨، ٣٩٤، ٤٥٦، ٤٦٠، ٤٦٧.

الإسلامية (الأمة)، ١٦١، ٢١٢—٢١٤، ٢٧٠، ٢٧٨، ٢٨٠.

الإسلامية (الدولة)، ١٥٣، ١٥٥، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٦، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٧٦، ٢٨٥، ٢٨٧، ٣٥٨، ٣٨٧، ٤٥٧.

آسية، ٢٨١، ٣٢٤، ٣٩٤، ٤٤١، ٤٤٥، ٤٨٣.

آسية الصغرى، ٣٨٥.

آسية الوسطى، ٤٤١، ٤٤٤.

إشبيلية، ١٥.

إفريقية، ١٧، ١٨، ٣٨٥، ٤٤١، ٤٥٤، ٤٦٣، ٤٨٣.

أفينيون (جامعة)، ١٢.

إكسفورد (جامعة)، ١٢.

ألمانية، ١٨١.

أمريكة، ١٣، ٤٤١.

الأندلس، ١٥، ٢٥٥، ٤٤٠.

أندونيسية، ١٨.

انكلترة، ١٦، ٣٠، ٤٦٧.

أوروبة، ١١، ١٦، ١٨، ١٩، ٢٥، ٢٦، ٢٩، ٣٣، ٣٦، ٣٧، ٣٥١، ٣٨٣، ٣٨٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٥٤، ٤٦٣، ٤٧٦، ٤٨٣.

أوروبة الغربية، ٣٨٤.

أوطاس (موقع)، ٢٠٥.

إيران، ٤٤٤.

إيطالية، ١٧، ٥٠.

الباء

باريس، ١٥، ٩١.
باريس (جامعة)، ١٢.
البحرين، ٢٢٠، ٢٢٦.
بدر (قرية صغيرة قرب المدينـة)، ١٧٢، ١٨٠.
براغ (جامعة)، ٤٠٣.
بردفورد (مدينة انكليزية)، ٤٦٧.
البريطانية (الإمبراطورية)، ٤٤٧.
بصرى الشام، ٨٣، ٢١٨.
البلقاء، ٢٢٠.
بولونية (جامعة)، ١٢.
البيت الحرام، ١٤٠.
البيت المقدس (القدس)، ١٤٤، ٢٢٨.
بيروت، ٣٧٢.
بيزنطة، ٢٠٦.
البيزنطيـة (الامبراطورية)، ٢٠٦، ٣٣١، ٣٨٣، ٣٨٥، ٤٤٤.

التاء

التاج (نهر)، ٤٤٠.
تركية، ١٨.
تيماء (موقع)، ١٩٦.

الجيم

جنيف (جامعة)، ١٢.
جهينة (قبيلة)، ٣٧٧.

الحاء

الحبشة، ٨٥، ١٣٠ ــ ١٣٤، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٩٣.
الحجاز، ٥٨، ٧٨، ٨٥، ٤٠٧.
الحجر الأسود، ٤٨، ٤٩، ٩٤، ٩٥.
الحديبية (موقع على مسيرة يوم إلى الغرب من مكة)، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥.
حِراء (غار وجبل)، ٦٣، ٦٤، ٨٩، ٩٦، ٩٧، ١٠٥ ــ ١٠٧، ١١٣ ــ ١١٥.
حضرموت، ٢٢٦.
حمراء الأسد (منطقة)، ١٨١.
حنين (وادي)، ٢٠٣، ٢٠٤.
حيفا، ٣٦٤.

الخاء

خيبر (حصون)، ٥٨، ١٩٤، ١٩٧.

الدال

دار الإسلام، ٤٥٨.

دار الحرب، ٢١٢ .
دار الندوة، ٤٧، ١٤٨، ١٤٩ .
دلهي، ٤٩ .
دمشق، ١٧٠ .
دومة الجندل (موقع)، ١٨٣ .

الراء

روسية، ١٨١ .
الروم = دولة الروم، ٢٠٧ .
رومة، ١٥، ٣٢٥، ٤٤٥ .
الرومانية (الدولة) = دولة الروم، ٢٠٦، ٢٠٧ .
الرومانية (الامبراطورية)، ٥٩ .
الرومانية الشرقية (الامبراطورية)، ٢٤٣ .

الزاي

زمزم (بئر)، ٤٨، ٤٩ .

السين

سعد (بادية بني)، ٧٣، ٧٨، ٧٩ .
سلامانكة (جامعة)، ١٢ .
سورية، ١٨، ٨٥، ١٧٠، ٢٠٦، ٢٢١، ٢٥٠، ٣١٦، ٣٨٥، ٤٤٤ .

الشين

الشام (بلاد)، ١٦، ٤٧، ٥٠، ٦٣، ٧٣، ٧٦، ٨٣، ٨٤، ٨٥ــ٨٧، ١٧٨، ٢٠٧، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٨، ٣٨٦، ٤٠٤، ٤٣٠، ٤٣٩ .
الشرق. الشرق العربي، الشرق الإسلامي، ١٢، ١٤، ١٦ــ٢٠، ٢٥، ٢٨، ٣١، ٣٢، ٣٦، ٤٥، ٩٥، ٢٥٥، ٢٧٩، ٢٨٧، ٣١٣، ٣١٤، ٣٦٩، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٩٥، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٦٣ .
الشرق الأدنى، ١٢، ٤٤١ .
شرق الأردن، ١٩٧ .
الشرق الأقصى، ١٢ .
الشرق الأوسط، ١٢ .
الشرق العربي، انظر : الشرق .
الشرق الإسلامي، انظر : الشرق .
شعب أبي طالب، ١٤٠ــ١٤٢ .

الصاد

صقلية، ١٨، ٣٨٥ .
صنعاء، ٢١٨ .
الصين، ١٣، ١٤، ١٨، ٨٥، ٤٤١ .

الطاء

الطائف، ٨٥، ١٤٦، ٢٠٤، ٢٠٥.
الطور، ٩٧.
طوروس (سلسلة جبال)، ٤٤٤.

العين

العراق، ٢٥٠، ٤٣٠.
العرب (بلاد، جزيرة)، انظر: العربية (شبه الجزيرة).
العرب (الأقاليم)، انظر العربية (شبه الجزيرة).
العربية (الجزيرة)، انظر: العربية (شبه الجزيرة).
العرب، ٤٦، ٤٨، ٥٢، ٥٧، ٦٥، ٦٦، ٩٧، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١١٧، ١٦١، ١٧٠، ١٧٥، ١٩٠، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢١٥، ٢٢٢، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٥، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٨، ٣٠٢، ٣١٢، ٣١٥، ٣١٧، ٣٢٣، ٣٤٢، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٨، ٣٦٨، ٣٧٤، ٣٨٥، ٣٩٤، ٣٩٥، ٤٠٣، ٤٠٥، ٤١٠، ٤١٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٨، ٤٥٢، ٤٥٤ ٤٦٨، ٤٧١، ٤٧٨، ٤٨٣.
العربية (الامبراطورية)، ٤٤١.
العربية (شبه الجزيرة)، ١٦، ٤١، ٤٣، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٥٤ــ ٥٩، ٦٠ــ ٦٦، ٧٥، ٨٢، ١١٦، ١٤٦، ١٥٠، ١٦٩، ١٧٤، ١٨٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤ــ ٢١٦، ٢١٩، ٢٢١ــ ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣١ــ ٢٣٤، ٢٥٠، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧١ــ ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٨١، ٢٩١، ٢٩٨، ٣١١، ٣١٦ــ ٣٣١، ٣٣٩، ٣٤٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٩، ٤٤١.
العقبة (في بلاد الشام)، ٨٣.
العقبة (موقع بين مكة والمدينة) ١٤٧.
عُمان، ٢٢٦.
العيص (موقع على ساحل البحر الأحمر)، ١٩٩.
عينين (هضبة، مضيق)، ١٧٩، ١٨٠.

الغين

الغال الجنوبي، ١٧.
الغانج (نهر)، ٤٤٠.
الغرب، الغرب المسيحي، ١١، ١٢، ١٤،

١٧، ١٩، ٢٨، ٣١، ٣٢، ٣٦، ٣٨، ٤٥، ٢٢٢، ٢٧٩، ٣٠١، ٣١٣، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٩١، ٤٢٣، ٤٣٣، ٤٤١، ٤٦٣، ٤٦٨.
غزة، ١٧١.

الفاء

فارس، ١٨، ٢٠٦، ٢٢١، ٢٥٣، ٤٨٣.
الفارسية (المملكة)، ٢١٧.
فدك (موقع)، ١٩٦.
الفرس (بلاد)، ٤٤٤.
الفرس الساسانية (امبراطورية)، ٤٤٣.
فرنسة، ١٦، ١٨، ٣٠، ٤٨٣.
فلسطين، ٤٤٤.
الفولغة (نهر)، ١٨١.

القاف

القدس، انظر: بيت المقدس.
قرطبة، ١٥.

الكاف

الكرك، ٢٢٠.
الكعبة المشرفة، ٤٨ــ ٥٠، ٦٧، ٧٣، ٧٥، ٩٣ــ ٩٥، ١١٩، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٥، ١٤٠، ١٤١، ١٩٢، ٢٩٢، ٤٢٠.

اللام

لندن، ٣٣، ٣٤.
ليبية، ٤٤٤.
ليفربول، ٣٣.

الميم

ما بين النهرين، ٤٤٤.
المتوسط (البحر)، ٤٤١.
مجمع البحوث والآداب في باريس، ٩١.
المدينة (المنــورة)= يثرب، ٥٨، ٨٥، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٧ــ ١٦٤، ١٦٦، ١٦٩ــ ١٧١، ١٧٦، ١٨١، ١٨٣ــ ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢١١، ٢٢٢ــ ٢٢٦، ٢٦٤، ٢٩٠ــ ٢٩٣، ٢٩٧، ٣١١، ٣٥٨، ٣٧٤، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٤١، ٤٥٧.
مراكش، ٤٩.
المسيحي (العالم)، ٤٦١.
المسيحية (الدول)، ٤٥٨.

مصر، ١٨، ٥٠، ٢١٨، ٢٢٠، ٣٨٥، ٤٤٤، ٤٤٥.
مكة المكرمة، ٤٦، ٤٧، ٥٠، ٥٨، ٦٤، ٧٩، ٨٥، ٩٦، ٩٨، ١١٢، ١٢٤، ١٢٧، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤ـ١٣٧، ١٤٤، ١٤٦ـ١٤٨، ١٥٧ـ١٥٩، ١٦٤ـ١٦٦، ١٦٩ـ١٧٢، ١٧٥ـ ١٧٨، ١٨١، ١٩١، ١٩٢، ١٩٦ـ ٢٠١، ٢٠٣ـ٢٠٤، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٣١ ٢٦٣، ٢٨٩، ٢٩١، ٣١١، ٣١٢، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٦٦، ٣٩٧، ٤٣٢، ٤٤١.
مناة، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٨.
مؤتة (موقع)، ١٩٨.
مونت كاسيو، ١٩.
الموصل، ٦٣.

النون

النجارية (محلة)، ٢٢٥.
نجران، ٥٩، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٢٨.
النوبة، ٤٤٤.

الهاء

هارفرد (جامعة)، ٤٧٣.
الهند، ١٨، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٥٢، ٣٦٤.
الهندي الشرقية، ٤٦٣.
الهند (المحيط)، ٤٤١.

الياء

اليابان، ٤٦٣.
يثرب، انظر: .. المدينة.
اليمامة، ٢٢٧.
اليمن، ٤٧، ٥٨، ٦١، ٨٥، ٢٠٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٢٧.
اليونان، ٨٥.

فهرس المعارك والوقائع والأحداث والعصور

أحد (معركة)، ١٧٥، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ٢٠٠، ٢٢٤، ٣١٢، ٣١٣، ٣٦٥.

الأحزاب (معركة)، انظر: الخندق (معركة).

الإسراء والمعراج، ١٤٤ ـ ١٤٦.

الإغريقية (العصور)، ٤٥٦.

بدر (موقعة)، ١٦٦، ١٦٩، ١٧١، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٨٢، ٣١٢، ٣٥٩.

البعثة، ١٠١، ١٠٣، ١٠٥.

بيعة الرضوان، ١٩٢، ١٩٣.

بيعة العقبة، ١٤٧.

تبوك (غزوة)، ٢٠٦، ٢٠٧، ٣١٦، ٣٦٧.

الثورة الفرنسية، ٤١٢.

الجاهلية، ٤٣، ٥٢، ٥٥، ٥٧، ٦٠، ١٣٣، ١٥٩، ١٦٠، ٢٠٠، ٣٢٣، ٤١٨، ٤٢٥، ٤٢٧، ٤٣٠.

حجة الوداع، ٢٣١.

الحديبية (صلح)، ١٩٠، ١٩٣ ـ ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٠، ٢١٥، ٢١٨، ٢٨١.

الحروب الصليبية، ١٩، ٢٥، ٢٧، ٣١، ٣٢، ٣٦، ١١٧، ٢٢٩، ٣٧١، ٣٨٣، ٣٨٦، ٤٠٩.

حنين (غزوة)، ٢٠٢، ٣١٤.

الخندق (معركة) = معركة الأحزاب، ١٦٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٧، ٢١٦، ٢٢٤، ٣١٣.

خيبر (موقعة)، ١٩٥.

الرومانية (العصور)، ٤٥٤.

الطائف (حصار)، ٢٠٢.

عام الفيل، ٧٥.

عام الوفود، ٢٢٣ ـ ٢٢٥، ٢٢٧.

عصر النهضة، ١٤ .

العصر الوسيط، ٢٨ .

القرون الوسطى، ٣٨٤، ٣٨٦، ٣٩١، ٤٠٩، ٤٤٠، ٤٥٩ .

مكة (فتح)، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٤، ٣٥٩ .

مؤتة (غزوة)، ١٩٧، ٣٥٤ .

الهجرة، ١٥١، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٧ــ١٥٩، ١٦٠ .

فهرس الديانات والمذاهب

الأحناف (حركة): انظر: الحنفية.

البوذية (ديانة)، ٢٦.

الحنيفية (حركة الأحناف)، ٤٣، ٥٥، ٥٦، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٢٦٣، ٢٧٢.

الزرادشتية، ٢٣٠.

الصوفية، ٣٤.

العيسوية، انظر: المسيحية.

الكاثوليكية (الكنيسة)، ٢١، ٢٢، ٢٦.

المسيحي (الدين)، انظر: المسيحية.

المسيحية = (العيسوية، النصرانية)، ٢٢ــ ٢٤، ٤٣، ٥١، ٥٦، ٥٧، ٥٩ــ ٦١، ٦٥، ٦٦، ٨٤، ٢٤٥، ٢٧٠ــ ٢٧٢، ٣٦٢، ٣٨٥، ٣٩٤، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٤٢، ٤٥١، ٤٥٦، ٤٧٠.

المسيحية (الكنيسة)، ٣٨٦.

المعتزلة، ٣٤.

الموسوية، ٥١.

النصرانية، انظر: المسيحية.

الهندوكية، ٢٦.

الوثنية، ٢٤، ٤٣، ٥٤ــ ٥٦، ٦٥ــ ٦٩، ٧٥، ٨١، ٩٦، ٩٧، ١١٦، ١١٧، ١٢٦، ١٣٢، ١٣٣، ٢١١، ٢٦٦، ٢٦٩.

اليهودية، ٤٣، ٥٧ــ ٦١، ٦٣، ٦٦، ١٦١، ٢٧٠، ٢٧٢، ٤٥٦.



فهـرس الكتـاب

كلمة الإهداء.. ٩

مقـــدمـــة

الاستشراق والإسلام................................ ١١ــ ٣٨

ــ بداية الاستشراق.................................. ١٢

ــ أوروبة المسيحية والشرق الإسلامي.................. ١٦

ــ الاستشراق الكنسي والحروب الصليبية................ ٢١

ــ محاولات استشراقية جادة لدراسة الإسلام وفهمه....... ٣٠

ــ ظاهرة إيمان عدد من المستشرقين بالإسلام............ ٣٣

القسم الأول

اضاءات استشراقية على السيرة النبوية................. ٣٩ ــ ٢٣٤

مـدخــل :

الجزيرة العربية عشية البعثة النبوية................... ٤٣ ــ ٦٩

ــ عظمة أصحاب الرسالات............................ ٤٥

ـــ الجزيرة العربية والحدث الكوني العظيم ٤٦
ـــ النفوذ السياسي والاقتصادي والروحي لقريش ٤٧
ـــ الكعبة المشرفة والحجر الأسود وبئر زمزم ٤٨
ـــ مكة ومكانتها في جزيرة العرب ٤٩
ـــ لغتنا العربية البنت الشرعية للهجة قريش ٥٠
ـــ شبه الجزيرة العربية قبيل البعثة النبوية ٥٢
ـــ الاتجاهات الفكرية والدينية في جزيرة العرب قبيل البعثة.............. ٥٤
ـــ الوثنية في شبه الجزيرة العربية ٥٤
ـــ اليهودية والمسيحية في شبه الجزيرة العربية ٥٧
ـــ الحنيفية في شبه الجزيرة العربية ٥٩
ـــ الإسلام الحدث الكوني العظيم ٦٥

الباب الأول

من مولده ﷺ إلى مبعثه .... ٧١ ـــ ٩٨

ـــ مولده ﷺ ٧٥
ـــ علامات النبوة في مولده ٧٦
ـــ طفولته في بادية بني سعد ٧٨
ـــ رعاية جده إياه وتوسمه الخير به ٨١
ـــ كفالة عمه إياه ٨٣
ـــ رحلته الأولى إلى بلاد الشام ولقاؤه ببحيرا الراهب ٨٣
ـــ الرحلة الثانية إلى بلاد الشام ٨٥
ـــ خبر لقائه مع ينسطور الراهب ٨٦
ـــ زواج الرسول من خديجة ٨٦
ـــ الأمين المثل الأعلى في الاستقامة والأمانة ٩٠

ـــ الأمين وبناء الكعبة ٩٥
ـــ مقدمات النبوة وسر الوجود ٩٦

الباب الثاني

من البعثة إلى الهجرة .... ١٠١ ـــ ١٥٠

الفصل الأول

البعثة .... ١٠٣ ـــ ١٢١
ـــ الوحي وبدء البعثة ١٠٥
ـــ طبيعة محمد الروحية ١١٠
ـــ الوحي في كتب الحديث والسيرة ١١٢
ـــ الوحي صوت الحقيقة الأبدية ١١٤
ـــ صلاحية الرسالة ووحدانيتها ١١٦

الفصل الثاني

الدعوة الإسلامية في مسيرتها الكفاحية .... ١٢١ ـــ ١٥٠
ـــ المسلمون الأوائل وسرية الدعوة ١٢٣
ـــ علانية الدعوة وعداء قريش للإسلام ١٢٤
ـــ اضطهاد قريش للمسلمين الأوائل ١٢٥
ـــ الصراع بين الوثنية والتوحيد ١٢٦
ـــ كفاحية الرسالة الإسلامية ١٢٦
ـــ رسالة الإسلام وخطرها على السلطة القرشية ١٢٧
ـــ الأثر التاريخي للدعوة الإسلامية ١٢٧
ـــ الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ١٢٨

ـــ الهجرة إلى الحبشة........................ ١٣٠
ـــ نقد خبر «الغرانيق»........................ ١٣٤
ـــ اسلام حمزة وعمر........................ ١٣٩
ـــ النصر المرحلي في مسار الدعوة الإسلامية........................ ١٤٠
ـــ حصار المسلمين في شعب أبي طالب........................ ١٤٠
ـــ ثبات الرسول على المبدأ........................ ١٤٢
ـــ مصاعب على طريق الدعوة........................ ١٤٢
ـــ طرد الرسول من قريش........................ ١٤٣
ـــ الاسراء والمعراج........................ ١٤٤
ـــ اتصال الرسول بقبائل العرب وخروجه إلى الطائف........................ ١٤٦
ـــ بيعة العقبة........................ ١٤٧
ـــ طلائع الهجرة الإسلامية........................ ١٤٧
ـــ خطة قريش لهدر دم الرسول........................ ١٤٩

الباب الثالث

من الهجرة إلى وفاته ﷺ........................ ١٥١ ـــ ٢٣٤

الفصل الأول

الهجرة وإقامة الدولة الإسلامية........................ ١٥٥ ـــ ١٦٦
ـــ الهجرة إلى المدينة........................ ١٥٧
ـــ الدلائل الإيمانية للهجرة........................ ١٥٩
ـــ معالم الدولة الإسلامية الأولى........................ ١٦٠
ـــ عوامل انتشار الدعوة الإسلامية........................ ١٦١
ـــ التفوق الروحي والزمني للرسول........................ ١٦٢

ـ أعداء الإسلام في المدينة.. ١٦٢
ـ بدء الصراع مع قرشيي مكة ١٦٣
ـ الصراع الاقتصادي.. ١٦٤
ـ الحصار الاقتصادي المضاد...................................... ١٦٥
ـ الإذن بالقتال وبدء العمليات العسكرية ١٦٦

الفصل الثاني

حروب الدعوة الإسلامية.................................. ١٦٧ ـ ٢٠٧
ـ المدينة قاعدة الثورة الإسلامية...................................... ١٦٩
ـ العمليات العسكرية السابقة على معركة بدر ١٦٩
ـ موقعة بدر ١٧١
ـ عبقرية الرسول العسكرية في بدر ١٧٣
ـ سلسلة العمليات العسكرية ما بين بدر وأحد.......................... ١٧٥
ـ اجلاء يهود بني قينقاع عن المدينة.................................. ١٧٥
ـ العمليات التأديبية ضد القبائل العربية المناوئة للإسلام ١٧٦
ـ معركة أحد.. ١٧٧
ـ الحركات العسكرية في أعقاب أحد وقبل الخندق........................ ١٨١
ـ اجلاء يهود بني النضير.. ١٨٢
ـ العمليات العسكرية ضد القبائل المعادية للإسلام....................... ١٨٣
ـ موقعة الخندق أو الأحزاب....................................... ١٨٤
ـ تصفية آخر معاقل اليهود في المدينة ١٨٨
ـ صلح الحديبية.. ١٩٠
ـ فتح خيبر... ١٩٤
ـ غزوة مؤتة.. ١٩٧
ـ غزوة ذات السلاسل ١٩٨

ــ فتح مكة ١٩٨
ــ غزوة حنين وحصار الطائف ٢٠٤
ــ عزوة تبوك ٢٠٦

الفصل الثالث

سياسة الرسول التوحيدية .... ٢٠٩ ــ ٢٣٤
ــ الرسول ورسالة التوحيد ٢١١
ــ الأمة الإسلامية.. ٢١٢
ــ كسب القبائل العربية بالمعاهدات السياسية ٢١٣
ــ رسل محمد ﷺ إلى الملوك وعالمية الإسلام.............. ٢١٨
ــ عام الوفود وانتشار الإسلام في جزيرة العرب ٢٢٣
ــ الرسول وسياسة التسامح الديني......................... ٢٢٧
ــ حجة الوداع... ٢٣١

القسم الثاني

عبقرية الرسول ومناقبه.................................. ٢٣٥ ــ ٣٧٥

الفصل الأول

عظمة الرسول وعبقريته المتكاملة .... ٢٣٩ ــ ٢٦٠
ــ الاستشراق بين الانصاف والجحود ٢٤١
ــ أول المئة الأوائل في التاريخ ٢٤٣
ــ أعظم العظماء وفوق كل عبقرية.......................... ٢٤٥
ــ مكامن عظمته عليه السلام متعددة الجوانب.............. ٢٤٧
ــ عظمة الرسول ومواهبه المتعددة.......................... ٢٤٩

ـ الشخصية الثورية الانقلابية........................ ٢٥١
ـ المناضل الفذ.. ٢٥٢
ـ العبقرية المتكاملة.................................. ٢٥٣
ـ النبي الملهم والإنسان.............................. ٢٥٣
ـ المعرفة الواسعة والمقدرة الفذة..................... ٢٥٤
ـ نبوغ وذكاء وحسن سياسة............................ ٢٥٤
ـ رجل المثالية والخيال............................... ٢٥٥
ـ نبي العالم والإنسان الكامل......................... ٢٥٥
ـ محمد القدوة والرمز.................................. ٢٥٦
ـ رسول الإنسانية الجديدة............................. ٢٥٦
ـ مؤسس سياسة غيرت مجرى التاريخ..................... ٢٥٨
ـ عظيم في دينه عظيم في مناقبه........................ ٢٥٨

الفصل الثاني

محمد والقيادة الدينية................................ ٢٦١ ـ ٢٨٢
ـ الرسول ﷺ وميوله الفطرية لديانة التوحيد.............. ٢٦٣
ـ الرسول والروح الكفاحية في نشر الإسلام.............. ٢٦٣
ـ الطبيعة الدينية للرسول.............................. ٢٦٤
ـ الهدم والبناء.. ٢٦٦
ـ الإسلام جاء متمماً للرسالات السابقة.................. ٢٦٦
ـ الإصلاح الديني من الوثنية إلى الوحدانية............. ٢٦٧
ـ الإصلاح الديني انطلاقاً من أن الإسلام دين ودولة...... ٢٦٧
ـ الوحدانية جوهر الإسلام.............................. ٢٦٨
ـ من الوثنية الصماء إلى الوحدانية المتنورة............. ٢٦٨
ـ الرسول الشخصية الدينية الأوفر نجاحاً................. ٢٦٩

ـــ الإصلاح الإسلامي وخير الدنيا والآخرة........................ ٢٧٠
ـــ الإصلاح الديني والمبدأ الراسخ........................ ٢٧١
ـــ صلاحية الإسلام لكل الأمم........................ ٢٧٣
ـــ عالمية الرسالة الإسلامية........................ ٢٧٣
ـــ انسان فوق البشر ونبي من أنبياء الله........................ ٢٧٦
ـــ الرسول والحرية الدينية........................ ٢٧٧
ـــ الحرية الدينية والإخاء........................ ٢٧٧
ـــ عظمة الرسول وجلال نبوته........................ ٢٧٨
ـــ عبقرية النبي واستمرارية الرسالة........................ ٢٧٩
ـــ خدام الله والإنسانية........................ ٢٨٠

الفصل الثالث

محمد والقيادة السياسية........................ ٢٨٣ ـــ ٢٩٨
ـــ القائد والمشرع........................ ٢٨٥
ـــ حكمة وبعد نظر........................ ٢٨٦
ـــ سداد السياسي العاقل ونورانية النبي الصادق........................ ٢٨٦
ـــ رجل فكر وحكم وسلم وحرب........................ ٢٧٨
ـــ الكفاءة العظيمة والقيادة الفذة........................ ٢٨٨
ـــ محمد الحاكم العادل والإداري البارع........................ ٢٨٨
ـــ القيادة والتشريع بين مكة والمدينة........................ ٢٩١
ـــ الرسول ومجتمع الحرية والعدالة والمساواة........................ ٢٩٤
ـــ الرسول ومبادىء الحرية الفكرية........................ ٢٩٤
ـــ الحرية الإنسانية........................ ٢٩٥
ـــ الرسول وإقامة العدالة والمساواة........................ ٢٩٥
ـــ القائد السياسي والحاكم الإنسان........................ ٢٩٧

الفصل الرابع

محمد الداعية والقيادة الفكرية .... ٢٩٩ ــ ٣٠٧
ــ الرسول ﷺ مفكراً ٣٠١
ــ رجل فكر وعمل ٣٠٣
ــ الداعية واكتساب الأنصار ٣٠٣
ــ فصاحة الرسول وبلاغته ٣٠٤
ــ أفصح من نطق بالضاد ٣٠٤
ــ خلود العربية وعظمة الرسول ٣٠٥
ــ بلاغة المنطق وسداد الرأي ٣٠٧

الفصل الخامس

محمد والقيادة العسكرية .... ٣٠٩ ــ ٣١٧
ــ العبقرية والفداء ٣١١
ــ القائد العسكري اللامع والمشرع العظيم ٣١١
ــ العبقرية العسكرية في وضع الخطط ٣١٢
ــ النبوغ الفكري في استنباط الخطط وتنفيذها ١١٣
ــ شخصية الرسول وتحويل الهزيمة إلى نصر ٣١٤
ــ أعظم القادة الدينيين ٣١٤
ــ الدروس العسكرية المستقاة من حروب الرسول ٣١٥

الفصل السادس

محمد والمعجزات .... ٣١٩ ــ ٣٣١
ــ معجزات الرسول في المنجزات الحقيقية ٣٢٣
ــ القرآن معجزة الرسول الخالدة ٣٢٤

ـــ بداهة الرسالة ٣٢٤
ـــ حقيقة مآثر الرسول ٣٢٥
ـــ المعجزات بين الحقيقة التاريخية والمخيلة الشعبية ٣٢٦
ـــ دين الفطرة ونفي الخوارق ٣٢٨
ـــ المعجزة الإلهية ٣٢٩
ـــ عالمية المعجزة المحمدية ٣٣٠

الفصل السابع

أخلاق الرسول ومناقبه .... ٣٣٣ ـــ ٣٧٥
ـــ كان خلقه القرآن ٣٣٥
ـــ الرسول القدوة الحسنة والمثل الأعلى ٣٣٦
ـــ الجدية والبعد عن العبث واللهو ٣٣٧
ـــ براءة طبعه ٣٣٨
ـــ كرم الأخلاق وحسن العشرة وصحة الحكم ٣٣٨
ـــ البساطة في حياة الرسول ٣٣٩
ـــ القناعة والرضى ومسألة الشهرة ٣٤٠
ـــ الزهد والتقشف والابتعاد عن الشهوات ٣٤١
ـــ الرسول والمرأة ٣٤٢
ـــ نكرانه الذات ٣٥٠
ـــ وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين ٣٥٠
ـــ رقته وسماحة طبعه ٣٥١
ـــ رجاحة عقله ٣٥٣
ـــ رقة قلبه وأخو الإنسانية العظيم ٣٥٣
ـــ محبته أصدقاءه ٣٥٥
ـــ رحمته بالأعداء ٣٥٦

ـ الرحمة والعنف ٣٥٧
ـ ليس الإرهاب من الخلق المحمدي ٣٥٩
ـ العفو عند المقدرة ٣٦٤
ـ مضاء عزيمته ﷺ وثباته على المبدأ ٣٦٧
ـ خلوص في النية وانصاف بالحكم وحفاظ على الذمام ٣٦٨
ـ الصدق والأمانة ٣٦٩
ـ عظيم في أخلاقه وسيد الأنبياء في شريعته ٣٧٢
ـ وإنك لعلى خلق عظيم ٣٧٢
ـ محمد المثل الكامل ٣٧٣
ـ كتلة فضائل مجسمة لا مثيل لها ٣٧٥

القسم الثالث

الرسول ورسالة الإسلام .... ٣٧٧ ـ ٤٨٥

الباب الأول

صدق الرسول وصحة الرسالة .... ٣٨١ ـ ٤١٤

ـ قيام الدولة الإسلامية وبدء الصراع الديني بين المسيحية والإسلام...... ٣٨٣
ـ الاستشراق الأداة الفكرية للإمبريالية ما بين الشرق والغرب ٣٨٣
ـ الكنيسة المسيحية معقل الهجوم على الإسلام ٣٨٤
ـ النقد الاستشراقي لمواقف الكنيسة المتعنتة ٣٨٦
ـ وما هو إلاّ بشر يوحى إليه ٣٨٦
ـ محمد والحقيقة التاريخية ٣٨٨
ـ شهرة الرسول في أوروبة عهد القرون الوسطى ٣٨٩
ـ صحة الرسالة وصدق الرسول ٣٩٠

ــ سقوط أدلة اتهام رسول الله ٣٩٣
ــ ما كان محمد مشعوذاً ولا ساحراً ٣٩٤
ــ دفع تهمة الصرع والهستيريا عن الرسول........................ ٣٩٥
ــ ليس للكذب قوة الصدق ٣٩٩
ــ حقيقة الوحي ٤٠٣
ــ آخر الرسل ٤٠٥

الباب الثاني

الرسول ورسالة الإصلاح........................ ٤١٥ ــ ٤٣٣
ــ الإسلام والانقلاب الاجتماعي ٤١٧
ــ عظمة الإصلاح في صلاح المجتمع........................ ٤١٧
ــ دين الحق والخير ٤١٨
ــ الرسول أعظم المحسنين للبشرية ٤١٩
ــ المعلم الأكبر والمصلح الأعظم ٤٢٠
ــ جوانب الإصلاح المتعددة ٤٢١
ــ عظمة الإصلاح الإسلامي ٤٢١
ــ المسألة الاجتماعية في الإسلام........................ ٤٢٢
ــ الرسول وإحياء الأخلاق الحميدة والفضائل الحسنة ٤٢٤
ــ بداية عصر النور والعلم والمعرفة ٤٢٥
ــ الروح الإصلاحي الإسلامي والمجتمعات المعاصرة........................ ٤٢٦
ــ رؤية شعرية للإصلاح الإسلامي........................ ٤٢٦
ــ فضل الرسول على العرب........................ ٤٢٧
ــ المؤسس الأول لرابطة العروبة........................ ٤٣٠
ــ واضع أسس الدولة الإسلامية الأولى ٤٣١
ــ جاذبية الرسول ٤٣١

الباب الثالث

عالمية الرسالة الإسلامية .... ٤٣٥ ــ ٤٨٥

الفصل الأول

الرسالة الإسلامية : نوعيتها وسر انتشارها .... ٤٣٧ ــ ٤٤٨

ــ هوية الرسالة العالمية ٤٣٩

ــ الفتح الإسلامي ونشر روح الحضارة ٤٤٠

ــ سر جاذبية الإسلام ٤٤٠

ــ رسالة الإسلام النوعية ٤٤٢

ــ رسالة تحرير لا استعباد ٤٤٤

ــ الفتح الإسلامي والحريات الدينية ٤٤٥

ــ الديناميكية الداخلية لرسالة الإسلام ٤٤٥

ــ الرسالة والوحدة الداخلية المتماسكة ٤٤٧

ــ تقدمية الرسالة الإسلامية ٤٤٧

الفصل الثاني

الأخوة الإسلامية بين الأجناس والشعوب .... ٤٤٩ ــ ٤٦٤

ــ لا تفرقة عرقية أو جنسية في الإسلام ٤٥١

ــ الأخوة الإسلامية وسر انتشار الرسالة ٤٥١

ــ أثر الأخوة الإسلامية على الشعوب ٤٥٢

ــ الإخاء والمساواة ٤٥٢

ــ الإخاء وفلسفته الاجتماعية في الإسلام ٤٥٣

ــ ولادة المبدأ الديمقراطي الجديد ٤٥٤

ـــ النزوع الديمقراطي وإزالة الفوارق الجنسية ٤٥٤

ـــ أصالة النظام الإسلامي ٤٥٥

ـــ التعايش الأخوي ٤٥٧

ـــ المجتمع الإنساني المنفتح ٤٥٩

ـــ الإسلام وصياغة القوانين الدولية ٤٦٠

ـــ العدل واحترام الإنسان وشخصنة التشريع ٤٦١

ـــ لا إكراه في الدين ٤٦١

ـــ تجربة الإسلام التاريخية ومستقبل الإنسانية ٤٦٢

الفصل الثالث

رسالة الإسلام ومستقبل الإنسانية .... ٤٦٥ ـــ ٤٨٥

ـــ الدور العالمي لرسالة الإسلام ٤٦٧

ـــ الإسلام دين الإنسانية ٤٦٧

ـــ نحو نظام عالمي جديد ٤٦٨

ـــ الإسلام والمشروع الحضاري الإنساني المتكامل ٤٦٩

ـــ صلاحية الإسلام في تقديم الحلول الناجعة لمشاكل الإنسانية ٤٧٠

ـــ صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ٤٧١

ـــ لا جمود في رسالة الإسلام ٤٧٢

ـــ قابلية الإسلام للتطور واستيعاب احتياجات العصر ٤٧٢

ـــ أصالة النظام الإسلامي ومرونته في استيعاب التحولات الاجتماعية ٤٧٤

ـــ انتصار الإسلام مستقبلاً لصلاح الإنسانية وخير العالم ٤٧٦

ـــ الخيار الإسلامي ٤٧٧

ـــ مهمة الإسلام التاريخية ٤٧٨

ـــ الثقافة الإسلامية بين النهوض والتخلف ٤٧٩

ـــ أفضلية المنهاج الإسلامي ٤٨٠

ـ إسلام المستقبل ودور المسلمين في العلاقات الدولية ٤٨١
ـ ميزات الإسلام ورسالته العالمية ٤٨٢

الفهارس العامة .... ٤٨٧ ـ ٥٣١
ـ فهرس الأعلام ٤٨٩
ـ فهرس الكتب ٥١٠
ـ فهرس المجلات والدوريات ٥١٨
ـ فهرس القبائل والشعوب ٥١٩
ـ فهرس الأمكنة والمواقع ٥٢٣
ـ فهرس المعارك والوقائع والأحداث ٥٢٩
ـ فهرس الديانات والمذاهب ٥٣١
فهرس الكتاب .... ٥٣٣ ـ ٥٤٧

